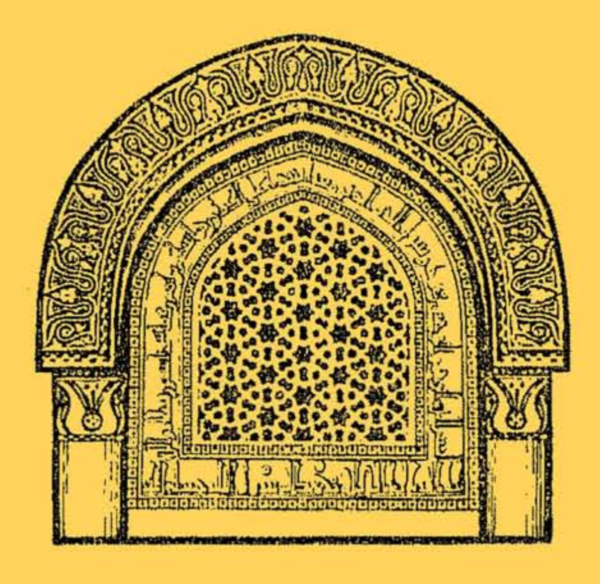
مساجد القاهرة ومدارسها

تأليف

دكتور احمد فكرى
أستاذ تاريخ الحضارة الأسلامية
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

المدخل



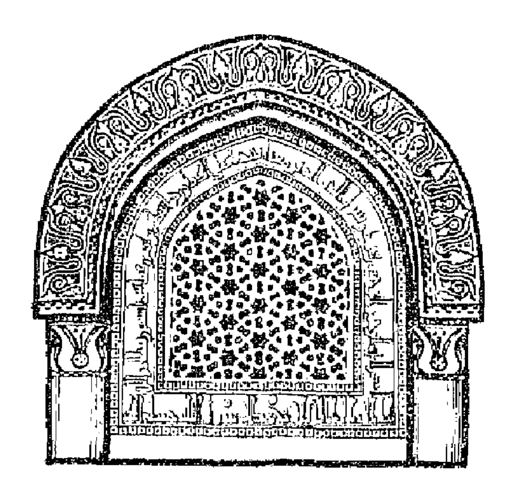
دار المعارف بمصر

مساجد القاهرة ومدارسها

تأليف

دكتور احمد فكرى
أستاذ تاريخ الحضارة الإسلامية
بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

المدخل



دار المعارف بمصر

مطبعة محمد داود بوسكو
ت : ٢٧٥٩٣ اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

انما يعمر مساجد الله من آمن بالله

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله)

في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه

(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)

(قرآن كريم)

(كتابة كوفية منقولة عن المسجد الطولوني)

تصـــدير

كنت أطمع ، فى شهر أغسطس ١٩٣٦ ، أن يكون كتاب « المسجد الجامع بالقيراون » مقدمة لمجموعة دارسات وبحوث أثرية أنشرها عن « مساجد الأسلام ». غير أن ظروفى المادية لم تسمح بتحمل نفقات طبع هذه البحوث ، وإخراجها فى المظهر الفنى المقبول . وذلك بالأضافة إلى أنى لاقيت من الأجانب المسيطرين حينئذ على الدراسات الأثرية الأسلامية فى مصر صنوفا من الحقد والاضطهاد كادت تصرفنى عن متابعة دراساتى وبحوثى .

وانبثق نور عهد مبارك جديد ، وكانت قد تجمعت بين يدى ، من دراسات ربع قرن ، فصول كتابين ، أولها عن « آثار القاهرة » ، والثانى عن « آثار المغرب والأندلس » .

ورأيت أن أقدم للطبع الكتاب الأول ، غير أن الظروف المادية اضطرتنى إلى قصره على « مساجد القاهرة ومدارسها » وتجزئته إلى أجزاء خمسة ، الجزء الأول منها هو هذا « المدخل » ، والأجزاء الأربعة الأخرى تتناول دراسة هذه الآثار منذ نشأة القاهرة فى سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) إلى انتهاء دولة المماليك البحرية فى سنة ٧٨٤ (١٣٨٢م) .

وقد ظهرت باللغتين الانجليزية والفرنسية مؤلفات هامة مفصلة عن مساجد القاهرة ، أما باللغة العربية ، فقد ظهرت ثلاثة كتب جيدة ، ولكنها موجزة مبسطة . وظهر كتابان آخران ، الأول فى سنة ١٩٤٦ ، والثانى قبيل ثورة مصر فى شهر يوليو ١٩٥٢ . وليست لهذين الكتابين قيمة علمية أو أثرية تذكر ، بالرغم من الأموال الطائلة التى صرفتها خزانة الدولة فى العناية بطبعها وإخراجها فى مظهر فخم أنيق ، إذ أنه لم يكن يقصد من نشرها غير تمجيد ملك مصر المخلوع .

أما الكتاب الذى يسرنى أن أقدم اليوم منه هذا « المدخل » فهو كتاب مفصل ، حاولت أن ألتزم فيه المنهج العلمى ، وأن أجعل منه مرجعا وافيا فى موضوعه.

واقتضت هذه الغاية أن يكون « المدخل » مطولا . إذ أن معظم ما نشر حتى اليوم باللغة العربية فى علم الآثار العربية الأسلامية، بالرغم من أهميته، لم يتناول دراسة هذه الآثار فى جملتها ، وكان إما تفصيلا جزئيا ، أو موجزاً مقتضبا ، أو معرباً منقولا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، كان ما نشر باللغات الأوربية يحوى بعضاً من المزاعم والأخطاء التى يجب تفنيدها وردها إلى الحقائق. وسيرى القارىء أن علماء الآثار الأسلامية الأجانب قد اختلفت وجهات نظرهم وكذلك تشعبت آراؤهم فى مصادر النظم المعمارية للآثار العربية الأسلامية . ولهذا فقد حاولت أن أضع المبادىء الرئيسية لدراسة هذه الآثار؛ ورأيت من واجبى ، قبل استعراض « مساجد القاهرة » ، أن أحاول إيضاح نظم المساجد الجامعة عامة ، وأسجل نتائج أبحاثى عن أصولها وأحكامها .

وهذا كله قد جعل « المدخل » لا يقتصر على ذكر المساجد التى أقيمت فى عواصم الديار المصرية قبل إنشاء القاهرة، بل امتد إلى استعراض النظم التخطيطية لجميع المساجد العتيقة المعروفة ، وشرح النظريات المرتبطة بهذه النظم.

وإنى أرجو أن يحظى هذا « المدخل » بالتقدير الذى يشجع « دار المعارف بمصر» على المضى فى طبع الأجزاء التالية له . وانتهز هذه الفرصة لأقدم الشكر لأصحاب هذه الدار على تحملهم نفقات الطبع ، كما أشكر الأستاذ يوسف شكرى ، رئيس الأدارة الفنية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، على المعاونة التى قدمها لى فى تنفيذ كثير من الرسوم الهندسية والزخرفية .

ولعلى قد وفقت ، وأسأل الله دوام التوفيق .

أحمد فكرى

أستاذ تاريخ الحضارة الأسلامية
بكلية الآداب ، جامعة الأسكندرية

الأسكندرية فى ١٧ رجب ١٣٨١
٢٥ ديسمبر ١٩٦١

بيان بموضوعات الكتاب

صفحة

صفحة

(ملحوظة : ستنشر الفهارس الأبجدية بعون الله فى نهاية الجزء الثانى)

الباب الأول

دراسات الآثار العربية الاسلامية

الفصل الأول

دراسات العلماء والمستشرقين

١ ــ اهتمام العلماء والمستشرقين بدراسة الآثار العربية
٢ ــ مآخذ على بحوث المستشرقين .

الفصل الأول

دراسات العلماء والمستشرقين

— ١ —

اهتمام العلماء والمستشرقين بدراسة الآثار العربية

أثارت العمارة والفنون الاسلامية فى الدول العربية اهتمام الرحالة الأوروبيين والمستشرقين منذ قرنين ، وكتبوا فيها مجلدات ضخمة ، ونشروا لها صورا رائعة . ومن ذلك ما نشره (لابورد) فى سنتى ١٨٠٣ و ١٨١٢ (١) ، و (مورفى) فى سنة ١٨١٣ (٢) . وكذلك نشر (جيرو ده برانجى) مجلدا ضخما فى سنة ١٨٣٩ عن آثار الأندلس ومسجد قرطبة العظيم ، وآخر فى سنة ١٨٤٦ عن آثار مصر والشام وآسيا الصغرى(٣) . وكتب (كوست) فى سنة ١٨٣٩ عن آثار القاهرة ، و (بريس دافن) فى سنة ١٨٧٨ عن الفن العربى (٤) . وأخرج (بورجوان) فى سنتى ١٨٧٣ و ١٨٩٢ مرجعين مصورين للفنون العربية (٥) .

(١) A. de Laborde: Itinéraire Pittoresque de l'Espagne, Paris, 1803.

(٢) S. C. Murphy: The Arabian Antiquities of Spain, London, 1813.

(٣) Girault de Prangey: Monuments arabes et moresques de Cordoue, Séville et Grenade, Paris, 1839; —: Monuments arabes d'Egypte, de Syrie et d'Asie Mineure, Paris, 1846.

(٤) Pascal Coste: Architecture arabe ou monuments du Kaire, Paris, 1839. Prisse D'Avennes: L'Art arabe d'après les monuments du Kaire, Paris, 1879.

(٥) Jules Bourgoin: Les Arts arabes, Paris, 1873; —: Précis de l'Art arabe, Paris, 1892.

وترك الرحالة والكتاب الفرنسيون صفحات طويلة عن مشاهداتهم فى آثار القاهرة والشرق الاسلامى ، وخاصة فى بداية القرن التاسع عشر ، وذلك بالاضافة إلى الموسوعة الضخمة المشهورة باسم « وصف مصر » والتى ظهرت فيها ، سنة ١٨٢٢ ، مجلدات كتبها (جومار) (١) .

غير أن الدراسات المنظمة للآثار العربية الاسلامية بدأت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكان فى طليعة القائمين بهذه الدراسات (رافيس) و (كوربت) و (جاييه) و (ماكس هرز) و (له استرينج) و (ده بيليه) و (ماكس فان برشم) و (هرتزفلد) و (سلادان) (٢) . ثم توالت بعد ذلك بحوث العلماء ودراساتهم فى الآثار العربية الاسلامية ، ونشرت كتب ومجلدات عن موضوعاتها الخاصة والعامة ، اجمالا وتفصيلا . واختص بهذه الدراسات علماء اذكر من بينهم (زاره) و (فاورى) و (جلوك) و (ديز) و (جروبر) و (تيرش) و (كوهنيل) و (شسترزجوفسكى) — وقد نشرت معظم بحوثهم باللغة الألمانية — والسيدة (بل) و (سبيرز) و (بريجز) و (ريشموند) و (هافل) و (لام) والسيدة (ديفونشير) و (شرودر) و (اتنجهاوزن) و (كريسويل) و (ديماند) — وقد نشروا معظم بحوثهم باللغة الانجليزية — و (فاجو) و (مونريه ده فيلار) و (ريفويرا) ، وهم ايطاليون . واذكر من بين العلماء الفرنسيين (جودار) و (هوتكور) و (فييت) و (ديولافوا) و (ريكار) و (سيجون) و (تراس) و (سوفاجيه) و (بوتى) و (مارسيه) ، ومن بين العلماء الأسبان (جوميز مورينو)

---

(١) Jomard: Description abrégée de la ville et de la citadelle du Kaire, Description de l'Egypte, Etat moderne, II, Paris, 1822.

(٢) Ravaisse, Corbett, Gayet, Max Herz, le Strange, L. de Beylié, Max Van Berchem, E. Herzfeld, Saladin.

وسأشير إلى بحوث معظم هؤلاء العلماء فى هذا الفصل وفى الفصول التالية ، كما أنى سأسجل أعمالهم فى بيان أسماء الكتب فى نهاية هذا المدخل .

و(توريس بلباس) و (فلاسكيز بوسكو) و (هرنانديز) (١) .
ومازالت دراسات الآثار العربية الاسلامية تقوم معظمها على أكتاف الأحياء من هؤلاء العلماء .

وإلى هؤلاء العلماء والمستشرقين يرجع الفضل فى سبق البحث عن الآثار العربية الاسلامية ، ووضع مناهج دراساتها ، وتحديد أصولها وتواريخها ودراسة خصائصها وتفاصيلها . وقد بذلوا فى ذلك جهودا من الواجب على كل مشتغل بالآثار والفنون الاسلامية أن يعترف بأهميتها ، ويشكرها لهم . وكذلك حمل العلماء الأجانب عبء الكشف عن آثار كانت مندثرة مجهولة فأحيوا تراثها ، وتعرضوا فى سبيل ذلك الكشف لمغامرات مثيرة . وصرفت حكومات الدول ، أو المؤسسات العلمية التى يتبعها هؤلاء العلماء ، أموالا طائلة لتمكينهم من المضى فى دراساتهم وبحوثهم واخراجها فى مجلدات ضخمة وكتب ومقالات لاحصر لعددها .

وقد شملت هذه الدراسات المنشورة جميع الآثار المعروفة من العصور الاسلامية فى الدول العربية ، إذا استثنينا بعض آثار المغرب التى لم يسمح للعلماء الأجانب بزيارتها . ولكل أثر من آثار هذه الدول فى تلك الدراسات بحث أو ذكر أو صورة أو رسم . ولكثير من هذه الآثار مراجع متعددة فى دراسات هؤلاء العلماء ، وبحوث مستفيضة وصور مفصلة . ولا غنى

---

(١) F. Sarre, S. Flury, H. Glück, E. Diez, K. Gröber, H. Thiersh, E. Kühnel, J. Strzygowski, G. Bell, R. P. Spiers, M. S. Briggs, E. T. Richmond, Havell, C. J. Lamm, R. L. Devonshire, E. Schroeder, R. Ettinghausen, K. A. C. Creswell, M. S. Dimand, V. Fago, Ugo Monneret de Villars, G. Rivoira, Godard, L. Hautecœur, G. Wiet, Dieulafoy, P. Ricard, G. Migeon, H. Terrasse, J. Sauvaget, E. Pauty, G. Marçais, M. Gomez-Moreno, L. Torres-Balbas, R. Valasquez Bosco, F. Hernandez.

وسأشير كذلك إلى بحوث هؤلاء العلماء فيما بعد ، فى سياق الحديث عن الآثار التى تعرضوا لدراستها ، كما أنى سأشير إلى الكتاب والعلماء العرب الذين اهتموا بدراسة الآثار الاسلامية .

للمشتغل بالآثار العربية الاسلامية عن الرجوع إلى هذه الدراسات فى التعرف أو البحث والاستقصاء عن أى أثر منها ، فى أى فرع من فروعها .

ولهؤلاء العلماء فوق هذا أفضال كثيرة ، أخص منها رعايتهم للآثار الاسلامية ، وتدخلهم لدى الهيئات المسئولة فى حكومات الدول العربية ، للعمل على حفظ هذه الآثار ، واظهار ما خفى منها ، وتدعيم ما هوى فيها ، وتوجيه النظر اليها ، والدعاية لها واثارة الاهتمام بها .

وأرى من واجبى أن أقر بأفضال العلماء الأجانب والمستشرقين ، وأن أسجل مرة أخرى على هذه الصفحة ما نشرته منذ خمس وعشرين سنة من « أنهم أغلونا بدين كأنه قلادة فى عنقنا » (١) .

— ٢ —

مآخذ على بحوث المستشرقين

إذا كنت أعترف بفضل علماء الآثار والمستشرقين ، فليس يمنعنى هذا الاعتراف من أن أعلن أن كثيرا من بحوث هؤلاء العلماء قد حوت أخطاء عديدة ، ترجع معظمها إلى جهل أصحابها باللغة العربية ، أو عدم إتقانها ، وعدم ادراك أصول الشريعة الاسلامية وأحكامها . كما أن بعض هذه البحوث قد طبع بطابع التحيز ، مما يثير الشك حولها ، ويوصمها ، على الأقل ، بعدم التزام المنهج العلمى .

كانت دراسات علماء الآثار الاسلامية تقتصر أول الأمر على وصف الآثار وتحقيق تاريخها ونشر صور موضحة لها ورسوم عنها . ثم بدأت حملة البحث والاستقصاء عن المصادر الفنية لتلك الآثار وأصولها . وكانت هذه الحملة أهم ما شغل به المستشرقون منذ ما يقرب من مائة سنة ، ومازال البحث عن المصادر يحتل مكان الصدارة من بحوثهم . وكان (ماكس فان

(١) أحمد فكرى : « المسجد الجامع بالقيروان » ، مطبعة المعارف بالقاهرة ، ١٩٣٦ ، صفحة ح .

برشم) أول من اتجه هذا الاتجاه فى البحث والدراسة ، وهو الذى نشر مقالين فى سنة ١٨٩١ ، عنوانها « مذكرات فى الآثار العربية » (١) ، ثم جاء (جاييه) فنشر كتابا فى سنة ١٨٩٣ عنوانه « الفن العربى » (٢) .

وصرف العلماء منذ ذلك الحين جهودا مضنية فى دراسة المصادر ، وجرتهم هذه البحوث إلى دراسات مقارنة لعناصر العمارة والزخارف فى الفنون السابقة للاسلام ، وبخاصة الفنون الساسانية والهلينية والهندية والرومانية والبيزنطية والقبطية . ولهذه الدراسات المقارنة أهمية قصوى ، بل انها يجب أن تتصدر أى بحث فى الآثار الاسلامية . غير أن معظم بحوث علماء الآثار المستشرقين كادت تطغى عليها عقيدة راسخة ، هى انكار أى فضل للعرب فى اقامة مبانيهم وتشكيل فنونهم . ولعل أكثر الأمثلة غرابة على هذا الاتجاه ما سجله (كريسويل) عن بناء قبة الصخرة وزخارفها ، إذ أنه قسم عناصرها إلى نسب مئوية ، وادعى أنه يدخلها ٢٢ فى المائة من المصادر الرومانية و ٢٢ فى المائة من المصادر البيزنطية و ٥٥ فى المائة من المصادر السورية المسيحية ، ويبقى ١ فى المائة لم يحدده العالم الأثرى (٣) .

والذى شجع هؤلاء العلماء على انكار فضل العرب هو ما ذكره (ابن خلدون) فى مقدمته من أن « العرب كانوا أبعد الناس عن الصنائع » (٤) ،

---

(١) Max van Bercham: Notes d'Archéologie Arabe, Journal Asiatique, 8e série, Tomes XVII, XIX, 1891.

(٢) Albert Gayet: L'art Arabe. Paris, 1893.

(٣) صفحة ٩٠ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) : « العمارة الاسلامية الأولى » :

K. A. C. Creswell: Early Muslim Architecture: Umayyads, Early Abbasids and Tulunids. 2 vols. Clarendon Press. Oxford. 1932-1940.

(٤) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربى المتوفى سنة ٨٠٨ — ١٤٠٥ م) : مقدمة كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، المشهورة باسم « مقدمة ابن خلدون » ، صفحة ٨٥٦ و ٩٢٩ (الجزء الثالث) من الطبعة التى أشرف عليها الدكتور على عبد الواحد وافى ، ونشرتها لجنة البيان العربى ، القاهرة ، ١٩٥٧ — ١٩٦٠ .

وانهم كانوا لا يجيدون صناعة البناء (١) ، وأن دولتهم كانت « بدوية فى أول أمرها تفتقر أمر البناء إلى غير قطرها » (٢)، وانهم لذلك استعانوا بالفعلة المهرة فى اقامة عمارتهم وتشكيل فنونهم . وقد استند هؤلاء العلماء إلى آراء ابن خلدون دون تمحيص علمى لها ولقيمتها التاريخية ، كما أنهم لم يعيروا أهمية لمدلول لفظ العرب فى «مقدمته» ، وهم العرب «البدو» . وفوق هذا ، فانهم أهملوا الاشارة إلى أبواب أخرى من هذه المقدمة ، ذكر فيها ابن خلدون ، كما سنرى بعد قليل ، أحوالا تحدد القصد من آرائه ، ونظريات ، تزيد هذه الآراء ايضاحا وتفسيرا (٣) .

تسلطت على علماء الآثار المستشرقين نظرية تجريد العرب من كل فضل فى عمارتهم وفنونهم حتى انهم اتفقوا على اسقاط صفة العروبة عنها ، واستبدلوا بها صفة الاسلام ، وأصبح « الفن العربى » عندهم تعبيرا خاطئا صحته « الفن الاسلامى » . وادعى بعضهم أن بلاد العرب كانت « فراغا » معماريا قبل الاسلام ، وأن العرب أنفسهم لم يجلبوا شيئا معماريا أو فنيا قط إلى البلاد التى فتحوها بعد الاسلام (٤) . ويؤكد (كريسويل) ، مثلا ، أن الذى بنى الكعبة قبل الاسلام بناء حبشى اسمه (باقوم) ، وأن طريقة

---

(١) « مقدمة ابن خلدون » ، صفحات ٨٥٧ و ٩٢٨ و ٩٢٩ من النسخة المشار اليها .

(٢) شرحه ، صفحة ٩٣٦ .

(٣) آراء ابن خلدون هذه هى تأملات فلسفية اجتماعية ، ولا تعتبر حجة تاريخية ، بل ان الحقائق التاريخية تنقض بعضها نقضا تاما. والعرب الذين قصدهم ابن خلدون هم فئة العرب « البدو » فى مراحل التاريخ المختلفة ، ويؤكد ذلك (البارون ده سلان) الذى ترجم ابن خلدون فى سنة ١٨٦٢ ، ويقرر فى هذه الترجمة أن ابن خلدون استخدم «كلمة العرب بمعنى البدو » تنظر الحاشية ٩٥٣ ، صفحة ٤١١ (الجزء الثانى) ، تعليق الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى « مقدمة ابن خلدون » المشار اليها .

(٤) تنظر صفحتا ٤٠ و ٤١ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) « العمارة الاسلامية » ، المشار اليه من قبل ، وصفحة ١٥ — ١٦ من كتابه « المختصر » : K. A. C. Creswell: A Short Account of Early Muslim Architecture, Penguin & Pelican Books, 1958.

بنائها نقلت نقلا عن الحبشة (١) . أما بعد الاسلام فقد بنى ابن الزبير الكعبة من جديد فى سنة ٦٥ (٦٨٤ م) ، ولكنه فضل فى تلك المرة ، كما يدعى (كريسويل) ، أن يستخدم عمالا من الفرس فى البناء ، فبنوا الكعبة بالحجارة الضخمة (٢). والمعروف أن بلاد الفرس حينئذ لم تكن تستخدم الحجارة فى البناء ، ولم يفسر (كريسويل) كيف أن هؤلاء العمال الفرس تعلموا البناء بالحجارة فى حين ظل العرب بعد الاسلام يعرضون ، كما يدعى ، عن تعلمها .

المأخذ الأول على بحوث المستشرقين هو تمسك كثير منهم بنظرية « الفراغ العربى » ، وانكار أثر العروبة فى العمارة والفنون . وقد جر هذا الامعان فى التنكر للعروبة بعضا منهم إلى الانحراف كثيرا عن الأسلوب العلمى ، بالمغالاة أحيانا ، أو باتخاذ الاستثناء قاعدة عامة . ومن ذلك ما ادعاه بعضهم من أن العرب لم ينشئوا المساجد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم(٣) ، ومن أنهم اتخذوا الكنائس أول الأمر لاقامة شعائرهم ، أو اقتسموها مع المسيحيين . ويستند هؤلاء المستشرقون فى ذلك إلى رواية المؤرخين العرب . والواقع أن هؤلاء المؤرخين لم يشيروا لغير ثلاث أو أربع كنائس ، اقتسمها المسلمون مع المسيحيين لفترة قصيرة . وقد أشار (المقدسى) إلى أول هذه الكنائس عندما روى أنه « لما فتح المسلمون حمص ، عمدوا إلى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعا » (٤) ، وأشار (البلاذرى) إلى الكنيسة الثانية ، وكانت فى حلب ، وذكر أن المسلمين اتخذوا « نصفها

(١) صفحة ٧ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) : « العمارة الاسلامية » ، وصفحة ٢ — ٣ من كتابه « المختصر » .

(٢) صفحة ٥ من كتاب (كريسويل) « المختصر » .

(٣) فندت هذه النظرية فى كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحات ٣٩ إلى ٥٠ ، وحاولت أن أثبت فسادها . وسأزيد البحث أيضاحا فيما بعد فى الفصل السابع من هذا المدخل .

(٤) صفحة ١٥٦ من الجزء الأول من كتاب (المقدسى) : « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، جزءان ، طبع ليدن ، سنة ١٨٧٧ (الجزآن الثالث والرابع من المكتبة الجغرافية العربية) .

جامعا »(١) . واشار (ابن عذارى) إلى الكنيسة الثالثة ، وهى كنيسة قرطبة ، وذكر هذا المؤرخ أن المسلمين اقتسموها أول الأمر مع المسيحيين ثم اشتروها منهم وهدموها ، وبنوا مسجدهم فى موضعها (٢) .

وإذا افترضنا صحة هذه الروايات ، فهى لا تدل على قاعدة عامة ، وانما تشير إلى حالات استثنائية ضئيلة جدا بالنسبة للمئات من المساجد التى اقيمت فى القرن الأول وحده من الهجرة ، ولكن بعض المستشرقين جعلوا من هذه الروايات مبدأ عاما ، وذهب البعض الآخر منهم إلى حد أن حور النص العربى الذى أشار إلى كنيسة واحدة فى حلب فجعله جملة من الكنائس ، وعربه جمعا (٣) . ثم إن اتخاذ المسلمين أجزاء من الكنائس فى ظروف خاصة وجعلها مساجد لا ينهض وحده دليلا علميا على أن تخطيط المسجد موروث عن تخطيط الكنائس . وقد أجريت حديثا حفائر فى مسجد قرطبة اثبتت بالبرهان القاطع أن نظام هذا المسجد « لا يرتبط فى شيء قط بنظام الكنيسة التى كانت فى موضعه » (٤) ، مما اضطر أحد المستشرقين أن يعترف بأن « قصة تحويل كنيسة قرطبة إلى مسجد لا تعدو أن تكون أسطورة طاب لبعض الرواة ذكرها ، تشبها بأسطورة تقسيم

---

(١) صفحة ١٤٧ من كتاب (البلاذرى) ، « فتوح البلدان » ، طبع ليدن ، سنة ١٨٦٦ .

(٢) صفحة ٢٢٩ من الجزء الثانى من كتاب (ابن عذارى) ، « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ، جزآن ، طبع كولان وبروفنسال ، ليدن سنة ١٩٤٨ — ١٩٥٠ .

وروى كذلك أن خالد بن الوليد اقتسم كنيسة دمشق . وقيل إن جامعها الأسوى أقيم على نظام الكنائس ، وسأناقش هذه الرواية ومدى صحتها فيما بعد فى الفصل التاسع من هذا المدخل .

(٣) أصبحت « الكنيسة » « كنائس » (churches) فى رواية (كريسويل)، التى نقلها فى صفحة ١٤ من الجزء الأول من كتابه : « العمارة الاسلامية » ، وفى صفحتى ٧ و ١٢ من كتابه « المختصر » .

(٤) صفحة ٢٩ من كتاب (جوميث مورينو) : « الفن العربى الأسبانى » .
M. Gomez Moreno: El Arte Arabe Espanol hasta los Almohades — Arte Mozarabe — Vol. III Ars Hispaniae, Historia Universal del Art hispanico, Madrid, 1948.

كنيسة دمشق ، على عهد خالد بن الوليد »(١) .

وكذلك جعل بعض علماء الآثار المستشرقين من اشتراك العمال المسيحيين فى أعمال البناء العربية وزخرفتها قاعدة عامة ، ولم تكن فى الحقيقة التاريخية غير استثناء . ومن ذلك ما ذكره (كريسويل) من أنه كان يعمل فى زخرفة قصر الطوبة أربع جماعات من العمال ، منهم جماعتان من القبط كانوا متأثرين بعض التأثر بالفن الفارسى ؛ ولم يستطع (كريسويل) أن يحدد موطن الجماعتين الأخريين ، ويقول إن السبب فى ذلك هو الطابع الايرانى الذى يبدو على أعمالها ، ولكنه يفترض أن إحدى هاتين الجماعتين كانت فارسية ، وكانت الأخرى عراقية (٢). فاذا أضفنا إلى ذلك ما افترضه هو وافترضه غيره من العلماء الذين كتبوا عن هذا القصر من أن العمال الذين اشتركوا فى بنائه قدموا من سوريا المسيحية ومن فارس ومن روما ، بدا هذا القصر مجردا من عروبته ، وكأنه مزيج غريب ، وخليط عجيب (٣) .

لقد ظل العرب ، فى رأى كثير من علماء الآثار المستشرقين ، جهلة طوال القرون ، لم يتعلموا « صناعة » البناء . ولهذا نرى هؤلاء المستشرقين يضطربون حين تعرض لهم عناصر جديدة من هذه « الصناعة » لم يكن لها شبه أو نظير فيما سبق الاسلام من العصور . ومن أمثلة ذلك ما قيل عن العقود المزدوجة فى مسجد قرطبة ، وهى عقود فريدة فى تاريخ العمارة ، لم يعرف لها نظير قبل بنائها فى سنة ١٦٩ (٧٨٥ م) . ولكن (جورج مارسيه) ، وهو حجة العلماء فى الآثار الاسلامية بالمغرب والأندلس ، قد عز عليه أن تكون هذه

(١) الحاشية رقم ٢ من صفحة ٥٩ من كتاب (تراس) : « الفن الأسبانى المغربى » ، H. Terrasse: L'Art Hispano-Mauresque des origines au XIII° siècle, Paris, 1933.

(٢) صفحتا ٣٨٨ و ٣٨٩ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) : « العمارة الاسلامية » .

(٣) أقيم قصر الطوبة فى نهاية عصر الدولة الأموية ، وفى أغلب الظن ، فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٢٦ (٧٤٤ م) . وتدل أطلال هذا القصر وآثار زخارفه الباقية على وحدة التعبير الفنى والأصالة العربية .

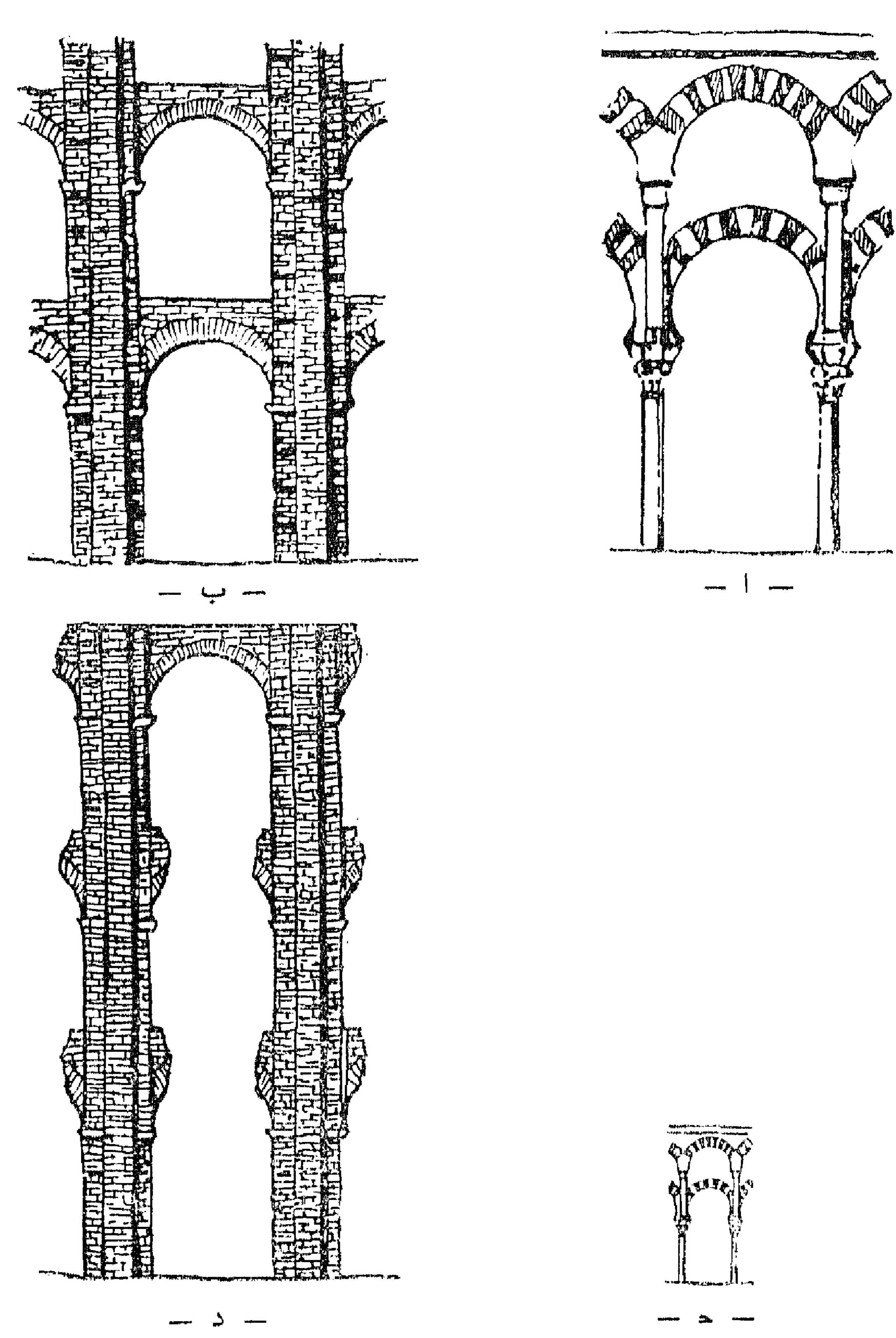
العقود ابتكارا عربيا ، فادعى انها اقتبست من قناطر (مريدا) فى أسبانيا(١) ، ونشر رسما يؤيد ادعاءه هذا . ولكن هذا الرسم المنشور ، وهو الذى أنقله على الصفحة المقابلة ، شكل (١) ، رسم مصطنع ، فقد كبرت فيه عقود قرطبة وضخمت، بحيث تبدو فى الرسم نظيرة لعقود القنطرة العتيقة . أما الحقيقة فغير ذلك ، وهى التى تظهر فى الرسم المنشور تحت رسم (مارسيه) اذ تظهر قنطرة (مريدا) على حقيقتها فى رسمى ، شكل (ا — د) ، وتظهر النسبة الحقيقيـة بين عقـودها وعقـود قرطبـة ، شكل (١ — ج) ، وتنعدم أوجه الشبه والصلة بينها . هذا فضلا عن أن العقود المزدوجة فى مسجد قرطبة تؤدى وظائف محدودة ، ولا توحى العقود الضخمة فى قنطرة (مريدا) بهذه الوظائف (٢) . وعقود قرطبة ابتكار فريد فى تاريخ العمارة ، وهى ، كما سنرى فيما بعد ، تطور منطقى للعقود الهندسية العربية .

ودفعت المغالاة ، من جهة أخرى ، فريقا آخر من المستشرقين إلى تشويه الحقائق . ومن أمثلة ذلك أن (ديولافوا) أراد أن يقدم البرهان القاطع على أن تخطيط المسجد صورة منقولة من تخطيط الكنائس ، فنشر رسما

---

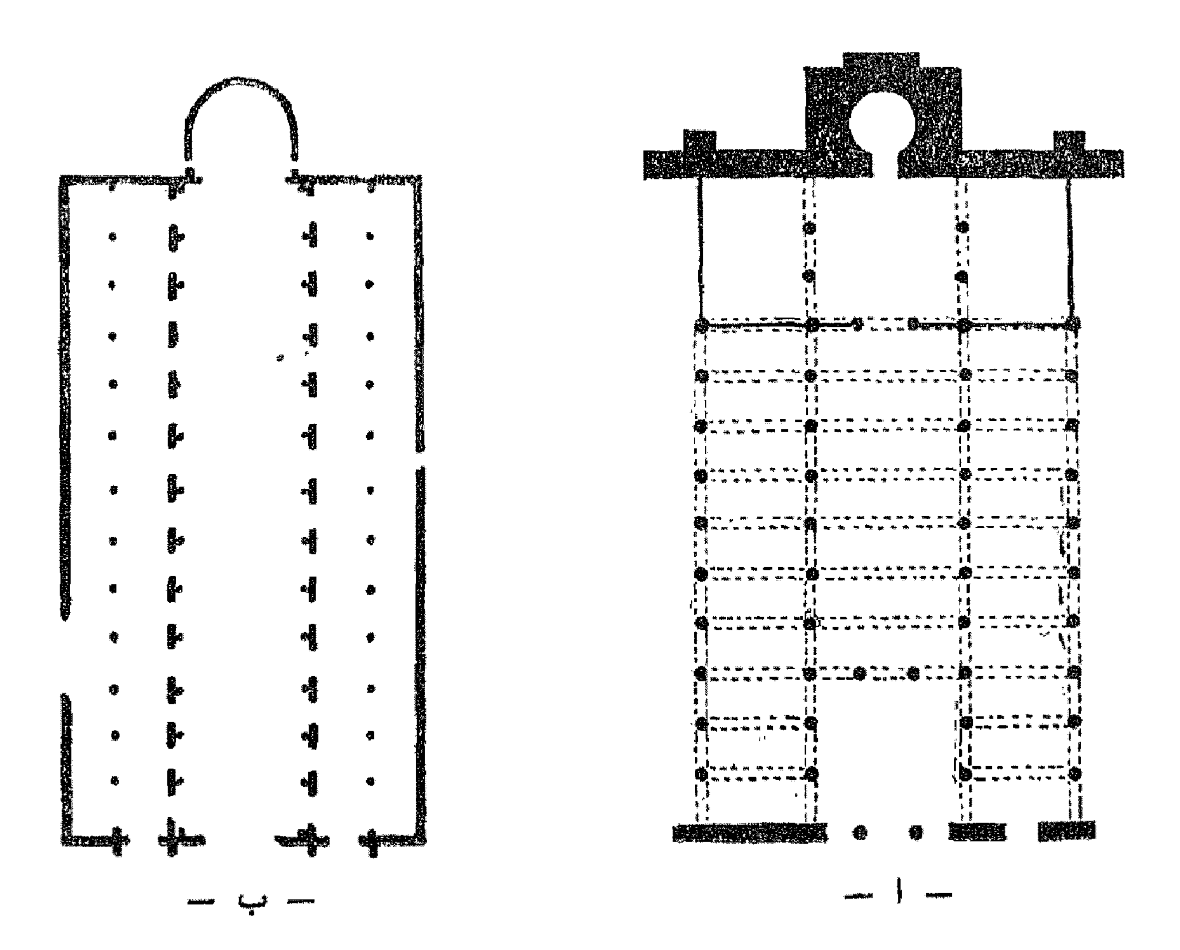
(١) صفحة ١٤٧ ، شكل ٨٩ ، من كتاب (مارسيه) : « العمارة الاسلامية الغربية » ، George Marçais: L'Architecture Musulmane d'Occident, Paris, 1954.

(٢) سبق لى أن أشرت إلى أوجه الخلاف بين خصائص عقود قرطبة وخصائص عقود قنطرة (مريدا) (Merida) ، وأوضحت أن عقود قرطبة ابتكار من البناء العربى ، وأنه كان لهذا الابتكار شأن كبير فى العمارة العربية الاسلامية بالأندلس ، وذلك فى مقال لى بعنوان « العمارة فى الأندلس » ، نشر فى مجلة الكاتب المصرى سنة ١٩٤٦ ، المجلد الثانى ، صفحة ١٠٩ إلى ١١٧ . وإنى أغتبط أشد الاغتباط لأن (كريسويل) ، الذى كان ينكر هذا الابتكار فى الكتاب الذى نشره فى سنة ١٩٤٠ ، (صفحة ١٥٧ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية ») ، اعترف « جزئيا » فى كتابه « المختصر » الذى نشره فى سنة ١٩٥٨ ، (صفحة ٢٢٧ و ٢٢٨)، بفضل البناء العربى فى قرطبة ، وقرر أنه لم يستطع أن يعثر على نظير — قريب أو بعيد — للعقود المزدوجة فى هذا المسجد ، وأن الفضل فى ابتكار هذه الطريقة « العبقرية » يرجع « معظمه » إلى بناء مسجد قرطبة .



شكل (١) — مقارنة بين رسم مكبر لعقود مسجد قرطبة (ا) — بالنسبة لقنطرة (مريدا) فى اسبانيا (ب) — عن كتاب (مارسيه) . ومقارنة بمقياس رسم واحد لعقود قرطبة (ﺣ) — وعقود القنطرة (د) — من تصميم المؤلف .

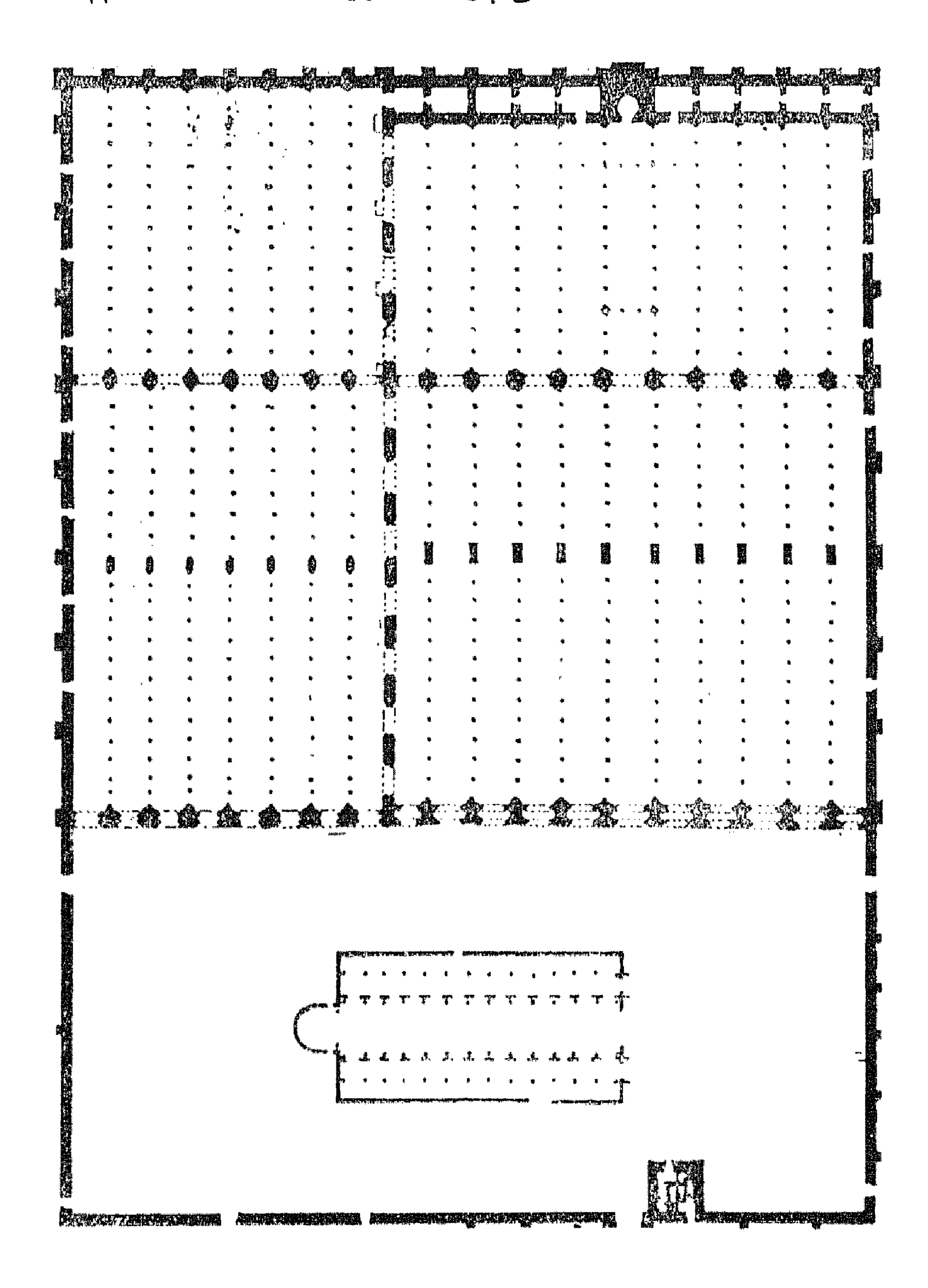
مقتطعا من مسجد قرطبة يبدو فيه تخطيطه كأنه رسم تخطيطى لكنيسة (١) وأنا أنشر هذا الرسم على هذه الصفحة، شكل (٢) ، بجانب الرسم التخطيطى للكنيسة .



شكل (٢) — مقارنة بمقياس رسم مصطنع بين تخطيط مسجد قرطبة (ا) — وتخطيط كنيسة (ب) — من (ديولافوا) .

ويخيل للناظر إلى الرسمين كأن رسم المسجد منقول عن رسم الكنيسة . ولكن رسم (ديولافوا) رسم مشوه ، أو هو رسم مضلل لمسجد قرطبة ، هو فى الواقع قصاصة لجزء من الزيادة التى أضيفت إلى المسجد الأول بعد

(١) صفحة ٤١ ، شكل (٩١) من كتاب (ديولافوا) : « أسبانيا والبرتغال » ، Dieulafoy: Espagne et Portugal, Collection Ars Una, Paris, Hachette, 1921.



شكل (٣) — مقابلة بين تخطيط كنيسة وتخطيط مسجد قرطبة بمقياس رسم واحد — من رسم المؤلف .

مائتى سنة من تاريخ انشائه(١) . وهذه القصاصة نفسها التى اعتبرها (ديولافوا) مسجدا قائما بذاته ، هى فى الواقع جزء من ٢٢ جزءا من المسجد القائم بأكمله .

ويبدو تضليل المستشرق واضحا إذا قورن تخطيط الكنيسة بتخطيط مسجد قرطبه بأكمله ، وبمقياس رسم واحد ، وهذا هو الرسم الذى نشرته على الصفحة السابقة ، شكل (٣) . وتظهر على هذا الرسم حقيقة المقارنة ، أما على الرسم الأول الذى تمخضت عنه عملية (ديولافوا) فقد تضخم محراب المسجد عشر مرات ، واتسعت بلاطات بيت الصلاة بنفس النسبة ، وانحرف اتجاه المسجد عن اتجاه القبلة .

«وما أسهل هذه العملية الهندسية على سطح الورق ، وكم نستطيع أن نخرج منها أشكالا عديدة متقاربة أو نظريات تطبيقية مختلفة . بل وما أحسب عسيرا أن نقرب بهذه الطريقة بين جميع معابد العالم ، وما علينا الا أن نضع لها رسوما تخطيطية ، نقتطف من البعض أجزاء لنضيفها إلى البعض الآخر ، ونصغر فى البعض منها عناصر نضخمها فى البعض الآخر ، إلى غير ذلك مما لا يصح تنظيمه الا على قصاصات من الورق «(٢) .

ولعل أكثر المآخذ بروزا فى بحوث كثير من علماء الآثار المستشرقين هى طريقة معالجتهم للمصادر . وقد تضخمت هذه البحوث تضخما كبيرا من المناقشات الطويلة التى حاولوا أن يبرروا بها افتراضات لا تستند على أساس علمى . ومن ذلك نظرية اشتقاق تخطيط المسجد وعناصره من الكنيسة المسيحية . وهى النظرية التى سأناقشها فى الفصول التالية من هذا الكتاب ، وسيرى القارىء أن هذه النظرية تناقض الحقائق التاريخية والأثرية (٣) .

ودفع التحيز فريقا من هؤلاء العلماء إلى المغالطة والافتراء . ومن أمثلة ذلك افتراء (كريسويل) على (المقريزى) . فقد ذكر المؤرخ العربى أن

(١) ينظر فيما بعد ، تاريخ مسجد قرطبة ، فى الفصل الثامن من هذا المدخل .

(٢) أحمد فكرى ، « مسجد القيروان » ، صفحة ٣١ .

(٣) ينظر الفصل التاسع من هذا « المدخل » ، والفصل السادس من الجزء الأول من هذا الكتاب والفصل الخامس من الجزء الثانى .

« ثلاثة أخوة قدموا من الرها بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح » (١) . وعندما ترجم (كريسويل) هذا النص إلى اللغة الانجليزية أضاف اليه من عنده كلمة « مسيحيين » ، فأصبح النص « ثلاثة اخوة مسيحيين » (٢) .

هذا مثل فاضح صارخ من أمثلة تحيز فريق كبير من علماء الآثار الاسلامية المستشرقين ، والأمثلة الشبيهة بهذا المثل كثيرة ، سأستعرض معظمها فى هذا المدخل ، وفى أجزاء الكتاب التالية(٣) .

أدى تنكر هؤلاء العلماء للعروبة وتحيزهم إلى إهمال ظاهرة هامة من مظاهر الفنون ، وعنصر رئيسى من عناصرها ، وهى وحدة التعبير الفنى . وقد هدم المستشرقون هذه الوحدة بالنسبة للفنون العربية الاسلامية فى سبيل البحث عن المنابع والمصادر والأصول . وكأن هؤلاء المستشرقين يتناولون

(١) صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من كتاب «الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار» للشيخ تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى.طبع المطبعة الأميرية فى بولاق سنة ١٢٦٩ .

(٢) صفحة ١٦٢ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) : « العمارة الاسلامية فى مصر : K. A. C. Kreswell: Muslim Architecture of Egypt. 2 vols. Clarendon Press, Oxford. 1952 - 1959

ونص ترجمة كريسويل لرواية المقريزى هو :

« We have been told by Makrizi that the gates were built by three **christian** architects from Ar-Ruha (Urfa)».

(٣) من أمثلة تخبط المستشرقين وتعصبهم ما ذكره (فييت) فى صفحة ١٢٢ من الجزء الأول من كتاب « مساجد القاهرة » ، من أن الخليفة العاضد اختار ثلاثة بنائين من خيرة البنائين فى الفسطاط لتعمير كنيسة « أبو سيفين » ، وأضاف (فييت) إلى ذلك « أنه لا شك فى أن هؤلاء البنائين كانوا مسيحيين ، لأنه لا يعقل أن يقبل بناة مسلمون العمل فى كنيسة » . أى أن الأستاذ المستشرق لا ينكر وجود بناة مسلمين مهرة من خيرة البنائين ، ولكنه ينكر عليهم قبول العمل فى كنيسة ، ويدعى فى نفس الصفحة ، أن المسلمين يستجلبون البناة المسيحيين للعمل فى مبانيهم ومساجدهم . ينظر : G. Wiet et L. Hantecœur: Les Mosquées du Caire, 2 vols., Paris, Leroux, 1932.

البناء الشامل فينتزعوا أجزاءه جزءا جزءا ، ويتناولون الكتلة المتماسكة فيقوضوا أركانها ركنا ركنا ، ويتناولون المنظومة الموثوقة فيفككوا حبوبها ولآلئها . لقد أشرت فيما سبق إلى قصر الطوبة ، وإلى ما ادعاه (كريسويل) من أن عمالا من مصر القبطية ومن سورية المسيحية ومن بلاد الفرس والروم قد اشتركوا في تصميم البناء وزخرفته . ولكن (كريسويل) قد تناسى أن هذا القصر لم يكن له نظير من قبل من حيث التناسق والاتزان والوحدة والروعة والاتقان الفني . ولو صح ما ادعاه (كريسويل) وما ذكره من أن هؤلاء العمال كانوا يسخرون للعمل تسخيرا ويموتون ظمأ(١) ، لكان الخليفة الأموى الذى أمر ببناء هذا القصر نابغة فذا ، اذ استطاع ، بالرغم من قسوته وظلمه ، أن يخلق عبقرية فنية عربية اسلامية من تقاليد قبطية وهلينستية ومسيحية ، على أيدى العمال المسيحيين ، المستجلبين من مصر وفارس وسورية ، واستطاع أن يبث في هذا الخليط المتنافر روح التعاون والتكامل ، حتى أخرجوا تحفة فنية يعترف العلماء أنفسهم بأنه لا نظير لها فى البلاد التى قدم منها هؤلاء العمال .

يخيل إلى القارىء لكتب المستشرقين فى الفنون العربية الاسلامية أنه فى حلقة سباق يجرى فيها العمال تارة من الشرق وتارة من الغرب أو من الشمال والجنوب ، فلا يكاد الواحد منهم يستقر فى بلد كالقاهرة حتى يقفز فيها من حى إلى حى ، فيأتى فى كل منه نتفة من فنه ، ثم يختفى أو يفر عائدا إلى بلاده . أما العمال من أهل القطر العربى فانه لا يستقر لهم قرار . كأنهم يركبون البراق فيحملهم يوما إلى الشام ، ويوما إلى الأناضول ، ويوما إلى روما ، ويوما إلى بيزنطيه ، أو إلى فارس ، أو إلى الهند ، وكأنهم يلتقطون من كل بلد يهبطون فيه ما تصل اليه أيديهم من نافذة مخلوعة ، أو عتبة منزوعة ، أو باب مرتج ، أو عمود منبعج ، أو قبة مضلعة ، أو مئذنة مكعبة ، ثم يعودون إلى بلدهم العربى ، فيلصقوا كل هذه الملتقطات لصقا بالملتقطات

(١) صفحة ٣٩٧ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) « العمارة الاسلامية » ، وصفحة ١٤٢ من كتابه « المختصر » .

التي ألقاها زملاؤهم المغاربة والمشارقة ، والأرمن والفرس والرومان والبيزنطيون والهنود .

وكذلك أدى تحيز بعض علماء الآثار المستشرقين وتنكرهم للعروبة إلى اختلاف آرائهم وتناقضها . وفي ذلك يقول أحد العلماء البارزين في الآثار الاسلامية : « ان أولئك الذين يجحدون فضل العرب في تاريخ العمارة يعتبرون أن العرب كانوا مجردين من أي تعبير فني ، وأن مبانيهم أقيمت على أيدي العمال القبط أو البيزنطيين أو الفرس . وإن أقوى حجة ضد هؤلاء الكتاب هي أنهم لم يتفقوا إلا على تجريد العرب من كل فضل لهم ، ولكنهم أنفسهم اختلفوا أشد الاختلاف في منابع الايحاء المشترك . وبينما يحدد (جاييه) هذا المنبع في مصر القبطية ، يحدده (ديولافوا) في بلاد فارس وشمال الجزيرة ، ويحدده (هافل) في الهند و (ريفويرا) في روما . وكل من هؤلاء العلماء مقتنع تماما بسخافة آراء الآخرين »(١) .

(١) صفحة ٤٧ من كتاب (بريجز) : « العمارة المحمدية » ،

M. S. Briggs: Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, Clarendon Press. 1924.

والنص الانجليزي الذي كتبه (بريجز) هو :

« Those who object to the description of the building work of muslims in the Middle Ages as « Arab » architecture do so on the grounds that the Arabs were incapable of any sort of artistic expression.......... The strongest argument aginst this point of view is that the various writers, who only agree in denying any credit to the Arabs, themselves disagree most violently as to the common source of inspiration. Gayet finds it in Coptic Egypt, Dieulafoy in Persia and Mesopotamia, Havell in India and Rivoira in Rome. Each is convinced of the futility of the theories held by the other four ».

وقد أكد (بريجز) هذا الرأي في الفصل الذي كتبه بعد ذلك عن العمارة الاسلامية في كتاب « تراث الاسلام » ، صفحة ١١١ ، من الترجمة العربية ، للمرحوم الدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

Legacy of Islam, by Christie, Arnold and Briggs, Oxford, 1947.

الفصل الثاني

المبادىء الرئيسية
لدراسات الآثار العربية الإسلامية

١ – نظرية الأصول والمصادر .

٢ – نظرية الاستنباط .

٣ – نظرية التطور .

٤ – نظرية الوحدة العربية .

الفصل الثانى

المبادىء الرئيسية لدراسات الآثار العربية الاسلامية

أشرت إلى بعض نواحى التحيز التى شوهت كثيرا من بحوث المستشرقين ودراساتهم فى الفنون والآثار العربية الاسلامية . وقد اتبع بعض الكتاب العرب نهج هؤلاء المستشرقين ، وادعوا مثلهم أن العرب كانوا فى شبه جزيرتهم « بدوا لاحضارة لهم » ؛ وأن مدنيات فارس وبيزنطه وآشور وكلديا ومصر كانت هى أساس فن العرب ، ولهذا كان من الخطأ الكبير ، فى رأى هؤلاء الكتاب : « أن يطلق على هذا الفن اسم الفن العربى » . وأكد البعض الآخر منهم أن الفنون والعمارة الاسلامية قامت على أسس ثلاثة ، هى : الفنون المسيحية الشرقية ، والفن الساسانى فى ايران والعراق ، والفن القبطى فى مصر . وادعى أحدهم « أن نصيب العرب فى قيام الفنون الاسلامية كان روحيا فقط ، ومن الصعب تحديده ولكنه يتلخص فى أنهم « جمعوا » شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد ، وأنشأوا فنا إسلاميا متميزاً عن غيره من الفنون » .

ولهذا فانى أرى من الواجب إعادة النظر فى الأسس التى قامت عليها حتى الآن دراسات الآثار العربية الاسلامية ، كما أرى أنه يتعين أن يوضع لها منهاج علمى مجرد من شوائب الانحياز والمغالاة .

— ١ —

نظرية الأصول والمصادر

يختص المبدأ الرئيسى الأول من هذا المنهاج بدراسة المصادر والمنابع . وهى دراسة يجب أن تحاط بتحفظ شديد ، وأن تسقط منها النظرية التى

تفترض أن جميع عناصر العمارة والفنون الاسلامية كانت معروفة قبل الفتوحات العربية ، وأنها ، لهذا السبب وحده ، استمدت مصادرها من الفنون السابقة للاسلام .

واني أرى أنه يجب أن يراعى فى دراسة المصادر ثلاثة أوجه :

الوجه الأول هو أن العمارة والفنون لم تكن مجهولة فى بلاد العرب قبل الاسلام ، وذلك على خلاف ما يدعيه بعض المستشرقين . وقد كشف حديثا عن آثار ، معمارية وفنية ، فى مأرب من بلاد اليمن ، مما يبشر بالكشف عن آثار أخرى أحدث عهدا فى شبه الجزيرة العربية (١) . وليس من شك فى أن هذه الآثار المندثرة كانت تحوى بعض العناصر التى كان يفترض من قبل أنها أجنبية عن العرب ، سواء كانت هذه العناصر بدائية ، أو متطورة . واني أعتقد شخصيا أن جزيرة العرب كانت هى المصدر الأول لعناصر العمارة والفنون العربية ، أو على الأقل ، الينبوع الأول التى استقت منه تلك العمارة والفنون اتجاهاتها وتعبيراتها .

والوجه الثانى الذى تجب مراعاته فى دراسة المصادر هو الصلة التاريخية . والمعروف أن كثيرا من الآثار السابقة للاسلام فى غير البلاد العربية قد

(١) الدكتور أحمد فخرى : « أحدث الاكتشافات الأثرية فى اليمن » ، صفحة ٢٥٥ إلى صفحة ٢٨٢ من « المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية — فاس ١٩٥٩ » ، منشورات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦١ .

وقد تحدث الرواة عن مبانى العرب المشهورة ، ومنها « غمدان » فى صنعاء ، وكان بناء شامخا ، وحصن « تيماء » ، أو « الأبلق الفرد » ، وكان مبنيا بحجارة مختلفة الألوان ، ومنها « الخورنق » ، قيل بناه للنعمان بن امرىء القيس رجل يسمى « سنمار » ، « فلما فرغ من بنائه عجب النعمان من حسن بنائه واتقانه ، فأمر أن يلقى سنمار من أعلاه حتى لا يبنى مثله لأحد » ، وتضرب العرب المثل بفعل النعمان مع سنمار فى المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح ، فتقول (جازاه جزاء سنمار) . تنظر الصفحات ٣٨٤ إلى ٣٨٧ من السفر الأول من « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ، سنة ١٩٢٣ .

اندثر كذلك ، وأن بعض الآثار القائمة ليست ثابتة التاريخ (١) ، وقد يكون تاريخها لاحقاً لا سابقاً للاسلام (٢) . ومع هذا فانه ليس من الضروري أن يكون عنصر ما ، سابقاً تاريخا ، مصدرا بعينه لعنصر آخر ، لاحقاً تاريخا ، وان كان مشابها أو نظيرا له . إذ يتعين تحديد الصلة التاريخية بين المصدر والمشتق . وقد تكون هذه الصلة مباشرة ، أو غير مباشرة . وقد يكون العنصران نابعين من مصدر واحد مشترك ، قريب أو بعيد . وقد لا تكون هنالك صلة تاريخية ما بين العنصرين ، بالرغم من اختلاف تاريخها .

وأضرب مثلا لذلك العقد المنفوخ . فقد اختلف العلماء اختلافا كبيرا في شأنه. ذكر البعض أنه ساساني المصدر ، وقال البعض الآخر أنه نشأ فى الهند ، وافترض فريق ثالث أن أصل موطنه فى آسيا الصغرى ، وقرر فريق رابع أنه كان معروفا فى الفن الفيزيقوطى . والثابت أن هذا العقد المنفوخ أصبح عنصرا ذائعا فى الفنون العربية الاسلامية ، وخاصة فى بلاد المغرب والأندلس ، وأن الصلة التاريخية منقطعة تماما بين الأمثلة المنفردة القليلة التى قدمها هؤلاء العلماء وبين الأمثلة الشائعة فى الفنون العربية(٣) .

(١) ومن أمثلة ذلك ما ذكره (بريجز) فى كتاب « تراث الاسلام » — صفحة ١٣٩ من الترجمة العربية — من أنه كان من المتفق عليه أن « المشربيات » (Machicoulis) عنصر معمارى اشتق فى العمارة الاسلامية من العمارة الصليبية ، « ولكنه كشف حديثا عن مثال عربى فى قصر الحير على مقربة من الرصافة فى سورية ، ويرجع تاريخه إلى سنة ١١١ (٧٢٩ م) ويضيف (بريجز) : « وهكذا يظهر جليا أن الصليبيين استعاروا فكرة هذه الظاهرة المعمارية من العرب وأن العكس لا يمكن أن يكون صحيحا » .

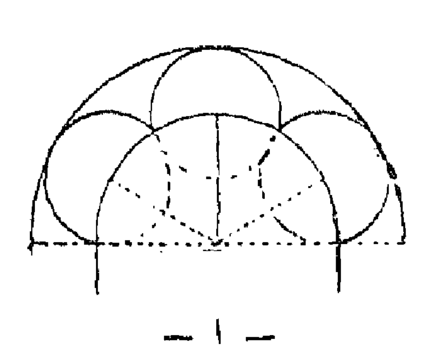
(٢) ومن أمثلة ذلك أن العلماء كانوا يعتقدون،الى عهد قريب،أن قصر المشتى بناء سابق للاسلام ، وبنيت نظريات عديدة على اشتقاق عناصر معمارية وزخرفية عربية منه ، ثم ثبت أن القصر بنى بعد الفتوحات العربية وفى نهاية العصر الأموى. وكذلك كانت بعض التحف القبطية تؤرخ فيما قبل الفتح العربى لمصر ، واتضح بعد ذلك أنها صنعت فى العصور الاسلامية .

(٣) ناقشت آراء هؤلاء العلماء فى كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » ، من صفحة ٧١ إلى ٧٩ .

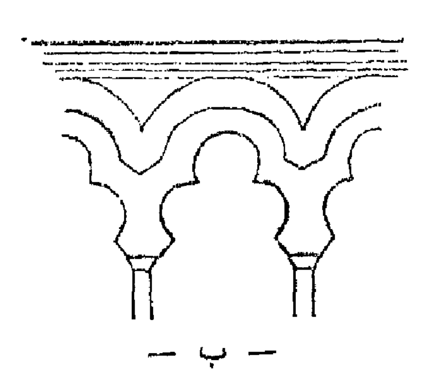
وكذلك العقد الثلاثى الفتحات فى العمارة العربية الاسلامية . فقد ظن (هافل) أن الهند مصدره ، ولكنه لم يستطع أن يحدد الصلة التاريخية بين العنصر الهندى والعنصر العربى ، وأقام نظريته على مجرد الافتراض (١).

والوجه الثالث فى دراسة المصادر هو الجوهر والوظيفة ، فلا يكتفى بالتعاقب التاريخى أو بالمظهر الخارجى لتحديد المصدر . وانما يجب أن تقوم هذه الدراسة على أساس المقارنة العملية ، وخاصة بالنسبة للعناصر المعمارية . إذ أن الأساس فى تحديد المصدر هو السبب العملى . ثم إن طبيعة العنصر قد تتغير بتغير مادته ، فتصبح مثلا حجارة بدلا من الآجر أو رسما مسطحا بدلا من شكل مجسم . ولهذا قد يتخذ العنصر المصدر مظهرا يختلف عن مظهر العنصر المشتق ، وبالعكس ، قد يتفق عنصران مظهرا ويختلفان جوهرا ، ولا يكون أحدهما مصدرا للآخر .

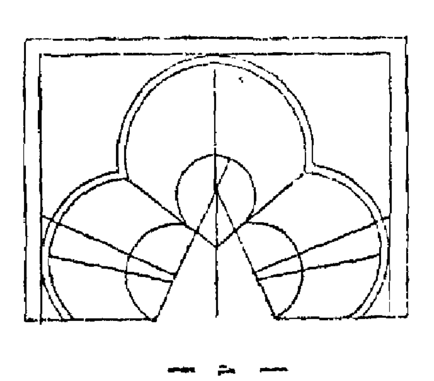
وإذا طبقنا هذا المبدأ على المثلين السابقين ، العقد المنفوخ والعقد الثلاثى الفتحات لاتضح لنا أن المصادر المزعومة لهذين العنصرين تختلف اختلافا جوهريا عنها ، إذ أن تكوين هذين العقدين قد خضعا لمبادىء هندسية ، شكل(٤) ،



— ا —



— ب —



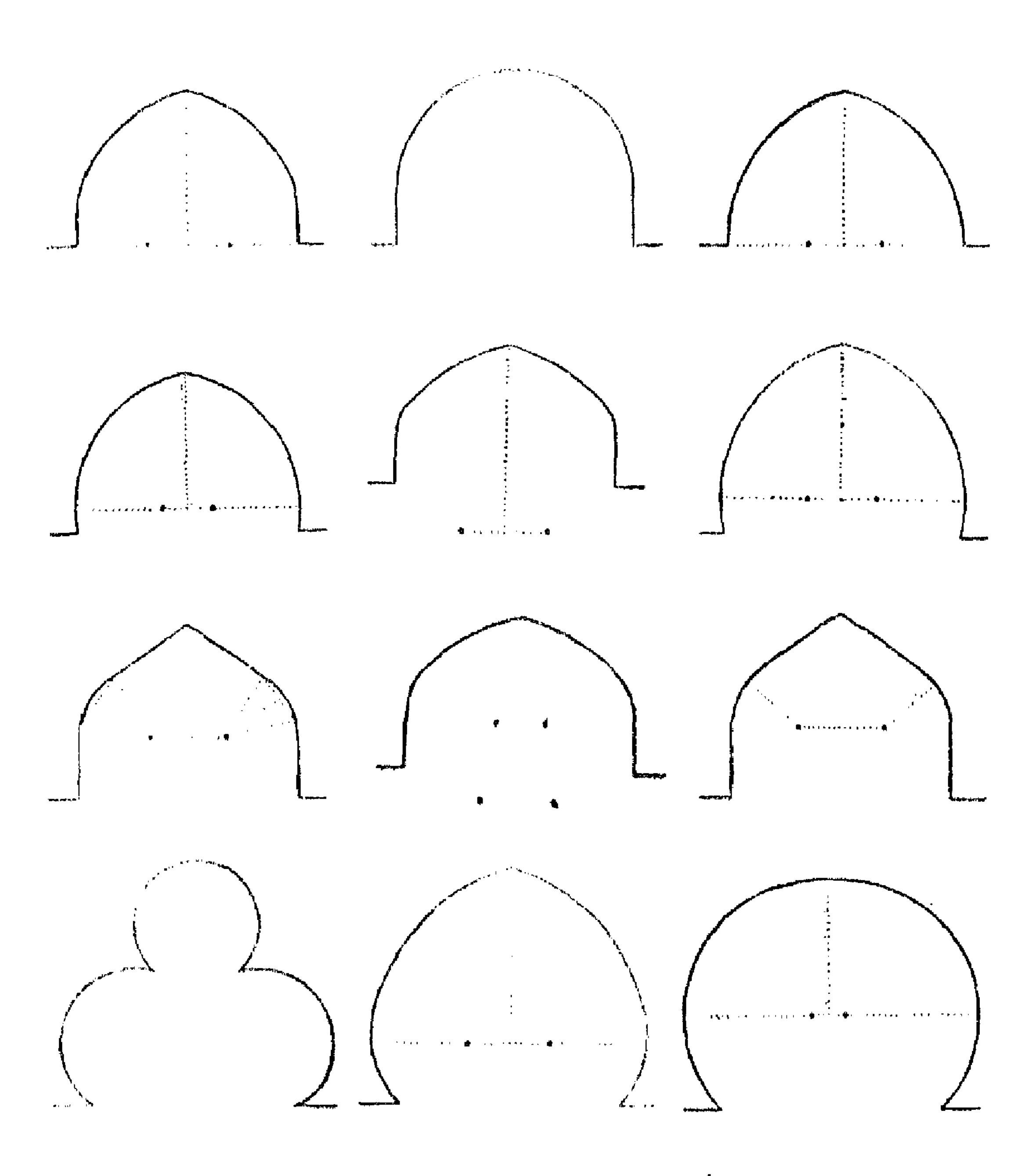
— ح —

شكل (٤)
الاساس الهندسى لتكوين العقد العربى الثلاثى الفتحات .

(١) ناقشت رأى (هافل) فى صفحات ١٩٣ إلى ١٩٨ من كتابى : « التأثيرات الاسلامية فى الفن الرومانسكى » :

Ahmad Fikry: L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques, Paris, Leroux, 1934.

فى حين أن الأمثلة التى عثر عليها فى الهند أو فى آسيا الصغرى أمثلة زخرفية بحتة ، لا تربطها بأصول الحساب والهندسة أية رابطة . والواقع أن العقد المنفوخ والعقد الثلاثى هما حلقتان من سلسلة ممتدة من العقود العربية كان منبعها أصلا العقد النصف دائرى ، وهو الذى كان منتشرا قبل الاسلام ، وخاصة فى العمارة الرومانية ، شكل (٥) .



شكل (٥) — أشكال من العقود المبتكرة فى العمارة العربية الاسلامية .

لابد إذن من التأكد ، قبل تحديد مصدر عنصر من العناصر ، من أن هذا العنصر كان أولا مجهولا عند العرب ومعروفا عند غيرهم قبل الفتوحات الاسلامية ، وأن الصلة التاريخية كانت ، ثانيا ، ثابتة أو جائزة بين موطنه وموطن العنصر المفترض أن يكون مصدرا له ، وأن العنصرين ، أخيرا ، متفقان مظهرا وجوهرا .

وبغير مراعاة هذه الأوجه الثلاثة يصبح مجال الافتراض والتأويل فى دراسة المصادر واسعا ، مما يوجب ، كما ذكرت ، الحذر والتحفظ . وقد رأينا أن المستشرقين أنفسهم قد اختلفوا ، وتعددت عندهم المصادر المفترضة للعنصر العربى الواحد ، واحتدم الجدال بينهم حتى أن البعض منهم رمى دراسات البعض الآخر بالشطط والسفاهة .

— ٢ —

نظرية الاستنباط

المبدأ الرئيسى الثانى للدراسات الأثرية الاسلامية هو العناية بنظرية « الاستنباط » . وإذا كان بعض المستشرقين قد تمسك بقول ابن خلدون « إن العرب كانت أمة بدوية فى أول أمرها وإنهم كانوا أبعد الناس عن الصنائع » ، فان قليلا منهم أشار إلى تكملة آراء ابن خلدون الذى قرر فى تلك الصفحات نفسها من مقدمته أن العرب أنشأوا بعد الفتوحات الاسلامية عواصم جديدة فى الدولة العربية ، مثل مصر والقاهرة ودمشق وقرطبة وبغداد وغيرهـا ؛ وأن أسباب الحضارة والعمران والترف فى تلك العواصم دفعت أولئك العرب منذ العصور الاسلامية الأولى إلى استخدام ملكاتهم الفكرية « لاستنباط أصناف الصنائع ومركباتها » (١) ، أو باصطلاح آخر ، لاستنباط عناصر البناء وتعبيرات الفنون .

---

(١) ابن خلدون ، « مقدمة » ، صفحة ٩٢٣ .

لا تقتصر عناصر العمارة على كونها محاولات لحل مسائل هندسية فنية ، ولا تقتصر أساليب الفنون على كونها «أصناف صنائع ومركبات» ، أو تجسيم لتعبيرات واتجاهات ، وانما ترتبط هذه وتلك ارتباطا وثيقاً بأسباب الحياة وأغراضها وظروفها المختلفة ، دينية وسياسية واجتماعية وعلمية واقتصادية وطبيعية . وكل هذا يجعل عناصر العمارة وتعبيرات الفنون تخضع لحاجات الانسان تبعا لظروفه المادية . وقد قيل إن الحاجة أم الاختراع . وهذا هو محور عملية «الاستنباط» . والذى لاشك فيه أن المجهود البشرى الفكرى هو أساس الحضارات كلها . وإنكار هذا المجهود بالنسبة للعرب هو إنكار للانسانية .

ولا تقتصر عملية «الاستنباط» على حيوية الملكات الفكرية . ونشاط المجهود العقلى ، إذ أن هنالك ملكات أخرى لا تقل أهمية عن الملكات الفكرية فى عملية الاستنباط واستمرار حركتها . وهذه هى ملكات الحس والشعور والخيال . وكانت هذه الملكات ، أو الغرائز ، تنبع ، عند العرب ، من القوى الدفينة فى حياتهم ، وكانت تختلف عن نظيراتها عند غيرهم من الدول والشعوب .

وقد تجاهل بعض المستشرقين أثر هذه الغرائز ، غرائز العقل والحس والخيال ، فى تشكيل العناصر المعمارية ، وابتكار التعبيرات الفنية ، فى الدولة العربية الاسلامية .

ثم ان العرب اتخذوا الاسلام دينا،وسخروا «فى خدمة هذه الديانة عقولهم الناضجة ، وخيالهم المتقد ، ومشاعرهم الحساسة ، وعلى هذا الأساس وحده ، نشأ الفن الاسلامى العربى وتطور» (١) .

وبينما تعلق المستشرقون بالقصص التى رواها المؤرخون عن مهندسين مسيحيين استجلبوا للعمل فى الدول العربية . وهى قصص لا تعدو فى جملتها ثلاثة أو أربعة ، فانهم لم يشيروا غير اشارات عابرة إلى المهندسين والعمال العرب . بالرغم من أن كتب المؤرخين العرب تردد ذكر هؤلاء

(١) أحمد فكرى ، «مسجد القيروان» ، صفحة ى .

البناة والعمال ، وأولهم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الذى اشترك بنفسه فى بناء الكعبة ، وفى بناء مسجده بالمدينة . وسجل البعض من هؤلاء البناة والعمال ورجال الفن أسماءهم على الحجارة أو التحف . واكتفى فى هذا الفصل بذكر أمثلة لذلك ، وسأشير إلى أسماء أخرى فى الفصول التالية من هذا الكتاب . ومن هذه الأمثلة سعد أبو عثمان الذى بنى قنطرة من قناطر خليج مصر ، فى عهد عبد العزيز بن مروان ، سنة تسع وستين (٦٨٨ م) (١) ، ومنهم يحى بن حنظلة الذى بنى مسجد عمرو عند زيادته فى عهد قرة بن شريك ، سنة اثنين وتسعين (٧٠٩ م) (٢) ، ومنهم صالح بن كيسان الذى أشرف على تعمير مسجد الرسول فى عهد الوليد ، سنة ٨٧ (٧٠٦ م)(٣) ، ومنهم اسحاق بن قبيصة الذى بنى قصرا لهشام بن عبد الملك (٤) . ومنهم فتح الله ، الذى بنى قبة مسجد الزيتونه بتونس فى سنة خمسين ومائتين (٨٦٤ م) (٥) .

وأضيف إلى أسماء هؤلاء العمال أحمد بن كثير الفارغانى ، وهو

(١) صفحة ١٤٦ من الجزء الثانى من كتاب « الخطط » للمقريزى ، وصفحة ١٢٠ من الجزء الرابع من « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لجامعه ومؤلفه ابراهيم بن محمد أيدمر العلائى ، الشهير باسم ابن دقماق ، والمتوفى سنة ٧٩٧ (١٣٩٩ م) ولم ينشر منه غير جزءين ، الرابع والخامس ، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٠٩ (١٨٩٢ م) .

(٢) صفحة ٢٤٨ من الجزء الثانى من « الخطط » للمقريزى .

(٣) صفحة ٥٦ من الجزء الثامن من كتاب « تاريخ الرسل والملوك » لمؤلفه أبو جرير الطبرى ، طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة ، سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨ م) ؛ وصفحة ٧ من « فتوح البلدان » للبلاذرى .

(٤) رقم ٣٢ تحت سنة ١٢٥ ، صفحة ٢٦ من الجزء الأول من « سرجع الكتابات العربية » ،

Combe, Sauvaget et Wiet: Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, Le Caire, 1931.

(٥) سجل الأستاذ (مارسيه) هذا الاسم على أنه « فتح » فقط ، واستغله للدلالة على أن «فتح» هذا كان نصرانى الأصل ، (non Musulman d'origine) تنظر صفحة ٨ من كتابه « العمارة الاسلامية الغربية » .

الذى بنى المقياس بجزيرة الروضة فى سنة سبع وأربعين ومائتين (٨٦١ م) (١)، وعبد الله بن القفاص الذى بنى مجنبات البهو وقبته فى مسجد الزيتونة بتونس ، وسجل اسمه واسم زملائه على تاج من تيجان أعمدتها ، وذلك فى سنة خمس وثمانين وثلمائة (٩٩٥ م) .

وأثر عملية « الاستنباط الفكرى » لا يقتصر على العمال العرب ، بل تعداهم إلى العمال الأجانب الذين اشتركوا معهم فى أعمال البناء ، أو عملوا تحت إشرافهم وإرشادهم . وإنى أفترض ، مثلا ، صحة ما ذكره المقريزى من أن ثلاثة اخوة مهندسين قدموا من الرها لبناء أسوار القاهرة وبواباتها فى عصر بدر الجمالى . وافترض كذلك صحة ما ذهب اليه العلماء المستشرقون ، الذين درسوا هذه الأسوار والبوابات ، من أن العناصر المعمارية والزخرفية فيها قد اقتبست من أصول عثر عليها فى الأناضول وأرمينيا وشمال سوريا والجزيرة وبيزنطه وروما ومصر القبطية . ولكن أحدا لا يستطيع أن ينكر الحقيقة الأثرية الثابتة من أنه لم تقم ، قبل سنة ٤٨٠ (١٠٨٧ م)، فى أى موطن من مواطن العمارة ، وفى أى عصر من عصورها ، مجموعة متكاملة متناسقة ، نظيرة أو شبيهة ، عن قريب أو بعيد ، لمجموعة بوابات القاهرة وأسوارها ، وأن هذه المجموعة فريدة حقاً فى تكوينها وروعتها ، بين الآثار المعمارية الحربية فى العصور الوسطى جميعا .

هذا مثل لأثر « الاستنباط الفكرى » فى تشكيل العمارة والفنون . وأود أن أضرب مثلا آخر لهذا الاستنباط فى الفكر العربى الصميم ، وهو تخطيط مدينة بغداد. ذكر المؤرخون (٢) أن الخليفة المنصور أشرف بنفسه على تخطيط

---

(١) صفحة ٣٨٢ من الجزء الأول من كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » للقاضى أحمد ، الشهير باسم ابن خلكان — طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٢٧٥ (١٨٥٩ م) . وصفحة ٣١١ من الجزء الثانى من كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لمؤلفه « جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى » ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٢ .

(٢) تنظر صفحة ٦٧ من الجزء الأول من كتاب « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ، لمؤلفه ابن الخطيب ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة ، سنة ١٩٣١ .

عاصمة ملكه حين اعتزم إنشاءها سنة ١٤٥ (٧٦٢ م) ، وأنه أحضر اثنين من المهندسين ، هما الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وأحضر معهما أهل المعرفة « ومثل لهم صفة المدينة التي في نفسه » (١) . وقد اعترف المستشرقون بأن تخطيط هذه العاصمة المستديرة يعتبر « أنموذجا من أهم نماذج تخطيط المدن التي عرفت في التاريخ » (٢) . وأستطيع أن

(١) أجمع المؤرخون على صحة هذه الرواية ، ينظر مثلا ، صفحة ٢٧٧ من الجزء الثالث من كتاب « تاريخ الرسل والملوك » للطبرى ، وصفحة ٦٧ من الجزء الأول من كتاب « تاريخ بغداد » .

(٢) هذا نص ما كتبه (كريسويل) في صفحة ١٨ من الجزء الثاني من كتاب « العمارة الاسلامية » : (one of the most remarkable examples of town planning that come down to us).

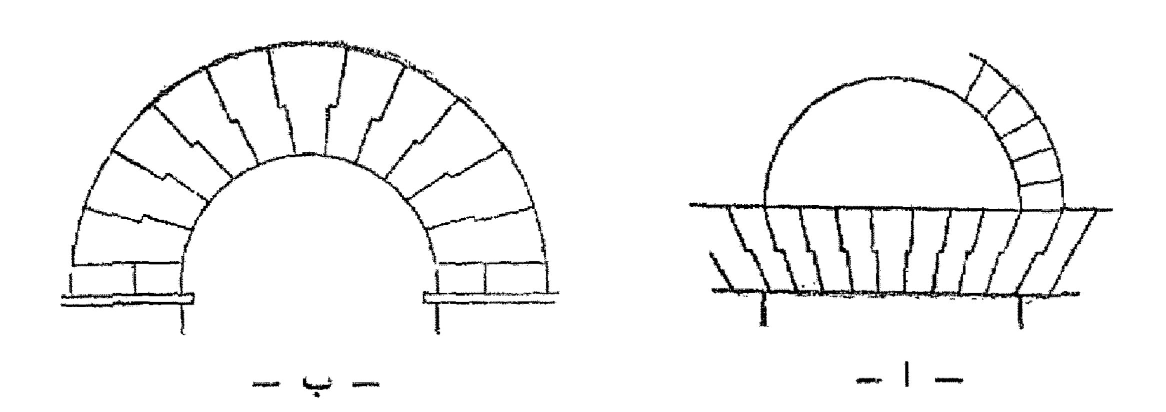
ويبدو أنه عز على المستشرقين الاعتراف بهذه الحقيقة ، فأخذوا يبحثون عن « مصدر » اشتقاق تخطيط مدينة بغداد ، وهداهم البحث إلى العثور على أطلال اثنتي عشرة مدينة مبعثرة في أنحاء العالم وفي مراحل التاريخ ، ينحصر تخطيطها في شكل دائري ، أو شبيه بالدائرة . وادعى (كريسويل) أن المنصور قد اشتق نظام « دار السلام » من احدى هذه المدن وخاصة من مدينة (داراب) . تنظر صفحة ٢١ من الجزء الثاني من كتاب (كريسويل) « العمارة الاسلامية » وصفحة ١٧٣ من كتابه « المختصر » . غير أن علماء الآثار لم يطمئنوا الاطمئنان كله إلى صحة هذا الاشتقاق ، الذى يسترد من العرب ، في رأيهم ، جزءاً من فضل ابتكار تخطيط عاصمة الخلافة . إذ أن هذا التخطيط كان يحوى عنصرا هاما لم يكن معروفا من قبل ، ولا يظهر أثر له في تخطيط المدن الاثنتي عشرة ، ولا في تخطيط مدينة (داراب) ، وهذا العنصر هو البوابة ذات الممر المنحرف إلى اليسار ، وهو مدخل لوحظ فيه أن يضطر الغزاة بعد اقتحامه الى الانحراف إلى اليسار للعبور من مدخل ثان ، فتتعرض جوانبهم اليمنى للسهام الموجهة اليهم من شرفات الحصن المقابل للمدخل ، وكان الجند يحملون الدروع بأيديهم اليسرى ، فتبقى جوانبهم اليمنى مكشوفة . كان هذا العنصر المبتكر مثارا لمناقشات طويلة بين علماء الآثار الذين ادعى بعضهم انه كان معروفا من قبل في بعض القلاع البيزنطية في شمال افريقية ، في حين أنكر البعض الآخر هذا الادعاء ، وأوضح أن المثل البيزنطي المعروف انما يرجع تاريخه إلى سنة ٨٠٩ ، أى بعد انشاء بغداد بما يقرب من مائة سنة . تراجع هذه الآراء ومناقشاتها في صفحات ١٧٥ إلى ١٧٩ من الجزء الثاني من كتاب (كريسويل) المشار اليه ، وصفحة ٢٤ إلى ٢٩ من كتابه (المختصر) .

أقرر فى ثقة تامة أنه ليس لهذا التخطيط نظير فى أى مدينة من المدن السابقة للفتوحات العربية ، وأنه تخطيط مبتكر صدر عن خيال الخليفة المنصور ، وحققه على الطبيعة المهندسان الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وذلك بعد تداول الرأى مع « أهل المعرفة » من مواطنيهم . والأمثلة الشبيهة بهذا المثل كثيرة ، رواها المؤرخون عن إنشاء القيروان والقاهرة وفاس وغيرها . وكان الخلفاء والولاة يتدخلون أنفسهم فى شئون التخطيط ، وكانوا يعملون الفكر والخيال لتوجيه البناة والصناع ورجال الفن .

ولا يقتصر أثر « الاستنباط الفكرى » على الابتكار ، فانه تدخل فيه عمليتا الاشتقاق والاقتباس ، وهما بالنسبة إلى العرب نوع من الابتكار . إذ أن العرب لم ينقلوا الاشكال نقلا قط ، ولم يقلدوا تقليدا فحسب ، بل كانوا دائما يبدلون ويحورون ويغيرون ، تبعا لما تمليه عليهم ملكاتهم الفكرية ، أو توحيه لهم غرائزهم وإحساساتهم الفطرية .

ومن أدلة ذلك اقتباساتهم من العقد الرومانى النصف الدائرى . فقد ابتكروا من العقد أشكالا متعددة ، منها العقد المطول والعقد المنفوخ والعقد المدبب ، ومشتقاتها ، ومنها العقد المنبعج والعقد المنبطح والعقد المنفرج ، ومشتقاتها ، ومنها العقد الثلاثى والعقد الخماسى والعقد المقصوص ، ومشتقاتها ، وقد أوردت فى شكلى (٤ و ٥) رسوم بعض هذه العقود العربية المبتكرة .

ومن أدلة الابتكار فى الاشتقاق عنصر الصنج المعشقة . كان هذا العنصر معروفا قبل الفتوحات العربية ، وكان نادر الاستعمال . وقد عثر على أمثلة قليلة منفردة منه فى آثار من بلاد الشرق وبلاد الغرب . وإنى أنشر على الصفحة التالية رسمين لأثرين من هذه الآثار ، أحدهما لعتبة باب فى المسرح الرومانى فى مدينة (اورانج) بجنوب فرنسا ، وقد أقيم فى القرن الثانى بعد الميلاد ، والرسم الثانى لعقد فى ضريح (تيودوريك) فى مدينة (رافنا) بشمال ايطاليا ، وقد بنى فى أوائل القرن السادس الميلادى ، شكل (٦) . واستخدمت الصنج المعشقة فى العمارة العربية ، وأقدم مثل عربى معروف لها يوجد فى قصر الحير الشرقى الذى أقامه هشام بن عبد الملك فى سنة ١١٠ (٧٢٨ م) . وانتشر

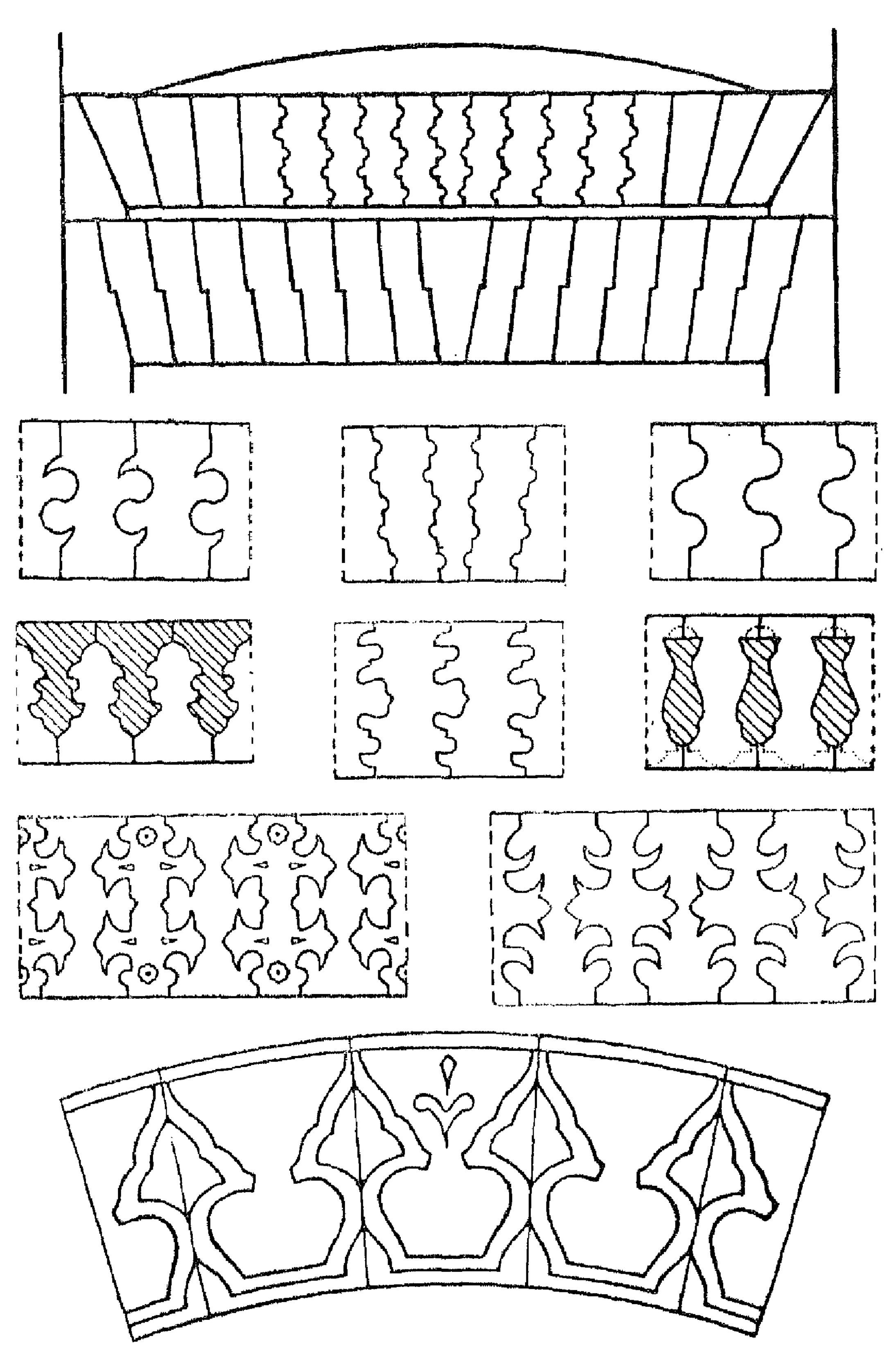


شكل (٦) — استخدام الصنج المعشقة فى العمارة الرومانية : ا — (رافنا) فى ايطاليا ، (ب) — (اورانج) فى جنوب فرنسا.

استعمال هذا العنصر المعمارى فى جميع الدول العربية ، وأصبح عنصرا هاما من عناصر العمارة العربية الاسلامية .

لاشك أن البناء العربى قد أدرك القيمة العملية لعنصر الصنج المعشقة ، وهو عنصر يجعل من الممكن بناء عتبات أفقية من قطع حجرية متلاصقة أو متعاشقة ، وكان المتبع من قبل أن تبنى مثل هذه العتبات من كتلة حجرية واحدة ، وكان من الصعب الحصول على مثل هذه الكتلة فى جميع الأحيان ، كما أن استخدامها كان يتطلب مجهودا كبيرا فى البناء من حيث ضخامتها وثقلها . ولهذا اقتبس البناء العربى هذا العنصر من العمارة الرومانية ، أو من غيرها من العمارة القديمة . ولكن هذا البناء العربى لم ينقل الشكل نقلا ، بل جعله ، من حيث الجوهر ، أقوى تماسكا ، ومن حيث المظهر ، أبدع شكلا ، ثم انه حور فيه تحويرا شديدا ، وبدله ؛ وصبغه « بصبغة يتلاشى تحتها أصل موطنه ومنبعه » (١) . وتتضح هذه النظرية وضوحا تاما من النظر إلى الشكل (٧) فى الصفحة المقابلة ، وفيه رسم لبعض نماذج من الصنج المعشقة فى عمارة القاهرة .

(١) أحمد فكرى ، « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ى .



شكل (٧) — أشكال مبتكرة من الصنج المعشقة فى العمارة العربية الاسلامية بالقاهرة — من رسم المؤلف .

— ٣ —

نظرية التطور

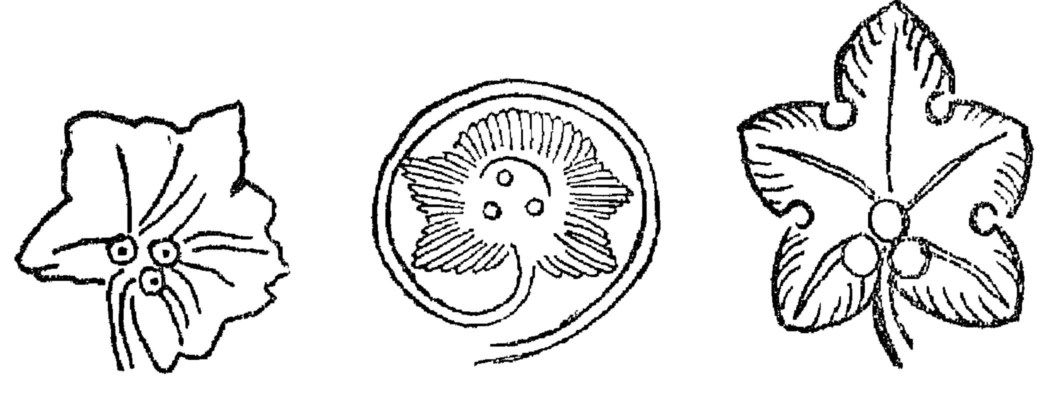
ينقلنا مثل « الصنج المعشقة » إلى المبدأ الرئيسى الثالث فى دراسة الآثار العربية الإسلامية ، وهو مبدأ « التطور » . والتطور مظهر من مظاهر « الاقتباس » و « الاستنباط » : أو هو حلقة من حلقاتها ؛ ولكنها حلقة طبيعية تعقد وفقاً لقوانين فرضها سنة النمو والتقدم . وقد عاونت عوامل على إتمامها ، منها أسباب العمران والترف فى الشعب العربى ، ودرجة التجارب التى اكتسبها رجال الفن فيه ، ومستوى الاتقان الذى بلغته وسائل هذه التجارب .

وكانت فى بلاد الشام والجزيرة وفارس ومصر وإفريقية والأندلس وغيرها من البلاد التى فتحها العرب آثار لا حصر لعددها من معابد قديمة وكنائس وأديرة مسيحية ، وكانت فيها جملة من الأشكال التخطيطية والعناصر المعمارية منها : المثمن والدائرة والطاقة والتجويف والأبهاء والبوائك والجدران الحجرية والآجرية والدعامات والأساطين والأعمدة والتيجان والمساند والعقود والسقف المبنية والقبوات والقباب والمقرنصات المثلثة والمعقودة ، وغير ذلك . كما كانت تعرف وتمارس فيها جملة من الصناعات الفنية ، مثل الخزف والسجاد والزجاج والأخشاب والمعادن .

وقد اقتبس العمال العرب وسائل وأشكالا من هذه العناصر والصناعات ، واشتقوا منها عناصر أخرى ، وأضافوا اليها عناصر ابتكروها ، وتكونت من كل ذلك مجموعة جديدة من الأساليب الزخرفية والعناصر المعمارية . ولكن هذه الأساليب والعناصر لم تستقر على حالها المقتبس أو المبتكر ، بل أخذت تتبع قانون النمو والتطور ، وأخذت الطاقة الحيوية للفنان العربى تنصب على الأشكال المرئية فتمتصها ثم تدفعها فى مجرى الحياة طوال القرون

المتعاقبة . وكانت نتيجة هذه الحركة الدائمة أن استبانت خصائص الفن العربى ، وتأكدت شخصيته ، واتضحت أصالته .

وتنطبق هذه الظاهرة على جميع العناصر والأساليب والصناعات التى تتكون منها الفنون العربية الاسلامية . ومن أمثلة ذلك عنصر « ورقة العنب » فى الزخرفة العربية .



شكل (٨) — رسوم لورقة العنب من الفن القبطى

كانت « ورقة العنب » تعبيرا من التعبيرات الزخرفية فى الفنون القديمة ، وأضافها الفن القبطى إلى تعبيراته ، شكل (٨). وقد حاول هذا الفنّ أن



شكل (٩) — رسوم لورقة العنب من زخارف المسجد الأقصى .

يقرب مظهرها الزخرفى من مظهرها الطبيعى ، ولم تتح لها الفرصة أن تتطور كثيرا ، فاحتفظت بأسلوبها التقليدى .

واقتبس الفن العربى بدوره هذا العنصر ، « ورقة العنب » ، شكل (٩)،

وأضافه إلى تعبيراته الزخرفية . وسواء اشتق الفنان العربى أشكاله الأولى من الفنون المسيحية ، كما يبدو فى الشكل السابق ، أو استوحاها مباشرة من الطبيعة ، فان « ورقة العنب » كان لها فى الفن العربى تاريخ طويل ، لم تستقر فيه على صورة واحدة ، بل أخذت سبيلها إلى التطور ، كما يتضح من شكل (١٠)،متأثرة فى ذلك بالعوامل الطبيعية والمادية والفنية التى أشرت إلى بعضها فى الصفحات السابقة ، والتى سأشير إلى البعض الآخر منها فى الصفحات التالية .

خرجت « ورقة العنب » فى زخارف الفن العربى الاسلامى ، من جمودها وجفافها ، وخلعت رداءها التقليدى ، وكأنها ألقيت فى مهب الريح ، تفتحت تارة وانكمشت تارة أخرى ، وهشت أحيانا وانتقبت أحيانا أخرى ، واعتدلت أو انحرفت ، وانبسطت أو انشقت ، واستوت أطرافها أو تضرست ، وتشكلت بأشكال غريبة ، حتى كادت تفقد خصائص مظهرها ، وأصبحت فى بعض هذه الأشكال نسجا من الخيال ، خيوطا متصلة ، أو خروما ملتصقة ، لا ورقة ممتلئة .

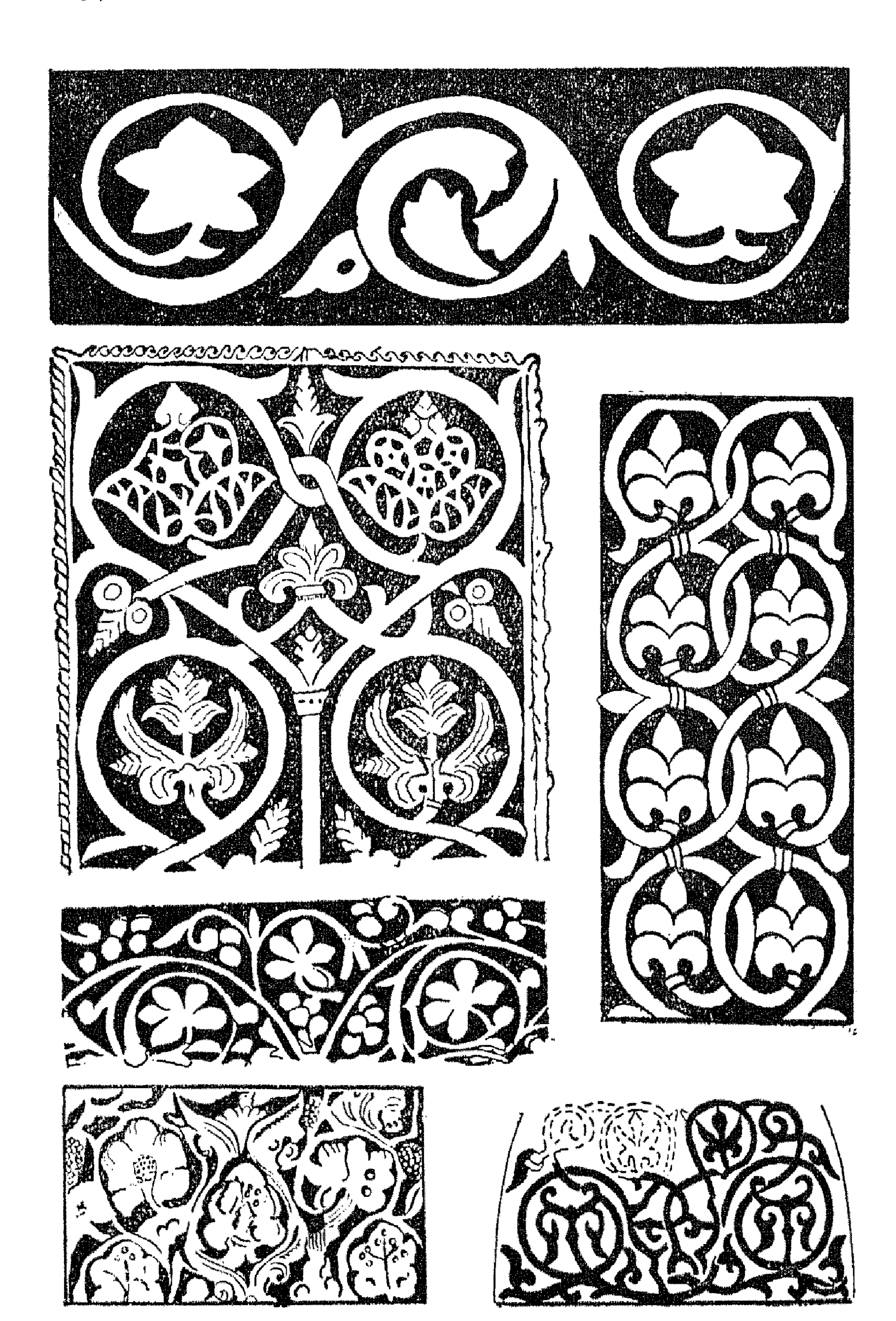
وقد اعترف كثير من علماء الآثار بنظرية التطور وأثرها فى أصالة الفنون العربية . ومن ذلك ما ذكره (دعماند) من أن « المنسوجات كانت فى أوائل العصر الاسلامى تنسج وفقاً للأساليب والطرز التى كانت متبعة فى صناعة النسيج عند القبط والساسانيين ، غير أن طرازا اسلاميا أصيلا خالصا أخذ ينمو تدريجيا ويتطور ويسود جميع البلاد التى خضعت لحكم العرب »(١).

---

(١) صفحة ٢٤٩ من كتاب « الفنون الاسلامية » تأليف م. س. ديماند، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم أحمد فكرى ، طبع مؤسسة فرانكلين ودار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٥٤ :

M.S. Dimand: A handbook of Muhammadan Art, Metropolitan Museum of Art, New-York, 1947.

وقد كتبت تصديرا لترجمة هذا الكتاب ، وأوردت فيه أدلة كثيرة ، مستقاة من الأصل الانجليزى ، على نواحى الأصالة فى الاقتباس والاشتقاق ، كما أوضحت أثر التطور والنمو فى ابتكارات الفنون العربية فى العصور الاسلامية .



شكل (١٠) — رسوم زخرفية لورقة العنب من مساجد عمرو والقيروان وقرطبة ومن منبر القيروان ومسجد الحاكم .

وظاهرة النمو والتطور التى أصابت صناعة المنسوجات شملت جميع الصناعات وأطراف الفنون فى الدول العربية بعد الاسلام . وأصبح لكل فن من الفنون ، كما أصبح لكل رجل من رجال الفن ، خصائص مميزة له . وغدت الفنون العربية الاسلامية تمتاز بتنوعها الشديد ، « تنوعا بلغ من الشدة حدا يصعب معه كثيرا أن نجد فى هذه الفنون تحفتين متماثلتين تماما » .

وثمة حقيقة أخرى ، وهى أن آلافا من المبانى ، وآلاف الآلاف من التحف ، قد اندثرت منذ القرن الأول الهجرى . وكانت جميعا من انتاج العمال والصناع ورجال الفن فى مختلف الدول العربية ، وفى مختلف العصور . واختفت تبعا لذلك بعض حلقات التطور . ولم يراع المستشرقون دائما هذه الحقيقة فى دراساتهم ، مما جعل بعضهم يلتمس المصادر من الفنون القديمة أو المسيحية كلما واجه بناء أو عنصرا عربيا جديدا ، بدلا من أن يحاول البحث فى البلاد العربية نفسها عن الحلقة المفقودة من حلقات تطور هذا البناء أو العنصر .

ومن أمثلة ذلك واجهة مجموعة قلاوون التى تم بناؤها فى القاهرة فى سنة ٦٨٤ (١٢٨٥ م) . فقد بدا لعلماء الآثار الأجانب الذين كتبوا عن هذه الواجهة أنها غريبة من حيث الدعامات التى تلتصق بها ، ومن حيث النوافذ المزدوجة والدوائر المفتوحة فيها ، فادعى البعض أنها اشتقت من عمارة الصليبيين القوطية ، وادعى البعض الآخر أنها اشتقت من العمارة اللاتينية الرومانسكية فى صقلية وايطاليا . وسنرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب أن هـذه العناصر حلقة من سلسـلة تطور طبيعى لعنـاصر استخدمت قبل مجموعة قلاوون بأربعة قرون على الأقل . ولكن هؤلاء الكتاب المستشرقين لم يحاولوا أن يتجهوا أولا إلى تتبع هذه الحلقات ، ولم يعيروا أهمية ستة قرون ونصف مضت على فتح العرب الديار المصرية ، قبل بناء مجموعة قلاوون ، ولم يقدروا ما حملته تلك الحقبة التاريخية الطويلة من الأحداث السياسية والاجتماعية ، والتطورات العقلية والشعورية .

— ٤ —

نظرية الوحدة العربية

والمبدأ الرابع من المنهاج العامى الذى أرى ضرورة الأخذ به عند دراسة الآثار والفنون الاسلامية هو نظرية الوحدة الفنية فى الدول العربية . كان المستشرقون ، أول الأمر ، يتخذون « الفن العربى » مدلولا للفنون الاسلامية . ثم أهملوا هذه التسمية ، أو أنكروها ، وحذفوا لفظ « العربى » منها (١) . وكان السبب الذى دفع المستشرقين إلى ذلك ما ذكرته من أنهم يفترضون أن البلاد العربية كانت « فراغا » فنيا ، ويدعون أن العرب لم يجلبوا معهم إلى البلاد التى فتحوها انتاجا فنيا يصح أن ينسب اليهم . وأن صح هذا الادعاء ، فان هنالك حقيقة لا سبيل إلى انكارها ، وهى أن الفنون قد اتخذت بعد الفتوحات الاسلامية ، فى الدول العربية ، من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى ، طابعا واضحا ينطق بالوحدة الفنية ، مظهرا وجوهرا . وهو طابع يعبر عن سعة الخيال ، ورقة الحساسية ، ودقة الملاحظة ، وتدفق الحياة ، وهى غرائز وصفات امتاز بها الفنان العربى ، على مدى الأجيال وفى مختلف البلدان .

الفنون العربية تمتاز بوحدتها التعبيرية ، وإذا كنت قد أشرت من قبل إلى أنها تمتاز كذلك بشدة التنوع ، الذى أصبح خاصية من خصائصها ، فان هذا التنوع فى الأساليب الفنية لا يتعارض مع خاصية الوحدة ، لأنه تنوع شبيه باختلاف لهجات اللغة الواحدة ، فى الدول العربية .

ولهذا فانى أعتقد أن التسمية الصحيحة للفنون الاسلامية فى الدول

---

(١) يستخدم المستشرقون لفظ « المسلمى » أو « المحمدى » : (Muslim) (Muhammadan) فيما عدا العلماء الألمان ، فقد اصطلحوا على لفظ « الاسلام » (Islam) ومشتقاته .

العربية يجب أن تشمل صفة العروبة ، وأن الفنون فى هذه الدول يجب أن تعرف بالفنون العربية الاسلامية . وسوف لا يخلو فصل من فصول هذا الكتاب من ايضاح هذه الحقيقة وتأكيدها ، بل أن الفصل العاشر من هذا المدخل مخصص جميعه لشرح أساس هذه الوحدة ، أساس بنى على العناصر التخطيطية للمساجد الجامعة فى الدول العربية . ويكفينى فى هذا المدخل أن أشير إلى مثلين للوحدة الفنية من أمثلة لا حصر لعددها : أولها الزخارف الهندسية ، وثانيها الكتابة ، وهما عنصران من خصائص الفنون الاسلامية .

أما الزخارف الهندسية ، فقد كانت معروفة فى الفنون الرومانية ، غير أن استعمالها كان محدودا ، فضلا عن أن رسوماتها كانت تدل على « فقر فى الخيال » (١) . وتطورت هذه الزخارف تطورا عظيما فى الفنون الاسلامية ، أو على الأصح ، حدث هذا التطور بعد ظهور الاسلام . وإذا كان هذا الأسلوب الهندسى الزخرفى قد انتشر انتشارا واسعا لانظير له فى تاريخ الفنون ، فان هذه الظاهرة قد تمت أولا بفضل العرب ، أو بعبارة أوضح ، قد نبعت من خصب الخيال العربى . وقد انطبعت الزخرفة الهندسية ، التى أوحاها هذا الخيال ، بوحدة فى أساليبها ، وحدة فريدة كذلك فى تاريخ الفنون ، من حيث المكان ومن حيث الزمان ، لأنها تمتد فى جميع البلاد العربية ، من العراق إلى الأندلس ، ولأنها ما زالت قائمة إلى وقتنا هذا ، منذ أقدم الآثار والتحف العربية الاسلامية من القرن الأول الهجرى ، بل انها تعدت حدود الدول العربية إلى الدول الاسلامية شرقا ، والدول المسيحية شمالا وغربا .

وتنوعت الزخارف الهندسية تنوعا كبيرا ، كما سنرى فى أبواب

---

(١) صفحة ١٣٩ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) « العمارة الاسلامية » ، وصفحة ٧٥ من كتابه « المختصر » . ونص ما جاء فى هاتين الصفحتين هو :

« Geometrical ornament was known in Roman times, but its use was restricted and the designs show a poverty of imagination, its full development belongs to the art of Islam ».

هذا الكتاب ، إلى حد أن الباحث فى هذه المجموعات الزخرفية المنتشرة فى جميع البلاد العربية ، قد لايستعصى عليه أن يجد فيها أى شكل من الأشكال الهندسية جميعا ، سواء كانت مبسطة أو مركبة ، متداخلة أو متشابكة ، مقسمة أو معقدة أو مثقلة . « ينفرد العربى بخياله الهندسى الذى ينصب على الكتلة ، فيقسمها ويجزئها ، ويحولها إلى خطوط ومنحنيات تتكرر ، وتتعاقب ، وتتبادل ، وتمتد إلى ما لانهاية ، حتى لايكاد الناظر اليها يحدد بدايتها أو نهايتها » (١) . ومظاهر هذا الخيال الواضحة فى الزخرفة الهندسية هى أكبر دليل على تطبع الفنون الاسلامية فى الدول العربية بطابع العروبة ، عاطفة وخيالا ، كما تطبعت مساجدها ومبانيها بطابع الاسلام ، عقيدة ودينا .

وأما الكتابة ، فانها لم تستخدم فى الآثار والفنون كلها ، وفى جميع العصور ، كعنصر زخرفى ، مثل ما استخدمت فى الآثار الاسلامية . وعنصر الكتابة هذا يعتبر وحده دليلا قاطعا على الوحدة العربية لهذه الآثار .

شكل (١١) — الخط العربى فى بداية العصر الاسلامى — عن مشهد قبر من سنة ٣١ (٦٥١ م).

« كانت الحروف العربية منبعجة ، مفرطحة ، متباينة الأشكال ، وكانت أبعد حروف الكتابة فى جميع اللغات عن المظهر الزخرفى » ، شكل (١١) .

(١) أحمد فكرى : « عوامل الوحدة فى الآثار الاسلامية بالبلاد العربية » ، ص ٢٧٢ ، من : المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ، فاس ١٩٥٩ ، مطبوعات جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦١ .

ولعل ما وصلت اليه هذه الحروف من المكانة الفنية يعد من أكثر التطورات التاريخية غرابة . فقد أصبحت الكتابة العربية أولى الكتابة كلها تناسقا وأبدعها زخرفا . واستطاع رجال الفن أن يضعوا لها قواعد وأصولا ، روعى فيها أن تؤدى صور الحروف حسنا فى العين « شبيها بحسن مخارج اللفظ العذب فى السمع » (١) .

شكل (١٢) — نماذج من الخط العربى من القرنين الثانى والثالث الهجرى .

« سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة ؟ قال : إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوره ، وتفتحت عيونه ، ولم تشتبه راؤه ونونه ، ..... ، وتساوت أطنابه ، واستدارت أهدابه ، وصغرت نواجذه ، وانفتحت محاجره ، (وقام لكاتبه مقام النسبة والحلية) ، وخيل أنه يتحرك وهو ساكن » (٢) .

« ومازال رجال الفن العربى يخضعون هذه الحروف لغريزتهم الزخرفية ، بالتطويل تارة ، وبالحشو تاره أخرى ، وبالتبسيط والانتقاء والتسلسل ، حتى اكتسبت رؤوس الحروف وأطرافها وضوحا فى المعنى وفى التسطير .

(١) المرجع السابق — صفحة ٢٧٠ — ٢٧١ . وأحمد فكرى : « ماشاء الله » ، مقال فى مجلة الكاتب المصرى ، مجلد ١ ، عدد ٤ ، يناير ١٩٤٦ ، ص ٥٦٩ — ٥٧٦ .

(٢) صفحة ١٥ من السفر السابع من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » تأليف النويرى ، وصفحة ٦٥ من كتاب « قصة الكتابة العربية » لمؤلفه الدكتور ابراهيم جمعه ، مجموعة « اقرأ » رقم ٥٣ ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٤٧ .

— ١ —

— ٢ —

— ٣ — — ٤ —

— ٥ — — ٦ — — ٧ —

— ٨ —

شكل (١٣) — نماذج من الخط العربى — ١ — من مسجد قوص فى سنة ٥٥٠ (١١٥٥ م) — ٢ — من شاهد قبر تاريخه ٢٤٣ (٨٥٧ م) — ٣ — من مسجد الصالح طلائع حوالى سنة ٥٥٠ (١١٥٥م) — ٤ — من مقصورة مسجد القيروان فى سنة ٤٤١ (١٠٤٩ م) — ٥ — من مسجد الزيتونة بتونس (٢٥٠ — ٨٦٤ م) — ٦ — من مدينة الزهراء (٣٢٥ — ٩٣٦ م) — ٧ — من مسجد الأزهر (٣٦٠ — ٩٧١ م) — ٨ — من مسجد الحاكم (٤٠٣ — ١٠١٣م) . من رسم المؤلف .

« بدأ الخط الكوفى (١) مرحلته الأثرية مرتبطا بالبناء ، متمما له مندمجا فيه ، فأفاض على بساطة جدرانه روحا من السلاسة والاطمئنان ، شكل (١٢) . وتجمعت فى هذه الكتابة العربية كل معانى الزخرف والجمال ، فما كان البناء جميلا إلا بها . وسرعان ما استقرت فكرة الجمال هذه فى النفوس ، وتمكنت منها ، حتى تخطت الكتابة الكوفية المبانى ، وانتشرت على كل ما كان ينتجه رجال الفن الاسلامى من الأثاث والأقمشة والأوانى .

« واتخذت الكتابة الكوفية ، أول الأمر ، زخرفها من حليتها . فلما تكونت أسسها وأصولها ، واستخرجت منها صور قائمة بذاتها ، أصبحت عنصرا منفردا من أهم عناصر الزخرفة الاسلامية . وما لبثت أن تطورت هذه الصور وتنوعت ، شكل (١٣) ، واكتست حلية وزخرفا ، مشتقة من الأزهار والنباتات ، وتفرعت منها عروق وسيقان ، وتشعبت ، وتعقدت ، وتعانقت ، وطغت عليها الزخارف ، حتى أصبح النظر يضطرب حائرا بين إبداع مظاهرها ومعانيها . إذ كان هذا الخط الجميل البديع يحمل فى حروفه تعبيرا دفينا ، وكان ينشر أمام المؤمنين آيات القرآن الكريم ، فكان يبهر أنظارهم ، ويحرك مشاعرهم ، ويثير إيمانهم . وقد أراد رجال الفن العربى أن يكون لكتابتهم معنى أسمى من الزخرف العادى ، فأودعوها سرا يجتذب النظر إلى واجهات المساجد وإطارات المحاريب ، ويحمل الناظر اليها على الخشوع والأعجاب » (٢) .

---

(١) ذكر الكتاب العرب المتقدمين أن أول من اخترع الكتابة العربية على الوضع الكوفى سكان مدينة الأنبار ، ومنها نقل إلى مكة ، ثم أن الوزير أبا على بن مقلة عرب هذه الكتابة تعريبا غير كاف ، وظهر على بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب ، فأكمل تعريبها . ينظر المرجعين السابقين ص ٣ وما بعدها من «نهاية الأرب » و ص ٥٦ وما بعدها من « قصة الكتابة العربية » ، وخاصة صفحة ١١ وما يليها من الجزء الثالث من « صبح الأعشى » للقلقشندى .

(٢) « عوامل الوحدة فى الآثار الاسلامية بالبلاد العربية » للمؤلف ، ص ٢٧١ .

* * *

اتبع الخط العربي أساليب تطوره هذه فى جميع البلاد العربية ، وأصبح علامة التعريف بوحدة فنونها الاسلامية .

وهكذا تعبر الكتابة العربية أحسن تعبير عن النظريات الأربعة التى شملها هذا الفصل ، وتلخص مبادئها تلخيصا واضحا .

الكتابة العربية نبعت فى الجزيرة العربية ، فهى تمثل الأصول العربية للفنون الاسلامية ؛ والكتابة العربية نشأت كعنصر فنى من استنباط الكاتب العربي والفنان المسلم ؛ والكتابة العربية تنوعت وتجملت وتأنقت إثر مرحلة طويلة من النمو والتطور ؛ والكتابة العربية تمثل الوحدة الفردية فى تكامل حروفها وعناصرها فى المجموعة الفنية الواحدة ، وتمثل الوحدة الجماعية فى ارتباط هذه المجموعة الفردية ارتباطا وثيقا بالمجموعة العربية الشاملة .



شكل (١٤) — آية قرآنية مكتوبة بالخط الكوفى على إطار من الجص فى مسجد الجيوش (٤٨٧ — ١٠٨٥ م) .

الباب الثانى

آثار العرب قبل إنشاء القاهرة

الفصل الثالث

عواصم الديار المصرية قبل إنشاء القاهرة

١ – فتح العرب وإنشاء الفسطاط .

٢ – امتداد الفسطاط إلى العسكر .

٣ – القطائع .

الفصل الثالث

عواصم الديار المصرية قبل إنشاء القاهرة

— ١ —

الفسطاط والعسكر

تبدأ بفتح العرب ديار مصر حلقة جديدة حاسمة فى تاريخ هذه البلاد وهى الحلقة التى تمتد إلى أيامنا هذه ، والتى تكونت فيها قومية عربية جديدة . تبدأ هذه المرحلة التاريخية العظيمة فى اليوم الثامن عشر من شهر ربيع الثانى من سنة عشرين للهجرة (٦ ابريل ٦٤١ م) ، وهو اليوم الذى تم للعرب فيه فتح مصر والاستيلاء على حصن بابليون . وقد تغيرت منذ ذلك التاريخ مصائر المصريين . وسواء أسلم أهل البلاد ، وتطعموا بدماء الشعب الفاتح ؛ أو استوطن الفاتحون ، واندمجوا فى المزيج الجنسى الذى كان يتكون منه الشعب المصرى حينذاك ، فانه قد انقطعت منذ ذلك العهد تلك البقية الباقية من الروابط التى كانت تربط المصريين بالفراعنة ؛ وانفصمت أو كادت تنفصم تماما ؛ روابط اللغة والدين والجنس والعقيدة والتقاليد والعادات ، تلك الروابط التى كانت ما زالت تمتد خيوطها الرقيقة بين سكان مصر فى بداية ذلك العهد ؛ وبين أهل مصر فى بداية تاريخهم القديم . ولم يبق لهؤلاء السكان من مقومات القومية المصرية غير ذلك النيل الوفى الخالد ؛ وتلك الأرض الكريمة الطيبة ، وتلك السماء الصحو الزاهية . لم يعد للمصريين ؛ منذ الفتح العربى ، من قدمائهم الفراعنة لحم ولا دم ، وبدأت القومية العربية تنشأ منذ ذلك العهد ؛ وتتدرج وتتمكن .

وكذلك انفصمت روابط الفنون ، وغدت عمارة قدماء المصريين أطلالا وآثارا ، وانحصرت فى سجل التاريخ ، ولم يعد لها ذكر ولا أثر فى عاصمة الدولة الجديدة التى انطبعت عمارتها : مقوماتها ومظاهرها وخصائصها ، بالطابع العربى الاسلامى الصميم ؟

كان إنشاء هذه العاصمة الجديدة أول أمر عنى به عمرو بن العاص غداة فوزه بفتح البلاد المصرية (١)، وكانت الاسكندرية هى عاصمة تلك البلاد قبل الفتح ، وكانت حينذاك قائمة زاهية بقصورها وحصونها ، ولكن عمرو لم يرض بها خشية أن يحول فيضان النيل بينها وبين سائر البلاد ، فيقطع صلتها أشهرا من كل سنة عن مقر الخلافة فى البلاد العربية . ولهذا لم يقع اختيار عمرو على مدينة الاسكندرية حرصا منه على أن يحقق رغبة الخليفة فى ألا يجعل بينه وبين المسلمين « بحرا » . وقيل بل صرف القبط عمرو عن الاسكندرية ، وبغضوه فيها ، لأنها كانت رمز العبودية والاحتلال

---

(١) المعلومات التاريخية الواردة فى هذا الفصل هى ملخص لمعلومات عامة رواها المؤرخون القدامى ، مثل ابن عبد الحكم ، والكندى ، والنويرى ، وابن دقماق ، والقلقشندى ، والمقريزى ، وأبو المحاسن ، والسيوطى . وقد نقلت الكتب الحديثة فى تاريخ مصر هذه المعلومات متصلة . ولهذا لم ير المؤلف ضرورة لاثبات مراجعها ومصادرها هنا ، خاصة وأنه سيشار اليها تباعا فى الفصول التالية .

ويجد القارىء بيانات وافية عن مراجع تاريخ الديار المصرية فى تلك الحقبة الممتدة من فتح العرب لها إلى نهاية عصر الأخشيديين فى الكتب التالية : الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : « مصر فى فجر الاسلام » ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، و « مصر فى عصر الأخشيديين » ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٠ ؛ الدكتور على ابراهيم حسن : « مصر فى العصور الوسطى » ، مكتبة النهضة ، ١٩٤٧ ؛ الدكتور مصطفى طه بدر : « مصر الاسلامية من الفتح الاسلامى حتى زوال الدولة الأخشيدية » مكتبة النهضة ، ١٩٥٤ ؛ ناصرو خسرو : « سفرنامه » ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ .

Lane - Poole (Stanley), The Story of Cairo, London, 1924;— A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936; Wiet (Gaston), L'Egypte Musulmane, (Tome II, 2° partie de précis de l'Histoire d'Egypte), Le Caire, 1932.

الكريه إلى نفوسهم . ولعل عمرو أراد ألا تحمل العاصمة الاسلامية ذكريات الاضطهاد البيزطى ، حتى يزداد رضاء القبط عنه وتعلقهم به .

والواقع أن العرب حرصوا فى فتوحاتهم الأولى على أن ينشئوا عواصم جديدة فى البلاد التى فتحوها . وأنشأ عمرو الفسطاط . كما أنشئت البصرة والكوفة قبل ذلك بسنوات ، وكما أنشئت القيروان بعد ذلك بثلاثين سنة . وقيل إن الفسطاط سمى بهذا الاسم لأنه كان موضع فسطاط عمرو ، أى خيمته ، وكان قد تركه مضروبا بمصر قبل توجهه لفتح الاسكندرية ، وكان موضعه قريبا من « قصر الشمع » على شاطىء النيل ، وهو قصر قديم كان حاكم مصر قبل الفتح الاسلامى ينزل فيه فى بعض فصول السنة . وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط بين منشأة عمرو وبين حصن بيزنطى قديم قيل إنه ربما كانت آثاره قائمة حينذاك فى ذلك الموضع ، وقيل كان اسم ذلك الحصن « فساطوم » . وادعى هؤلاء المستشرقون أن العاصمة الاسلامية أخذت اسمها من اسم ذلك الحصن ، وان نساخ الكتب حوروه إلى الفسطاط ، وكتبه البعض من هؤلاء الناسخين « الفسطاط ». والحقيقة التى لا شك فيها أن الفسطاط لا تربطها بذلك الحصن رابطة ما : لا من حيث الموقع ، ولا من حيث العمارة والتخطيط . أما من حيث الاسم فليست بنا حاجة إلى التنويه بعربيته الأصيلة . ولكنى أود أن أقرر هنا أن العرب ، فى الأجيال المتعاقبة وفى العالم العربى كله قد تناقلوا اسم الفسطاط منذ أيام عمرو بن العاص ، شفاهة وسماعا ، قبل أن يتداولوه كتابة وقراءة ، وأنهم أملوه على نساخ الكتب منذ ذلك العصر الأول ؛ ومن البداهة أن النساخ لا يتحكمون فى اسم عاصمة قائمة يعيش أهلها فيها ، يؤمها الناس من جميع الجهات ، وينطقون باسمها فى كل يوم ؛ وفى جميع الأقطار العربية .

اختطت مدينة الفسطاط سنة إحدى وعشرين (٦٤٢ م) ، وتقاسمت القبائل خططها ، وسميت كل خطة باسم القبيلة التى اختطتها . فكان منها خطة مهرة ، وخطة رعين ، وخطط بنى غافق وبنى سبأ وبنى وائل . وأخذ الناس يتسابقون فيها على بناء الدور والمساجد . ويحدثنا المؤرخون

أن الفسطاط ظل « فى كل وقت يتزايد عمارته » ، ولم يمض زمن طويل حتى « صار غاية العمارة ونهاية الحسن ، به الآدر الأنيقة ، والمساجد القائمة ، والحمامات الباهية ، والقياسر الزاهية ، والمستنزهات الرائقة » ، وأن « الناس وصلوا اليه من سائر الأقطار ، وقصدوه من جميع الجهات ، فغص بسكانه ، وضاق فضاؤه الرحيب عن قطانه » .

ولم يكن لولاة مصر أول الأمر مقر رسمى ، ولا دار للامارة مخصصة لهم ، فاتخذ عمرو بن العاص الدار التى أقامها لسكنه ، على القرب من المسجد الجامع ، مقرا للحكم . ولم يزل كل وال من بعده يتخذ الدار التى كان بها سكنا للامارة ، واستمر الحال كذلك إلى نهاية الدولة الأموية . وكانت أكثر دور الولاة شهرة دار عبد العزيز بن مروان ، وهى التى بناها سنة ٦٧ (٦٨٧ م)، وسماها « دار الذهب » ، وجعل لها قبة مذهبة ، وكانت على حد قول الرواة « دارا واسعة الأطراف غنية البناء » . وكانت تقابل الفسطاط جزيرة الروضة ، وهى التى كانت معروفة بجزيرة الصناعة ، أى صناعة العمائر .



شكل (١٥) — زخرفة منحوته على الخشب فى مسجد عمرو العتيق من سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) .

— ٧ —

الفسطاط والعسكر

وأقيمت شمالى الفسطاط وبجوارها مدينة سميت «العسكر» ، أنشأها الأمير أبو عون سنة ١٣٥ (٧٥٢ م) . وهو ثانى ولاة الخلفاء العباسيين على مصر ، وظل الأمراء من بعده يقيمون بها حتى عهد أحمد بن طولون . وشيد أبو عون هذا بالعسكر دارا للامارة ، سكنها ، ثم اتخذت دارا للولاة من بعده ، وأخذت العسكر منذ نشأتها تزداد عمرانا ، وقيل «كانت مدينة ذات أسواق ودور عظيمة ومساجد» ، وكان بها مسجد جامع بناه الفضل بن صالح بن على سنة ١٦٩ (٧٨٥م) . وأخذ الولاة يتنافسون الواحد بعد الآخر فى إقامة الدور الفخمة بالعسكر . ومن بين هذه الدور دار عظيمة بناها ابراهيم بن صالح سنة ١٧٦ (٨٩٢ م) ، وأخرى شيدها حاتم بن هرثمة سنة ١٩٤ . (٨١٠ م) ، وأسماها «قبة الهواء» . وبنيت دار الامارة سنة ٢٠٠ (٨١٥ م) ، بناها سارى بن الحكم . وأخذت عمارة العسكر تمتد حتى اتصلت بالفسطاط ، وصارت منها عاصمة واحدة كبيرة للولاية المصرية .

وظل الفسطاط والعسكر عامرين حتى استخلف أحمد بن طولون على ولاية مصر فى سنة ٢٥٤ (٨٦٨ م) ، فتحول من العسكر بعد ذلك بسنتين ، وأنشأ ، كما سنرى بعد قليل ، مدينة القطائع ، بجوار جبل يشكر ، شمالى العسكر. وبنى ابن طولون لنفسه فيها قصر الميدان ، ولأهلها المسجد الجامع . وأخذ الفسطاط والعسكر منذ ذلك العهد «يتقهقر حالها ويتناقص» وازداد هذا الحال سوءا بعد دخول الفاطميين ، وإنشاء القاهرة فى سنة ٣٥٨ (٩٦٩ م) ، إذ أخذ أهلها يهجرونها تباعا إلى العاصمة الجديدة . وإن كانت الفسطاط قد ظلت تحتفظ بأهميتها التجارية والعمرانية ، ومما

يدل على ذلك أن ناصر خسرو ، وهو الرحالة الفارسي الذى زارها فى سنة ٤٣٩ (١٠٤٧ م) كتب وصفا شاملا عنها ، ذكر فيه أنه كان بها حينذاك سبعة مساجد ، أجلها المسجد العتيق — مسجد عمرو — وأنها كانت عامرة بالناس والبضائع والأسواق ، وأنها كانت عظيمة المبانى ، زاهرة الصناعة ، زاهية المظاهر ....

كان الخراب قد بدأ يحل بالعاصمة القديمة ، ثم أصابتها الكارثة فى أوائل سنة ٥٦٤ (١١٦٨ م) ، إذ كانت جيوش الفرنج قد أغارت فى تلك السنة على الديار المصرية ، واحتلت أطرافها ، ووصلت بلبيس ، وكانت جيوش شيركوه ، ومعه صلاح الدين الأيوبى ، قد وصلت هى الأخرى إلى أبواب القاهرة لصد الفرنج عنها وإخراج الصليبيين . وكان شاور السعدى ، وزير الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين ، هو الذى استنجد بالفرنج ، ولكنه خشى أن يغدروا به ، أو يؤخذ على غرة من الفريقين ، وأراد أن يتحصن بالقاهرة ، ويحمل أهلها وأهل الفسطاط على الدفاع عنها ، فأمر هؤلاء جميعا أن ينتقلوا إلى القاهرة ، وبعث إلى الفسطاط « بعشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء، فصار منظرا مهولا ، فاستمرت النيران تأتى على مساكن الفسطاط من اليوم التاسع والعشرين من صفر (سنة ٥٦٤) لتمام أربعة وخمسين يوما » .

واختفت أنقاض الفسطاط حتى كشف عنها أخيرا ، منذ نصف قرن . وأسفرت الحفائر التى أجريت فيها عن استخلاص صورة لما كانت عليه عمارة دورها . ويبدو أنه كان لكل دار فناء أو صحن وكان هذا الفناء يعتبر أهم عنصر من عناصر المسكن الاسلامى فى الفسطاط . ولم يكن هذا الفناء يتصل مباشرة بمدخل الدار ، بل كان يفصله عنه ممر متعرج ، أو قاعة ذات منافذ عديدة . وكان بالفناء حديقة ، كما كان يتوسطه منبع للمياه أو نافورة ، وتحيط به غرف متسعة مفتوحة تطل عليه بعقود وأعمدة على نظام

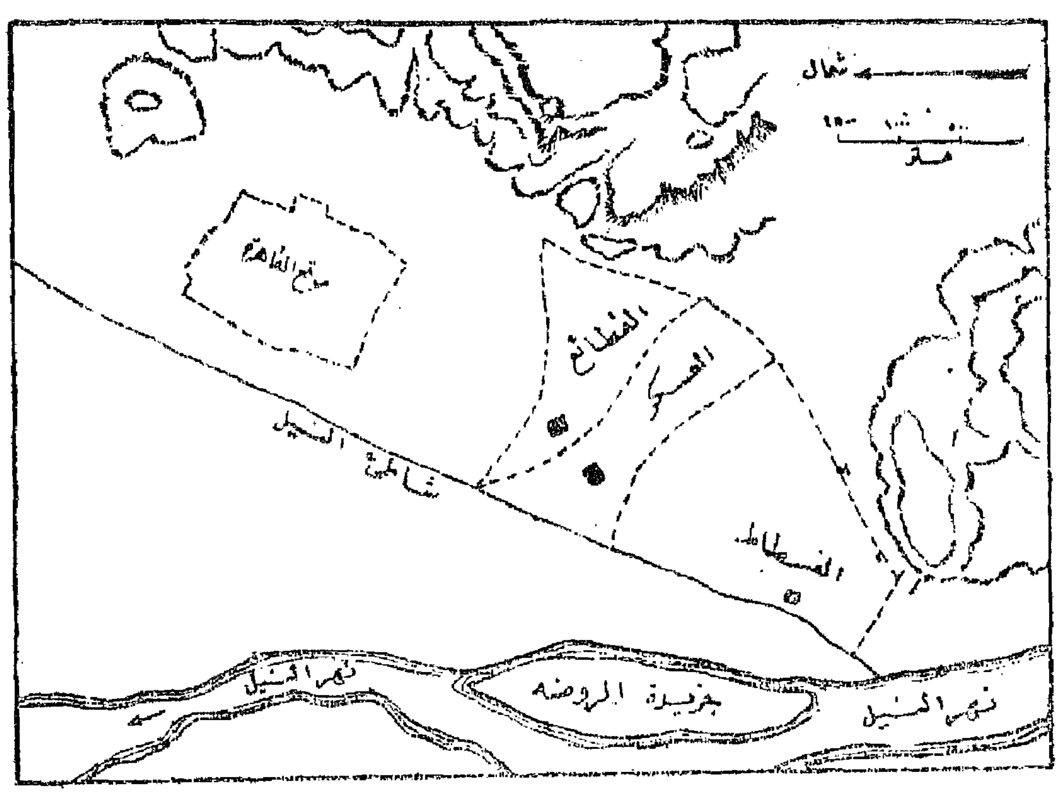
أروقة المساجد . وكانت أكثر الدور مكونة من طابق واحد تعلوه شرفة مسطحة . وكان السكان يعنون عناية خاصة بوسائل الصحة والنظافة فى المساكن ، إذ كان لكل دار مجموعة صحية مستقلة ، كما أنه كان يراعى أن تكون قنوات المياه مركبة تركيبا محكما . وكان أكثر بنيان هذه الدور بالآجر المحكوك والجص والجير . وقد عثر فى الحفائر على لوحات منقوشة من الجص وأخرى منحوتة من الخشب ، تدل على أن دور الفسطاط كانت محلاة بالنقوش على أفاريز تجرى حول الجدران والأبواب والنوافذ . وكانت النقوش الزخرفية مشتقة من النبات والأزهار وعثر فى الحفائر على كميات كبيرة من قطع من الخزف والفخار والزجاج والأقمشة والمعادن والأخشاب تؤيد ما رواه المؤرخون عن ازدهار الفنون والصناعات فى تلك العاصمة الاسلامية العتيقة .

— ٣ —

القطائع

ارتبطت بتاريخ القاهرة حلقة قصيرة من الزمن ، ولكنها كانت عميقة الأثر فى تطورها الاجتماعى والسياسى ، كما كانت غنية بآثارها المعمارية ، تلك كانت الفترة التى دامت ثمان وثلاثين سنة حكم فيها الطولونيون مصر ، من ٢٥٤ (٨٦٨ م) إلى ٢٩٢ (٩٠٥ م) . وكان الطولونيون أسرة من أصل تركى عميدها اسمه طولون ، وكان قائدا لحرس الخليفة العباسى ، المستعين بالله . وكذلك كان ابنه أحمد قائدا للخليفة المعتز بالله . وهو الذى أرسله إلى مصر سنة ٢٥٤ واليا عليها ، بالنيابة عن القائد التركى « باكباك » ثم استمر أحمد بن طولون فى ولايته عليها من قبل الخليفتين المهتدى بالله فالمعتمد على الله . ونزل ابن طولون ، عند قدومه ، بدار الامارة فى العسكر ، ولكنه لم يقم بها طويلا ، وأراد أن ينشىء عاصمة جديدة له ، يزداد اطمئنانه

إلى الاقامة فيها ، ويحقق بها أبهة الحكم الذى كان يطمع فى الوصول اليه ، ويجعل منها نظيرا ، أو منافسا لبغداد ، عاصمة الخلافة فى العراق ، فاختار ابن طولون لذلك مكانا فسيحا فى سفح جبل يشكر ، إلى الشمال الشرقى من الفسطاط والعسكر ، شكل (١٦).



شكل (١٦) — مواقع عواصم الديار المصرية على شاطئ النيل .

وكان أول أمر عنى به ابن طولون بناء قصر عظيم فى هذا الموقع ، يحده ميدان فسيح ، ثم أمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم حول هذا المكان بيوتا ، فاختطوها ، واقتطع كل واحد قطيعة بنى بها دارا ، وكانت كل قطيعة لطائفة تسمى بها ، فكانت قطيعة « السودان » وقطيعة « الروم » وقطيعة « الفراشين » ، وغير ذلك ، فعرف ذلك المكان بالقطائع .

ولا تتعدى معرفتنا بقصر ابن طولون ما ذكره المؤرخون من أنه كانت له أبواب كثيرة من كل جهة ، وأنه كان منها ثلاثة أبواب كبيرة عالية متصلة بعضها ببعض ، على شكل البوابات أو أقواس النصر .

وكان أحمد بن طولون يخرج من الباب الأوسط ، وتخرج الحاشية والعسكر من البابين الآخرين ، « فى ترتيب حسن وعرض جميل » . وهذا يدلنا على فخامة القصر ، وسعة الميدان ، وفسحة الطرق المحيطة بها . وهكذا أصبح للولاية المصرية لأول مرة فى العصور الاسلامية ، كما كان الحال لعواصم الخلافة فى بغداد وسامراء ، قصر للأمير ، وحاشية لها أبهة الملك وزينته وعظمته .

وخلف خمارويه أباه أحمد بن طولون بعد موته ، سنة ٢٧٠ (٨٨٣م) و « أقبل على عمارة قصر أبيه ، وزاد فيه محاسن كثيرة . وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة » . ثم بنى فى البستان « برجا من الخشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ، وطعمه ، ليقوم هذا البرج مقام الأقفاص ، وبلط أرضه ، وجعل فيها أنهارا لطافا » . وجعل خمارويه فى هذا البستان مجلسا له ، سماه دار الذهب ، طلى حيطانها كلها بالذهب واللازورد ، وجملها بالنقش والنحت والتصوير . فكان هذا القصر على حد ما يقول المؤرخون « من أعجب ما بنى فى الدنيا » فى ذلك العهد ، حتى تحدث الشعراء عنه ، وأطنبوا فى مدحه .

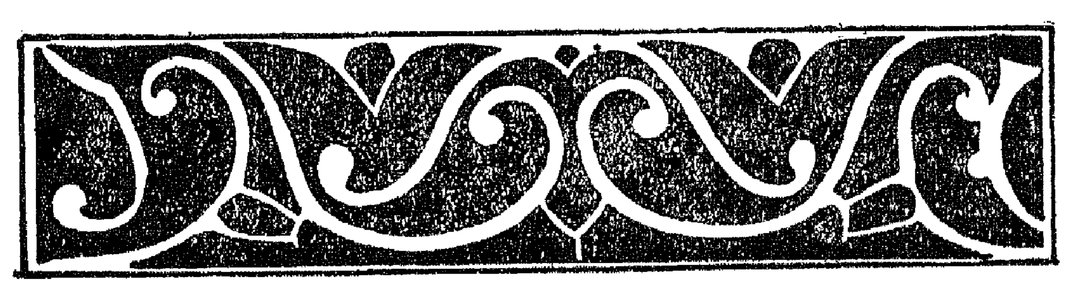
وكانت القطائع ، تلك العاصمة الجديدة ، واسعة فسيحة ، اذ قدرت مساحتها حينذاك بما يعادل أكثر من سبعمائة فدان . قيل كانت عمارتها حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وأقيمت فيها « المساجد والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع والبساتين والأسواق » واتصلت مبانيها بمبانى العسكر والفسطاط ، وكان الناس لم يهجروا بعد هاتين العاصمتين ، الا أن أهميتها أخذتا فى النقصان ، كما ذكرنا ، منذ ذلك العهد .

وأنشأ ابن طولون ، فيما أنشأه ، مسجدا جامعا ، ودارا للامارة بجوار هذا المسجد ، وأقام بناء البيمارستان الذى تشهد أقوال المؤرخين على أنه كان فى بنائه مستشفى دقيق النظام ، معدا بكل وسائل النظافة والعناية ، كما وضع له ابن طولون لوائح دقيقة لقبول المرضى وعلاجهم .

هذه صورة ما كانت عليه الديار المصرية من رخاء فى عصر الطولونيين ، وما كانت عليه عاصمتهم من الابداع والثراء . الا أن ذلك لم يدم طويلا . إذ أوفد الخليفة العباسى المكتفى قائده محمد بن سليمان لاسترداد الولاية المصرية من أبناء طولون . وما أن دخل هذا القائد الديار المصرية بجيوشه حتى خرب منازل الطولونيين ، وهدم القصر والميدان ، وأحرق القطائع ، وكان ذلك فى سنة ٢٩٢ (٩٠٥ م) .

يبدو أن الفترة التى امتدت من مقتل شيبان بن أحمد بن طولون وسقوط دولته فى سنة ٢٩٢ (٩٠٥ م) ، إلى دخول القائد جوهر الصقلى مصر فى سنة ٣٥٨ (٩٦٨ م) ، لم تضف كثيرا إلى عمران العاصمة ، وهى على كل حال لم تخلف أثرا يذكر ، فيما عدا مشهد الشريف طباطبا ، الذى يرجح بناؤه فى سنة ٣٣٤ (٩٤٣ م) . وقد انتهت هذه الفترة بولاية أسرة الأخشيد مدة أربعة وثلاثين سنة ، ابتداء من سنة ٣٢٣ (٩٣٤ م) . وكان الحكم الفعلى ، فى معظم هذه الفترة ، للقائد كافور الذى كان خادما لسيده محمد الأخيشد ، وكان هذا قد اشتراه ورباه ، ثم عتقه وجعله مقيما على أولاده.

وأنشأ كافور هذا بستانا كبيرا فسيحا شمالى العاصمة ، وبعيدا عنها . وظل هذا البستان شهيرا باسم البستان الكافورى فترة طويلة من الزمن ، وكان به قصر ينزل به صاحبه . وقيل أنشأ كافور هذا قصرا آخر عظيما ، ولكنه هجره بعد ذلك لانسياب مياه الفيضان إليه ، وظل البستان الكافورى ، طيلة حكم الدولة الفاطمية ، متنزها للخلفاء والأمراء فى القاهرة ، وهى التى اختير موقعها بالقرب منه ، والتى كان إنشاؤها فاتحة عهد زاهر فى تاريخ الاسلام ودولة العرب .



شكل (١٧) — زخرفة لوحة خشبية من العصر الطولونى .

الفصل الرابع

مسجد عمرو أو المسجد العتيق

١ — تاريخ مسجد عمرو منذ إقامته إلى أوائل القرن العشرين .
٢ — الآثار المتخلفة من المسجد العتيق .
٣ — مشروعات تخطيط المسجد .
٤ — مشروع المؤلف .

الفصل الرابع

مسجد عمرو أو المسجد العتيق

— ١ —

تاريخ مسجد عمرو

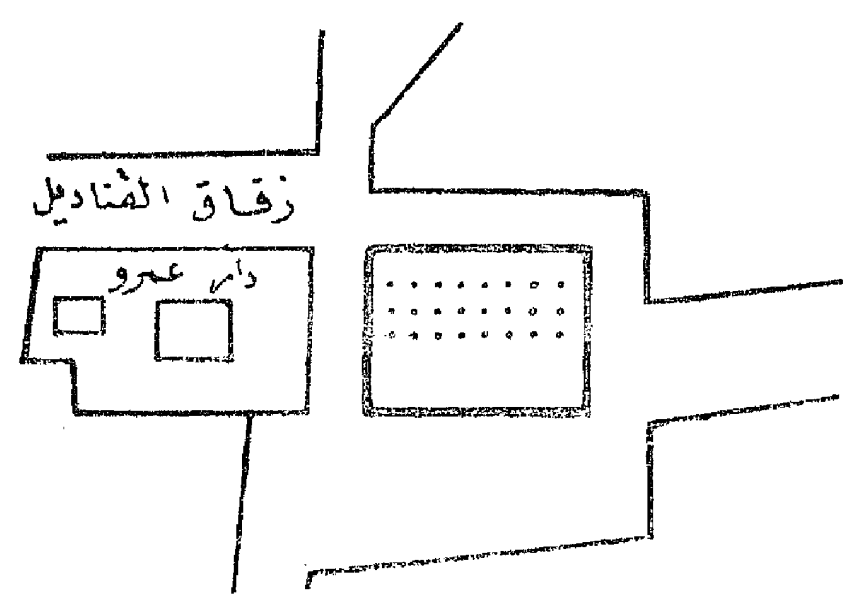
تخلف عن القرون الثلاثة الأولى التي مهدت لأنشاء القاهرة مسجدان جامعان عظيمان ، هما مسجدا عمرو وإبن طولون . ويقتضي البحث في مساجد القاهرة ومدارسها البدء بذكر هذين المسجدين ، ووصفهما ، واستعراض تاريخها وعناصرهما التخطيطية والمعمارية والزخرفية ، إذ أنه تربطهما بهذه المساجد والمدارس ، كما سنرى فيما بعد ، روابط قوية وصلات مباشرة .

كان مسجد عمرو(١) أول بناء أقيم في الفسطاط والعسكر ، وهو آخر بناء قائم فيهما ، وكان يسمى مسجد النصر ، وتاج المساجد . كان طوله ، أيام بناء عمرو بن العاص له في سنة ٢١ (٦٤٢ م) ، خمسين ذراعا ، أي ما يقرب من ٢٥ مترا ، شكل (١٨) ، وكان عرضه ثلاثين ذراعا ، وكان سقفه جريدا ، وعمده من جذوع النخل ، ولم يكن له صحن متسع . ولكن

---

(١) أهم مرجع في تاريخ مسجد عمرو بن العاص هو « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لجامعه ومؤلفه إبراهيم بن محمد أيدمر العلائي ، الشهير باسم « إبن دقماق » ، والمتوفى حوالى سنة ٧٩٧ (١٣٩٩ م) — الجزء الرابع من صفحة ٥٩ إلى ٧٤ . وقد طبع الجزآن الرابع والخامس من هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٠٩ هجرية (١٨٩٢ م) ، وهي الطبعة المشار اليها في هذا الكتاب . وتوجد مجموعة كبيرة من المراجع العربية والأفرنجية في وصف مسجد عمرو وتاريخه وآثاره ، سيسجل المؤلف منها فيما يلي من الصفحات ما أوجب البحث الأشارة اليه .

الناس كانوا يصطفون للصلاة بهذا الصحن لضيق المسجد بهم . وكان للمسجد بابان في واجهته الشمالية ، وآخران في واجهته الغربية ، وكان بالواجهة الشرقية كذلك بابان يقابلان دار عمرو بن العاص . وكان يحيط بالمسجد من جهاته الأربعة طريق من سبعة أذرع . وقيل إن قباته كانت أكثر انحرافا

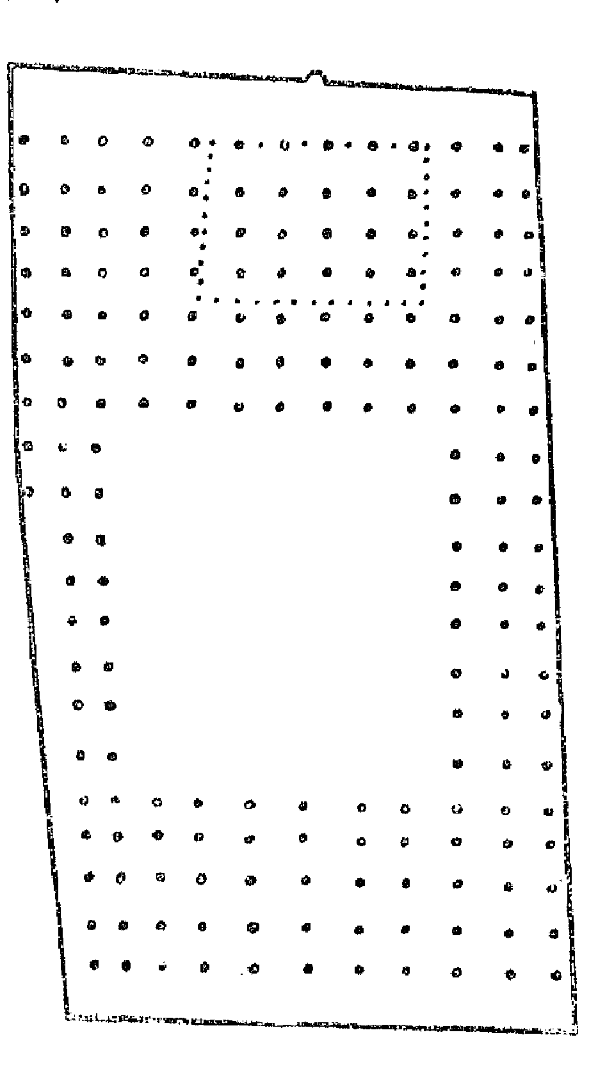


شكل (١٨) — رسم تصوري لتخطيط مسجد عمرو سنة إنشائه (٢١ — ٦٤٢ م)، عن محفوظات مصلحة الآثار .

إلى الشرق . ومازال الولاة والحكام يتناولون مسجد عمرو ، على تعاقب السنين ، بالزيادة والتعمير والتجديد ، حتى بلغت سعته أضعاف مساحة المسجد العتيق ، ست عشرة مرة .

وأول من زاد في جامع عمرو مسلمة بن مخلد الأنصاري ، والي مصر أيام معاوية ، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين (٦٧٢ م) ، فزاد فيه من ناحيته الشمالية وجعل من هذه الزيادة رحبة واسعة . ولم يغير مسلمة من البناء القديم شيئا . وقيل إنه زاد كذلك في شرقيه ، وإنه أقام فيه أربع مآذن ، مئذنة في كل ركن من أركانه . وضاق المسجد بالمصلين ، فأمر عبد العزيز بن مروان ، في سنة تسع وسبعين (٦٩٨ م) بهدم جدرانه ،وزيادته من غربيه وشماليه زيادة

ضاعفت مساحة المسجد القديم أربع مرات . وفى سنة تسع وثمانين (٧٠٧ م) تولى عبد الله بن عبد الملك رفع سقف المسجد ، وكان « مطأطأ » . وبعد ذلك بثلاث سنوات . أمر قرة بن شريك ، وكان واليا على مصر من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك ، بهدم المسجد وإعادة بنائه بعد زيادته مرة أخرى « وجعل على بنائه يحى بن حنظلة ، مولى بنى عامر بن لؤى » (١) فأدخل فيه دار عمرو بن العاص والطريق الذى كان يفصل بينها وبين المسجد ، وقيل أمر قرة بعمل محراب مجوف بجدار القبلة « فى سمت محراب المسجد العتيق » ولذا عرف بأنه محراب عمرو . وصار للمسجد فى تلك السنة (٩٢ — ٧١٠ م) أحد عشر بابا : أربعة فى كل من واجهتيه الشرقية والغربية ، وثلاثة فى واجهته الشمالية (٢) ، وأصبح جدار القبلة يمتد حينذاك ٥٧ مترا ونصف المتر . كما أصبح طول الجدار الشرقى ٩٨ مترا ، شكل (١٩) .



شكل (١٩) — رسم تصورى لتخطيط مسجد عمرو فى عهد قرة بن شريك .

وزيد فى المسجد بعد ذلك زيادة هامة : مرة فى عهد صالح بن على العباسى ، سنة ثلاث وثلاثين ومائة (٧٥٠ م) ومرة أخرى فى عهد موسى ابن

---

(١) صفحة ٢٤٨ من الجزء الثانى من « الخطط » للمقريزى .

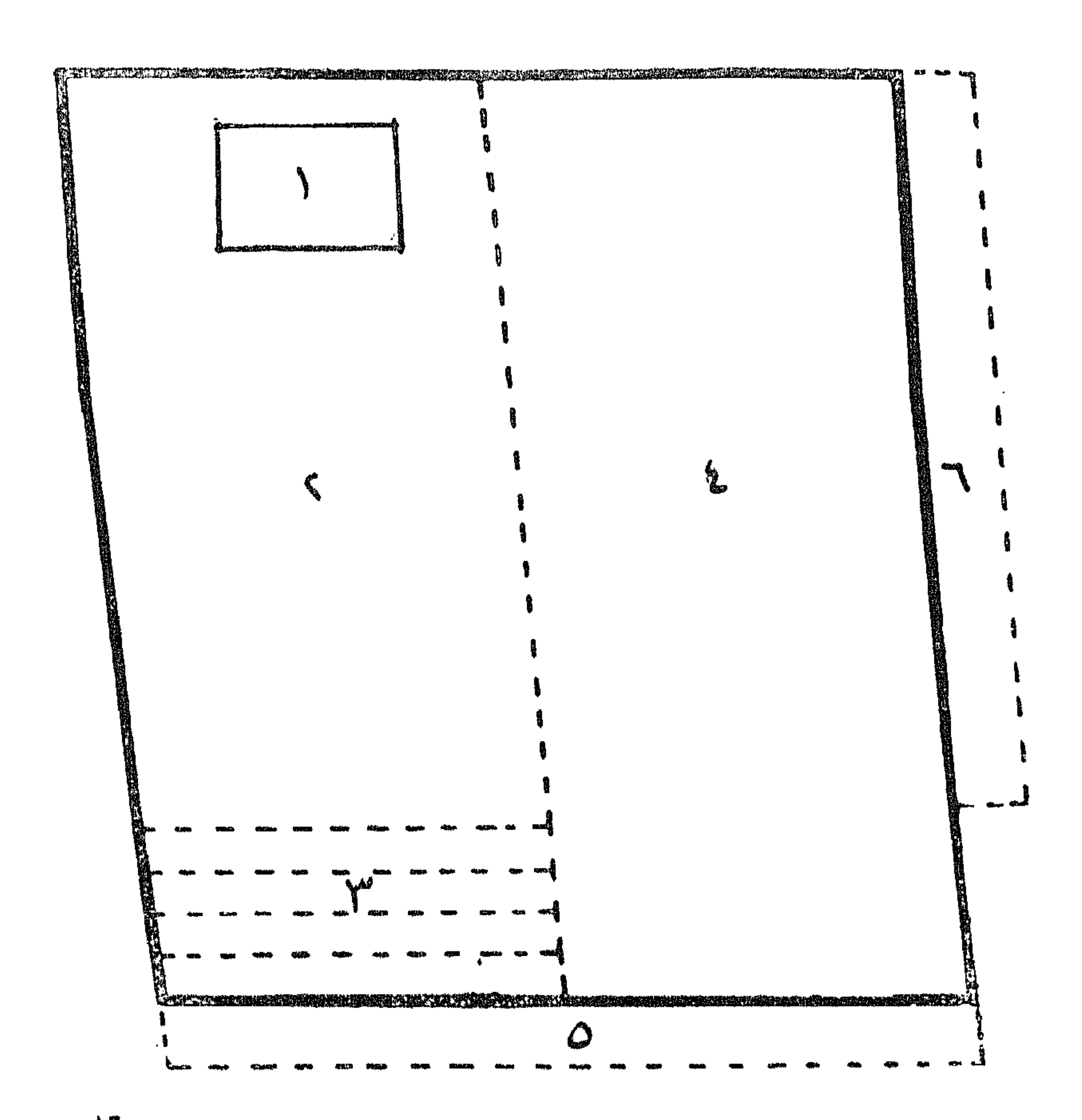
(٢) ابن دقماق ، « كتاب الانتصار » ، الجزء الرابع ، صفحة ٦٢ .

عيسى ، والى مصر من قبل هارون الرشيد، سنة خمس وسبعين ومائة (٧٩١ م).
أما زيادة صالح بن على(١) ، فقد أضافت إلى المسجد أربعة أروقه في مؤخره ، مما زاد في طول كل من الجدارين الشرقى والغربى أكثر من عشرين مترا ، وأما زيادة موسى بن عيسى (٢) ، فقد أضافت إلى مؤخر المسجد وخارج جداره الشمالى رحبة واسعة ، هى نصف الرحبة التى كانت معروفة فى أوائل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) باسم رحبة أبى أيوب .

وكانت أكثر الأعمال أهمية فى المسجد تلك التى أجراها فيه عبد الله بن طاهر ، والى مصر فى عهد الخليفة المأمون ، وكان ذلك سنة ٢١٢ (٨٢٧ م). وقد تضاعفت بهذه الأعمال مساحة المسجد عما قبل(٣) ، شكل (٢٠) . واحتفظ المسجد العتيق منذ ذلك التاريخ بحدوده ومساحته التى ينحصر فيها اليوم ، إذ لم يزد فيه أحد من بعد (٤) .

غير أن المسجد الذى جدده عبد الله بن طاهر أتلفه حريق فى سنة ٢٧٥ (٨٨٨ م) ، فأمر خمارويه ، إبن أحمد بن طولون وخليفته ، بتعميره وتجديده . وتوالت بعد ذلك أعمال الأصلاح والترميم والتجديد والأضافة فى المسجد . وكانت أهم هذه الأعمال عمارة الحاكم بأمر الله فى سنوات ٣٨٧ (٩٩٧ م) و ٤٠٣ (١٠١٣ م) و ٤٠٦ (١٠١٦ م) . ثم خرب مسجد عمرو عند حريق الفسطاط ، أيام شاور ، وزير الخليفة العاضد ، سنة ٥٦٤ (١١٦٨ م) . ولكن السلطان صلاح الدين الأيوبى أصلح المسجد

(١) المرجع السابق ، صفحة ٦٥ .
(٢) المراجع السابق ، نفس الصفحة .
(٣) رأيت أن أسجل هنا رسما يبين موضع مسجد عمرو الأول من تطور تخطيط المسجد العتيق على مر الأيام ، وذلك استنادا إلى البحوث التى قامت بها « إدارة حفظ الآثار العربية » . ينظر كتاب المرحوم محمود أحمد ، « جامع عمرو بن العاص » ، صفحة ١٠ — القاهرة ، ١٩٣٧ .
(٤) لخص المقريزى فى كتابه « الخطط » تاريخ مسجد عمرو ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٤٦ — ٢٥٣ .



شكل (٢٠) — رسم لمراحل زيادات المسجد العتيق :
١ — مسجد عمرو بن العاص فى سنة ٢١ (٦٤٢ م) — ٢ — فى سنة ٩٢ (٧١٠ م) — ٣ — زيادة صالح بن على فى سنة ١٣٣ (٧٥٠ م) — ٤ — زيادة عبد الله بن طاهر فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) — ٥ — رحبة أبى أيوب ، (موسى بن عيسى فى سنة ١٧٥ — ٧٩١ م — ، وأبو أيوب فى سنة ٢٥٨ — ٨٧١ م) — ٦ — رحبة الحارث (٢٣٧ — ٨٥١ م) والخازن (٣٥٧ — ٨٦٧ م) .

بعد ذلك بأربع سنوات . وجدده وعمره . وكذلك جدد السلطان الظاهر بيبرس « القواصر العشر المطلة (من بيت الصلاة) على الصحن والتى بها

اللوح الأخضر » ، وكان ذلك فى سنة ٦٦٦ (١٢٦٨ م) (١) . وتأثرت عمارة المسجد من زلزال وقع فى سنة ٧٠٢ (١٣٠٢ م) ، فأصلحه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان المسجد قد اختل بناؤه ، بعد ذلك بمائة سنة ، فتطوع رئيس التجار بديار مصر حينذاك ، وهو « برهان الدين إبراهيم بن عمر بن على المحلى » لعمارة المسجد وتجديده . وقيل « إنه هدم صدر الجامع كله فيما بين المحراب الكبير والصحن ، طولا وعرضا ، (أى بيت الصلاة) ، وأزال اللوح الأخضر ، وأعاد البناء كما كان أولا ، وجدد لوحا آخر بدلا من الأول ، ونصبه كما كان » ، وكان ذلك سنة ٨٠٤ (١٤٠١ م) (٢) . أى أن بيت الصلاة جدد جميعه فى تلك المرة ، كما سبق أن جدد فى عهد صلاح الدين ، ولكنه أعيد إلى ماكان عليه نظامه وتخطيطه فى عهد عبد الله بن طاهر .

وحلت بالمسجد مصيبة كبرى حين أراد الأمير مراد محمد بك أن يصلحه ويجدده فى سنة ١٢١١ (١٧٩٦ م) ، وكان المسجد قد تهدم وخرب وسقطت سقفه وأعمدته ، ومالت مجنبته اليمنى وسقطت(٣) . فأمر مراد بك بهدمه كله ، وإعادة بنائه . وتمت إعادة البناء على غير النظام القديم ، إذ أقيمت الأعمدة فى غير موضعها الأول ، بحيث أصبح لبيت الصلاة ستة أساكيب ، بدلا من سبعة ، ومدت صفوف العقود عمودية على جدار القبلة ، بعد أن كانت موازية له (٤) .

---

(١) المقريزى ، « الخطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٥٢ ؛ ومحمود أحمد ، « جامع عمرو » ، صفحة ٣١ .

(٢) المقريزى ، «الخطط» ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٥٣ ؛ ومحمود أحمد ، « جامع عمرو » ، صفحة ٣٦ .

(٣) الجبرتى ، « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، الجزء الثالث ، صفحة ١٧٠ ، طبع بولاق ، سنة ١٢٩٧ (١٨٨١م) .

(٤) محمود أحمد ، « جامع عمرو » ، صفحة ٣٨ .

وكانت عمارة مراد محمد بك بداية المصائب التى حلت بآثار المسجد العتيق ، تلك الآثار التى أخذت عناصرها المعمارية والزخرفية تتلاشى تدريجيا منذ ذلك التاريخ ، وحتى أوائل القرن العشرين ، إذ جدد المسجد مرة أخرى ، وطمست معالم آثاره ، فما يكاد اليوم يتبقى فيه شيء من قديمه ، شكل (٢١) ، صفحة (١٣٧) .

— ٢ —

الآثار المتخلفة من المسجد العتيق

ثبت تاريخيا وأثريا أنه لا يتبقى غير قليل من عمارة المسجد العتيق وزخرفته . وقد ترجع أقدم العناصر الأثرية التى به إلى عهد عبد الله بن طاهر ، كما أعتقد ويعتقد بعض علماء الآثار ، وإن كان المرحوم محمود أحمد ظن أنها أحدث عهدا ، وتنتمى إلى نهاية العصر الفاطمى (١) . وهى عبارة عن بقايا بضعة نوافذ معقودة كانت ذات ستائر مفرغة من الجص أو الحجر (٢) ، وكانت عقود هذه النوافذ ترتكز على أعمدة ملتصقة بالجدار ، شكل (٢٢) ، صفحة (١٣٨) .

وقد استطاعت إدارة حفظ الآثار العربية إعادة رسم واجهات المسجد استنادا إلى وصف إبن دقماق ، من جهة ، واستنتاجا من مظاهر بعض الآثار المتخلفة عن الواجهات العتيقة ، من جهة أخرى . كما أن (كريسويل) وضع تصميما آخر لواجهة المسجد الشرقية ، لا يختلف كثيرا عن تصميم إدارة حفظ الآثار العربية . وبالرغم من أننى لست مقتنعا تماما بصحة هذين

---

(١) (كريسويل) ، صفحة ١٨١ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية » ، وصفحة ٢٤٣ من كتابه «المختصر» ؛ ومحمود أحمد ، « جامع عمرو » ، صفحة ٦٢ إلى ٩٣ .

(٢) كان عدد هذه النوافذ ٧٨ فى عهد ابن دقماق .

التصميمين ، إذ أن البيانات التاريخية والأثرية التى بين أيدينا ليست كافية أو مفصلة بحيث تجيز إعادة تصميم عناصر البناء فى ثقة واطمئنان ، إلا أن هاتين المحاولتين محمودتان على كل حال ، ويظهر فيهما على الأخص اتفاق فى تصميم النوافذ العتيقة (١) ، شكل (٢٣) .

أما المحاولات التى أجريت لرسم عقود مسجد عمرو ومآذنه كما كانت تبدو فى عهد عبد الله ابن طاهر فهى محاولات افتراضية لا تتفق مع أصول البحث العلمى . وباب الافتراض فى هذه الأشكال مفتوح على مصراعيه ، ومن الجائز أن نفترض أشكالا منوعة للعقد الذى يعلو عمودين ، ارتفاع كل منهما أربعة أمتار ونصف ، مثلا ، بحيث تكون فتحة العقد السفلى خمسة أمتار وارتفاع رأسه فوق العمودين ثلاثة أمتار ونصف . إذ أن مثل هذا العقد يصح أن يكون نصف دائرى مطولا ، أو مدببا ، أو منفوخا ، أو مشتركا بين المدبب والمنفرخ .

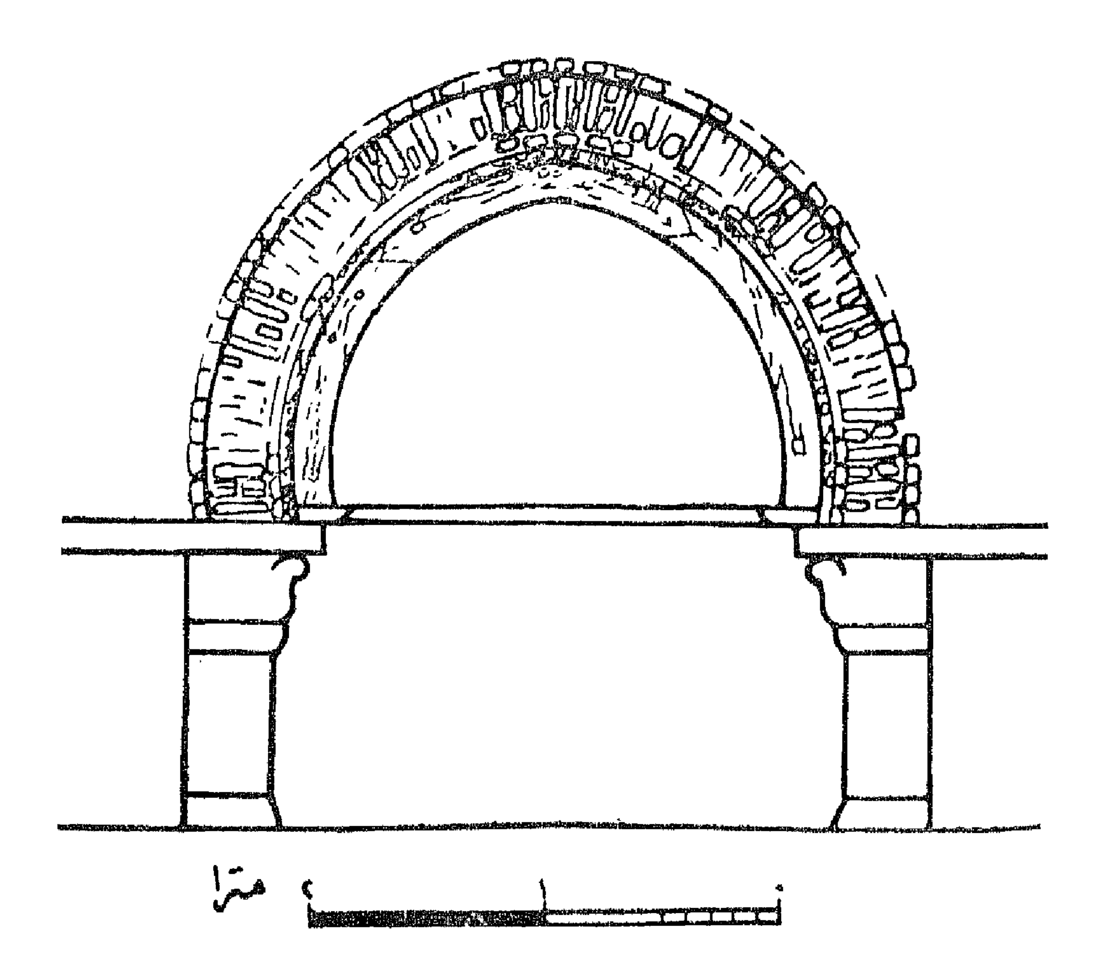
وكذلك حاول البعض أن يتخيل أشكال « صوامع » المسجد الأربعة التى قيل إن مسلمة بن مخلد جعلها فيه ، ولكن هذه المحاولات كانت افتراضية كذلك (٢) . ولهذا رأيت ألا أجازف بالأدلاة فى هذا الصدد برأى لا يستند على حقائق تاريخية أو أثرية .

وتبقى من مسجد عمرو العتيق بضعة من الوسادات الخشبية التى تعلو تيجان

---

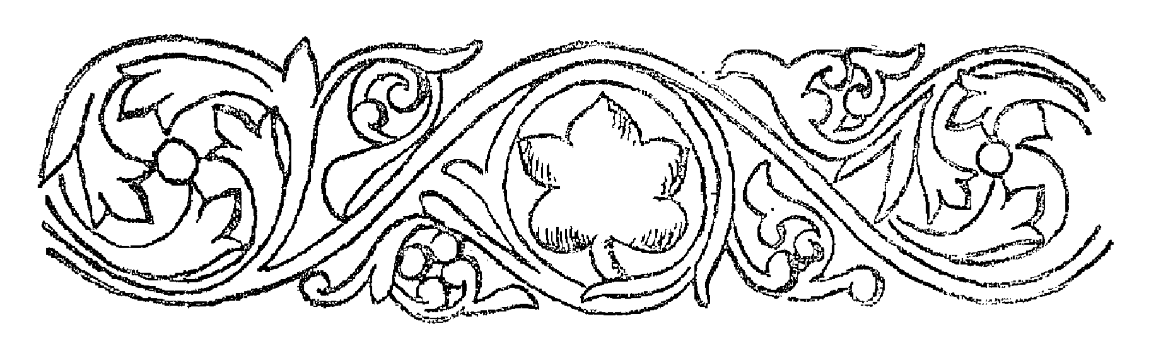
(١) ذكر محمود أحمد فى صفحة ٧٦ من « جامع عمرو » أن « الشكل الكامل للشباك الأصلى كان مكونا من فتحة مستطيلة يعلوها عقد قريب من نصف دائرة سعته أصغر من سعة الفتحة ، ويتكىء بطرفيه على طبلية من الخشب محمولة على عمودين قائمين عند منتصف سمك الشباك وحاملين أيضا لطبلية أخرى من الخشب ممتدة بقدر سعة العقد ، وقاسمة الشباك الجصى المركب بوسط السمك إلى قسمين ، أحدهما ، أسفلها بارتفاع الفتحة المستطيلة ، والآخر ، أعلاها و محمل عليها ومغط للعقد » .

(٢) ينظر مثلا المقال الذى كتبه (شاخت) وحاول فيه تحديد شكل هذه الصوامع . Schacht: Ein Archaisher Minaret Typ



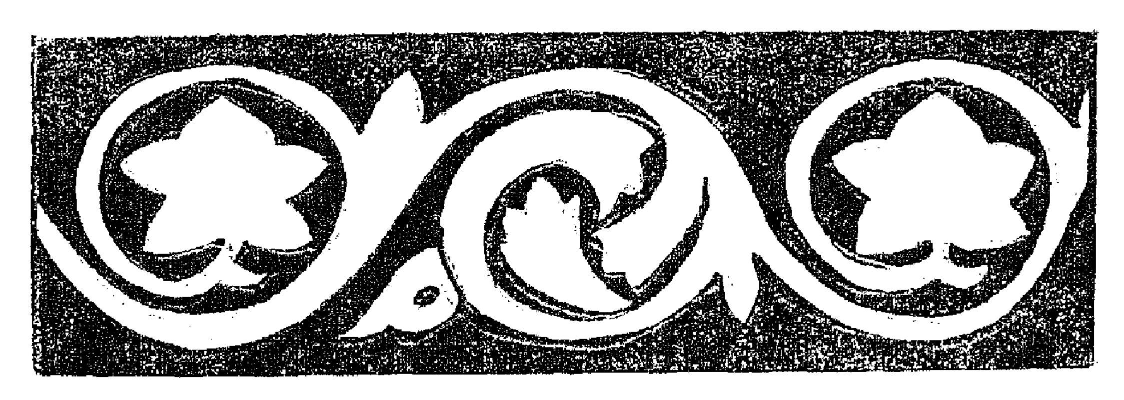
شكل (٢٣) — تصميم نافذة عتيقة من نوافذ مسجد عمرو — عن محفوظات مصلحة الآثار.

الأعمدة، وهى محلاة بالزخارف، شكل (٢٤)، صفحة (١٣٧). ولهذه الزخارف أهمية خاصة، وقد سبق أن أشرت فى الفصل الأول من هذا المدخل، إلى أن زخرفة ورقة العنب كانت معروفة فى الفنين الهلينستى والقبطى. ونظهر فى زخرفة وسادات مسجد عمرو مرحلة من مراحل تطور هذه الزخرفة الهلينستية الأصل، العربية الاشتقاق، إذ تتضح فيها، كما سنرى، خصائص الزخرفة العربية، ويظهر فيها فرع نبات يمتد صعودا وهبوطا، بحيث يرسم أشباه دوائر، شكل (٢٥). وتمتلىء هذه الدوائر، مرة بورقة عنب من خمس شحمات، ومرة بشكل يتألف من ثلاث وريقات نباتية منقبضة، كما يشاهد فى شكلى (٢٤)، صفحة ١٣٧، و(٢٦)، أو من



شكل (٢٥) — رسم لزخارف عتيقة من مسجد عمرو .

شكل آخر يتألف من أربع وريقات متتابعة تتابعا دائريا ، شكل (٢٥) . وتتكون كل من هذه الوريقات من ثلاث شحمات ، ثم تخرج من الفرع النباتى ، أو من الساق ، أثناء امتداده وقبيل انحنائه ، صعودا أو هبوطا ، وريقات تملأ الفراغ بين الدوائر والمنحنيات (١) .



شكل (٢٦) — رسم لورقة العنب من زخارف مسجد عمرو العتيقة .

وتتركز أهمية هذه الزخارف فى التعبير عن الخيال الزخرفى العربى الذى يظهر جليا فيها ، فالفرع لا تعرف بدايته ولا نهايته ، ثم هو يمتد فى حركة دائمة غير مستقرة ، وتراه تارة فرعا تخرج منه وريقات ، وتارة يتحول

(١) تنظر صفحة ٤٠ فيما سبق ، وقد درس الدكتور فريد شافعى هذه الزخارف دراسة مطولة فى صفحات ٩٥ إلى ٩٧ من مقاله : « الأخشاب المزخرفة فى الطراز الأموى » ، مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥٢ .

نفسه إلى ورقة نباتية ولا يلبث أن يعود فيخرج من طرف هذه الورقة ، فرعا من جديد ، وأخيرا ترى السطح المعد للزخرفة مكسوا جميعه بها ، لا فراغ فيه ، وترى العنصر الزخرفى يتكرر ، ولكنه يتجدد فى كل تكرار . ولا شك فى أن هذه الزخارف العتيقة من مسجد عمرو تعتبر أقدم مثل معروف فى الديار المصرية للزخرفة التى تنقل بالنحت على الخشب أو الحجارة خيال التعبير الشعرى العربى ، من لحن وإيقاع ، ووزن وقافية .

— ٣ —

مشروعات تخطيط مسجد عمرو

إذا كانت معالم مسجد عمرو المعمارية والزخرفية اندثرت معظمها مما لا يسمح بالتحقق من عمارة المسجد ومظهره على عهد عبد الله بن طاهر ، إلا أن البيانات التاريخية التى سجلها الرواة من جهة ، والحفائر التى أجريت فيه من جهة أخرى ، تسمح باعادة رسم تخطيط المسجد على حالته فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) ، فى صورة صادقة صحيحة ، ليس فيها غير مجال ضئيل جدا للشك (١) .

وقد ذكر ابن دقماق عن ابن المتوج (٢) أن مساحة المسجد فى بداية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كانت تعادل « ثمانية وعشرين

(١) يظن (كريسويل) أن بعض الأساسات التى كشف عنها نبين حدود المسجد فى عهدى قرة بن شريك فى سنة ٩٢ (٧١٠م) وصالح بن على فى سنة ١٣٣ (٧٥٠م)، تنظر صفحة ١٩٠ من الجزء الثانى من كتابه « العمارة الاسلامية » وصفحة ٢٤٦ و٢٤٧ من كتابه « المختصر » . وقد جاء الكشف عن هذه الأساسات مؤيدا لرواية المؤرخين ، كما أنه أعان على رسم حدود المسجد فى عصوره المختلفة — ينظر شكل (٢٠).

(٢) توفى إبن المتوج سنة ٧٣٠ (١٣٣٠م) أما إبن دقماق فقد ذكر أنه توفى حوالى سنة ٧٩٧ (١٣٩٩م) .

ألف ذراع » ، « بذراع العمل المحرر على القصبة الحاكمية » (١) ، وأن الزيادة التى تمت فى عهد عبد الله بن طاهر قد تكامل بها « ذرع الجامع ، سوى الزيادتين ، مائة وتسعين ذراعا بذراع العمل طولا ، فى مائة وخمسين ذراعا عرضا » (٢) ، أى ما يساوى ثمانية وعشرين ألف ذراع « وخمسمائة ذراع » . وقد أثار هذا الفرق فى التقديرين جدلا كبيراً بين المشتغلين بالآثار ، وهو ، فى رأيى ، ناتج عن خطأ فى النقل ليس لابن المتوج ولا لابن دقماق يد فيه (٣) . ولا جدوى من مناقشة الفروق فى تقدير الرواة القدامى لمساحة المسجد وذرعه ، أو اختلاف المحدثين فى تقدير قيمة ذراع العمل وذراع الحصر ، إذ أن الثابت تاريخيا ، والمتفق عليه بين جميع علماء الآثار ، أن حدود المسجد الحالية هى نفس الحدود التى كانت له فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) ، بعد زيادة عبد الله بن طاهر له ، لم تزد عنها منذ ذلك التاريخ ، ولم تنقص .

كانت مساحة مسجد عمرو إذن فى عهد عبد الله بن طاهر تشغل المساحة التى يشغلها اليوم ، وكان جدار القبلة فيه يمتد مائة وتسعة أمتار ، وجدار مؤخرته يقل عن ذلك أربعة أمتار . وكان طول جداره الشرقى (٤) مائة وعشرين

---

(١) ابن دقماق ، « كتاب الانتصار » ، الجزء الرابع ، صفحة ٥٩ .

(٢) شرحه ، صفحة ٦٦ ، والزيادتان المقصودتان فى هذه الفقرة هما زيادة الخازن ورحبة أبى أيوب ، شكل (٢٠) .

(٣) فطن على مبارك إلى هذا الخطأ فصححه فى « الخطط الجديدة التوفيقية » ، الجزء الرابع ، صفحة ٦ .

(٤) يختلف الكتاب فى تحديد اتجاهات جدران المساجد وواجهاتها ، فتارة يطلقون على جدار القبلة صفة الجدار الشرقى وتارة الجدار الجنوبى وتارة أخرى الجدار الجنوبى الشرقى ، وكذلك بالنسبة لبقية جدران المسجد ، فالجدار المقابل لجدار القبلة فى مؤخر المسجد يقع بالنسبة لبعضهم فى الجهة البحرية ، أو الشمالية ، وبالنسبة للبعض الآخر ، فى الجهة الغربية ، وبالنسبة لفئة ثالثة ، فى الجهة الشمالية الغربية . وقد رأيت أن أتبع المؤرخين العرب فى تعيينهم لهذه الجهات : القبلى ، مقدم المسجد ، والشمالى مؤخره ، والشرقى إلى يسار المتجه إلى القبلة ، والغربى إلى يمينه .

متراً ، ويقل طول جداره الغربي عن ذلك ثلاثة أمتار . وكان جوف بيت الصلاة فيه يمتد سبعة وثلاثين متراً ، وكان طول واجهة هذا البيت المطلة على الصحن اثنين وخمسين متراً تقريبا(١) ، وكان عرض هذا الصحن حوالى اثنين وثلاثين متراً (٢) .

وذكر الرواة (٣) أنه كان بالمسجد ثلاثمائة وثمانية وسبعون عموداً ، وثلاثة محاريب ، وثلاثة عشر بابا ، وخمسة مآذن ، وثمانية وسبعون نافذة مشبكة ، وثلاث زيادات . وذكروا أن بيت الصلاة كان يتكون من سبعة أساكيب يمتد فيها عشرون صفا من الأعمدة . وكان للصحن مجنبات ، بالشمالية منها ، وهي مؤخرة المسجد ، سبعة أروقة . على نظام بيت الصلاة ، أي أن بها سبعة صفوف من الأعمدة بكل صف عشرون عموداً ، وبكل من

(١) كان طول هذه الواجهة أقل من ذلك بما يعادل مساحة رواقين من أروقة المجنبات ، أي عشرة أمتار تقريبا ، وذكر ابن دقماق أن هذين الرواقين نصبا من خشب في سنة ٢٥٧ (٨٧٠م) أي بعد زيادة عبد الله بن طاهر له بخمس وأربعين سنة . ثم إن الحاكم بأمر الله أمر بقلع هذه العمد الخشبية ، وجعل بدلا منها رواقين من عمد من الحجارة « فكمل بها عدة الرواقات الموجودة الآن بالمسجد، أي قبيل سنة ٧٩٧ (١٣٩٩م)، وهي سبعة في مقدمه ، وسبعة في مؤخره ، وخمسة في شرقيه وخمسة في غربيه » ، « كتاب الانتصار » ، الجزء الرابع ، صفحة ٦٨ .

(٢) اختلف تقدير القاسات الخارجية لجدران المسجد بالرغم من عناية القائمين برفعها . وفيما يلي بعض هذه القاسات : (١) مقاسات على مبارك « الخطط الجديدة التوفيقية » ، الجزء الرابع ، صفحة ٨ : جدار القبلة ١٠٩,٣٠ مترا ، الجدار الشرقي ١٢٠,٢٥ مترا ، الجدار الشمالي ١٠٤ مترا ، الجدار الغربي ١١٧,١٠ مترا . (٢) مقاسات إدارة حفظ الآثار العربية : جدار القبلة ١٠٩,١٠ مترا ، الجدار الشرقي ١١٨,٦٠ مترا ، الجدار الشمالي ١٠٥ مترا ، الجدار الغربي ١١٦,٦٠ مترا . (٣) مقاسات (كريسويل) : جدار القبلة ١٠٩,٠٥ مترا ، الجدار الشرقي ١٢٠,٥٥ مترا ، الجدار الشمالي ١٠٥,٢٨ مترا ، الجدار الغربي ١١٧,٢٨ مترا . واختلاف هذه القاسات بالرغم من رفعها بآلات دقيقة يبرر الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون القدامى .

(٣) تنظر الحاشية الأولى في الصفحة التالية .

المجنبتين الشرقية والغربية سبعة صفوف من الأعمدة كذلك، بكل صف منها خمسة، أى أنه كان بكل منها خمسة أروقة (١)، وكانت واجهة بيت الصلاة تطل على الصحن ببائكة من عشرة عقود (٢) ؛ وكذلك واجهة مؤخرة المسجد، أما المجنبتان الشرقية والغربية، فكانت كل منهما تطل عليه ببائكة من ثمان عقود.

هذه هى البيانات التاريخية التى تؤيدها أعمال الكشف عن أساسات المسجد، وتعززها بعض العناصر المعمارية المتخلفة فيه، وتشهد بها جدرانه القائمة التى بقيت محتفظة بحدودها على مر الزمن (٣)، وقد وضعت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، رسوم لتخطيط مسجد عمرو ولا بأس من أن ننقل بعضها هنا، بالرغم من أنها لا ترسم صورة لنظام المسجد العتيق، وكذلك فلا محل للتعليق عليها (٤)، شكل (٢٧ و ٢٨).

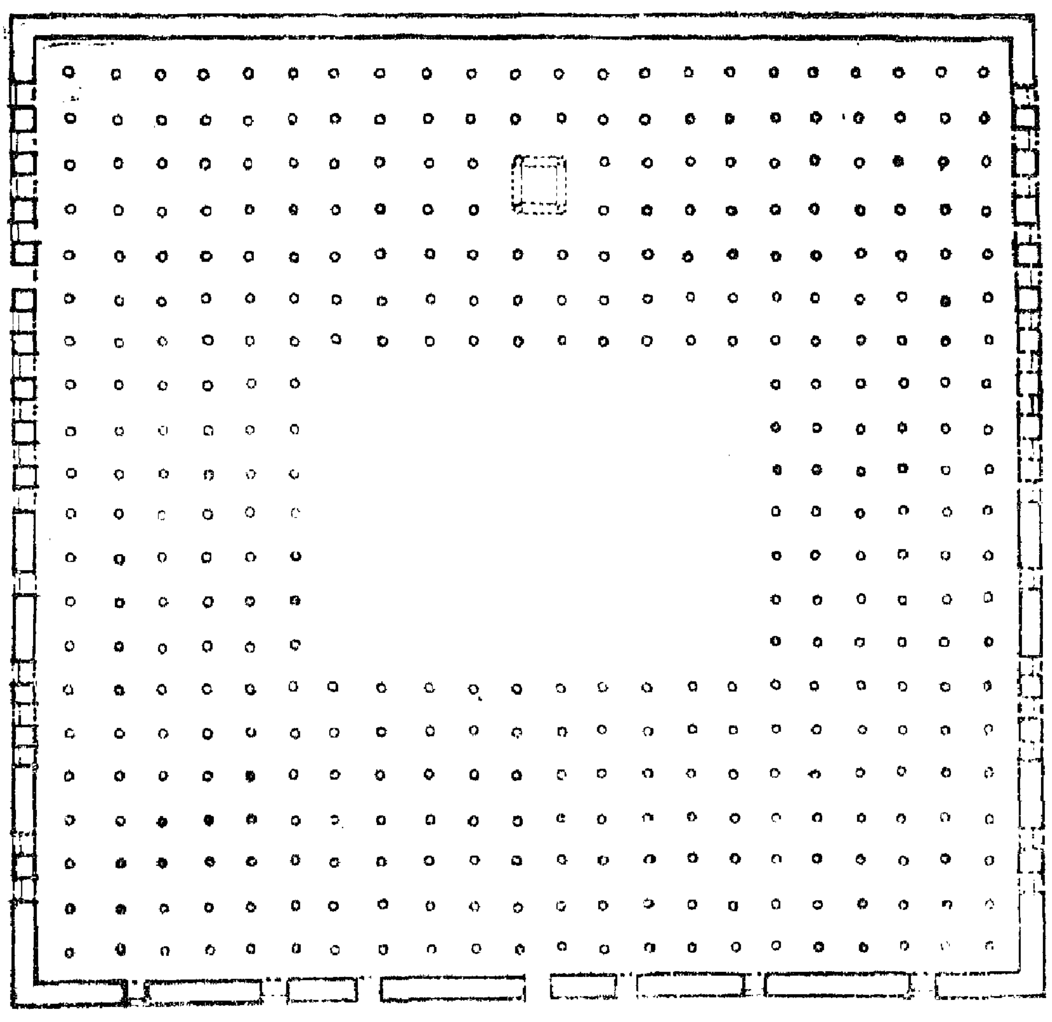
---

(١) المقريزى، «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٢٥٣؛ وابن دقماق «كتاب الانتصار»، جزء رابع، صفحة ٥٩ إلى ٦١. وكان عدد المآذن أربعة، واحدة فى كل ركن من أركان المسجد، سميت الأولى «غرفة» وهى التى «فى ركنه القبلى مما يلى الغربى»، والثانية، «الكبيرة»، وهى التى «فى ركنه القبلى مما يلى الشرقى»، والثالثة، «الجديدة»، وهى التى «فى ركنه البحرى مما يلى الشرقى»، والرابعة، «المستجدة»، وهى التى «فى ركنه البحرى مما يلى الغربى»، وأضيفت مئذنة خامسة سميت «الوسطانية» وكان موضعها فى وسط الواجهة البحرية للمسجد، «فيما بين الجديدة والمستجدة». ينظر ابن دقماق، شرحه، صفحة ٦٠. هذا وقد وقع خطأ فى طبع كتاب ابن دقماق هذا عند تحديد موضع المئذنة «المستجدة»، فذكر أنها فى الركن البحرى مما يلى الشرق، وصحته الغربى.

(٢) ابن دقماق، شرحه، صفحة ٦٨.

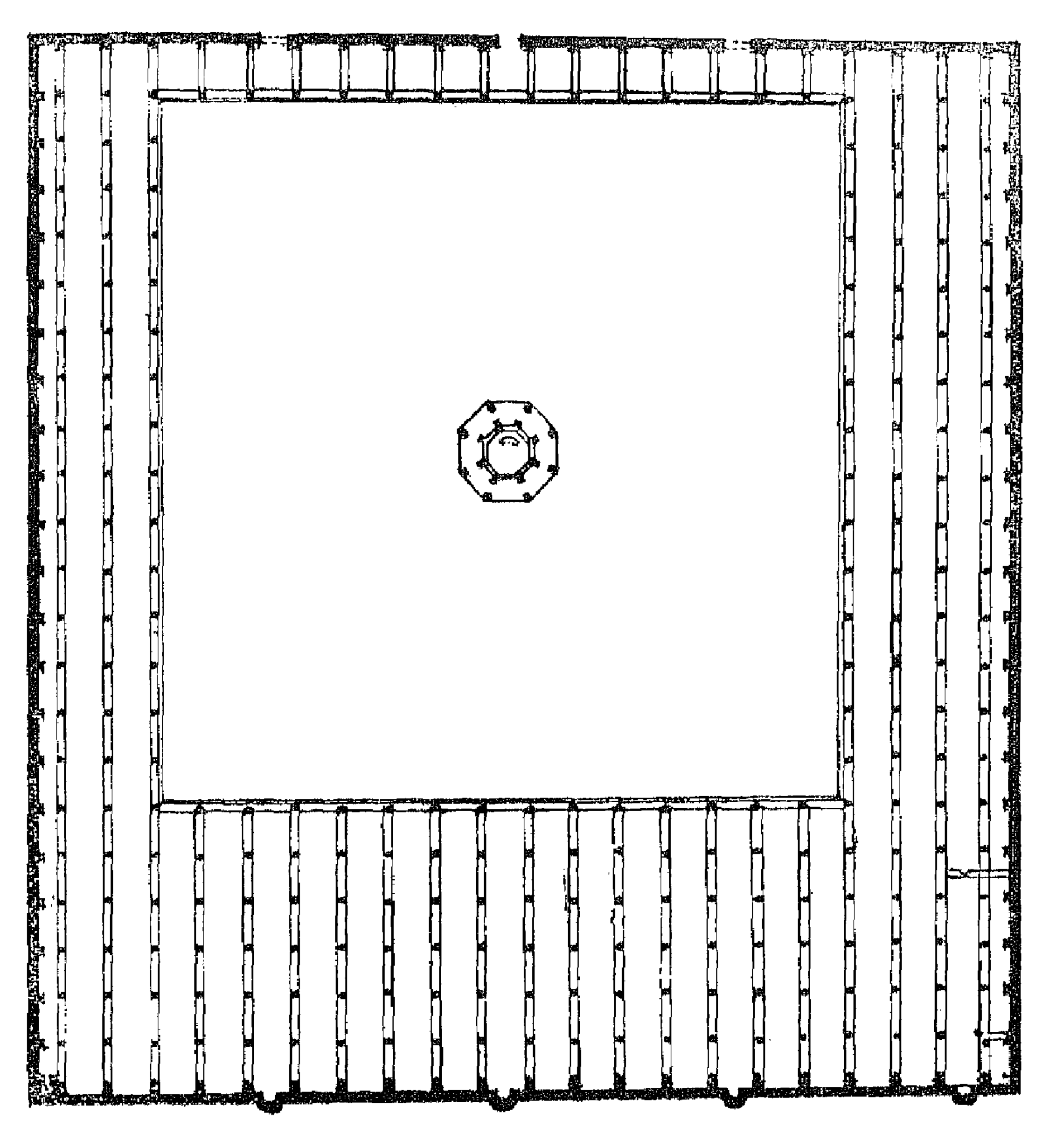
(٣) لم يذكر الرواة بيانات وافية واضحة يمكن الاستدلال منها على نظام مسجد عمرو وتخطيطه قبل زيادة عبد الله بن طاهر له، فيما عدا بيان مواضع الزيادات المتعاقبة التى ضاعفت مساحة المسجد إلى حجمه الحالى.

(٤) — هذا وقد وضعت لجنة حفظ الآثار العربية رسما للمسقط الأفقى للمسجد، نشره (كوربيت) فى سنة ١٨٩٠ فى مقال بمجلة J.R.A.S. صفحة ٧٥٩ إلى ٨٠٠، وعنوانه : The History of the Mosque of Amr at Old Cairo
وهذا الرسم يبين حالة المسجد فى ذلك التاريخ.



شكل (٢٧) — رسم تخطيطي لمسجد عمرو ، من عمل (بوكوك) في سنة ١٧٣٧ (١).

(١) هذا الرسم الذي وضعه (Pococke) في سنة ١٧٣٧ منشور في صفحة ٢٨ ، لوحة ١١ ، من الجزء الأول من كتابه « وصف بلاد الشرق » :
Description of the East



شكل (٢٨) — رسم تخطيطي لمسجد عمرو ، من عمل (كوست) فى سنة ١٨٢٥ (١).

(١) هذا الرسم الذى وضعه (Pascal Coste) حوالى سنة ١٨٢٥ نشر فى صفحة ٣١ من كتابه ، « العارة العربية ، آثار القاهرة » :
Architecture Arabe, Monuments du Kaire.

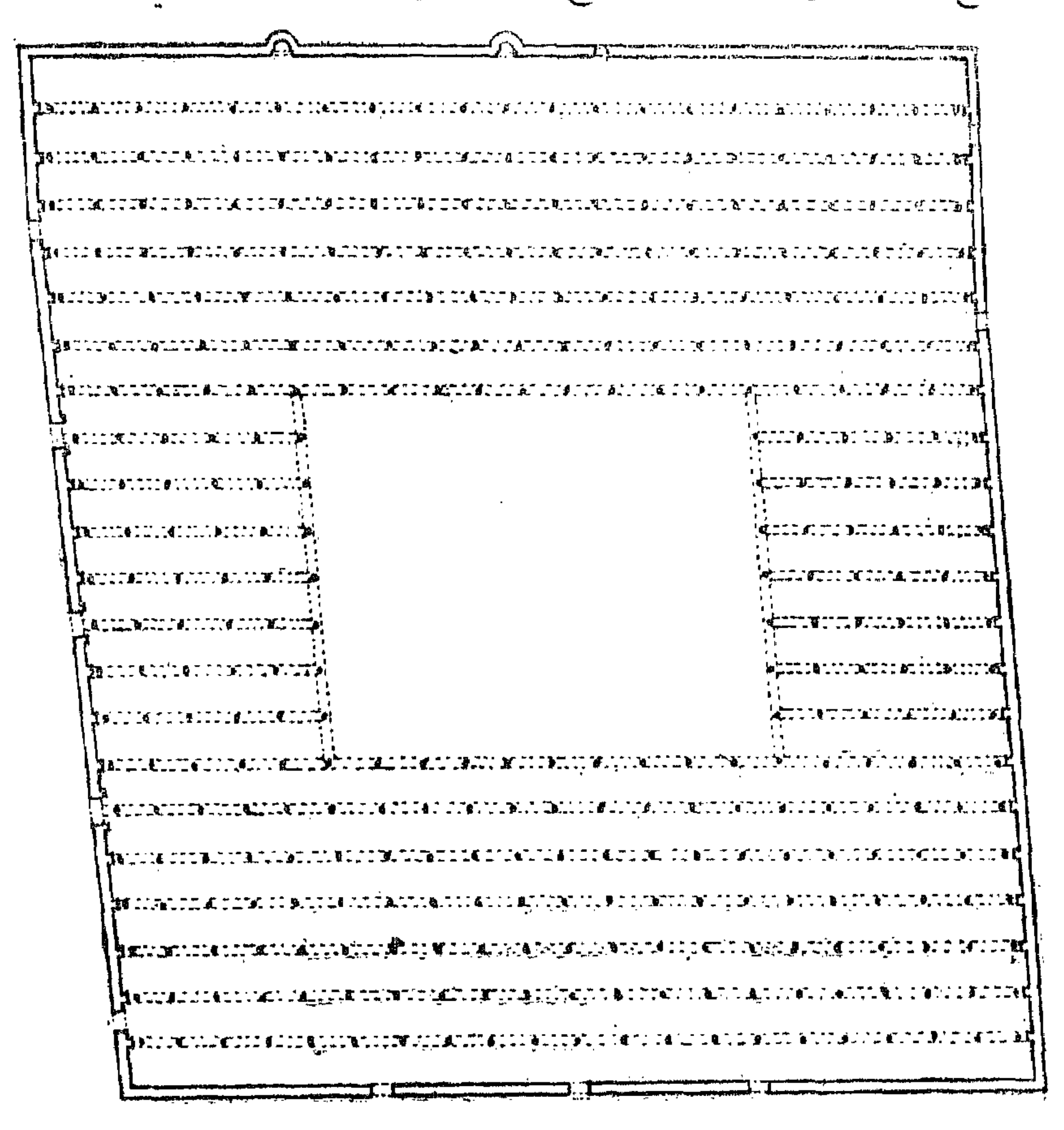
هذا وقد أجريت فى القرن العشرين محاولات كثيرة لأعادة تصميم تخطيط المسجد على حالته « فى أزهى عصوره » ، ونظمت مسابقة عالمية ، سنة ١٩٢٥ لهذا الغرض ، ونشرت نتيجة لذلك ثلاث محاولات ، هى التى أتناولها دراسة وتحليلا ، لأحاول وضع التصميم الواقعى لتخطيط المسجد فى عهدى إبن المتوج وإبن دقماق ، وبالتالى فى عهد عبد الله بن طاهر .

نشر(كريسويل) محاولتين ، الأولى فى سنة ١٩٣١(١) ،والثانية فى سنة ١٩٤٠ (٢) . وقد حافظ (كريسويل) فى المحاولتين على مقاسات الجدران الخارجية للمسجد الحالى . أما فى المحاولة الأولى ، شكل (٢٩) ، فقد اتخذ (كريسويل) إبن دقماق أساسا لوضع مشروع تخطيطه ، باعتبار أن هذا المؤرخ ذكر أن جملة عدد أعمدة المسجد كانت ٣٧٨ عمودا . وقام (كريسويل) بوضع رسم تخطيطى لمسجد عمرو يشمل ، داخل حدود جدرانه الحالية ، ٣٧٨ عمودا ، كما أنه جعل تخطيطه يشمل عدد الأساكيب والأروقة التى ذكرها إبن دقماق ، فهذا التخطيط يسجل لبيت الصلاة سبعة أساكيب ، وللمؤخر سبعة أروقة ، ولكل من مجنبتى الصحن الشرقية والغربية ، « سبعة صفوف من الأعمدة بكل صف منها خمسة » . وهكذا يبدو من هذا الرسم التخطيطى أن (كريسويل) تتبع رواية المؤرخ إبن دقماق ، وسجلها بدقة على الرسم . غير أن الواقع غير ذلك . فان الرسم التخطيطى الذى قدمه (كريسويل) يوافق ما ذكره إبن دقماق جملة ، لا تفصيلا . وإذا كان مجموع عدد الأعمدة فى هذا الرسم تعادل تماما مجموع عدد الأعمدة ، التى أوردها إبن دقماق ، فانما توصل (كريسويل) إلى هذا المجموع بالزيادة فى جانب ، والنقص فى جانب آخر . فقد زاد (كريسويل) عما ذكره إبن دقماق عمودا فى كل صف من صفوف الأعمدة فى بيت الصلاة ،

(١) La mosquée de Amrou, B.I.F.A.O. XXXII, 1931 pp. 121 — 166.

(٢) صفحة ١٧١ من الجزء الثانى من كتاب «العمارة الاسلامية الأولى» .

فأصبح بكل صف منها واحد وعشرون عمودا بدلا من عشرين (١)، وزاد فى المجنبة الغربية عمودا فى كل صف من صفوفها السبعة وكذلك فعل فى المجنبة الشرقية وزاد فى المجنبة الشمالية، أى فى مؤخرة المسجد، اثنى عشر عمودا، فيكون مجموع الأعمدة التى زيدت فى مشروع (كريسويل) الأول ثلاثة وثلاثين عمودا.



شكل (٢٩) — صورة منقولة عن المشروع الأول الذى رسمه (كريسويل)

(١) ذكر ابن دقماق فى الجزء الرابع من كتاب «الانتصار»، صفحة . أن بمقدم المسجد « سبعة صفوف فى كل صف منها عشرين عمودا».

ولكن (كريسويل) ، حرصا منه على الاحتفاظ بجملة عدد الأعمدة التى ذكرها إبن دقماق ، وهى ٣٧٨ عموداً ، حذف من مواضع أخرى بالمسجد ثلاثة وثلاثين عمودا ، كان إبن دقماق قد حدد أماكنها بالدقة (١) ، وهى ، كما وردت على لسان هذا الراوية : « وما هو فى أكتاف محاريبه الثلاثة ستة أعمدة ، فى كتفى كل محراب منها عمودان ، وما هو زيادة بزاوية عمرو سفل المأذنة الشرقية القبلية أربعة أعمدة ، وما هو زيادة فى عمده تحت اللوح الأخضر أربعة أعمدة .... ، وفيها (فى المجنبة الغربية) صف (من خمسة أعمدة) زيد فيه عمود ... ، وفيها (فى مؤخرة المسجد صف من ستة أعمدة) عمود زيد إلى جانبه آخر .... ، وفيه (فى مؤخرة المسجد كذلك) زيادة فى ثلاثة صفوف ثلاثة أعمدة .... ، وما هو بجوار السلم الغربى مما يلى البحرى عمودان ، وما هو سفل المأذنة البحرية مما يلى الشرق عمودان ، وما هو بدائرة الفسقية حامل للقبة التى كانت بيت مال المسلمين وكان فيها مودع أموال الأيتام عشرة أعمدة ، وذلك تتمة العدد المذكور والذى ذكر أن عمده كانت ثلاثمائة وستين عمودا ، وأن الثمانية عشر المرادة زيادات بعد أصله عند كمال عمارته » (٢) . ومجموع هذه الأعمدة التى أشرت اليها ثلاثة وثلاثون عمودا ، أغفل (كريسويل) إثباتها فى مشروعه ، ولا تظهر على الرسم الذى نشره ، (شكل ٢٩) ، ولا فى حسابه الدقيق ، ولم يذكر (كريسويل) فى مقاله الذى نشره مع هذا الرسم أى مبرر لأغفال هذه الأعمدة ، أو للتشكك فى صحة رواية ابن دقماق ومشاهدته لها فى الأماكن التى عينها .

وهكذا تبدو محاولة (كريسويل) الأولى مختلقة ، وهى على كل حال لا تستند

(١) صفحة ٦٠ و ٦١ من الجزء الرابع من كتاب « الانتصار »

(٢) الثمانية عشر عمودا المقصودة هنا هى : عشرة تحيط بالفسقية ، وثمانية أعمدة مضافة إلى مؤخرة المسجد ، أما الأعمدة التى جددت فى عهد الحاكم (٤٠٦ هـ - ١٠١٨م) والأعمدة الأربعة التى تحمل اللوح الأخضر الذى جدده أحمد ابن محمد العجيفى بعد احتراق المسجد فى سنة ٢٧٥ (٨٨٨ م) ، فقد كانت لها نظيرات فى مواضعهامن المسجد من قبل . ينظر ابن دقماق ، شرحه ، صفحة ٦٦ ، والمقريزى ، « الخطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٥٠ .

إلى الأساس التاريخي الذى بدأت منه ، وهو ابن دقماق. وقد يخطىء ابن دقماق فى جملة عدد الأعمدة ، ولكنه من الصعب أن يخطىء فى عشرة مواضع شاهد فيها بنفسه ثلاثة وثلاثين عمودا شكلا وعددا . ولهذا فانى لا أستطيع أن أثق بالمشروع الأول الذى نشره (كريسويل) فى سنة ١٩٣١ ، إذ انه مشروع قائم على الافتراض .

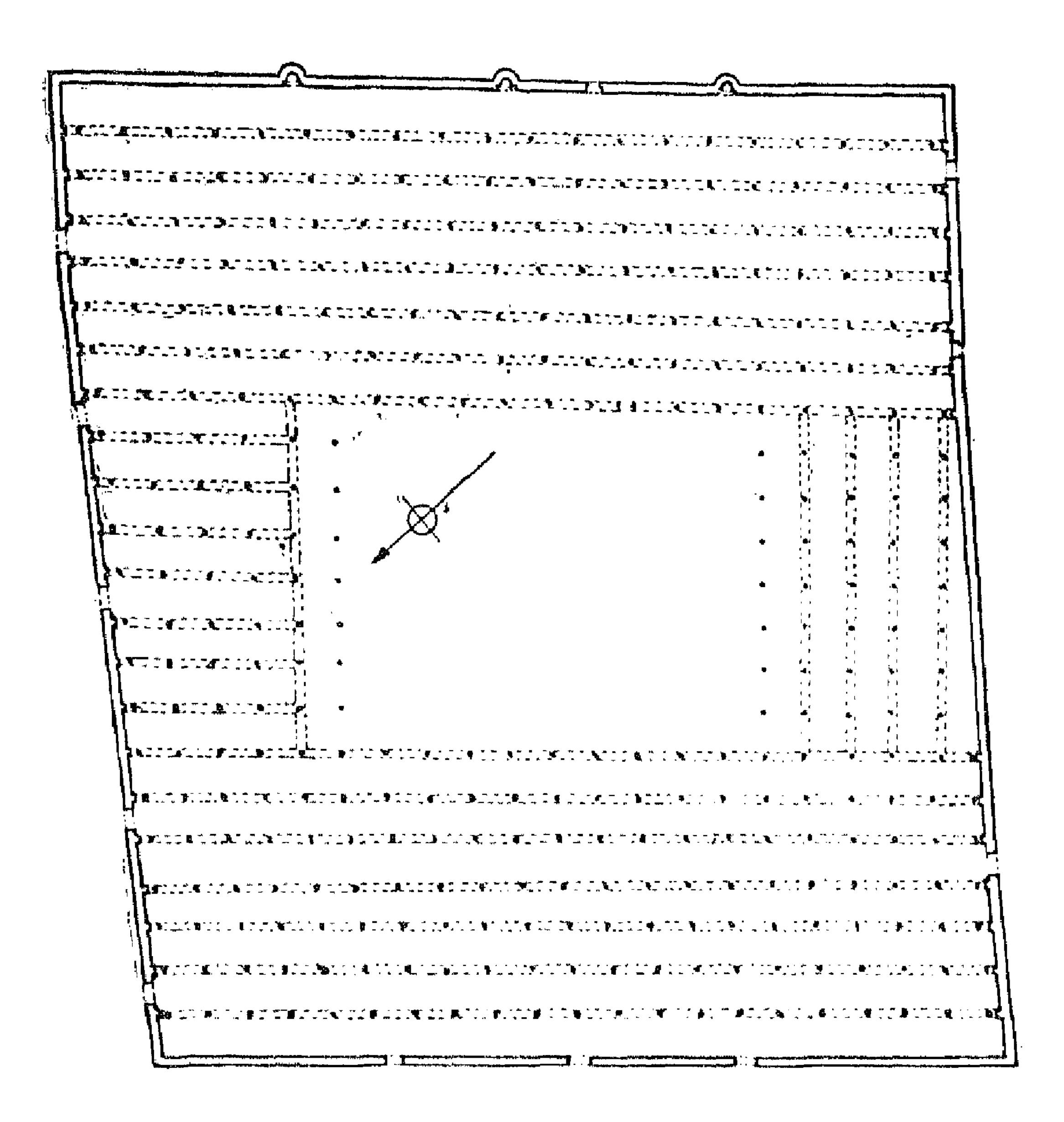
ولعل (كريسويل) نفسه شعر بعدم الثقة فى هذا المشروع ، فقدم مشروعا ثانيا نشره فى كتابه الضخم فى سنة ١٩٤٠(١) . وقد آثرت أن أنشر صورة لهذا المشروع ، شكل(٣٠) . ويؤكد (كريسويل) أن هذا المشروع الثانى يطابق الحقيقة ، لأنه يستند فيه هذه المرة ، لا إلى ابن دقماق وحده ، بل إلى النتائج التى كشفت عنها أعمال الحفر عن أسس مسجد عمرو ، ويقدم (كريسويل) مشروعه هذا فى ثقة تامة ؛ ويعتقد أن الشك لا يرقى اليها .

أما من حيث استناده إلى ابن دقماق فى هذا المشروع ، فانه فعل مثل ما فعل فى محاولته الأولى ، فأغفل فى هذه المحاولة الثانية أربعة وثلاثين عمودا ، كان ابن دقماق قد عين أماكنها من المسجد . وأضاف (كريسويل) من عنده ستة عشر عمودا لم يشر إليها ابن دقماق ، وبالتالى لم يعين أماكنها فى وصفه للمسجد . فيكون (كريسويل) قد حذف من مجموع الأعمدة ثمانية عشر عمودا ، وعلل ذلك بأن ابن دقماق قد ذكر أن عمد المسجد «كانت ثلاثمائة وستين عمودا وأن الثمانية عشر المرادة زيادات بعد أصله عند كمال عمارته» (٢) . وقد شرحت فى صفحة سابقة المعنى المراد بالثمانية عشر عمودا (٣) ، كما أننى أوضحت أن ابن دقماق قد عين بدقة مواضع الأعمدة وعددها من المسجد ، وليس ما يبرر أن يغفل (كريسويل) ، مثلا ، الأعمدة

(١) صفحة ١٩٠ إلى ١٩٣ ، شكل ١٧٠ من الجزء الثانى من كتاب «العمارة الاسلامية الأولى» .

(٢) «كتاب الانتصار» ، الجزء الرابع ، صفحة ٦٠ .

(٣) الحاشية رقم ٢ فى صفحة ٨٥ .



شكل (٣٠) — صورة منقولة عن المشروع الثانى الذى رسمه (كريسويل) لتخطيط المسجد العتيق .

الأربعة التى كانت تحت اللوح الأخضر ، والأعمدة الأربعة الأخرى التى كانت بجوار السلم وفى أسفل المئذنة البحرية . وليس ما يبرر كذلك أن يغفل (كريسويل) صفا من الأعمدة به سبعة فى اجنبة الغربية ، ويضيف بدلا منه صفاً به سبعة أعمدة فى اجنبة الشرقية .

كانت جملة الأعمدة التى أغفلها (كريسويل) أو حذفها ٣٤ عمودا (١) ، وقد حاول (كريسويل) أن يبرر حذفه لصف الأعمدة من المجنبة الغربية ، ولكنه لم يحاول ، أو أنه لم يستطع ، أن يبرر إضافته لصف من الأعمدة إلى المجنبة الشرقية . ويستند (كريسويل) فى تبرير الحذف إلى أسس التخطيط التى كشفت عنها الحفائر . ولهذا فانه قد نظم صفوف الأعمدة فى المجنبة الغربية فى اتجاه عمودى على جدار القبلة ، فى حين أن صفوف الأعمدة فى جميع أجزاء المسجد الأخرى موازية لهذا الجدار . وفى هذا شذوذ سنرى بعد قليل أنه غير مقبول . والغريب أن (كريسويل) أراد من ابن دقماق أن يؤيده فى هذا الشذوذ ، ففسر قول هذا المؤرخ « فمن ذلك بائكة تلى مقدم (المسجد) من جانبه الغربى وإلى باب الاكفانيين عشرة صفوف كل صف منها خمسة أعمدة » (٢) ، بأن إبن دقماق كان يقصد عكس ذلك ، فاستبدل (كريسويل) بهذا النص نصا آخر هو « خمسة صفوف بكل صف منها عشرة أعمدة » (٣) . ولا شك فى أن (كريسويل) ذهب فى هذا التأويل إلى حد بعيد من الخيال (٤). وهو كذلك قد ذهب إلى حد غير معقول من الناحيتين الأثرية والهندسية المعمارية . أما من الناحية الأثرية ، فان أسس البناء فى هذه المجنبة الغربية تتجه صفوفها فى اتجاه عمودى على جدار القبلة ، وهذا صحيح ، ولكن ذلك لا يترتب عليه حتما أن تصف العقود على الأعمدة فى نفس الاتجاه .

---

(١) أغفل (كريسويل)، الأعمدة الثمانية المشار إليها فى الصفحة السابقة والأعمدة التى أضيفت فى عهد الحاكم وعددها ٤١ عمودا ، والعمود الذى زيد فى مؤخر المسجد ، والعمود الذى زيد إلى صف من المجنبة الغربية ، والأعمدة العشرة التى كانت تحيط بالفسقية ،وجملة ذلك ٣٤ عمودا . وأضاف كريسويل من عنده ١٦ عمودا هى : ٩ فى المجنبة الشمالية و ٧ فى المجنبة الشرقية .

(٢) ابن دقماق ، « كتاب الانتصار » ، الجزء الرابع ، صفحة ٦٠ .

(٣) (كريسويل) فى الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية الأولى » صفحة ١٩١ .

(٤) لا يكتفى (كريسويل) باستبدال نص بنص ، ولكنه يقتطع أحيانا فقرات من النصوص التاريخية ، حتى يجعلها تساير رغباته ، كما يتضح من المثال المشار إليه فى حاشية الصفحة (٩٠) فيما بعد .

وليس أدل على ذلك من أن العقود الحالية فى بيت صلاة المسجد ، وهى التى أقيمت فى عهد الأمير مراد بك سنة ١٢١١ (١٧٩٦ م) ، تتجه فى غير اتجاه الأسس المقامة عليها الأعمدة ، فاتجاه الأسس مواز لجدار القبلة ، واتجاه العقود عمودى على هذا الجدار ، بل إنه قد اتضح أن بعض أعمدة مراد بك ليست قائمة على الأسس العتيقة . فهنالك إذن حقيقة أثرية فى بيت الصلاة : وهى أن اتجاه صفوف العقود الحالية يخالف اتجاه صفوف الأسس ، فليس ما يبرر أن تكون عقود المجنبة الغربية مطابقة لاتجاه أسس الأعمدة فيها ومخالفة لاتجاه عقود المسجد جميعا ، وخاصة لاتجاه العقود المقابلة لها فى المجنبة الشرقية . وليس ما يبرر كذلك تحوير رواية ابن دقماق وتفسير « عشرة صفوف كل صف منها خمسة أعمدة » بعكسها ، أى « خمسة صفوف كل صف منها عشرة أعمدة » . وفوق هذا فان هذه الصفوف الخمسة المختلقة فى مشروع (كريسويل) تتكون من خمسة بوائك بكل منها سبعة أعمدة ، لا عشرة ، شكل (٣٠) .

هذا من الناحية الأثرية . أما من الناحية الهندسية المعمارية ، فان عقود هذه الصفوف ، بالشكل الذى وضعه (كريسويل) ، يتطلب أن تجد عند بدايتها وعند نهايتها سنادا يتلقى قوة الضغط المندفع منها . وليس فى مشروع (كريسويل) هذا سنادا من هذا النوع . وقد أحس هو نفسه بهذا الضعف الفنى فى مشروعه ، وفسره بأنه يفترض أنه كانت فى المسجد العتيق أوتار خشبية وضعت أمام نهاية كل صف من هذه العقود لتتلقى قوة اندفاعها (١) . غير أن هذا الحل لا يعتبر كافيا فى حد ذاته . لأن قوة الاندفاع ليست أفقية فحسب ، ولا تقع على طرف العقد وحده ، ولكنها رأسية كذلك وتقع على العمود الذى تستند إليه . والذى يستند إليه كذلك — فى مشروع (كريسويل) — عقدان موازيان لجدار القبلة ، أى فى اتجاه مخالف للعقد العمودى على هذا الجدار . مما تختل به توازن العمود حتما .

(١) صفحة ١٩١ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية الأولى » .

مشروع (كريزويل) الثانى غير مقبول من النواحى التاريخية والأثرية والفنية ، فلا يمكن الاعتداد به ، مثله فى ذلك مثل مشروعه الأول ، ويتعين رفضه (١) .

والمشروع الثالث لتخطيط مسجد عمرو العتيق نشر فى سنة ١٩٣٨ ، وكانت إدارة حفظ الآثار العربية هى التى قامت بوضعه تحت إشراف مديرها المرحوم محمود أحمد (٢) . واستكمالا للبحث فإنى أعيد نشر هذا

(١) ترجم (كريسويل) حرفيا السطرين ١٢ و ١٣ من صفحة ٢٥٣ من الجزء الثانى من كتاب « الخطط » للمقريزى ، وفيها « وهدم سور الجامع بأسره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولا وعرضا » .

(Demolished... in its whole length and breadth from the great mihrab to the sahn)

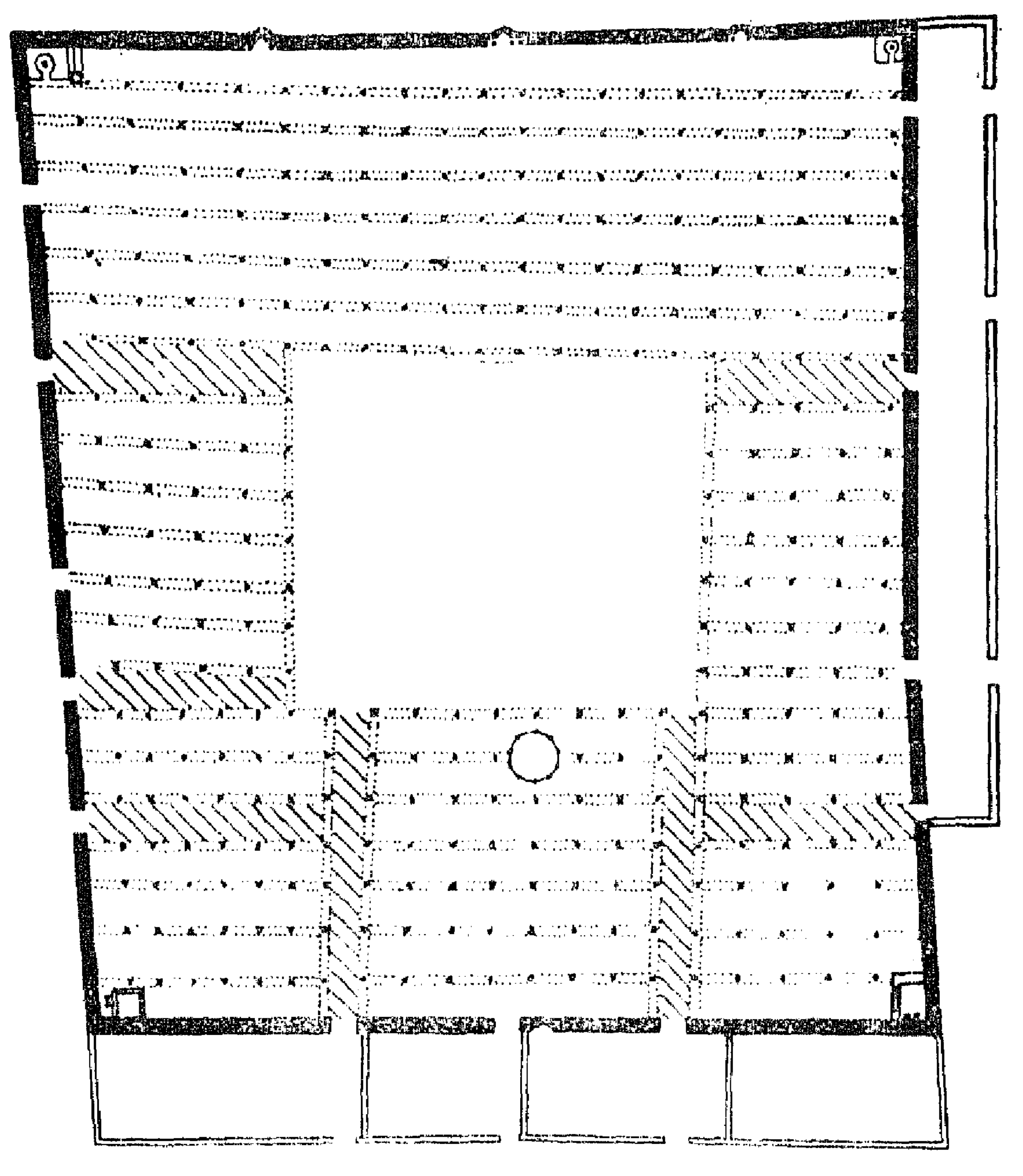
السطران ٧ و ٨ من صفحة ١٧٦ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية الأولى » ، وبنى (كريسويل) على ذلك نظريته فى أن المسجد ، وقد هدم فى سنة ٨٠٤ (١٤٠١/١٤٠٢م) ، لم يبق فيه بعد ذلك شيء من قديمه ، لأن هذا المسجد أعيد بناؤه من جديد . ويقول (كريسويل) فى ذلك :

(This restoration is a fact of vital importance which cannot be emphasised too much.)

(السطر ١٣ من نفس الصفحة) . ويستند (كريسويل) فى ذلك إلى المقريزى نفسه الذى ذكر أن المسجد « أعيد بناؤه» حينئذ ، ولكن (كريسويل) لم ير ضرورة من الاشارة إلى ما ذكره المقريزى فى نفس السطر ١٣ من نفس الصفحة ٢٥٣ من أن برهان الدين ابراهيم بن عمر بن على المحلى الذى هدم الجامع « أعاد البناء كما كان أولا ». وأوضح المقريزى فى السطور التالية تفصيل الأعمال التى أجراها برهان الدين إبراهيم هذا ، ومن ذلك أنه « جرد العمد كلها ، وتتبع جدر الجامع فرم شعثها كله ، وأصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد ، ومن السقوف ما كان قد وهى ، وبيض الجامع كله ، فجاء كما كان وعاد جديدا بعد ما كاد أن يسقط لولا أقام الله عز وجل هذا الرجل مع ما عرف من شحه وكثرة ضنه بالمال حتى عمره ».وقد ترجم (كريسويل) هذه الجملة حرفيا كذلك فى الأسطر ٩ إلى ١١ من صفحة كتابه المشار اليها ، بما فى ذلك « شح الرجل وكثرة ضنه بالمال » ، ولكنه أغفل فى ترجمته الفقرة التى ورد فيها أن البناء « جاء كما كان » ، وهو أمر يستغرب من عالم مدقق .

(٢) محمود أحمد ، « جامع عمرو بن العاص » ، المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٨ .

المشروع ، شكل (٣١) ، ويتضح منه أن واضعه حرص على الاحتفاظ بتخطيط جدران المسجد الحالية ، باعتبار أنها تحتفظ بدورها بحدود المسجد العتيق بعد زيادة عبد الله بن طاهر له فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) . وكذلك حرص المرحوم محمود أحمد على أن يتتبع وصف إبن دقماق للمسجد خطوة خطوة ، وأن يسجل بالرسم ما رواه هذا المؤرخ جملة وتفصيلا ، كما أن



شكل (٣١) — صورة منقولة عن المشروع الذى رسمه المرحوم (محمود أحمد) لتخطيط المسجد العتيق .

واضع المشروع حاول أن يوفق بين وصف إبن دقماق وبين النتائج الأثرية التى أسفرت عنها أعمال الكشف عن أسس المسجد وبعض نوافذ جدرانه .

وقد لاحظ المرحوم محمود أحمد أن إبن دقماق أهمل فى وصفه صفا من الأعمدة فى مؤخر المسجد به ثمانية أعمدة ، فأضافه فى مشروعه ، وجعل عدد الأعمدة ٣٨٦ عمودا بدلا من ٣٧٨ . وقد أخذت بهذا الرأى فى وضع مشروعى ؛ وسأوضح الأسباب التى دعتنى إلى ذلك عند تحليلى لهذا المشروع (١) .

مشروع المرحوم محمود أحمد محاولة جديرة بالتقدير ، غير أن لى عليها ثلاث ملاحظات . الملاحظة الأولى أن المؤلف قد أغفل تسجيل سبعة أعمدة من جملة الأعمدة الثلاثمائة وثمان وسبعين التى ذكرها إبن دقماق ، وموضعها ثلاثة فى الجانب الغربى من المسجد ، وهو ما يعبر عنه المؤلف بالأيوان الغربى (٢) ، وأربعة فى المئذنتين البحريتين . ولعله سهو من المؤلف لم يسجله على الرسم ، إذ أنه نقل رواية ابن دقماق بدقة ، وسجل فى شرح مشروعه تحديد هذا المؤرخ لموضع هذه الأعمدة السبعة .

---

(١) تنظر فيما بعد صفحات ٩٧ إلى ٩٩ .

(٢) يختلف الكتاب باللغة العربية فى تسمية عناصر تخطيط المسجد كما اختلفوا فى تسمية اتجاهات جدرانه . وقد آثرت أن أستعمل الاصطلاحات العربية الصميمة ، كلما استطعت ، وأن أضع لكل عنصر اصطلاحا ينفرد به ، فاخترت اسم بيت الصلاة للدلالة على مقدم المسجد ، وأطلقت لفظ الاسكوب على الممر الموازى فى بيت الصلاة لجدار القبلة والذى يمتد بين الأعمدة — أو الدعامات — من الجدار الشرقى إلى الجدار الغربى من هذا البيت ، والبلاطة هى الممر الممتد رأسيا فى بيت الصلاة من جدار القبلة إلى الصحن ، واحتفظت بلفظ المؤخر ، أو المؤخرة ، ومدلوله، والمجنبة هى الظلة المقامة على جانبى الصحن ، الشرقى والغربى ، والرواق فى المجنبة هو الممر الموازى لواجهتها على الصحن ، والذى يمتد من بداية المجنبة إلى نهايتها ، وكذلك بالنسبة لمؤخر المسجد ، والزيادة هى الرحبة الخارجة عن جدران مجنبات الصحن . وأسميت المساحة المنحصرة بين أربعة أعمدة ، أو أربع دعامات، مربعة . سواء كانت فى بيت الصلاة أو فى مؤخر المسجد أو فى مجنبة من مجنباته .

والملاحظة الثانية أن المؤلف قد جعل واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن أحد عشر عقدا ، فى حين أنها كانت عشرة عقود فى عهد الحاكم ، واثنى عشر عقدا فى عهد عبد الله ابن طاهر (١) . وقد ذكر ابن دقماق أن الجدار البحرى من مقدم المسجد . وهو واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن . قد هدم فى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس و « أزيلت العمد والقواصر العشر . وعمر الجدار المذكور وأعيدت العمد والقواصر كما كانت ، وزيد فى العمد أربعة مما هو تحت اللوح الأخضر والصف الثانى منه » (٢) . وقد سجل المرحوم محمود أحمد على الرسم هذه العمد الأربعة المزادة . ولكنه لم يلاحظ أن عدد القواصر عشرة . لا إحدى عشرة ، خصوصا وأنه قد سجل على الرسم . فى الواجهة المقابلة ، واجهة مؤخر المسجد على الصحن . عشرة عقود لا غير .

أما ملاحظتى الثالثة فهى أن المؤلف لم يراع تماما اتجاه أسس التخطيط التى كشف عنها فى عهد إدارته للآثار العربية . إذ جعل المسافات بين صفوف الأعمدة متحدة تقريبا فى بيت الصلاة وفى المجنبات . فى حين أن هذه المسافات تختلف . وتعدد البعض منها دعامات موزعة فى الجدران من داخل المسجد . كما أنه جعل الصلة مختلة بين صفوف الأعمدة فى المجنبة الشرقية وصفوفها فى مؤخر المسجد . إذ أنه يلاحظ على الرسم فى مشروعه أن الأعمدة المتصلة من هذا المؤخر بتلك المجنبة لا تواجه نظائرها فيها . بل وتختلف عنها عددا . وبينما يتكون الصف السابع من أعمدة المجنبة الشرقية من خمسة أعمدة . يتكون الصف الأول الذى يقابله فى نفس الموضع من مؤخر المسجد من ستة أعمدة .

* * *

(١) تنظر الحاشية رقم ١ صفحة ٧٩ فيما سبق ، والحاشية رقم ١ فى الصفحة التالية .

(٢) « الانتصار » . الجزء الرابع صفحة ٧٠ .

— ٤ —

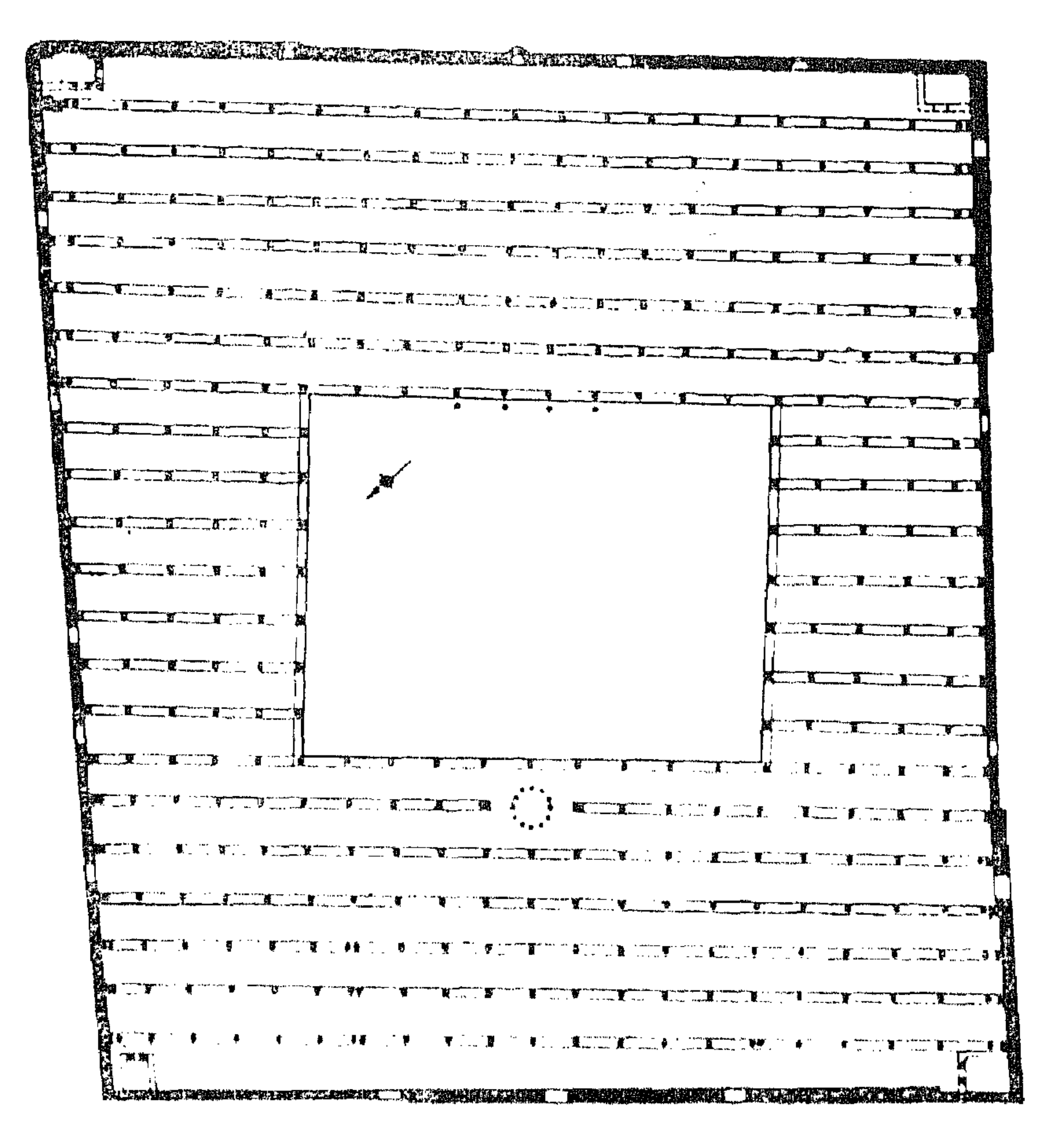
مشروع المؤلف لتخطيط المسجد الجامع

يتبين مما سبق أن المشروعات التى وضعت لرسم تخطيط مسجد عمرو بن العاص فى « أزهى عصوره » لم تنجح تماما فى التوفيق بين رواية المؤرخين ونتائج الدراسات الأثرية التى كشفت عن أسس البناء القديم ، ولهذا آثرت أن أحاول محاولة جديدة ، وأضع مشروعا يبين النظام التخطيطى للمسجد فى عهد عبد الله بن طاهر مع إضافة الرواقين اللذين بنيا من الحجارة فى عهد الخليفة الحاكم (١) ، والأعمدة الأربعة التى كانت تحمل اللوح الأخضر ؛ حتى تكون الأعمدة فى مشروعى مطابقة لمواضعها من وصف ابن دقماق ، جملة وتفصيلا (٢) . وطبيعى أننى قد تحاشيت فى مشروعى الأخطاء التى أخذتها على المشروعات التى سبقته .

يتضح من مشروعى ، شكل (٣٢) ، أن بيت الصلاة فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) كان يشغل مستطيلا طول جدار القبلة فيه مائة وتسعة أمتار ، وعرضه ، أى جوف بيت الصلاة ، سبعة وثلاثون مترا فى الجهة الغربية ، وأربعة وثلاثون فى الجهة الشرقية ، وكان هذا البيت يشمل سبعة أساكيب ، يحد كل منها صف من الأعمدة ، مواز لجدار القبلة ، بكل صف عشرون عمودا ، تكون منها تسع عشرة بلاطة . وكان عرض الأساكيب يتراوح بين أربعة أمتار وستة أمتار ، وكان أسكوب المحراب أكثرها سعة وعرضا . أما المسافة بين الأعمدة فكان متوسطها خمسة أمتار .

وكان بجدار القبلة ثلاثة محاريب ، واحد منها يتوسط جدار القبلة ، مواجها لصف الأعمدة الذى يفصل بين البلاطة الأولى إلى يمين المحراب ونظيرتها إلى يساره ، والمحراب الثانى ، وهو محراب قرة بن شريك الذى

(١) و (٢) وضعت هاتان الحاشيتان فى صفحة ١٠٠ .



شكل (٣٢) — مشروع المؤلف لتخطيط المسجد العتيق على عهد عبد الله بن طاهر فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) .

وضع فى سمت محراب عمرو فى المسجد العتيق ، يواجه البلاطة الخامسة من الجدار الشرقى ، وكان المحراب الثالث يواجه البلاطة الرابعة من الجدار الغربى .

وكان للمسجد صحن ، أو بهو ، يشغل مستطيلا طول واجهة بيت الصلاة عليه يزيد قليلا عن خمسين مترا ، (وذلك بعد إضافة رواقى الحاكم إلى الجنبيتين) ، وعرضه يزيد قليلا عن ثلاثين مترا . وكانت تطل على هذا

الصحن عقود من جهاته الأربعة ، عددها عشرة ، فى وجه بيت الصلاة ، ومثلها فى الجهة المقابلة لها من مؤخر المسجد ، وثمانية فى كل من واجهتى المجنبتين الشرقية والغربية . ويحف بهذا الصحن مجنبتان ، واحدة فى شرقيه والأخرى غربيه ، وبكل منهما خمسة أروقة . ويطل مؤخر المسجد على هذا الصحن ، ويحوى سبعة أروقة ، تقابل الأساكيب السبعة فى بيت الصلاة .

وكانت أسس تخطيط العمد والعقود جميعا ، فى بيت الصلاة ومجنبات الصحن تمتد فى صفوف موازية لجدار القبلة ، فيما عدا صفى العقود المطلين على الصحن من المجنبتين الشرقية والغربية فهما عموديان على هذا الجدار . وأخيرا ، كان للمسجد ثلاثة عشر بابا وأربع مآذن .

أشرت فيما سبق إلى الأسباب التى دعتنى إلى وضع مشروع لتخطيط مسجد عمرو على ما كان عليه فى عهد عبد الله بن طاهر ، وإلى أننى قد اهتديت فى وضعه بالنتائج الأثرية التى أسفرت عن كشف أسس بناء المسجد العتيق ، فى القرون الأولى بعد الهجرة ، وتتبعت فى رسمه وصف إبن دقماق خطوة خطوة . غير أنى أضفت إلى وصف إبن دقماق صفا من ثمانية أعمدة فى وسط مؤخر المسجد ، مما رفع جملة عدد الأعمدة من ٣٧٨ إلى ٣٨٦ . ولابد لى من أن أبرر هذا الأجراء .

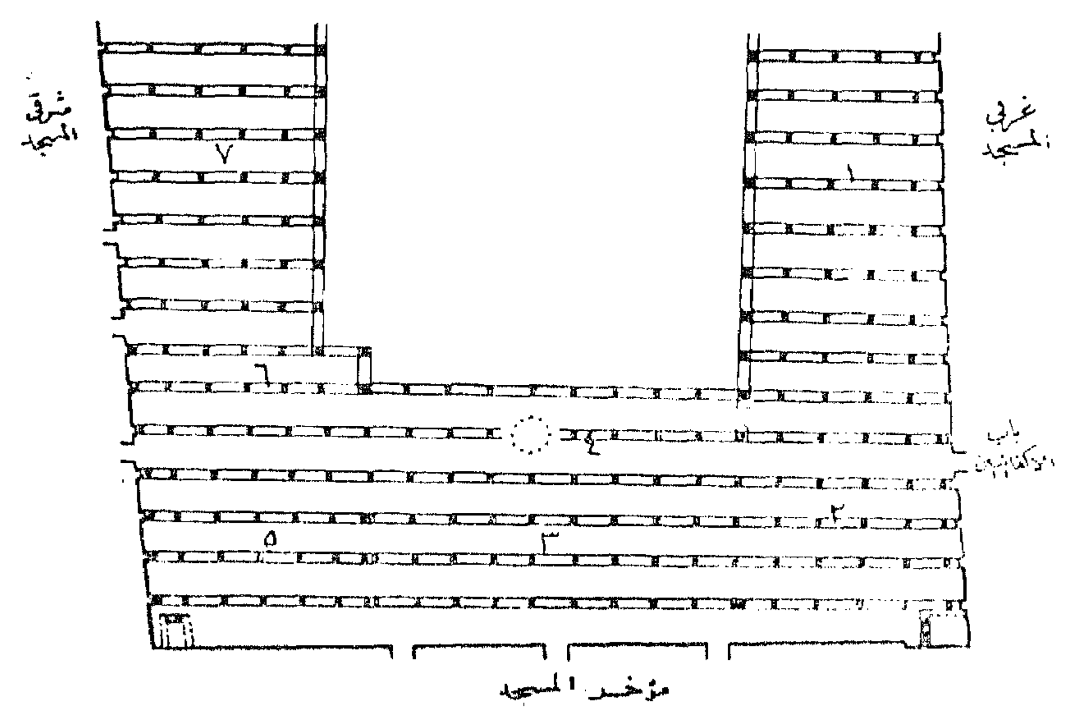
وأبدأ أولا بتسجيل وصف إبن دقماق على الرسم ، شكل (٣٣) . وقد ذكر إبن دقماق فى صفحة ٦٠ من كتابه الذى أشرت اليه ، بعد بيان أعمدة بيت الصلاة ، أنه يلى مقدم المسجد :

١ — « بائكة ... من جانبه الغربى وإلى باب الاكفانيين ، عشرة صفوف ، كل صف منها خمسة أعمدة ، وفيها صف زيد فيه عمود ، وجملة ذلك ٥١ عمودا ، وهو الموضح بالرسم فى الشكل تحت رقم (١) » .

٢ — « وبائكة ثانية تلى ذلك وهو من باب الاكفانيين وإلى جدار الجامع البحرى من غربيه ، أربعة صفوف ، كل صف منها ستة أعمدة ، وفيها عمود زيد إلى جانبه آخر ، جملة ذلك ٢٥ عمودا ، رقم (٢) فى شكل (٣٣) ،

٣ — « وبائكة تلى ذلك من مؤخره : ثلاثة صفوف ، كل صف ثمانية أعمدة ، جملة ذلك ٢٤ عمودا ، رقم (٣) فى الشكل ،

٤ — « وبائكة تلى ذلك من مؤخره أيضا ، ثلاثة صفوف ، كل صف منها ثمانية أعمدة ، خلا الصف الوسطانى مكان الفسقية فإنه سبعة أعمدة ، فجملة ذلك ٢٣ عمودا ، رقم (٤) فى الشكل ،



شكل (٣٣) — تسجيل مرسوم لوصف (ابن دقماق) لجانبى صحن المسجد العتيق ومؤخره .

٥ — « وأيضا بائكة تلى ذلك ، ثلاثة صفوف . كل صف منها سبعة أعمدة ، جملة ذلك ٢١ عمودا ، رقم (٦) فى الشكل ،

٦ — « وبائكة تلى ذلك ، أربعة صفوف ، كل صف سبعة أعمدة ، جملة ذلك ٢٨ عمودا . وفيه زيادة فى ثلاثة صفوف ٣ أعمدة ، أى ٣١ عمودا . رقم (٥) فى الشكل ،

٧ — « وبائكة أيضا هى شرقى الصحن . سبعة صفوف ، كل صف منها خمسة أعمدة ، جملة ذلك ٣٥ عمودا » ، رقم (٧) فى الشكل .

هذه المجموعات السبع من صفوف الأعمدة مسجلة على الرسم فى شكل (٣٣) ومنها يظهر :

أولا : أن موئخر المسجد به سبعة أروقة فى شرقيه وغربيه ، أما فى وسطه فقد نزع صف من الأعمدة ، فلم يعد به غير ستة أروقة ، وهذا لا يستقيم شكلاً ولا هندسة .

ثانيا : أنه بينما تتكون واجهة مجنبة الصحن الشرقية من بائكة من ثمانية عقود ، يظهر أنه يقابلها فى الجهة الغربية واجهة من بائكة من تسعة عقود ، وهذا المظهر لا يستقيم كذلك شكلاً ولا هندسة .

ثالثا : أنه قد برز عمود فى الركن الشمالى الشرقى من الصحن بروزاً شاذاً ، وأن هذا العمود يحمل بلا مبرر عقداً متصلاً بمؤخر المسجد ، وآخر متصلاً بالمجنبة الشرقية .

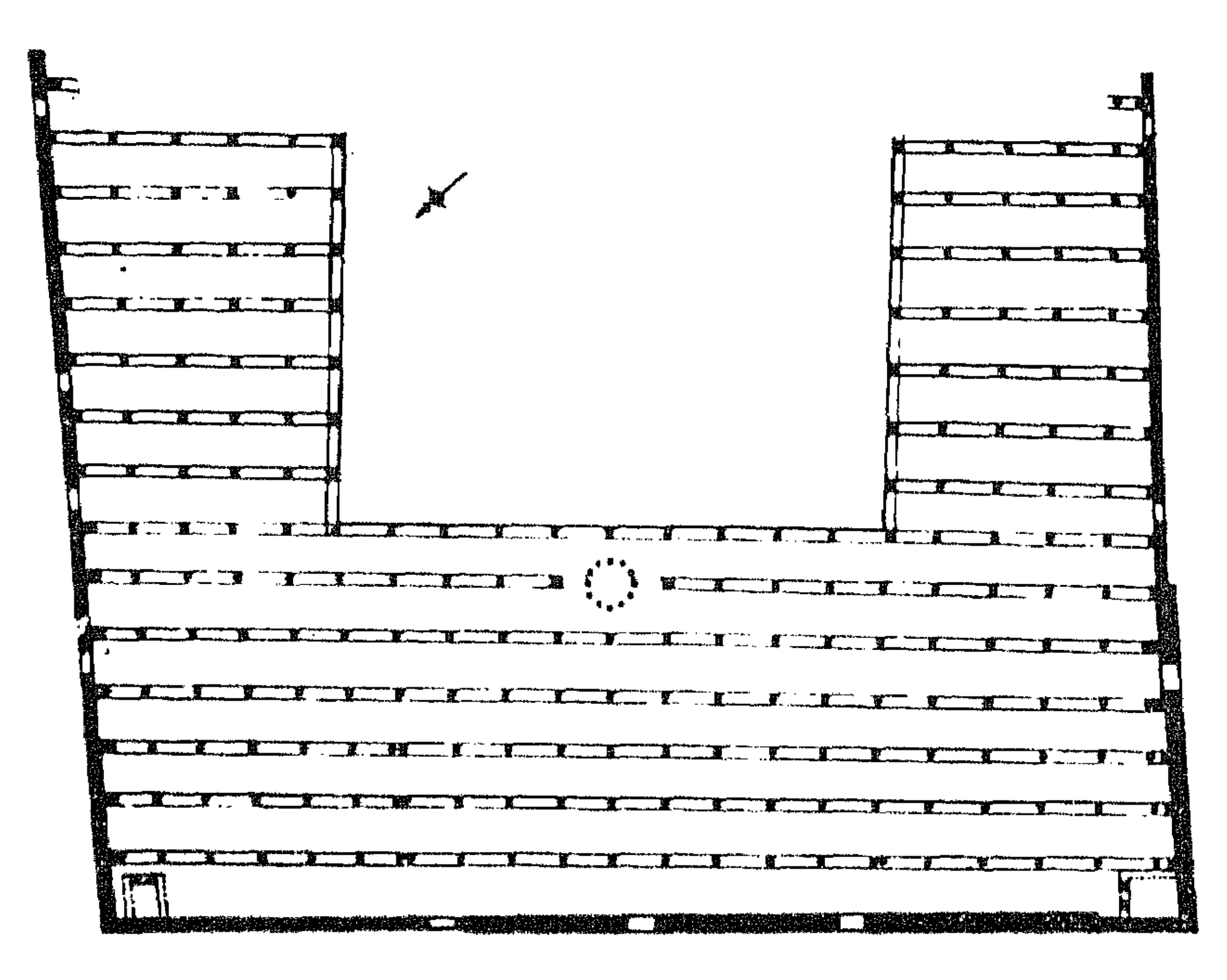
ويتضح من كل هذا أن الرواق السابع لمؤخر المسجد مبتور من وسطه ، فى وصف إبن دقماق ، ويتعين هندسيا أن يمتد هذا الرواق من الشرق إلى الغرب ، باضافة صف من ٨ أعمدة بعد الصف الذى تتوسطه الفسقية .

هذا من الناحية الهندسية ، أما من الناحية الأثرية ، فقد كشف فى موضع الصف المغفل من وصف إبن دقماق عن آثار أسس للبناء ، وكانت هذه الأعمدة الثمانية مقامة عليها .

وأخيرا فان ابن دقماق نفسه قد ذكر فى موضع آخر من كتابه ، كما رأينا ، أن بمؤخرة المسجد سبعة أروقة ، أى سبعة صفوف من الأعمدة ، وأيده المؤرخون القدامى فى ذلك (٣) .

لهذه الأسباب الهندسية والأثرية والتاريخية رأيت إضافة هذا الصف من الأعمدة الثمانية إلى مؤخر مسجد عمرو ، وسجلتها فى مشروعى ، كما يتضح من شكل (٣٤) فى الصفحة التالية ، مصححا بذلك ما أغفله إبن دقماق فى طرف من وصفه لهذا المسجد .

(٣) وضعت هذه الحاشية فى صفحة (١٠٠) .



شكل (٣٤) — رسم مصحح لوصف (ابن دقماق) لجانبي صحن المسجد العتيق ومؤخره .

حواشي الصفحتين ٩٤ و ٩٨ .

---

(١) اختلفت الآراء وأقوال الرواة فى هذين الرواقين ، والمعروف أنهما كانا منصوبين من خشب فى سنة ٢٥٧ (٨٧٠م) فى عهد أحمد بن طولون ، وأن الخليفة الحاكم أمر بنزع العمد الخشبية وإقامة الرواقين على عمد من رخام . ويقول المرحوم محمود أحمد « أما أن هذين الرواقين أضيفا إلى الايوانين القبلى والبحرى فصار لكل منهما سبعة أروقة بدلا من ستة ، أو أنهما أضيفا إلى الأيوانين الشرقى والغربى فصار لكل منهما خمسة أروقة بدلا من أربعة ، فهذا أمر لا يمكننا البت فيه » (« جامع عمرو » ، صفحة ٢٠). ولكن الثابت لدى أنهما أضيفتا إلى المجنبتين الشرقية والغربية ، وذلك لأن أساكيب بيت الصلاة السبعة كانت محددة باللوح الأخضر الذى نصبه عبد الله بن طاهر (ابن دقماق ، كتاب « الانتصار » الجزء الرابع ، صفحة ٦٦) وإضافة « رواق » أو أسكوب إلى هذا البيت بعد ذلك يعنى أن « أروقته » أو أساكيبه تصبح ثمانية لا سبعة ، وهو ما يخالف ما أجمع عليه المؤرخون .

(٢) وذلك بعد إضافة الصف السابع فى مؤخر المسجد الذى أهمل ابن دقماق ذكره فى بيان عدد الأعمدة ، وقد وضعت فى مشروعى رسم الفسقية التى فى مؤخر المسجد ، والتى تحملها عشرة أعمدة بالرغم من اعتقادى بأنها لاحقة للعهد الذى يعبر عنه هذا المشروع ، وذلك حرصا منى على تسجيل جميع التفاصيل التى رواها إبن دقماق.

(٣) ابن دقماق ، كتاب « الانتصار »، الجزء الرابع ، صفحة ٦٩ ؛ المقريزى ، « الخطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٥٣ ، وقد نقل المقريزى عن ابن المتوج أن ذرع مؤخرة المسجد ،أى مساحته ،مثل مساحة مقدمه ، ومعنى ذلك أن بكل منهما عدد مماثل من الأروقة ، وجاء فى « صبح الأعشى »للقلقشندى ، الجزء الثالث ، صفحة ٣٤٢ ، أن المسجد كان فى سنة ٧١٣ (١٣١٣م) يشمل ٢٤ رواقا ، ٧ فى مقدمه ، و٧ فى مؤخره ، و ٥ فى شرقيه ، و ٥ فى غربيه. وأكد ذلك جميع المؤرخين الذين ذكروا عدد أروقة المسجد . وتنظر الحاشية رقم ١ ، صفحة ٩٧ فيما سبق .

الفصل الخامس

المسجد الجامع الطولونى

١ — مقدمة تاريخية .

٢ — تخطيط المسجد .

٣ — عمارة المسجد .

٤ — المئذنة .

٥ — العناصر المعمارية .

٦ — العناصر الزخرفية .

٧ — خصائص الزخارف الطولونية .

الفصل الخامس

المسجد الجامع الطولونى

— ١ —

مقدمة تاريخية

إذا كان لم يتخلف من أول مسجد أقيم بمصر غير عناصر تخطيطية وآثار متناثرة من نوافذه وزخارفه ، فان المسجد الجامع الطولونى قد قاوم عاديات الزمان ، وصمدت عمارته وزخارفه أحد عشر قرنا ، واحتفظ بمعظم عناصره ، وبقى خالدا فى حالة يمكن معها الاستدلال على نظامه وهيئته الكاملة التى كان يبدو عليها يوم الانتهاء من بنائه . فهو لهذا أقدم المساجد الجامعة القائمة بمصر ، وأعظمها قدرا وقيمة أثرية ؛ وهو كذلك أكثرها فسحة واتساعا .

إبتدأ أحمد بن طولون بنيان مسجده الجامع هذا فى سنة ثلاث وستين ومائتين . وقد اختلفت الآراء فى تاريخ بداية البناء ، وقيل كان ذلك فى سنة ٢٦٤ (٨٧٧ م) (١) ،وقيل « بدأ البناء فى سنة تسع وخمسين ومائتين »(٢) ، أما تاريخ الانتهاء من عمارته ، فلا محل لخلاف فيه ، إذ أنه مسجل فى لوحة حجرية مثبتة على إحدى دعامات المسجد ومنقوشة بالخط الكوفى ، جاء

---

(١) المقريزى ، « خطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٦٨ .

(٢) ابن دقماق ، « كتاب الانتصار » ، الجزء الرابع ، صفحة ١٢٢ .

فيها « أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ...... ببناء هذا المسجد المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليه وطيبه ، لجماعة المسلمين ، ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة فى شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين » (مايو ٨٧٩) (١) ، شكل (٣٥) .

شكل (٣٥) — تاريخ المسجد الطولونى محفور على لوحته التأسيسية .

وروى الرواة عن إنشاء هذا المسجد قصصاً وأساطير ، يقبلها بعض المشتغلين بالآثار الأسلامية ، ويعترض عليها البعض الآخر ، ومنها ما نقله المقريزى عن جامع السيرة الطولونية (٢) من أنه لما أراد إبن طولون بناء الجامع « قدر له ثلاثمائة عمودا ، فقيل له : ما تجدها أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك ، فأنكر ذلك ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره ، وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين ، وكان قد غضب عليه وضربه ورماه فى المطبق ، الخبر ، فكتب إليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار ، بلا عمد ، إلا عمودى القبلة ، فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه ، فقال له : ويحك ما تقول فى بناء الجامع ،

(١) محمود عكوش : « تاريخ ووصف الجامع الطولونى » ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٧ . تراجع فيه صفحات ٢٢ إلى ٢٤ ، لوحة رقم ٢ . وقد تبقى النصف الأيمن من اللوحة ، وفقد النصف الآخر ، وكان اسم أحمد بن طولون منقوشا فى النصف المفقود ، أما التاريخ ، فما زال باقيا يقرأ على النصف الأيمن ، وهو الذى رسمته أعلاه .

(٢) المقريزى ، «خطط» ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٦٥ ، والمقصود بجامع السيرة الطولونية هو أبو محمد عبد الله البلوى ، مؤلف كتاب « سيرة أحمد بن طولون » ، المطبوع بدمشق سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩) .

فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة ، فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوره له ، فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار ... » .

ويروى المقريزى قصة أخرى ، نقلها هذه المرة عن القضاعى (١) ، ذكر فيها : « قيل إن أحمد بن طولون قال : أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى ، وان غرقت بقى ، فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار إلى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار ، فبناه هذا البناء .... وبناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة.. »

ولكن البلوى يروى قصة ثالثة نقلها المقريزى أيضا (٢) ، وفيها أن إبن طولون بات ليلة يفكر فى بعض شئون دولته فرأى فى منامه رجلا من إخوانه الزهاد بطرسوس أشار عليه بمشورة ، ورأى إبن طولون أن يعمل بها .... « وركب فى غد ذلك اليوم إلى نحو الصعيد ، فلما أمعن فى الصحراء ، ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه وهو رمل ، فسقط الغلام فى الرمل ، فاذا بفتق ، ففتح ، فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار ، وهو الكنز الذى شاع خبره .... فبنى منه المارستان ، ثم أصاب بعده فى الجبل مالا عظيما ، فبنى منه الجامع » .

وقد كانت أهمية هذا الجامع فى التاريخ عظيمة ، وصيته واسع الانتشار ، حتى تعددت حوله الأساطير ، ومنها قصة رابعة نقلها المقريزى (٣) وروى فيها أنه « لما فرغ إبن طولون من بناء هذا الجامع أسر للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب ، فقال رجل : محرابه صغير وقال آخر : ما فيه عمود ، وقال آخر : ليست له ميضأة ، فجمع الناس وقال : أما المحراب فانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لى فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه لى ، وأما العمد فانى بنيت هذا الجامع

---

(١) المقريزى ، المرجع السابق ، الصفحة المرقمة ٢٦٧ وصحتها ٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة المرقمة ٢٦٨ وصحتها ٢٦٧ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

من مال حلال وهو الكنز ، وما كنت لأشوبه بغيره ، وهذه العمد إما أن تكون من مسجد أو كنيسة ، فنزهته عنها ، وأما الميضأة فانى نظرت فوجدت مايكون بها من النجاسات فطهرته منها ، وها أنا أبنيها خلفه ، ثم أمر ببنائها ».

وقد أردت أن أسجل هذه الأساطير تسجيلا فحسب ، ولكنى لا أعلق عليها أهمية تاريخية أو أثرية ما ، وليس مسجد ابن طولون أول مسجد تحكى القصص عن إنشائه ، فقد حكيت قصة شبيهة بالقصة الأخيرة عن اختيار عقبة بن نافع لقبلة مسجده الجامع عند إنشائه له فى القيروان ، سنة خمسين (٦٧٠ م). ورويت قصة معروفة عن اختيار عمرو بن العاص لموضع الفسطاط .

وتاريخ المسجد الطولونى طويل زمنا ، ولكنه قصير أحداثا . فقد تأثر كيان هذا المسجد الجامع من إنشاء القاهرة ، وإقامة مسجدى الأزهر والحاكم فيها ، وبدأ شأنه يضمحل حتى قيل إنه « تشعث وخرب أكثره » فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١) ، وقد أمر هذا الخليفة بتجديد أحد الأبواب النافذة إلى المسجد من الزيادة الشمالية ، وسجل تاريخ هذا التجديد فى لوحة رخامية على هذا الباب ، وكان ذلك فى سنة ٤٧٠ (١٠٧٧ م) . وألصقت ببعض دعامات الصلاة بضعة محاريب جصية عددها خمسة ، أحدها عمل فى عهد الملك الأفضل وزير المستنصر بالله ، سنة ٤٨٧ (١٠٩٤ م) ، ومنها محرابان يرجعان إلى العصر الفاطمى (٢) ، ورابع يبدو أنه عمل فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . وفى سنة ٦٩٣ (١٢٩٣م) فر الأمير لاجين واختفى بالمسجد الطولونى وصار « يتردد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع ، وهو حينئذ خراب لاساكن فيه ، وأعطى الله عهدا إن

(١) المرجع السابق ، الصفحة المرقمة ٢٦٩ ، وصحتها ٢٦٨ .

(٢) أثبت الدكتور فريد شافعى أن أحد هذين المحرابين ينتمى إلى نهاية العصر الفاطمى ، لا إلى بدايته كما كان يعتقد (فلورى) ، وذلك فى مقال نشره باللغة الانجليزية بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٣ ، من صفحة ٦٧ إلى ٨١ ، وعنوان المقال :
An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun.

سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من الأرض أن يجدد عمارة هذا الجامع ».
فلما كان شهر المحرم من سنة ٦٩٦ (١٢٩٦م) و « استولى لاجين على دست المملكة ، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، وتلقب بالملك المنصور .....
أقام علم الدين سنجر الداوداري فى نيابة دار العدل ، وعهد اليه بعمارة الجامع الطولونى وصرف اليه كل ما يحتاج اليه فى العمارة ... وعمر الجامع وأزال كل ما كان فيه من تخريب ، وبلطه وبيضه ، ورتب فيه دروسا .... »(١) .
وكذلك أمر السلطان لاجين باقامة القبة التى تعلو المحراب ، والفسقية التى تتوسط الصحن ، ومحرابا من الجص فى بيت الصلاة (٢) . أما ما قيل عن أعمال لاجين فى المئذنة فسأعود إليها فيما بعد .

وجددت فى المسجد « مئذنتان » فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى أوائل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) ، وقد هدمت هاتان المئذنتان من بعده ، وفى سنة ٧٩٢ (١٣٨٩) جدد فى المسجد « الرواق البحرى الملاصق للمئذنة » (٣) .

هذا معظم ما أثبته المؤرخون ، أو اللوحات المنقوشة المسجلة فى المسجد . والمعروف أن المسجد أهمل إهمالا شديدا فى العصور الحديثة ، وعنيت إدارة حفظ الآثار العربية باصلاحه منذ بداية القرن العشرين . وإذا كان الفضل يرجع إليها فى صيانة ما كان آيلا للسقوط والاندثار من عناصر هذا المسجد العظيم وتدعيمها ، فانها قد ارتكبت خطأ كبيراً بتجديد أجزاء من عمارته ، منها واجهة بيت الصلاة على الصحن ، وجزءا كبيراً من زخارفه ، فخلطت بين القديم والحديث ، وأفسدت جلال الأصل العتيق وبهجته .

(١) المقريزى ، « خطط » ، الجزءالثانى ، الصفحة المرقمة ٢٦٩ .

(٢) كان بالمسجد « فوارة » أقامها ابن طولون فى وسط صحنه واحترقت فى سنة ٢٧٩ أو فى سنة ٣٧٦ . وكانت « مشبكة من جميع جوانبها ، وفوقها قبة مذهبة على عشرة عمد رخام ، وستة عشر عمود رخام فى جوانبها ، مفروشة كلها بالرخام ... فاحترق جميع ذلك فى ساعة واحدة ، وفى سنة خمس وثمانين وثلثمائة أمر العزيز ببناء فوارة فى الجامع الطولونى عوضا عن التى احترقت » — ابن دقماق « كتاب الانتصار » ، الجزء الرابع ، صفحة ١٢٣ .

(٣) المقريزى ، « خطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٦٨ .

— ٢ —

تخطيط المسجد

يحتل مسجد إبن طولون مربعا طول كل ضلع من أضلاعه ١٦٢ مترا تقريبا ، ويشغل مساحة قدرها ستة أفدنة ونصف ، فهو أكثر مساجد القاهرة اتساعا . وينقسم هذا المربع ، كما يظهر على الرسم التخطيطى ، شكل (٣٦) ، إلى مسجد فيه بيت للصلاة وصحن ومجنبتان ومؤخر ، وثلاث زيادات تحيط بجوانب هذا المسجد الشرقية والشمالية والغربية . أما المسجد نفسه ، فيشغل مساحة طولها من الشرق إلى الغرب ١٢٢ مترا ومن الجنوب إلى الشمال ١٤٠ مترا تقريبا ، وذلك إذا قيست الجدران من الخارج .

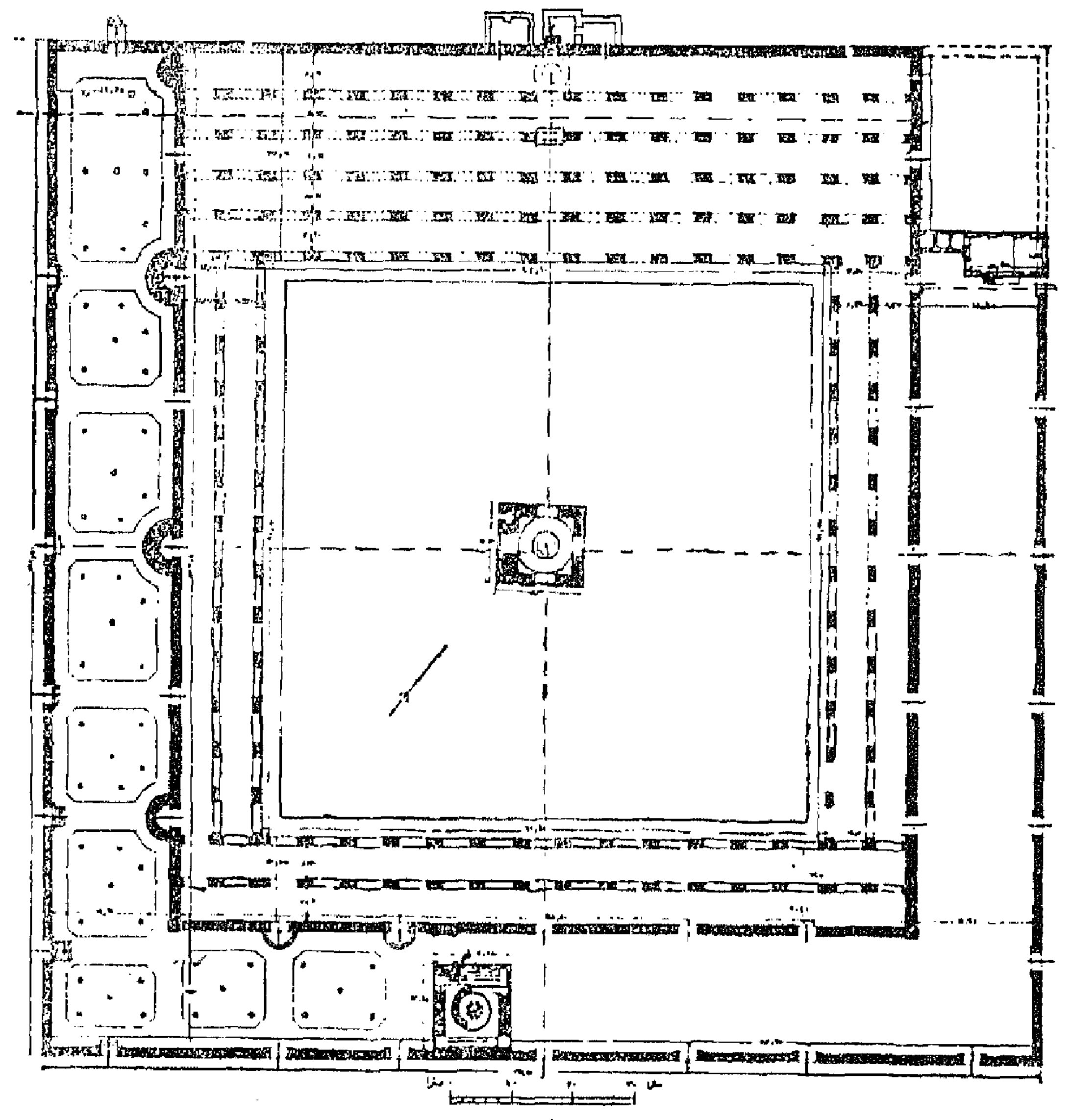
وطول جدار القبلة الداخلى فى بيت الصلاة ١١٨ مترا ، أما جوف هذا البيت فيبلغ طوله ٣٣ مترا من جدار القبلة إلى حافة الصحن . وفى هذا البيت خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة (١) ، عرض كل منها خمسة أمتار ، فيما عدا أسكوب المحراب فعرضه ستة أمتار (٢) . وتنقسم هذه الأساكيب الخمسة إلى سبع عشرة بلاطة ، أى أن بهذا البيت خمسة صفوف من الدعامات ، بكل صف منها ست عشرة دعامة .

وللمسجد صحن فسيح مربع ، طول كل ضلع من أضلاعه ٩٢ مترا تقريبا ، وتدور حوله بائكة من العقود تقوم على صف من الدعامات ،

(١) تنظر الحاشية رقم ٢ من الفصل الرابع ، صفحة ٩٦ فيما سبق ، وفيها بيان لمصطلحات عناصر تخطيط المسجد .

(٢) كتب (كريسويل) فصلا طويلا عن المسجد الطولونى ملأ ثلاثين صفحة من الجزء الثانى ، من كتابه الضخم « العمارة الاسلامية الأولى » ، من ٣٢٦ إلى ٣٥٧ ، ونقله فى فصل من كتابه «المختصر» من صفحة ٣٠١ إلى ٣١٧ ، وحرص (كريسويل) على مراعاة غاية الدقة فى القاسات بحيث أنه لم يهمل ٤٦ سنتيمترا فى خط طوله ١٦٢ مترا ، ولهذا يظهر غريبا للغاية أن (كريسويل) لم يشر فى هذه الصفحات الطوال من كتابيه إلى اتساع أسكوب المحراب فى المسجد الطولونى وزيادة عرضه مترا عن بقية الأساكيب ، وهى ظاهرة هامة فى تخطيط المساجد ، وتعتبر فى المسجد الطولونى أقدم مثل مؤكد معروف عنها فى مصر .

ويطل على الصحن منها ، فى كل جانب من جوانبه الأربعة ، ثلاثة عشر عقدا ، ويتوسط الصحن نافورة محاطة بجدران قائمة على قاعدة مستطيلة ، طولها ١٤ مترا وعرضها ١٣ مترا تقريبا . ويحيط بهذا الصحن مؤخر يقابل



شكل (٣٦) — رسم تخطيطى للمسجد الجامع الطولونى (من عمل مصلحة الآثار) .

بيت الصلاة ، كما تحيط به مجنبتان فى كل جانب من جانبيه الشرقى والغربى ، وبكل من المجنبتين والمؤخر رواقان ممتدان طولا فى موازاة واجهاتها على الصحن . وينقسم كل من الرواقين الممتدين فى مؤخر المسجد ، كما هو الحال فى بيت الصلاة إلى سبع عشرة مربعة ، يحدها

صفان من الدعامات ، بكل صف منها ست عشرة دعامة . وينقسم كل من رواق المجنبة الشرقية والمجنبة الغربية إلى ثلاث عشرة مربعة ، يحدها كذلك صفان من الدعامات ، بكل منها اثنتا عشرة دعامة . ويتوسط جدار القبلة محراب إبن طولون ، وهو محراب مجوف يحف به من كل جانب عمودان متلاصقان (١) ، شكل (٣٧) ، صفحة (١٣٩) ، وفى بيت الصلاة غير هذا المحراب محاريب أخرى صغيرة مسطحة ، لوحات منحوتة على الجص ألصقت بالدعامات ولا تظهر على الرسم التخطيطى للمسجد .

وتقوم الدعامات فى المسجد جميعه مقام الأعمدة فى مسجد عمرو ، وجملة عددها مائة وستون دعامة ، وهى مستطيلة القاعدة ، طول كل منها متران ونصف تقريبا (٢٤٦ سم) ، وعرضها متر وربع تقريبا (١٢٧ سم) ، وقد صفت فى بيت الصلاة وفى المؤخر فى صفوف موازية لجدار القبلة ، وصفت فى المجنبتين فى اتجاه أروقتها ، أى عمودية على جدار القبلة . وتبلغ المسافة التى تفصل الدعامة عن جارتها فى امتداد صفوفها أربعة أمتار ونصف تقريبا ، وهى مقاس فتحة العقد الذى يربط بين الدعامتين .

ويحيط بالمسجد خارج مؤخره وجانبيه ، أى فى شرقيه وغربيه وشماليه ، زيادات ثلاثة ، عرض كل منها ١١ مترا تقريبا بين الجدارين ، جدار المسجد وجدار الزيادات . وكان بالجهة الجنوبية بناء ملتصق بجدار القبلة يحل محل

(١) يقع هذا المحراب فى الموضع الذى اختير له عند بنيان المسجد ولكنه جدد فى عهد لاجين ، وجددت زخرفته ، ولعل الأعمدة الأربعة التى يتصدر اثنان منها كل جانب من جانبيه كانت قائمة منذ عهد ابن طولون . والأعمدة قديمة ، أما تيجانها قد نحتت فى العصر الطولونى ، وهى تشبه شبها قويا تيجان أعمدة محرابى المسجد الجامع بالقيروان ، وتعتبر هذه التيجان أمثلة رائعة لفن النحت العربى على الحجارة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . وتكسو المحراب ألواح رقيعة مصفوفة من الرخام مختلفة الألوان . وفوق هذه الكسوة نطاق من فصوص من الزجاج المذهب صفت على شكل الزهور الملتفة والأوراق الزخرفية . والغالب أن هذا النطاق الزجاجى قد أدخل على زخرفة المحراب بعد عصر ابن طولون . كما تعلو المحراب قبة حديثة صغيرة من الخشب ، أقيمت مكان القبة التى بنيت فى عهد لاجين . وللمسجد غير هذا المحراب محاريب صغيرة عددها خمسة ، صنعت من لوحات من الجص فى عصور مختلفة ، ثلاثة من العصر الفاطمى ، أحدها من عهد الخليفة المستنصر ، واثنان من عصر المماليك ، أحدهما من عهد لاجين .

الزيادة ، وكان يضم دار الامارة . ويبلغ سمك جدران المسجد متراً وستين سنتيمترا ، وسمك جدران الزيارات متراً وثلاثين سنتيمترا .

وللمسجد أبواب فتحت فى جدرانه ، وللزيادات أبواب فتحت فى جدرانها ، تقابل أبواب المسجد الداخلية ، فيما عدا أربعة أبواب تؤدى إلى بيت الصلاة من الزيادتين الشرقية والغربية ، فى طرفى كل من أسكوب المحراب والأسكوب الثالث ، فانه ليس لها مقابل فى جدارى هاتين الزيادتين، وفيما عدا أربعة أبواب أخرى ، إثنان فى طرفى جدار الزيادة الشمالية ، وواحد فى الطرف الشمالى من كل من جدارى الزيادتين الشرقية والغربية ، فليس لها مقابل كذلك فى جدران مجنبات الصحن . وبجدار القبلة أربعة أبواب ، إثنان منها ينفذان إلى بيت الصلاة وواحد ينفذ فى الطرف الجنوبى من كل من الزيادتين الشرقية والغربية . وجملة عدد الأبواب فى المسجد وزياداته إثنان وأربعون بابا (١) .

وأخيرا تقع المئذنة فى الزيادة الشمالية ، وتلتصق بجدارها فى موضع يقابل ما بين البابين الثالث والرابع من الشرق فى جدار مؤخر المسجد . وقاعدة هذه المئذنة مربعة تقريبا ، مقاساتها ١٢,٧٥ مترا من الجانبين الشمالى والجنوبى ، و ١٣,٦٥ من الجانبين الآخرين .

هذا وصف إجمالى لتخطيط مسجد ابن طولون الجامع . وسأعود فى الفصل العاشر من هذا المدخل إلى التحدث عن عناصر هذا التخطيط ومميزاته .

* * *

(١) تعدد الأبواب فى المسجد ظاهرة جديرة بالتسجيل ، ويرجع السبب فيها إلى الرغبة فى تيسير الدخول إلى المسجد والخروج منه نظرا لاتساع رقعته وزيادة العمران من حوله . أما القصد من أن أبواب بيت الصلاة وحدها ليس لها مقابل فى جدران الزيادات فهو عزل هذا البيت عن الضوضاء الخارجية ، وهو السبب فى اضافة الزيادات نفسها إلى المسجد ، فلم يكن من المعقول أن تفتح فيها أبواب تطل على المصلين فى بيت الصلاة .

— ٣ —

عمارة المسجد

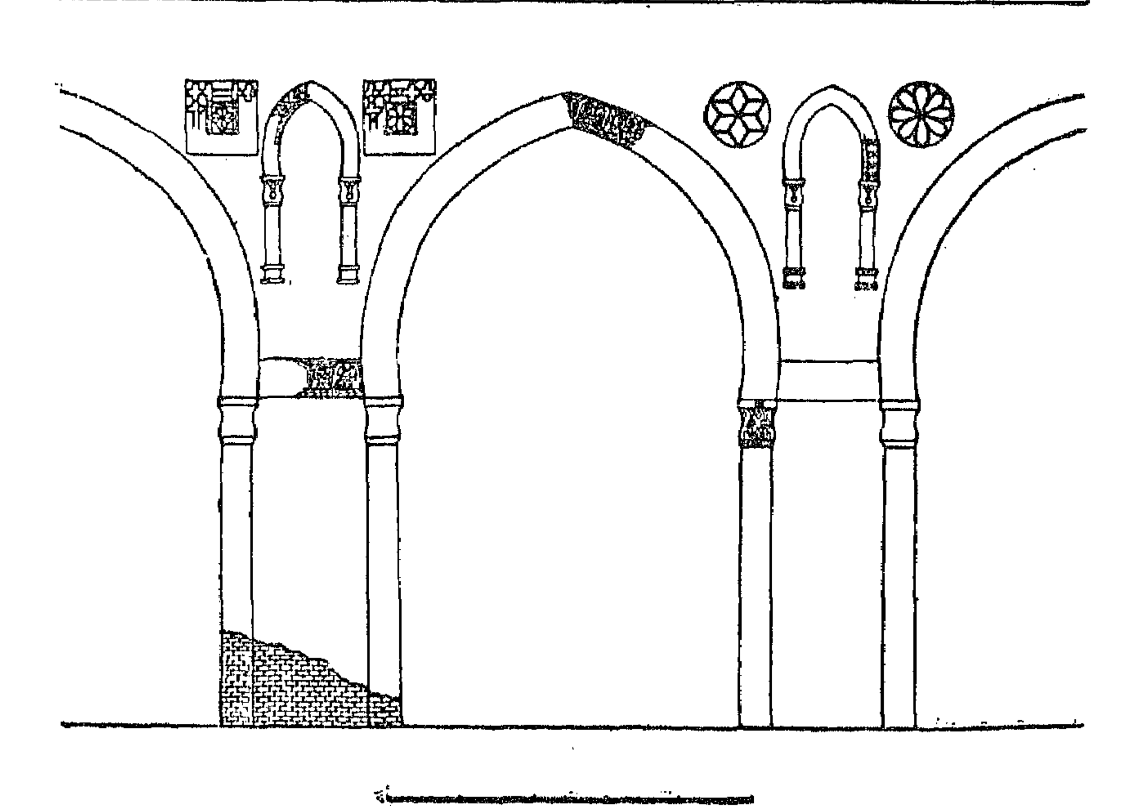
تمتاز عمارة المسجد الطولونى ببنائه جميعا من الآجر المكسو بالجص ، جدرانه ودعاماته وعقوده . وتمتاز خاصة باستخدام الدعامات فى حمل العقود ورفع السقف ، والاستغناء بذلك عن العمد ، وإذا كانت جملة عدد الدعامات فى المسجد مائة وستون دعامة ، فان بناءه بالعمد كان يتطلب ضعف هذا العدد منها على الأقل . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان هذه الدعامات الضخمة ترتفع إلى مستوى واحد فى جميع أنحاء المسجد وإن كان ارتفاعها ، الذى يبلغ خمسة أمتار فوق أرضية بيت الصلاة ، يزيد بمقدار نصف متر عن ارتفاعها فوق أرضية المجنبات . ولا يؤثر هذا الفرق على اتزان العقود وارتفاعها لأن البناء قد قصد عمدا أن يصل بالدعامات إلى هذا الارتفاع ، ولأن رؤوس العقود تمتد جميعا على مستوى واحد تقريبا ، شكل (٥٧) ، صفحة (١٥٠) ، وهذه ميزة لم تكن ميسرة لبناة المساجد الذين استخدموا العمد فى إقامة العقود ، إذ أن العمد كانت تختلف ارتفاعاتها وأحجامها ، مما كان يثير مشاكل فنية أمام هؤلاء البناة لرفع العقود على مستوى موحد (١) .

وإذا كانت هذه الدعامات ، الضخمة أحجامها ، شكل (٤٠) ، صفحة (١٤١) ، قد احتلت جزءا كبيراً من المسجد يبلغ مسطحه فى بيت الصلاة وحده مائتين وخمسين متراً مربعاً ، أى ما يعادل مساحة نصف أسكوب من أساكيبه ، فان بنيانها قد صمم بحيث يسمح برفع العقود إلى مستوى ثمانية أمتار ، ورفع السقف إلى ارتفاع عشرة أمتار ، وذلك فوق أرضية المسجد ، بحيث يجعل الضوء والهواء يغمران بيت الصلاة .

---

(١) ينظر بحثى لهذا الموضوع فى كتاب « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ٦٨ و ٦٩ ، وفى مسجد « الزيتونة الجامع » ، صفحة ٨٢ .

ويلتصق بكل ركن من أركان الدعامات ، ويندمج فى بنائه ، عمود متوج مبنى من الآجر المكسو بالجص . ويقف ارتفاع الدعامة عند نهاية تيجان الأعمدة ،ويربط بنيانها فى هذا المستوى رباط من لوحة خشبية مدت بين صفوف الآجر ، ومن فوقها ترتقى العقود التى تصل بين الدعامات وتحمل سقف المسجد .



شكل (٤٦) — رسم إيضاحى لمجموعة الروافع فى المسجد الطولونى ، الدعامات والعقود والطاقات .

ويزيد قيمة دعامات المسجد الطولونى وميزاتها وضوحا أنه قد فتحت فوقها وبين أكتاف العقود ، طاقات معقودة طول قاعدتها مترا وارتفاعها متران ، ويحف بهذه الطاقات ، على مثال الدعامات ، عمد صغيرة مبنية من الآجر ، مندمجة فى بناء جانبيها على الواجهتين الداخلية والخارجية للدعامة ، شكل (٤١ و ٤٢) ، صفحة (١٤٢) . ولهذه

الطاقات وظيفتان : الأولى زيادة الأضاءة والتهوية ، والثانية ، تخفيف الحمل والثقل الذى يقع على أكتاف العقود ورؤوس الدعامات . وفوق هذا ، فان فتح هذه الطاقات قد أدى إلى توفير مواد البناء واقتصاد ملموس فى العمل والنفقات . .

أما العقود ، وهى مبنية كذلك من الآجر المكسو بالجص ، فيبلغ متوسط ارتفاعها فوق مستوى التاج ثلاثة أمتار ، ومتوسط فتحاتها بين الدعامات أربعة أمتار وستين سنتيمترا . أى أن العقد يرتفع فى المتوسط ثلاثين سنتيمترا فوق مدار نصف الدائرة ، شكل (٤٦) ، وقد توصل البناة إلى ذلك بأن جعلوا العقد من ناحية مدبب الرأس ، ومن ناحية أخرى مطول الأطراف ، وإن كان هذا التطويل ضئيلا غير ظاهر وغير ملموس بالنسبة لظهور التدبب والانكسار (١) غير أن هذا الانكسار يظهر أشد وضوحا فى عقود الطاقات التى يزيد ارتفاعها مرة ونصف عن ارتفاع عقود نظيرة لها من أنصاف دوائر .

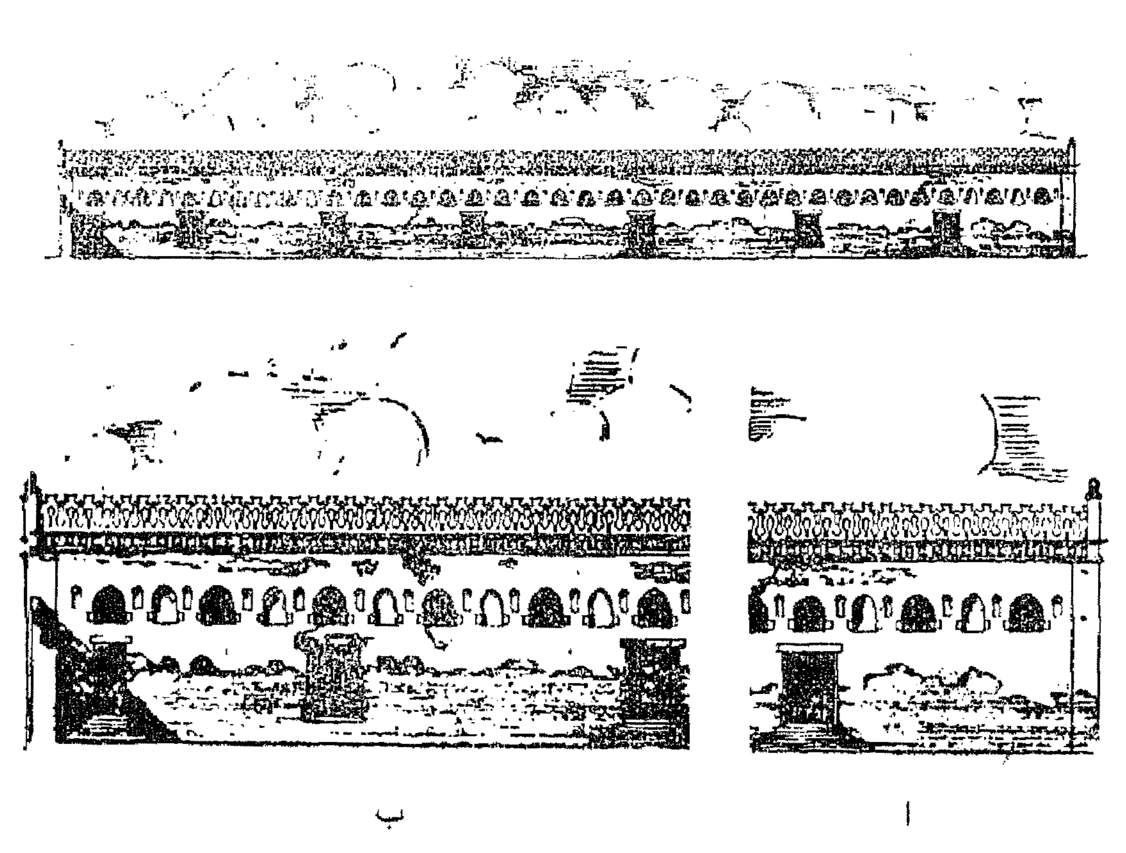
وقد فتحت نوافذ فى جدران المسجد الأربعة ، ولم تفتح مثلها فى جدران الزيادات ، ويبلغ عدد هذه النوافذ ١٢٨ نافذة ، يرتفع مستوى قواعدها عن أرضية بيت الصلاة والأروقة ما يقرب من ستة أمتار ، شكل (٤٧) ، صفحة (١٤٦) .

ويبلغ متوسط اتساع قاعدة النافذة مترين وربع ، ومتوسط ارتفاعها

(١) تختلف فتحات العقود اختلافا يصل إلى ثلاثين سنتيمترا أو أكثر ، وتختلف كذلك مستوى ارتفاعاتها اختلافا قد يزيد عن ثلاثين سنتيمترا ، إذا قيست كل منها بدقة . وقد ظن بعض المشتغلين بالآثار الاسلامية أن هناك نسبة ثابتة بين ارتفاع العقد وفتحته هى ٥ إلى ٨ ، وبنوا على ذلك نظرية ربطوا بها بين هذه النسبة وبين نسبة العقود الفارسية والميزوبوتامية ، ينظر كتاب « مساجد القاهرة » صفحة ٢٠٩ لمؤلفه (فييت) و (هوتكور) . والواقع غير ذلك ، إذ أن بناة المسجد الطولونى ، والبناة العرب بصفة عامة ، لم يتقيدوا بنسبة حسابية هندسية دقيقة ، وظاهرة التحرر من القيود تعتبر خاصية من خصائص الفن الاسلامى عامة ، ولهذا فانه لا يوجد فى المسجد الطولونى ، ولا فى أى مسجد من المساجد الأولى ، عقد يماثل جاره مماثلة دقيقة .

مترين إلا ربعا، وهى معقودة بعقود مدببة كذلك. وكانت هذه النوافذ محشوة جميعا بستائر من الجص مفرغة بالزخارف. ويحف بجانبى كل منها من الداخل ومن الخارج عمودان قصيران متوجان بتاجين مزخرفين، شكل (٤٨)، صفحة (١٤٦).

ويحيط بكل نافذة من الداخل إطار زخرفى، يمتد عند منبتها فى خط مستقيم عن يمينها وعن يسارها حتى يصل إلى منبت كل من النافذتين المجاورتين. وتغمر الزخرفة النوافذ من كل جهة، وتجرى على بواطن عقودها ويحيط بها إطار داخلى من كتابة كوفية من آيات القرآن الكريم.



شكل (٤٩) — رسم لواجهة الجدار الشرقى للمسجد الطولونى، وتلاحظ، فى الرسم التفصيلى لطرفى الواجهة (ا و ب)، الطاقات الصماء (بيضاء) بين النوافذ (سوداء).

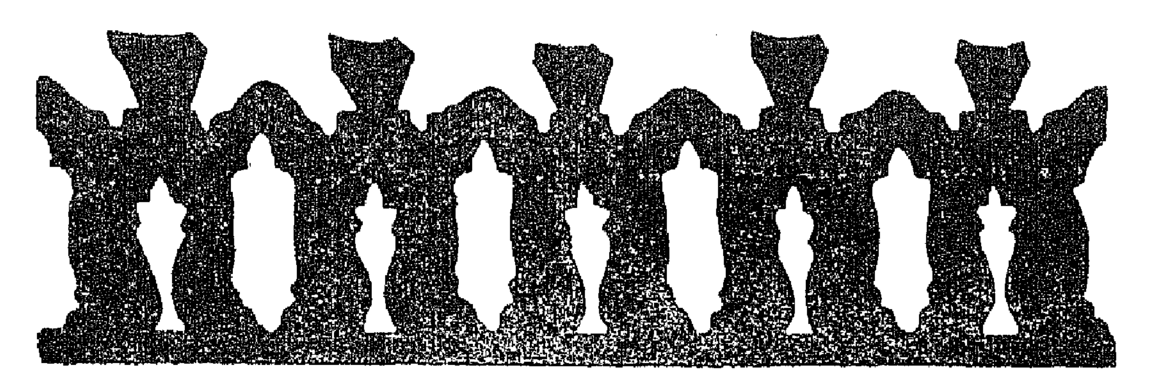
وقد صممت هذه النوافذ بحيث يواجه كل أسكوب من أساكيب بيت الصلاة نافذة من كل جانب، ويواجه كل رواق فى مؤخر المسجد نافذة كذلك من كل جانب. وبحيث تواجه كل صف من البلاطات وكل صف من الدعامات، فى بيت الصلاة، نافذة مفتوحة فى جدار

القبلة يقابلها عدد مماثل فى جدار المؤخر . وفتحت كذلك أربع وعشرون نافذة فى كل من جدارى المجنبتين الشرقية والغربية .

والمسافة بين النافذتين ، فى جدار القبلة وفى جدار المؤخر وفيما يقابل المجنبتين الشرقية والغربية تبلغ أربعة أمتار تقريبا ، أما المسافة بين النوافذ فى أطراف الأساكيب وأطراف أروقة مؤخر المسجد فهى ستة أمتار بين كل نافذتين . ولهذا حفرت بين هذه النوافذ طاقات صماء على هيئتها ، حتى يتناسق مظهرها على الواجهة ، شكل (٤٩) ، وهكذا نلقى بجدار القبلة ثلاثة وثلاثين نافذة ، ومثلها فى جدار المؤخر . أما واجهة المسجد الشرقية ففيها إحدى وثلاثون نافذة وسبع طاقات صماء على هيئة النوافذ ، وكذلك كانت الحال فى واجهة المسجد الغربية .

وقد روعى أن تستخدم العقود المدببة فى جميع عناصر المسجد المعمارية التى تتطلب رفع أجزاء من الجدران ، وذلك فيما عدا الأبواب ، فقد استخدمت فيها عتبات مستقيمة من ألواح خشبية تربط بين كتفى كل باب ، ورصت فوقها صفوف الآجر . ولم أجد تعليلا معماريا أو زخرفيا مقبولا لهذه الظاهرة الاستثنائية فى بنيان المسجد .

وتنحصر الزيادات بين جدرانها الخارجية المحيطة بها وبين جدران المسجد المحيطة ببيت الصلاة والمجنبات والمؤخر. وقد رأينا أن جدران الزيادات أقل سمكا من جدران المسجد ، وهى كذلك أقل ارتفاعا ، شكل (٥٠) ، صفحة (١٤٧) ، إذ أن ارتفاعها عن سطح الأرض ثمانية أمتار ؛ بينما يبلغ ارتفاع جدران المسجد ثلاثة عشر مترا . ورأينا أنه فتحت فى كل منها أبواب ؛ واستعرضنا مواضعها ، كما رأينا أنه فتحت فى جدران المسجد نوافذ ، ولم يفتح لها نظائر فى جدران الزيادات . وقد توجت هذه الجدران جميعا بشرفات غريبة المظهر ، شكل (٥١) ، صفحة (١٤٧) ، شكلت من الآجر ، وشبهها البعض بشكل عرف الديك ، وهى تظهر كأنها أجسام أقزام صفت متجاورة متشابكة الأذرع ؛ وتقوم أقدامها على صف من المربعات ، بداخل كل منها دائرة مفتوحة ، شكل (٥٢) ، وشكل (٥٤) ، صفحة (١٤٩) .



شكل (٥٢) — رسم لشرفات الجدران ، « كأنها أجسام أقزام » .

— ٤ —

المئذنة

استعرضنا فى الصفحات السابقة عناصر بنيان المسجد ، وهى الدعامات بأعمدتها المندمجة وطاقاتها ، والعقود ، والأبواب ، والنوافذ ، والجدران . ويتبقى من هذه العناصر المئذنة . ومئذنة مسجد ابن طولون مشهورة منذ القدم ، رويت عن إنشائها قصة طريفة (١) . وقد اختلفت آراء رجال الهندسة والآثار فى هذه المئذنة ردحا طويلا من الزمن . ويكاد يكون من المتفق عليه الآن أن المئذنة الحالية قد أعاد بناءها السلطان لاجين سنة ٦٩٦ (١٢٩٦ م) ، على مثال ما كانت عليه من قبل ، وأنه أضاف إليها مبخرة مضلعة فى قمتها ، على أسلوب مباخر المآذن فى العصر المملوكى . كما أنه بنى قنطرة تربط المئذنة بسطح مؤخر المسجد ، أقيمت على عقدين منفوخين ،

(١) روى المقريزى فى « الخطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٦٨ ، أن أحمد بن طولون « كان لا يعبث بشىء قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده ، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه ، لكونه لم تكن تلك عادته ، فطلب المعمار على الجامع وقال : تبنى المنارة التى للتأذين هكذا ، فبنيت على تلك الصورة ».

على أسلوب العقود فى المغرب والأندلس ، وجعل لمهبط سلمها بابا معقودا بعقد منفوخ كذلك (١) .

والذى لاشك فيه أن المئذنة التى أقيمت مع المسجد فى عهد ابن طولون كانت غريبة المظهر والبنيان ، وقد أجمع المؤرخون على ذلك ، غريبة المظهر لأن مدرج سلمها يلتف حولها من الخارج (٢) ، وغريبة البنيان لأنها بنيت معظمها من الحجارة بينما بنى المسجد كله من الآجر .

وقد شبهت مئذنة المسجد الطولونى بمئذنة المسجد الجامع فى سامراء ، وهى المشهورة باسم المنارة الملوية . ولكن المئذنتين تختلفان تماما : مظهرا وبنيانا ، ولا يتفقان فى غير موضع السلم المدرج الخارجى ، فى كل منهما (٣) .

---

(١) ينظر كتاب « المآذن المصرية — نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى » ، تأليف الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩ . وفى هذا الكتاب ، من صفحة ١٥ إلى ١٧ ، عرض عن مئذنة ابن طولون وتاريخها .

(٢) يرى بعض المشتغلين بالآثار ، وخاصة الأجانب ، أن فى طريقة ارتقاء هذا السلم حول المئذنة غرابة ، لأنه يرتقى فى اتجاه مخالف لاتجاه عقارب الساعة ، أى أن الصاعد على هذا السلم يدور إلى اليسار فى صعوده عليه . والمتبع عادة عكس ذلك ، إذ أنه كان يراعى فى بناء أدراج المآذن أن يكون الصعود عليها يمنة ، ولعل ذلك يرجع إلى الاعتقاد بالتبرك فى اليمنة .

(٣) قيل إن فكرة المنارة الملوية فى سامراء اقتبست من برج بابل الشهير الذى وصفه هيرودوت ، والذى كان يحوى ٨ أدوار ، ويرتقى حوله سلم خارجى . وقد اكتشفت أسس حصن من الزجورات (Zikkurat) شبيه بذلك فى خراساباد . وهذا الحصن مربع القاعدة ، طول كل ضلع فيها ٤٣ مترا ، ويبدو أنه كان يحوى ٧ أدوار ، ارتفاع كل دور ٦ أمتار ، أى أن ارتفاعه كان يزيد عن ٤٢ مترا . وأدعى (كريسويل) فى صفحات ٢٥٩ إلى ٢٦٥ من الجزء الثانى من كتابه « العمارة الاسلامية الأولى » وفى صفحات ٢٧٨ إلى ٢٨٠ من كتابه «المختصر» أن فكرة المنارة الملوية اقتبست اقتباسا مباشرا من هذه الحصون .

وفى رأيى أن المنارة الملوية لم يكن لها نظير ، من قبل بنائها ولا من بعد . وذلك ، أولا ، من حيث أنها مستديرة القامة ومدرجة الطوابق ، وثانيا ، من حيث أن سلمها لولبى . وللمنارة الملوية قاعدة مربعة ، طول كل ضلع من أضلاعها ٣٣ مترا ، وتعلو قمتها فوق هذه القاعدة ٥٠ مترا .

وللمئذنة الحالية ، شكل (٥٣) ، صفحة (١٤٨) ، قاعدة مرتفعة بنيت من الحجارة وحفرت عليها فى كل جانب من جوانبها الأربعة طاقة صماء مزدوجة ، فى وسطها عمود صغير رشيق ، يرتقى عليه عقدان منفوخان على هيئة عقود المآذن الأندلسية ، شكل (٥٥) ، صفحة (١٤٩) . وترتفع هذه القاعدة أو هذا الطابق الأول من المئذنة ، إلى ما يزيد قليلا عن واحد وعشرين مترا ، ويعلوه طابق ثان مستدير يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار ، ويبلغ قطره حوالى سبعة أمتار . ويرتفع فوقه طابقان مثمنان ، متراجعان ، ينتهى ثانيهما بقبة صغيرة مضلعة ، يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض أربعين مترا.

— ٥ —

العناصر المعمارية

أهم العناصر فى بنيان المسجد الطولونى عنصران : الدعامة والعقد المدبب . وقد رأينا أن الدعامات استخدمت فى المسجد للاستغناء عن العمد ، واستعرضنا ميزاتها الفنية . والدعامة فى حد ذاتها عنصر كان معروفا فى العمارة منذ العصور القديمة ، وقد استخدمت فى العمارة العربية الأسلامية منذ قبة الصخرة (سنة ٧٢ — ٦٩١ م) ، وفى المسجد الأموى بدمشق (سنة ٨٧ — ٧٠٦ م) ، وفى الأخيضر (سنة ١٦١ — ٧٧٨ م) ، وفى خزانات المياه فى الرملة بفلسطين (سنة ١٧٢ — ٧٨٩ م) ، وفى رباط سوسه (سنة ٢٠٦ — ٨٢١ م) ،وفى المسجد الجامع فى سوسه (سنة ٢٣٦ — ٨٥٠ م) وحوالى هذا التاريخ فى المسجد الجامع بسامراء ثم فى المسجد الجامع بأبى دلف (سنة ٢٤٥ — ٦٨٠ م) ، وفى كثير غير ذلك من المبانى العربية ، فى المشرق والمغرب ، قبل المسجد الطولونى .

ولكن دعامات هذا المسجد فريدة فى تاريخ العمارة ، وهى أول مثل معروف من نوعها ، فهى ليست دعامات فحسب ، تحل محل العمد ،

وإنما هي مجموعة معمارية منسقة ، تشمل دعامات تحف بها أشكال أعمدة مبنية من الآجر مندمجة في أركانها ، وتعلوها طاقات مفرغة . ولم تظهر مثل هذه المجموعة المعمارية في أي بناء سابق تاريخاً للمسجد الطولوني ، فهي ابتكار في تاريخ العمارة من حق بناء هذا المسجد علينا أن نسجله له .

وكذلك الحال بالنسبة للعقود المدببة في المسجد الطولوني . فقد حاول بعض علماء الآثار أن يشبهوا هذه العقود بعقود مدببة في العمارة الهندية (١) ، ولكن هذه النظرية لم تلق تأييدا ، لأن الأمثلة الهندية التي قورنت بها عقود المسجد الطولوني أمثلة متفرقة نادرة من جهة ، وهي زخرفية ، لا معمارية ، من جهة أخرى .

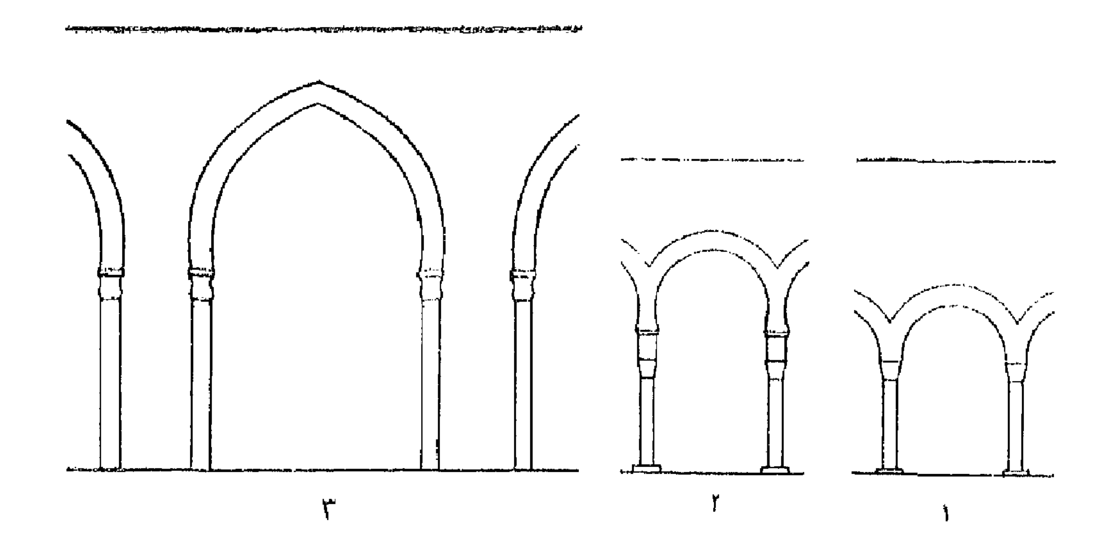
كان العقد المستخدم بصفة عامة في البنيان قبل فتوح العرب هو العقد النصف الدائري ، أي الذي يرسم قوسه نصف دائرة ، لا دبب فيه ولا انكسار ، ولا تجاوز لنصف الدائرة ، ولا تطويل للأطراف أو الأرجل . أما بعد الفتوح العربية ، فقد أخذ هذا العقد يتطور ويتخذ أشكالا أخرى ، كما رأينا في الفصل الثاني من هذا المدخل ، وأخذت فتحاته تتخذ حدودا تختلف عن نصف الدائرة . وقد استخدمت العقود المدببة في العمارة العربية الأسلامية في الأخيضر (حوالى سنة ١٦١ — ٧٧٨ م) ، وفي خزانات المياه بالرملة ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، وفي الجوسق الخاقاني بسامراء في عهد المعتصم(سنة ٢٢١ — ٨٣٦ م)، وفي المسجد الجامع بالقيروان ، في عهد زيادة الله وفي السنة نفسها ، وفي عهد أبي ابراهيم أحمد (سنة ٢٤٨ — ٨٦٢ م) ، وفي مقياس النيل بالروضة (سنة ٢٤٧ — ٢٦١ م) . ومن الجائز أنها استخدمت قبل ذلك في مسجد عمرو في عهد عبد الله ابن طاهر .

---

(١) صفحة ٩١ من كتاب « العمارة الهندية » .

Havell (E. B.): Indian Architecture, its psychology strcture and history from the first Muhammadan Invasion to the present day. London, 1913.

ولكن الحقيقة التاريخية الأثرية هى « أن المسجد الطولونى كان أول مسجد معروف ثابت التاريخ استخدمت فيه العقود المدببة المنفوخة كعنصر معمارى بطريقة منتظمة » (١) ؛ ولهذا فان لمسجد ابن طولون « أهمية عظمى فى تاريخ تطور العمارة » (٢) .



شكل (٥٦) — رسم يبين ميزة العقد الطولونى المدبب المنفوخ (٣)، بالنسبة لعقد رومانى نصف دائرى (١) ، وبالنسبة لعقد عربى نصف دائرى غير مدبب (٢) .

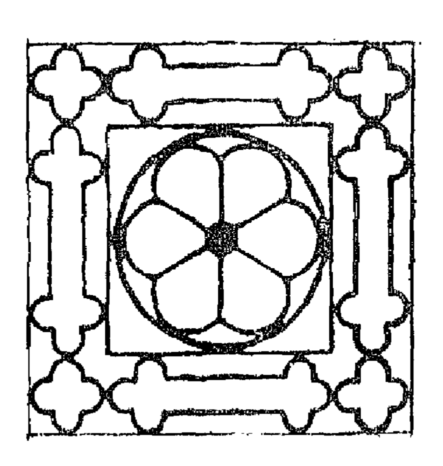
وقيل إن فى قصر ابن وردان عقداً مدبباً يرجع تاريخه إلى سنة ٥٦١ ميلادية (٣) . وإذا كان هذا الادعاء صحيحا ، فهو لا ينهض برهانا على اشتقاق العقد العربى منه ، ولا يصح أن يتخذ حجة لأنكار فضل العرب والأسلام فى تصميم العقدين المدبب والمنفوخ ، ونشرهما ، اقتناعا بميزاتها المعمارية ، شكل (٥٦) . وإزاء ذلك فانى أستطيع أن أقرر فى ثقة وإطمئنان أن العقود المدببة عنصر معمارى مبتكر فى العمارة العربية الأسلامية ، وأن

(١) صفحة ٥٧ من كتاب « العمارة المحمدية » لمؤلفه (بريجز) .

(٢) صفحة ٥٣ من الكتاب السابق .

(٣) (كريسويل) صفحة ٢٧٩ من الجزء الأول من كتابه « العمارة الاسلامية الأولى » وصفحة ١٠٢ من كتابه « المختصر». وكان بتلر (Butler) قد شاهد هذا العقد من قبل ، ونقله (كريسويل) عنه .

لها ميزات فنية لم تتوفر من قبل لأى عقد من نوع آخر ، وأنها تعتبر فى المسجد الطولونى أقدم مثل معروف منها ، استخدمت فيه عن قصد معمارى فى جميع أجزاء البناء التى انتصبت فيها عقود (١) .



(١) إن صح أن عقود بعض نوافذ مسجد عمرو عتيقة ترجع إلى سنة ٢١٢ ، فانها تصبح أقدم مثل للعقد المدبب المتجاوز فى عمارة القاهرة ، وتكون أسبق تاريخا من العقود التى شيدت فى مسجد القيروان فى سنة ٢٢١ (٨٣٦م) ، وهى التى كانت تعتبر أقدم مثل معروف فى المساجد ، وأقدم مثل استخدم فيه العقد المتجاوز ، أى المنفوخ ، بصفة عامة منتظمة فى تاريخ العمارة — ينظر البحث المفصل عن هذه العقود فى كتاب المؤلف « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحات ٧١ إلى صفحات ٨١ .

— ٦ —

العناصر الزخرفية

للمسجد الطولونى ميزات وخصائص فى مجال الزخرفة . فقد تعددت العناصر الزخرفية فى هذا المسجد ، ويلقاها الزائر له فى إطارات الدعامات وتيجانها وتيجان الطاقات والنوافذ ، كما يلقاها فى إطارات العقود والنوافذ والطاقات ، وفى بواطن عقود الدعامات وعقود النوافذ ، وفى الأزارات التى تعلو رؤوس العقود ، ورؤوس النوافذ ، والأزارات التى تمتد حول جدران المسجد الداخلية ، وفى الأزار الخشبى الذى يحيط بهذه الجدران ويجرى مسافة كيلومترين عليها ، وفى رؤوس الطاقات الممتدة بين النوافذ على الواجهات ، وفى السرر المقامة بين الطاقات والعقود ، وتلك الممتدة على واجهات الصحن ، وفى الشرفات التى تعلو الجدران ، وفى ستائر النوافذ المفرغة .

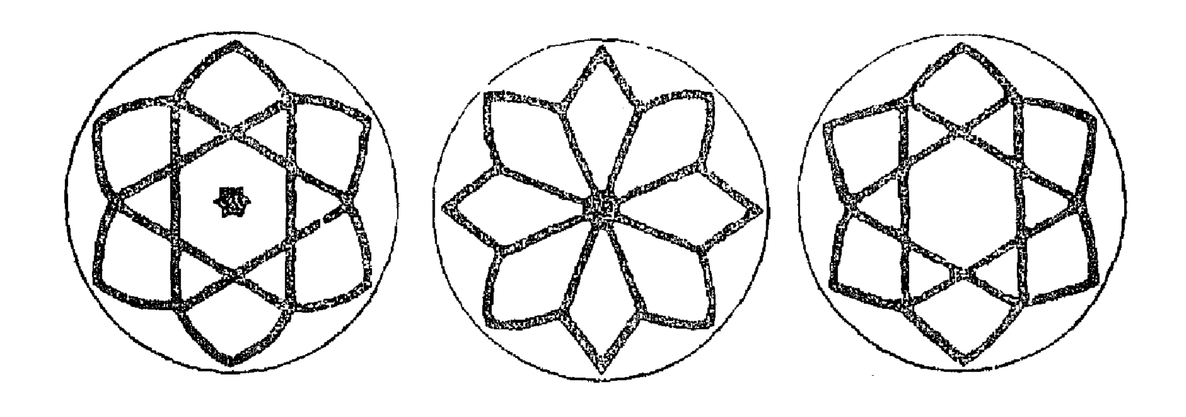
كل هذه الزخارف تجعل للمسجد الطولونى طابعا خاصا فى تاريخ الزخرفة المعمارية ، لاشتماله على مجموعة زخرفية لم تجتمع من قبل ، بمثل المظاهر والعناصر التى اجتمعت فيه بها ، فى أى أثر معمارى معروف آخر .

تتنوع زخارف المسجد الطولونى تنوعا كبيرا من حيث مواضعها ومن حيث أساليبها وأشكالها . يدور حول عقود المسجد جميعا إطار زخرفى : شكل (٤١) ، صفحة (١٤٢) ، يتحول عند قدم العقد يمينا ويسارا ، وينساب فوق الدعامة حتى يصل إلى قدم العقد المجاور ، فيدور حوله ، ويستمر فى انسيابه ودورانه ، حتى يتم الدورة حول عقود البائكة كلها . وتمتاز بوائك بيت الصلاة بأن الأطار الزخرفى يدور حول عقودها من الواجهتين . وتتكون الزخارف فى هذا الأطار من أشكال لآلىء وخطوط لولبية وبراعم زهرية

ويدور حول الطاقات المفتوحة فوق الدعامات ، وبين العقود ، إطار زخرفي كذلك ، شكل (٥٧) ، صفحة (١٥٠). ولكنه يحيط بالطاقة فحسب ، فلا ينساب فيما خارج حدودها ، أي أن لكل طاقة إطار منفصل يكسو حافة العقد ، ويقف عند تاجي العمودين المندمجين اللذين يحفان بالطاقة .

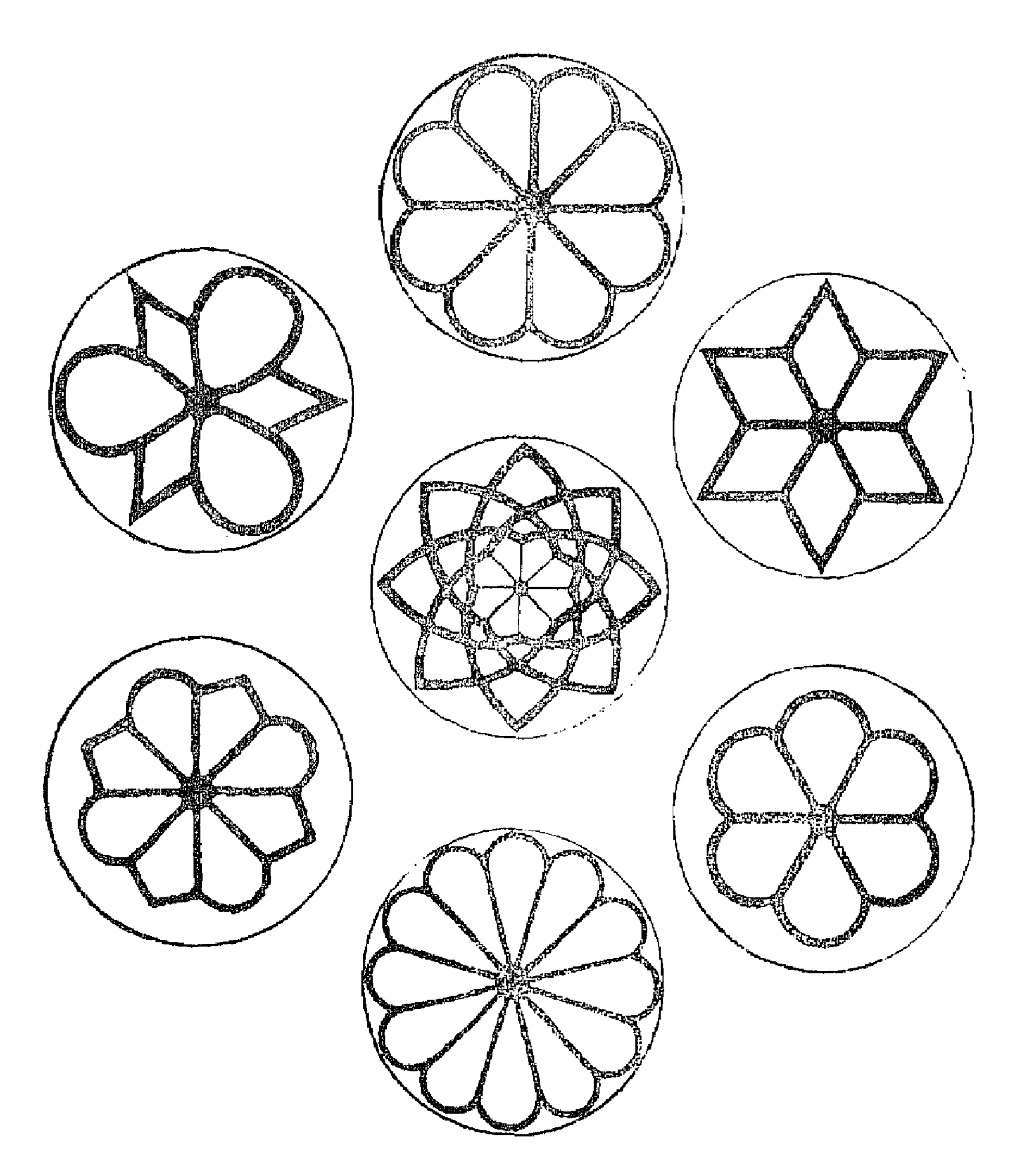
ويدور إطار كذلك حول عقود النوافذ ، ولكنه إطار متصل يحيط بجدران المسجد الداخلية متخذاً في سيره وانسيابه ودورانه ، نفس نظام الأطار الدائر حول العقود . وتتكون الزخارف في إطار النوافذ من وريقات نباتية مدببة الرأس ، يتوسطها شريط محزوز ، وتنتهي حافاتها السفلى بتجويفين مستديرين ؛ تنظر الأشكال (٧١،٧٠،٤٨) ، صفحات (١٥٩،١٥٨،١٤٦).

ويجري تحت سقف المسجد إزار ممتد يتكون من أشكال وريقات زهرية ، يتوسط كل منها حز رأسي ، وترتبط حوافها السفلى بدوائر محزوزة ، كما يظهر في الشكل (٤٠) ، صفحة (١٤١) .



شكل (٦١) — رسوم جامات وردية وهندسية على واجهات الصحن .

وحليت واجهات الصحن ، بالأضافة إلى الأطارات الزخرفية التي تحيط بالعقود والطاقات ، بعصابة عليا على هيئة شرفات من السرر والجامات الوردية المحصورة كل منها في إطار مثمن . وتوجد أشكال من هذه الجامات على واجهات الصحن أيضا ، على جانبي الطاقات المفتوحة



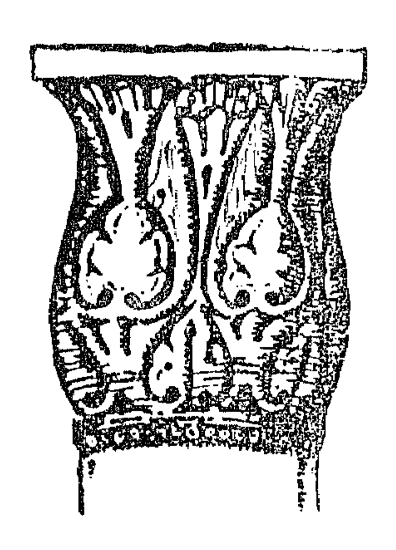
شكل (٥٩) — رسوم لزخارف منوعة من السرر والجامات الوردية على واجهات الصحن فى المسجد الطولونى .

فوق الدعامات ، فى المواضع المنحصرة بين أكتاف العقود وأكتاف الطاقات ، شكل (٥٨) ، صفحة (١٥١) . وترسم هذه الأشكال الأخيرة صورا مزدوجة من الأزهار الوردية والقواقع البحرية والمعينات ، شكل(٥٩) .
أما واجهات جدران المسجد على الزيادات ، فقد توجت الطاقات

الصماء فيها بأشكال قواقع مدببة الرأس من سبع فصوص . شكل (٦٢) . صفحة (١٥٢) .

ولعل أكثر الزخارف تنوعا هي تلك التي كانت تشاهد على بواطن العقود ، إذ تظهر فيها مجموعات زاخرة من أشكال التوريق (١) . التي تتكون من عناصر من لآلىء وزهيرات وأوراق العنب وأشرطة وأسنة مثلثة ، وخطوط لولبية وأخرى متعرجة أو متعانقة ، ودوائر مقصوصة . أشكال (٦٣ إلى ٦٦) ، صفحات (١٥٣ إلى ١٥٦) . وكذلك تظهر مجموعات أخرى من أشكال التوريق في الستائر الجصية المخرمة التي كانت تتدلى على النوافذ . الأشكال (٧٠ إلى ٧٢) ، صفحات (١٥٧ إلى ١٥٩) .

وشكلت التيجان على أعمدة العقود والطاقات والنوافذ ، على هيئة زهرية أو ناقوس . وحليت بأشكال زخرفية مقتبسة من أوراق نباتية ، لعلها ورقة العنب ، وحورت مظاهرها لتلبس شكل التاج وتلتصق به .



شكل (٦٩) — رسم تاج عمود من أعمدة الدعامات

(١) أشكال التوريق هي المسماة بالافرنجية (arabesques) ، وهي أشكال أطلق الفرنج عليها هذه التسمية لأن أصالة فكرة تكوينها وتشكيلها عربية .

— ٧ —

خصائص الزخارف الطولونية

تعددت البحوث عن مصادر زخرفة المسجد الطولونى . وقد لاحظ (زاره) و (هرتزفلد) (١) وخاصة (فلورى) (٢) أوجه شبه كثيرة وعلاقة قوية بين الزخارف الطولونية وزخارف سامراء . وتعددت البحوث كذلك عن سامراء نفسها وزخارفها واشتقاقها من الزخارف الفارسية الساسانية . وليس فى هذا كله بأس . ولا شك فى أن الفنانين الذين عهدت إليهم زخرفة المسجد الطولونى استوحوا زخارفهم وموضوعاتها وأشكالها من الآثار العربية الأسلامية التى كانت معروفة لهم ، واشتقوا بعضها كذلك من آثار غير إسلامية شاهدوها أو شاهدوا نماذج لها . والباحث المدقق فى زخارف المسجد الطولونى يجد أمثلة متناثرة لأشكال أصلها ساسانى ، وأخرى أصلها هلينى ، وأخرى أصلها بيزنطى . وقد أعفانا المستشرقون جهد البحث فى هذه الأصول ، فأثبتوها فى مؤلفاتهم ، مع قليل أو كثير من المغالاة ، ونجد كل هذا ملخصا فى كتاب (هوتكور) و (فييت) (٣) .

---

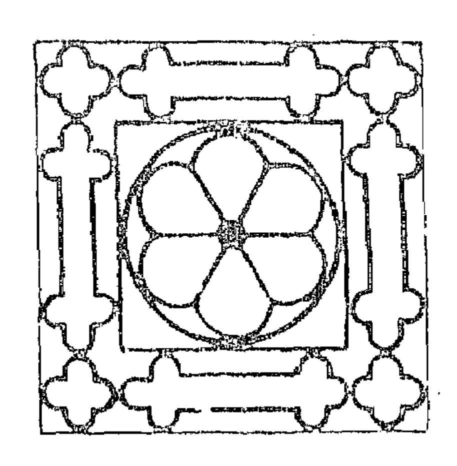
(١) البحوث المشار اليها هى : (زاره) و (هرتزفلد) ، « نزهة أثرية » .
Sarre & Herzfeld: Archaologishe Reise Im Euphrat und Tigris, 4 vols., Berlin, 1911-1920;

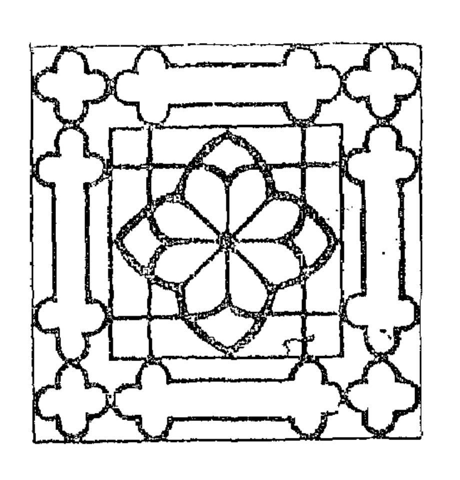
و (هرتزفلد) ، « سامراء وزخارفها » :
Herzfeld: Der Wandschmuck der Bauten von Samarra und seine Ornamentik, Berlin, 1923.

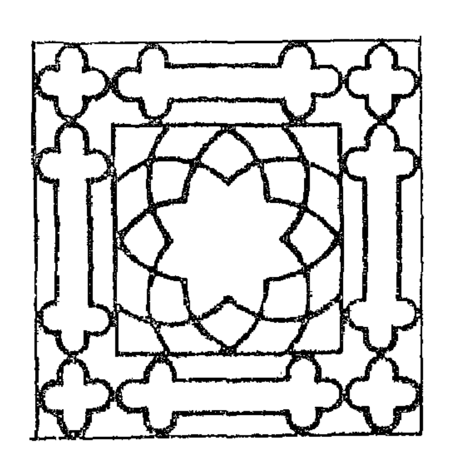
وله أيضا : « الحملة الثانية » :
——— : Mitteilung uber die Arbeiten du zweiten Kampagne von Samarra, Der Islam, vol. V, 1914, pp 196-204.

(٢) (فلورى) ، « سامراء وزخارف مسجد ابن طولون » مقال ، مقال فى مجلة Der Islam, vol. IV, 1913, pp. 421 -432.
Flury, S.: Samarra und die Ornamentik der Moschee des Ibn Tulun,

(٣) صفحة ٢٠١ من كتاب «مساجد القاهرة» لمؤلفيه (فييت) و (هوتكور).



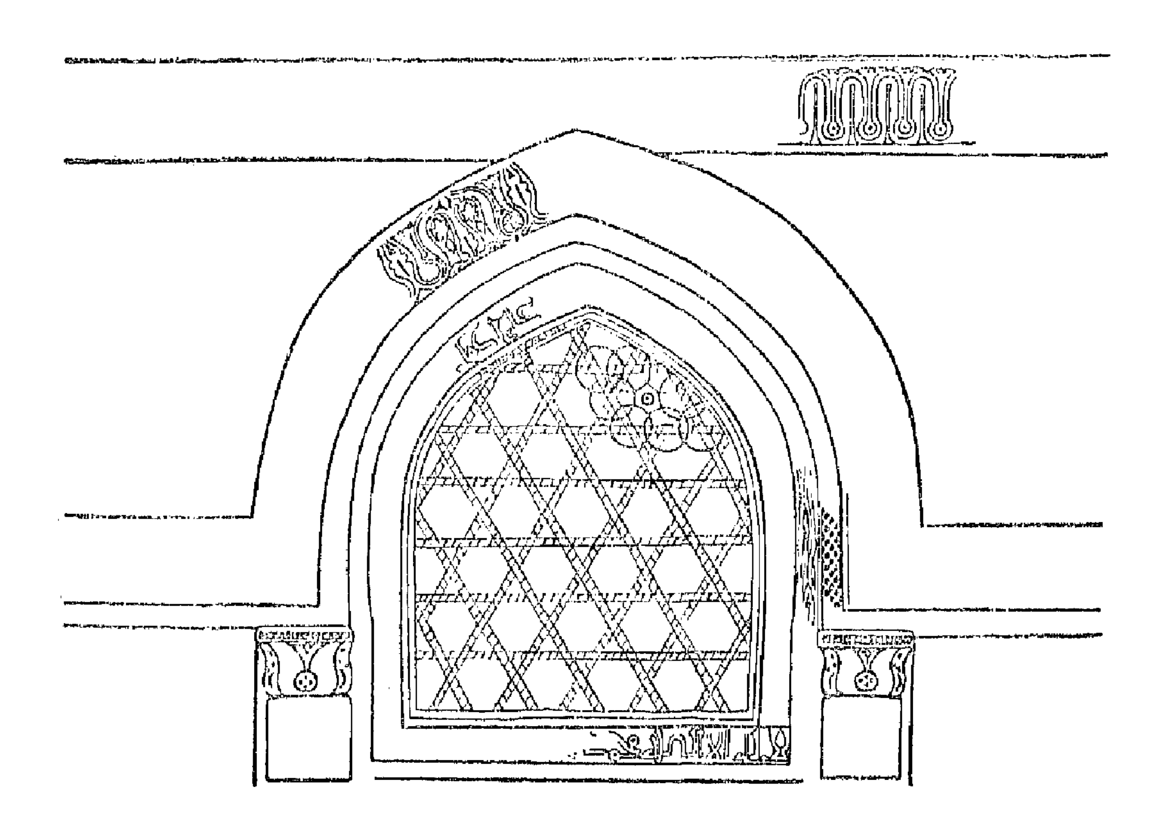




شكل (٦٠) — رسوم لزخارف على واجهات الصحن .

وإنى شخصيا لا أعترض على واقعة الاقتباس والاشتقاق ، بل وأقر ما ذهب اليه المستشرقون فى هذا الصدد . غير أن الذى أشار اليه المستشرقون إشارة عابرة ولم يؤكدوه ، وأود أن أذكره هنا ، هو أن رجال الفن الطولونى قد أثبتوا مهارة فائقة فى تنسيق الأشكال المقتبسة ، وأخرجوها فى صورة جديدة تبدو كأنها مبتكرة . وأكرر ما ذكرته من قبل من أن هذه الأشكال الزخرفية لم تجتمع فى أى أثر معمارى آخر ، حتى فى سامراء ، بمثل المظاهر والعناصر التى اجتمعت بها فى المسجد الطولونى ، شكل (٧٢) صفحة (١٥٩).

وقد خطا الفن العربى فى مجال الزخرفة ، منذ بدايته فى العصر الأموى ، خطوات شاسعة ، تعتبر قفزات فى الأساليب الفنية . وتدل الآثار التى استكشفت فى المشتى وقصر الطوبة على عظمة الزخارف العربية وروعتها منذ ذلك العصر الأول . واستمرت الأساليب الأموية الزخرفية متبعة فى العصر العباسى الأول ، سواء فى النحت على الحجر أو الخشب ، أو فى الصياغة والحفر على الجص ، وأخذت فى الوقت نفسه تتدرج وتتطور ، ونبتت منها أشكال وموضوعات وأساليب جديدة مبتكرة ، هى التى جعلت



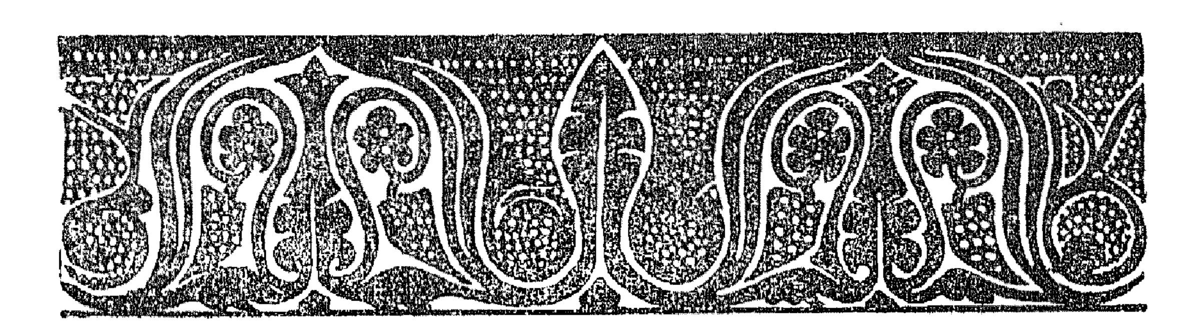
شكل (٦٧) — رسم يبين تنوع الزخارف على النوافذ وحولها .

للزخرفة العربية الأسلامية أصالة تمتاز بها عن الزخارف القديمة التى سبقتها فى التاريخ . وكذلك جعلت لها وحدة فى التعبير والأداء تلقاه فى جميع الدول العربية فى ذلك العصر الأسلامى الأول . فلا غرابة إذن فى أن تربط صلات قوية زخارف المسجد الطولونى بزخارف سامراء .

وأول ما يلاحظ على الزخارف الطولونية ، عند مقارنتها بالزخارف السامرائية ، أنه لم تتبع فى المسجد الطولونى طريقة الصب الآلى فى زخرفة الجص ، وهى طريقة كانت متبعة فى مجموعة من مجموعات سامراء الزخرفية الأربعة ، وإنما كانت الزخرفة الطولونية تحفر مباشرة على الجص . بعد تفريغه وتسويته على المسطحات ، ثم تهذب بالنحت بعد جفافه . ولهذا لا يبدو التعبير الفنى آليا جامدا كما هو الحال فى تلك المجموعة السامرائية ،

وكما هو ظاهر فى الأجزاء التى أجريت إصلاحها وأعيدت زخرفتها حديثا فى المسجد الطولونى ، والتى شوهت ، كما ذكرت ، جمال المظهر الأثرى.

ويلاحظ كذلك فى طريقة تصميم الزخارف الطولونية أنها اتبعت التصميم المسطح ، وهو الذى يختصر التجسيم فيه بحيث تظهر الأشكال كأنها على مستوى واحد . فهى ليست كالنحت أو الحفر الذى يظهر فيه بروز من ناحية ، وغور من ناحية أخرى ، ويبدو عليه نتوء فى أقسام ، وفراغ فى أقسام أخرى . فكأن الزخارف الطولونية كتابة مخطوطة على الجص ، تتضح فيها الأشكال من الحزوز العميقة التى تحد تفاصيلها .



شكل (٦٨) — رسم من الاطارات الزخرفية .

غير أن التصميم الفنى المجسم يظهر من جهة فى عصابة السمر المحيطة بواجهات الصحن ، والتى تتجسم فيها ، إلى حد ما ، دوائر زهرية منوعة ، تختلف فيها المسطحات بين النتوء والتجويف ، شكل (٥٨) صفحة (١٥١). وكذلك فى تاجى عمودين من الأعمدة الأربعة التى تحف بالمحراب شكل ، (٣٧) صفحة (١٣٩) ، إذ تتوسط وجه كل تاج منها « ورقة مزركشة من أوراق العنب ، نحتت برقة فائقة ، حتى نكاد لا نتبين جسد التاج من وراء زركشتها ، إذ فرغت أرضيتها ، وملأها الظل الفاحم ، فكأن ورقة العنب قد تدلت على سطح التاج ، وانفصلت من جوفه ،وكأنها غلالة بديعة التطريز تنتشر حول رأسه ، ويسمى هذا الأسلوب من النحت بالأسلوب المخرم»(١).

(١) تنظر الحاشية رقم (١) فى الصفحة التالية .

هذا من حيث التصميم ، أو طريقة الاخراج الفنى (١) . أما من حيث الأسلوب ، أو طريقة التعبير (٢) ، فقد اتبع الفنانون فى المسجد الطولونى طريقتين : تتميز الطريقة الأولى بتداخل الأشكال وتشابكها ، وتتميز الطريقة الثانية بتناوبها وتجددها . أى أن الأسلوب الأول يعبر عن أشكال متشابهة متكررة من أغصان النبات وأوراقه التى تتداخل بعضها فى بعض ، فلا ينتهى العنصر منها قبل أن يبدأ من جديد ، شكل (٦٤) ، صفحة (١٥٤). أما الأسلوب الثانى فيعبر عن أشكال متنوعة مختلفة من زخارف نباتية أو هندسية تتكرر بالتناوب والتجديد ، شكل(٦٦)،صفحة (١٥٦) .

تفصح زخارف المسجد الطولونى عن روح الزخرفة وخصائصها الأسلامية التى نبتت من بيئة الأعراب ونزوة خيالهم وطريقة تفكيرهم ومعاشهم ، والتى تأثرت تأثرا ملموسا من عقيدتهم الدينية ، ولغتهم النثرية الشعرية . ونلتقى فى هذه الزخارف خاصية من الخصائص الرئيسية للزخرفة الأسلامية ، وهى الزخرفة الهندسية . وكانت تلك الزخرفة معروفة عند الرومان ، ولكن استعمالها كان محدودا ضيقاً من جهة ، وقاصرا فى التعبير ، فقيرا فى الأشكال ، من جهة أخرى . وقد اعترف علماء الآثار بأن الفضل فى تطور الزخرفة الهندسية يرجع إلى الفن الأسلامى ، وأنها أصبحت خاصية مميزة من خصائصه (٣) .

(١) استخدمت هذا الاصطلاح للتعبير عن مدلول الكلمة الافرنجية(technique) هذا وقد بحثت موضوع النجث بالاسلوب المخرم فى الباب الثامن من كتابى «المسجد الجامع بالقيروان » صفحات ١٢٤ إلى ١٤٤ . والفقرة المشار إليها فى الصفحة السابقة منقولة عن صفحة ١٤١ من كتاب « القيروان » ، وهى تصوير لتعبير واحد فى مسجدين عربيين ، صفحة١٤٢ من كتاب« القيروان ». وذكر فى بعض الكتب إنه يغلب على الظن أن أعمدة محراب مسجد ابن طولون « جمعت أجزاؤها من أبنية قديمة ، ماعدا القواعد فانها قد تكون عملت خصيصا لهذا المحراب » ، محمود عكوش، « الجامع الطولونى » ، صفحة ٦٢ . ولكنى أضيف أن هذه التيجان عملت كذلك خصيصا لهذا المحراب ، مثل ما عملت تيجان محراب مسجد القيروان خصيصا له ، قبل ذلك بأربعين سنة .

(٢) استخدمت هذا الاصطلاح للدلالة عن المقصود من الكلمة الأفرنجية(style) .

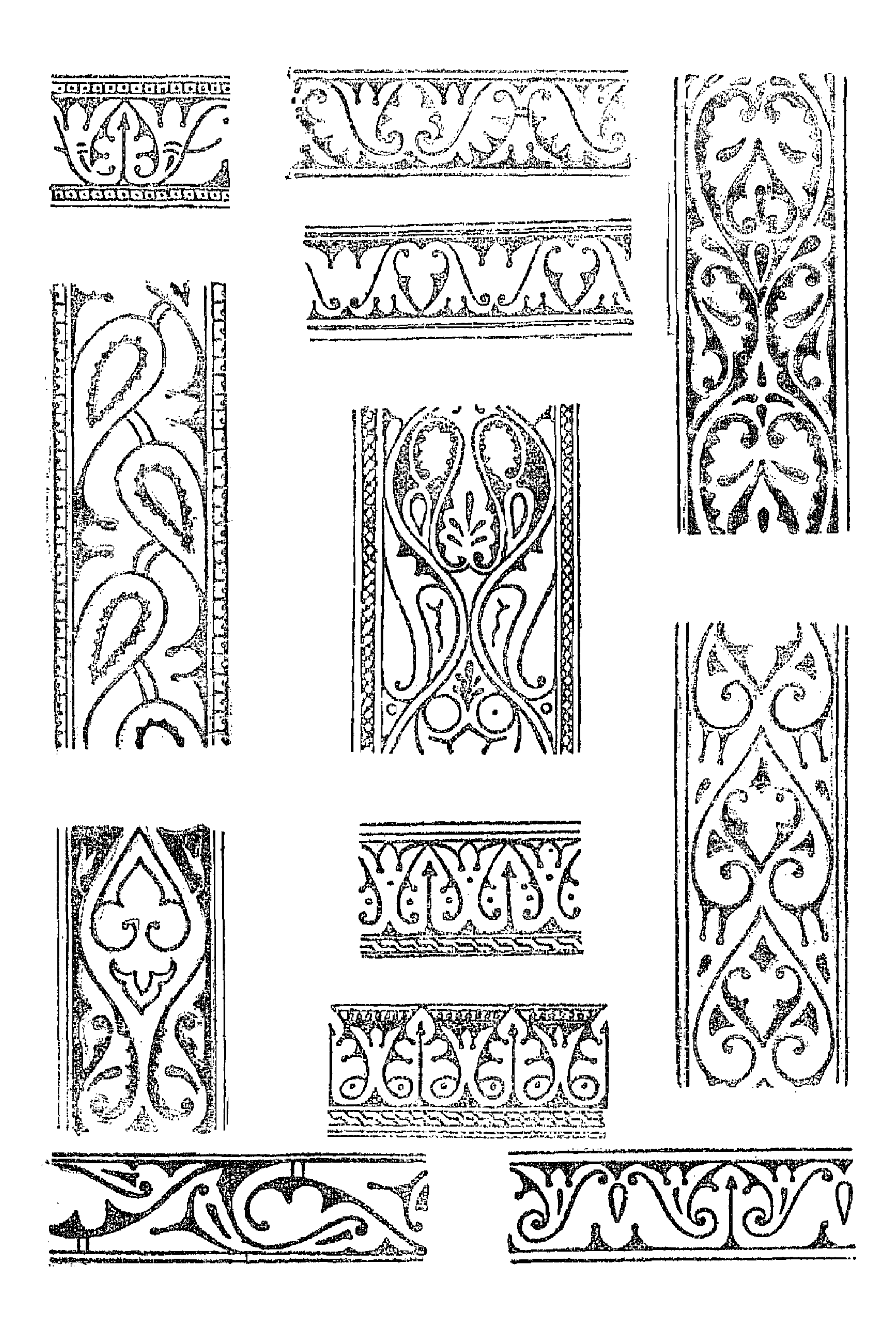
(٣) تنظر صفحتا ٤٤ و ٤٥ فيما سبق من هذا « المدخل » .

وتنوعت الأشكال الهندسية ، فيها الدوائر والحلقات والمضلعات والمعينات والمسدسات والمنصفات . وتعقدت هذه الأشكال ، فترى الدوائر تخرج من المعينات والمنصفات والمضلعات ، وتراها تتداخل فيها تارة ، وتتعانق معها تارة أخرى . وترى الشكل منها يطغى على الشكل الآخر ، ثم يستقل عنه ، وينفصل منه ، ويبقى الشكل الثانى تابعا له ، بعد أن كان رفيقا له ، ملازما ملتزما به ، شكل (٦٥) ، صفحة (١٥٥) .

ونلقى الأشكال الهندسية ممتزجة بالأشكال النباتية ، يتطبع كل من النوعين بالآخر ، النباتات قائمة بذاتها أحيانا فى إطار هندسى ، أو هى مصاغة أحيانا فى الشكل الهندسى نفسه بأسلوب هندسى . وترى بالعكس الشكل الهندسى تغمره الأشكال النباتية ، ولكنه قائم بذاته ، واضح المعالم ، ثم ترى خطوطه أحيانا أخرى مندمجة فى الزخرفة النباتية كأنها جزء منها ، وكأنها فروع أغصان شكل (٦٤) ، صفحة (١٥٤) .

وتظهر فى زخرفة المسجد الطولونى خاصية ثانية للزخرفة العربية الأسلامية ، وهى الخيال . إذ استطاع الفنان أن يخلق من الجمع بين الأشكال الهندسية والنباتية أشكالا زخرفية لا حصر لعددها وتنوعها ، أخضعها لحدود الهندسة بينما انطلق الخيال بها إلى اللانهاية . ومن هنا ابتدعت أشكال فريدة لم يكن لها نظائر من قبل ، مثل أشكال المضلعات النجمية ، التى كانت عنصرا من العناصر الهامة فى الزخرفة العربية الأسلامية . وتشاهد هذه المضلعات النجمية مع مضلعات سداسية على بواطن العقود ، شكل (٦٦) ، صفحة (١٥٦) ، وهى تختلط بعناصر زخرفية مجاورة لها ، وتتهادى بينها بخطوات تميل مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار .

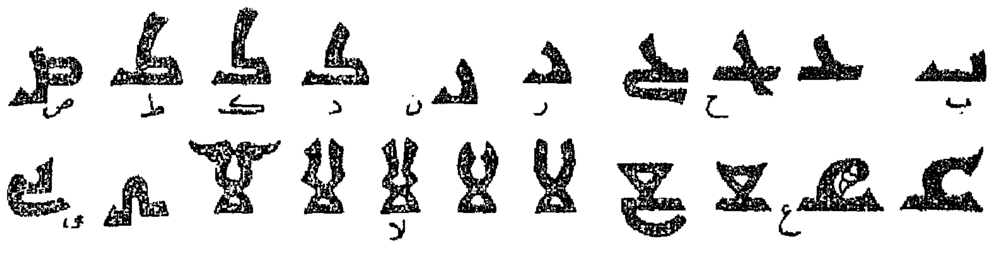
وكذلك تظهر فى زخارف المسجد الطولونى خاصية ثالثة من خصائص الزخرفة العربية الأسلامية وهى التكرار . والتكرار واضح فى جميع الزخارف الطولونية ، هندسية كانت أو نباتية ، طبيعية أو خيالية ، ولكنه



شكل (٧٤) — رسوم لأشكال زخرفية منوعة من التواريق فى المسجد الطولونى .

تكرار لا يمل المرء من متابعته ، إذ أنه كما ذكرت تكرار فيه تناوب وتجديد . وقد يلمس الناظر عنصرا زخرفيا ويحاول أن يتتبع تكراره ، ولا يلبث هذا العنصر أن يتهرب من الناظر اليه ، ويختفي بين عناصر أخرى شبيهة به . ولكنه لا يتلاشى قط ، فهو عنصر حي أبدا ، ويظهر من جديد ، فيجعل النظر حائرا ، حتى يدقق فيه ، ليتابعه مرة أخرى ، ويلقاه متنقلا متكررا عشرات المرات ، وكأنه يعدو أمام النظر في الفضاء الشاسع إلى الأفق البعيد . ويلقى النظر ، أثناء هذا العدو السريع ، عنصرا آخر ثابتا في موضعه لا يتحرك بينما تحيط به الحركة في كل مكان . فكأن المرء يتأمل النجوم في السماء ، ويراها تظهر ثم تختفي ، وتتحرك وهي ثابتة في مواضعها ، تتكرر وتتجدد وتمتد إلى اللانهاية ، شكل (٧٠) ، صفحة (١٥٧) .

وكذلك تظهر في زخارف المسجد الطولوني خاصية رابعة من خصائص الزخرفة العربية الأسلامية ، وهي كراهة الفراغ ، أو امتلاء الفراغات . فقد روعي في هذه الزخرفة أن تمتلىء المسطحات المخصصة لها ، جميعاً ، فلا يترك فيها فراغ لاتكسوه حلية أو زخرف ، بالحفر أو الحز أو النحت أو الشطف . الأطار الخارجي وحده هو الحد الفاصل بين الزخرفة والفراغ ، ما خرج عنه فهو فراغ مسطح سلس لا زخرفة فيه ، أما ما انحصر في الأطار ، ودخل بين حدوده ، فان الزخارف تعمه وتملؤه ، ولا تترك مجالا فيه للفراغ . وتشاهد هذه الظاهرة في جميع الأشكال الزخرفية الموضحة لهذا البحث .



(نماذج من صور الحروف الكوفية بالمسجد الطولوني)

وتبرز ، أخيرا ، بصورة واضحة ، خاصية خامسة من خصائص الزخرفة العربية الأسلامية ، وهى الخط الكوفى . وهى خاصية لم يستطع أحد من المستشرقين إنكار أصالتها ، ولم يحاول أن يردها إلى مصدر غير عربى إسلامى . وتبدو زخرفة الخط فى المسجد الطولونى سلسة مبسطة ، واقتصرت على رسم الحروف نفسها ، وطريقة تنسيقها واتزان مواضعها ، فلم تلبس حلية خارجية ،زهرية أو نباتية (٢) . ويلاحظ فى رسم الحروف ، أول مرحلة لتطورها الزخرفى ، إذ روعى أن تنتهى الخطوط الرأسية بفرطحة مدببة ، وأخذت رؤوس الحروف المستديرة تتبعج على أشكال الوريقات النباتية وأنصافها .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العلمين الرحمن الرحيم
ملك يوم الدين
اياك نعبد واياك نستعين
اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين انعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا الضالين ۞

(فاتحة القرآن الكريم مرسومة عن إزار المسجد الطولونى)

---

(١) تراجع صحفات ٤٥ إلى ٣٩ فيما سبق من هذا المدخل ، وتنظر صفحات ٢٥٥ إلى ٢٦٧ ، فى الفصل الثانى عشر من كتاب المؤلف:
Fikry, Ahmad: L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques, Paris, Leroux 1934.

وينظر مقال المؤلف « ماشاء الله » المشار إليه من قبل .

(٢) تنظر الأشكال المرسومة فى الصفحة الأولى من هذا المدخل وفى صفحة ٤٠ ، وهى منقولة عن الكتابة الكوفية فى المسجد الطولونى.

وأضيفت إلى الكتابة الكوفية المحيطة بإطارات النوافذ بعض العناصر النباتية . أشكال (٧٠ إلى ٧٣)، صفحات (١٥٧ إلى ١٦٠)، على هيئة وريقات منحنية منبسطة ، تحشو أحيانا الفراغات الممتدة بين أطراف الحروف المطولة . ولكن الزخرف ما زال يتخذ مظهره من توازن الحروف وتسلسلها فى إطارها المستطيل (١) .

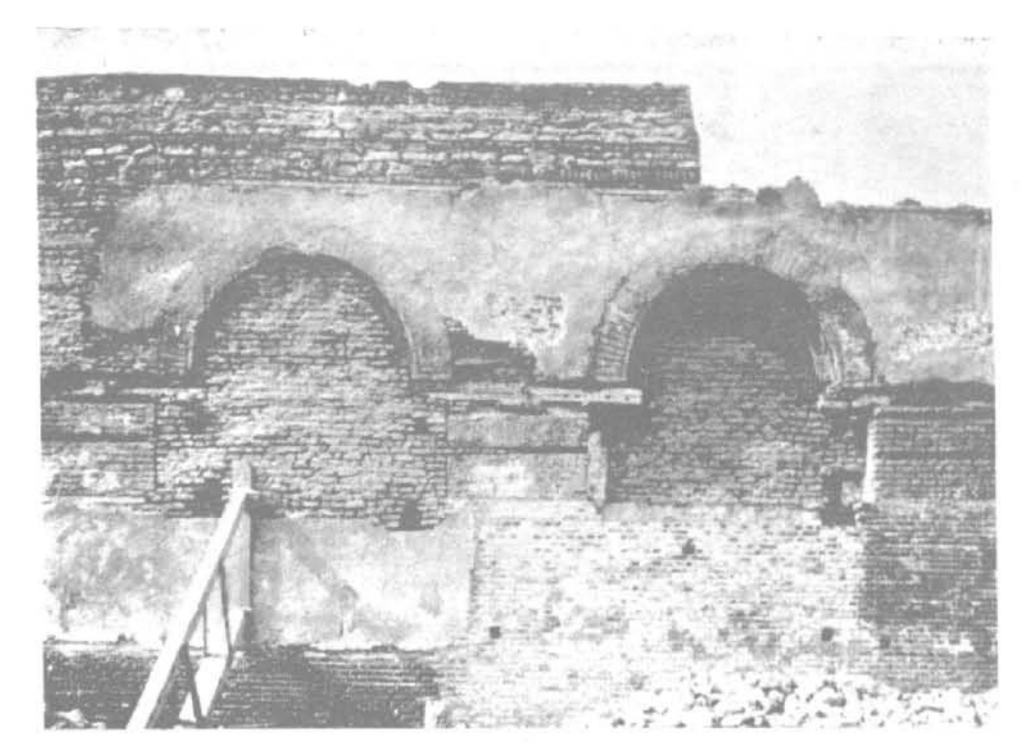
ويمتاز المسجد الطولونى بأنه سجل معظم القرآن الكريم فى الأزار الخشبى الذى يرتقى جميع جدران المسجد الداخلية وبوائكه ، بحيث تنتشر آيات الله البينات فى كل مكان داخل المسجد أمام أعين المصلين ، فى خط جميل « يبهر أنظارهم ، ويحرك مشاعرهم ، ويثير إيمانهم » .

(قرآن كريم)

(١) توجد الكتابة الكوفية فى أربع مواضع من المسجد : أولا ، فى الأزار الخشبى الذى يحيط بجدران المسجد الداخلية العليا تحت السقف مباشرة ، وطول هذا الأزار حوالى كيلومترين ، ثانيا ، حول نوافذ المسجد ، فى إطار داخلى ينحصر بين حافة النافذة وشباكها المخرم ، ثالثا ، فى إطار مستطيل يعلو المحراب ، رابعا ، على اللوحة الحجرية المسجل عليها تاريخ المسجد . وتوجد على لوحات أخرى كتابات كوفية من العصرين الفاطمى والمملوكى .



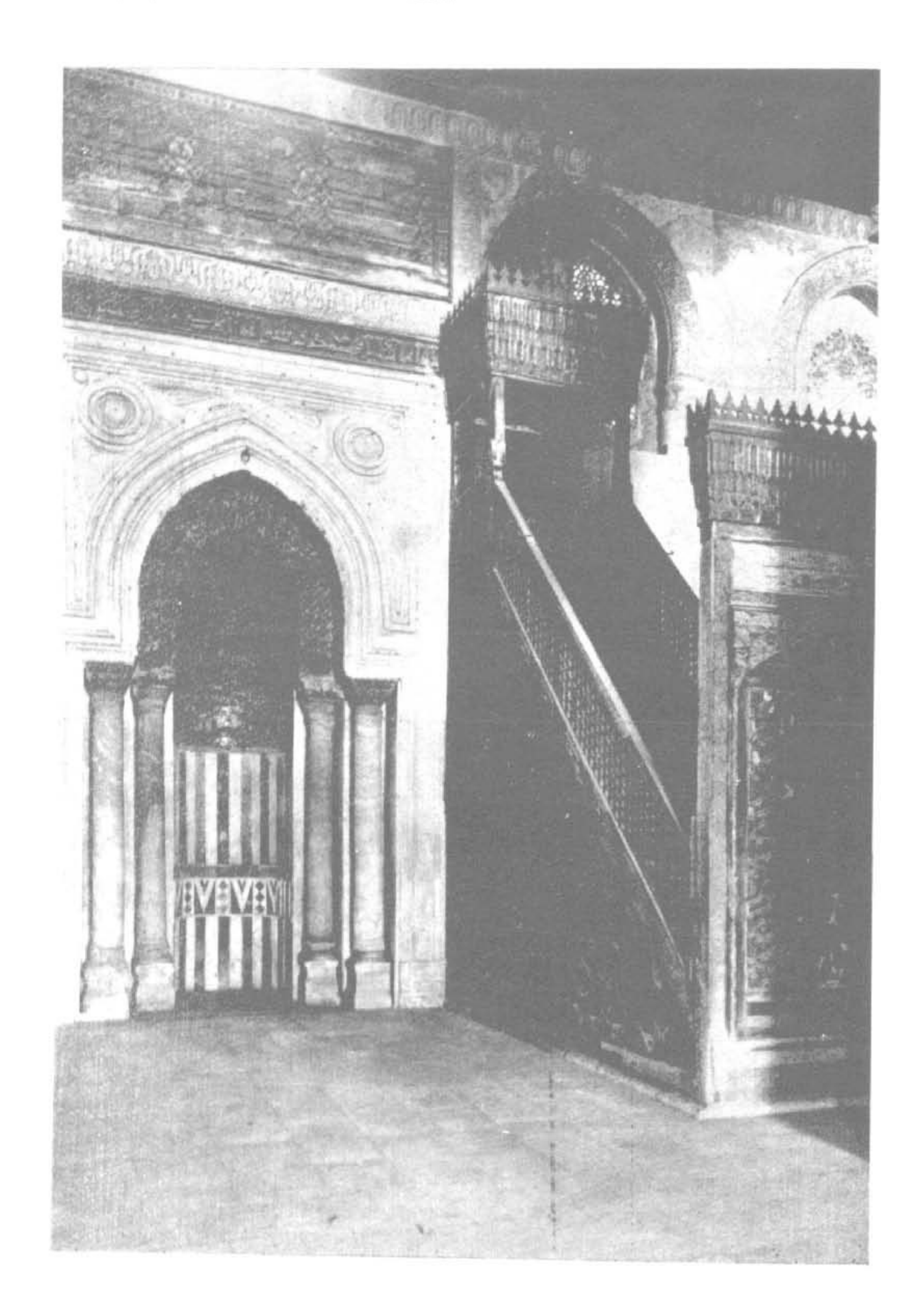
شكل (٢١) — منظر عام لبيت الصلاة فى مسجد عمرو بعد تجديده وإعادة بنائه حديثاً .



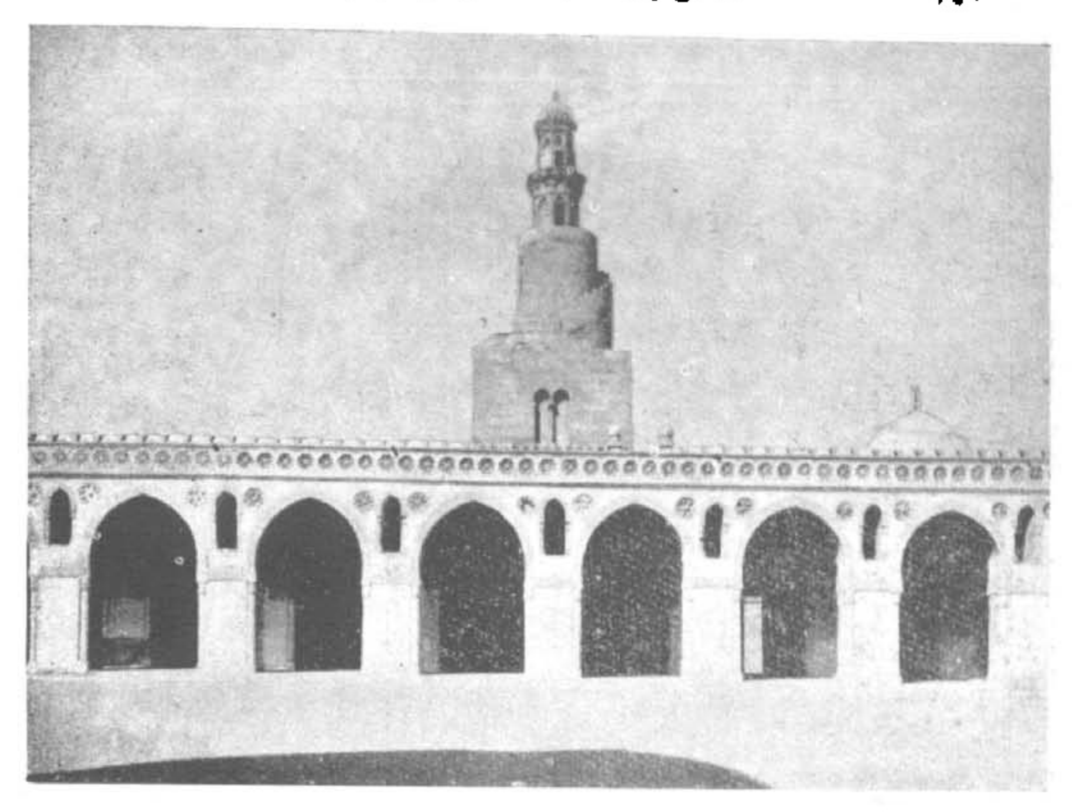
شكل (٢٢) — جزء من الواجهة الشرقية لمسجد عمرو وبها آثار نوافذ عتيقة .



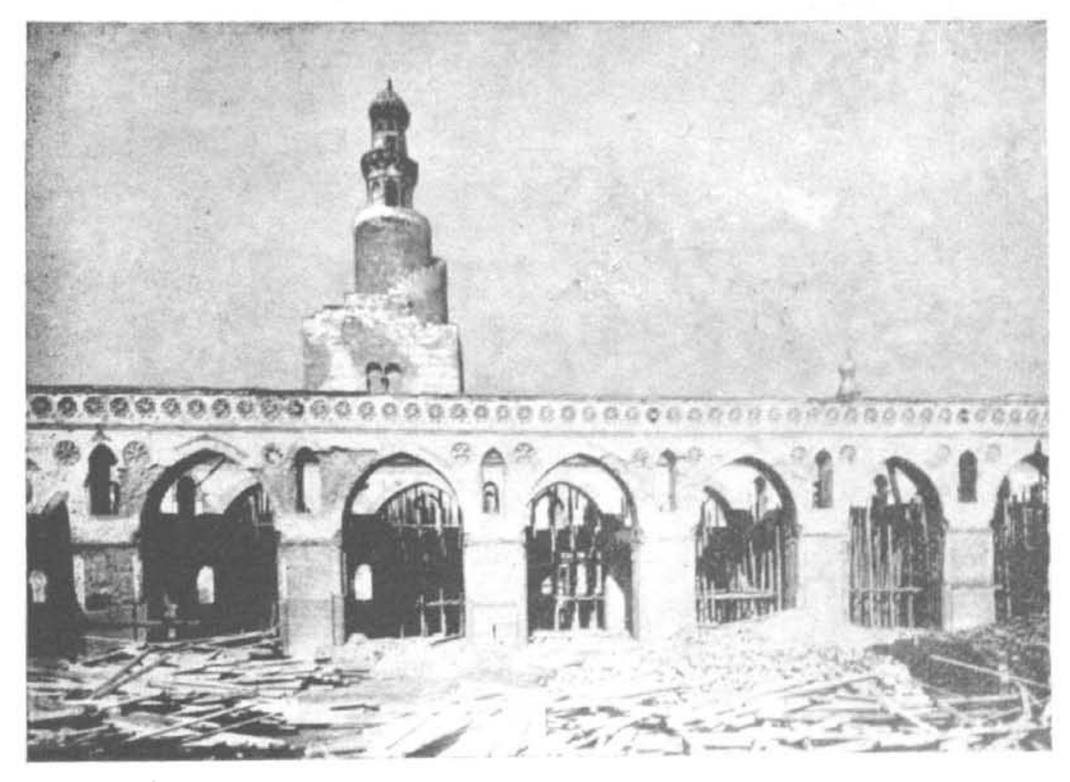
شكل (٢٤) — زخرفة منحوتة على وسادات الأعمدة فى مسجد عمرو العتيق من سنة ٢١٢ (٨٢٧ م)



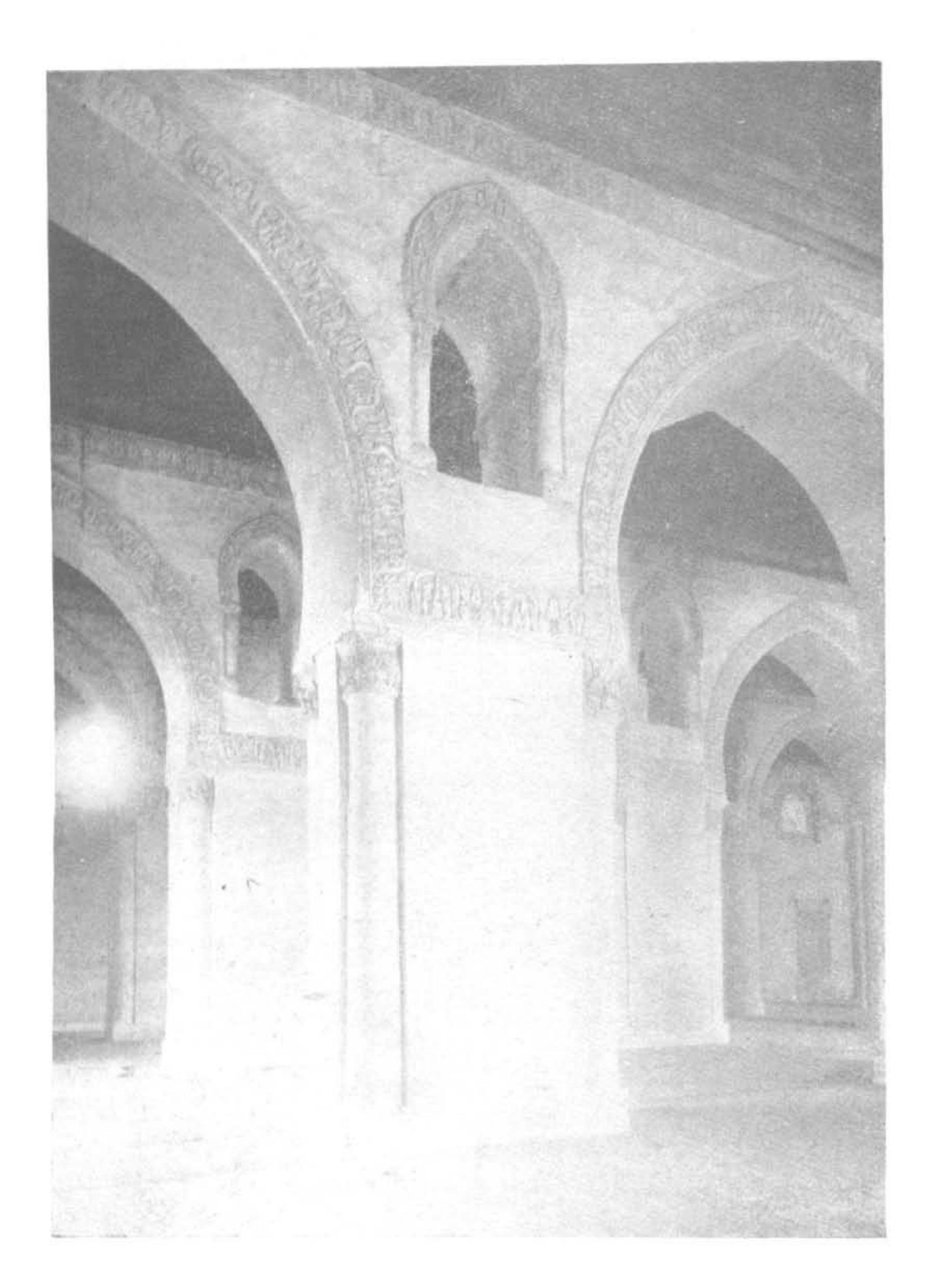
شكل (٣٧) — محراب المسجد الطولونى ومنبر (لاجين)



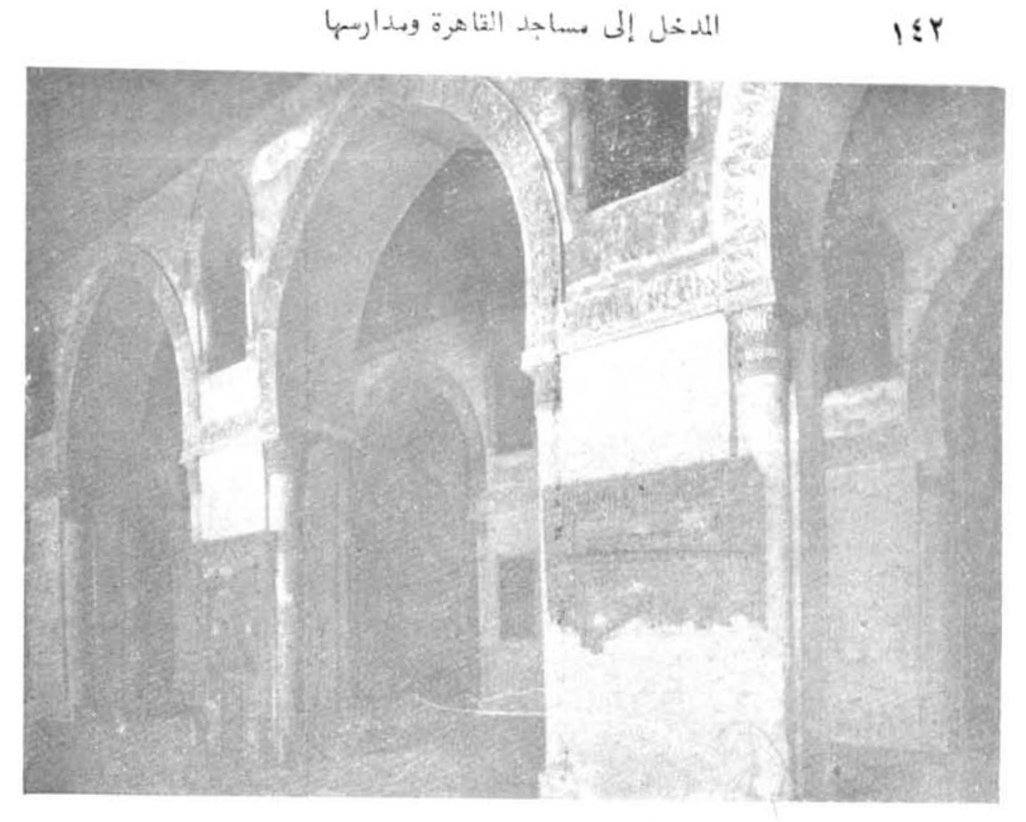
شكل (٣٨) — واجهة مؤخر المسجد الطولونى على الصحن .



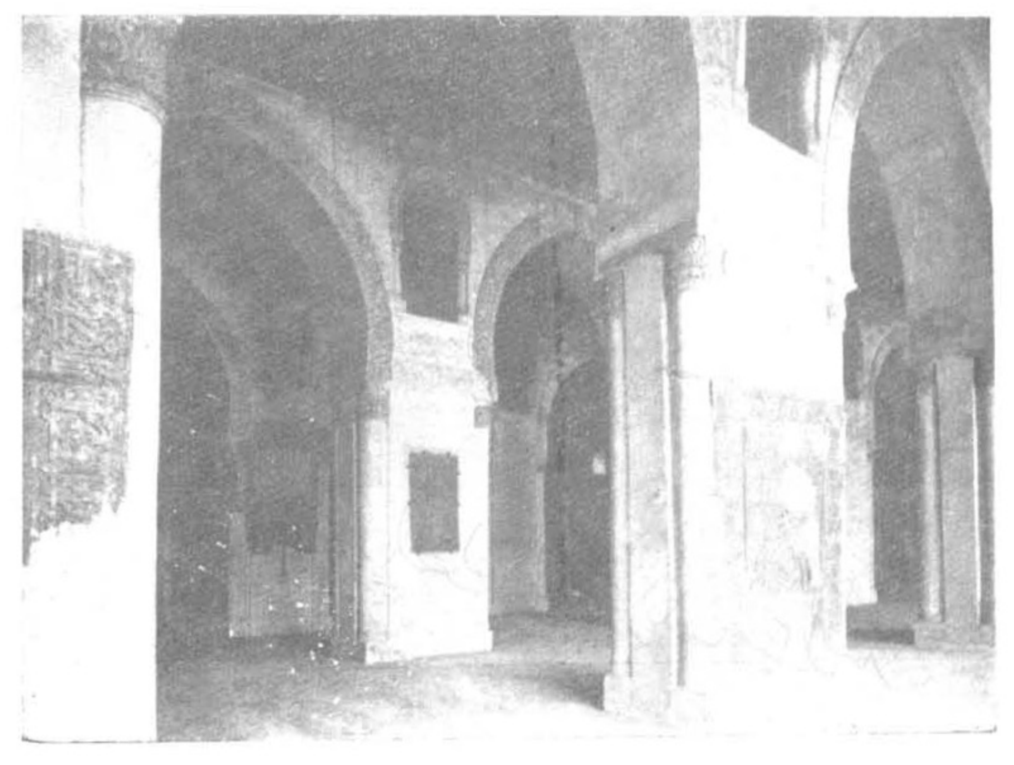
شكل (٣٩) — واجهة مؤخر المسجد الطولونى على الصحن **قبل إصلاحها وتجديدها.**



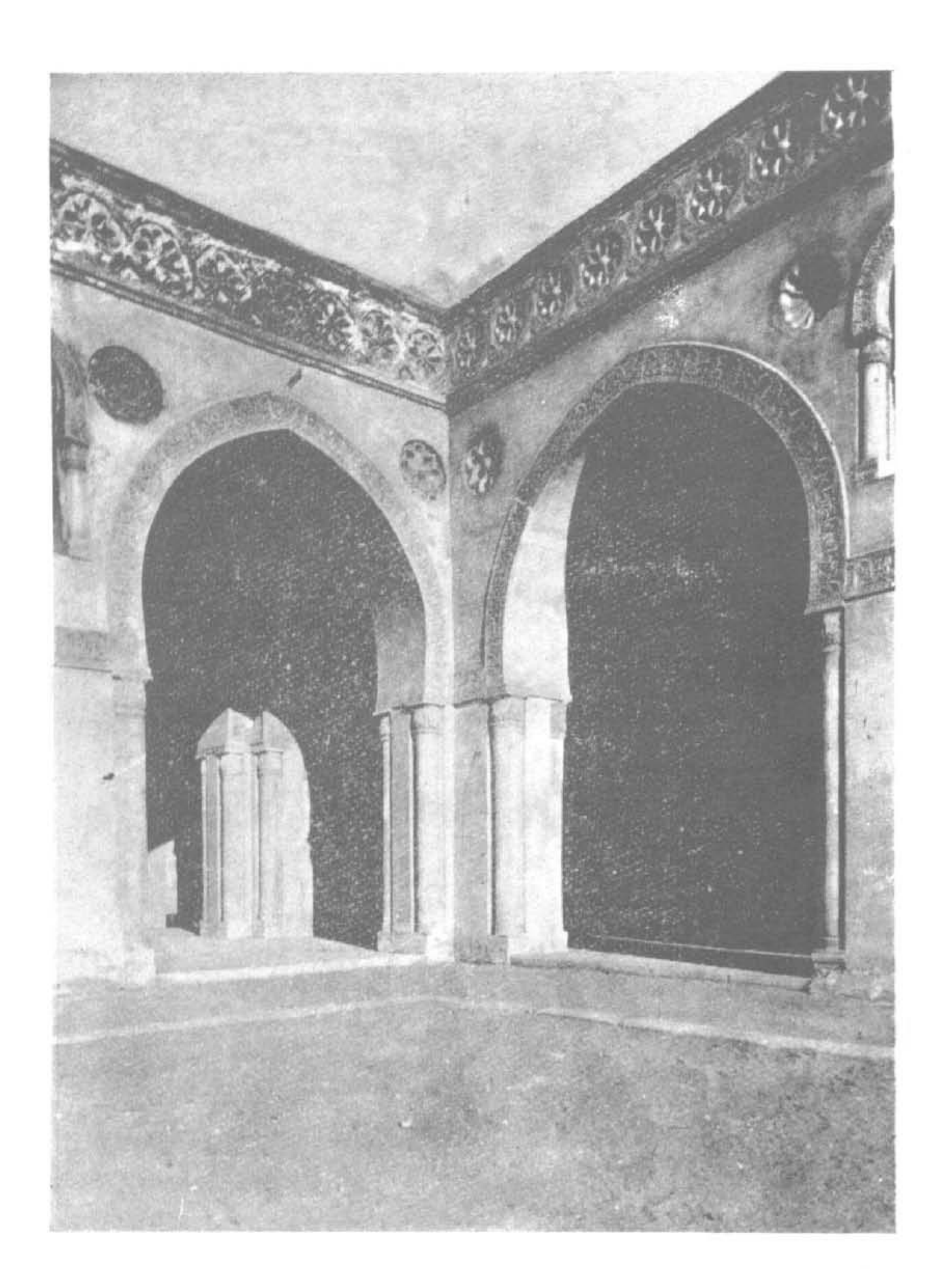
شكل (٤٠) – المسجد الطولونى – دعامات بيت الصلاة .



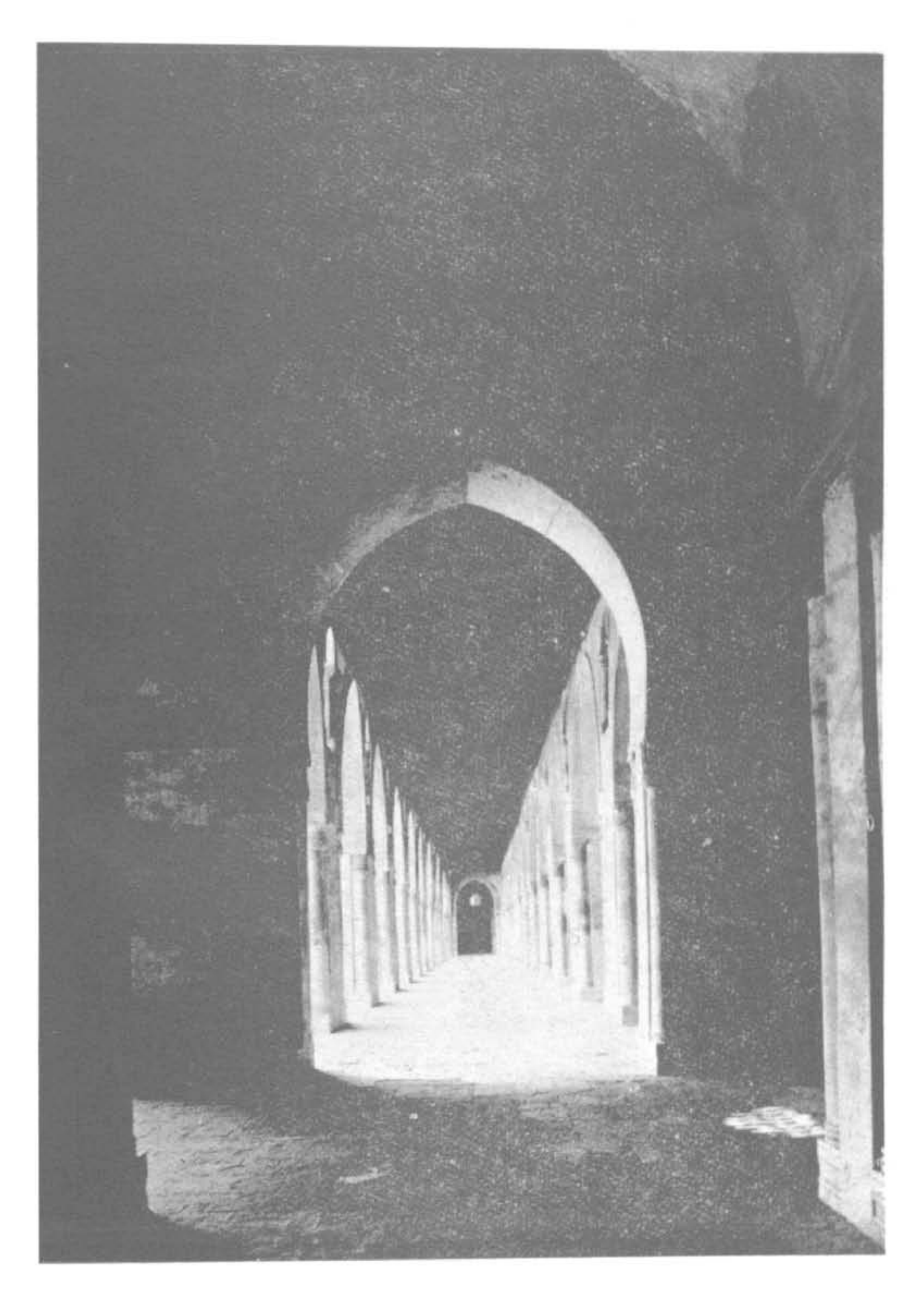
شكل (٤١) — المسجد الطولونى — دعامات الأسكوبين الثالث والرابع فى بيت الصلاة.



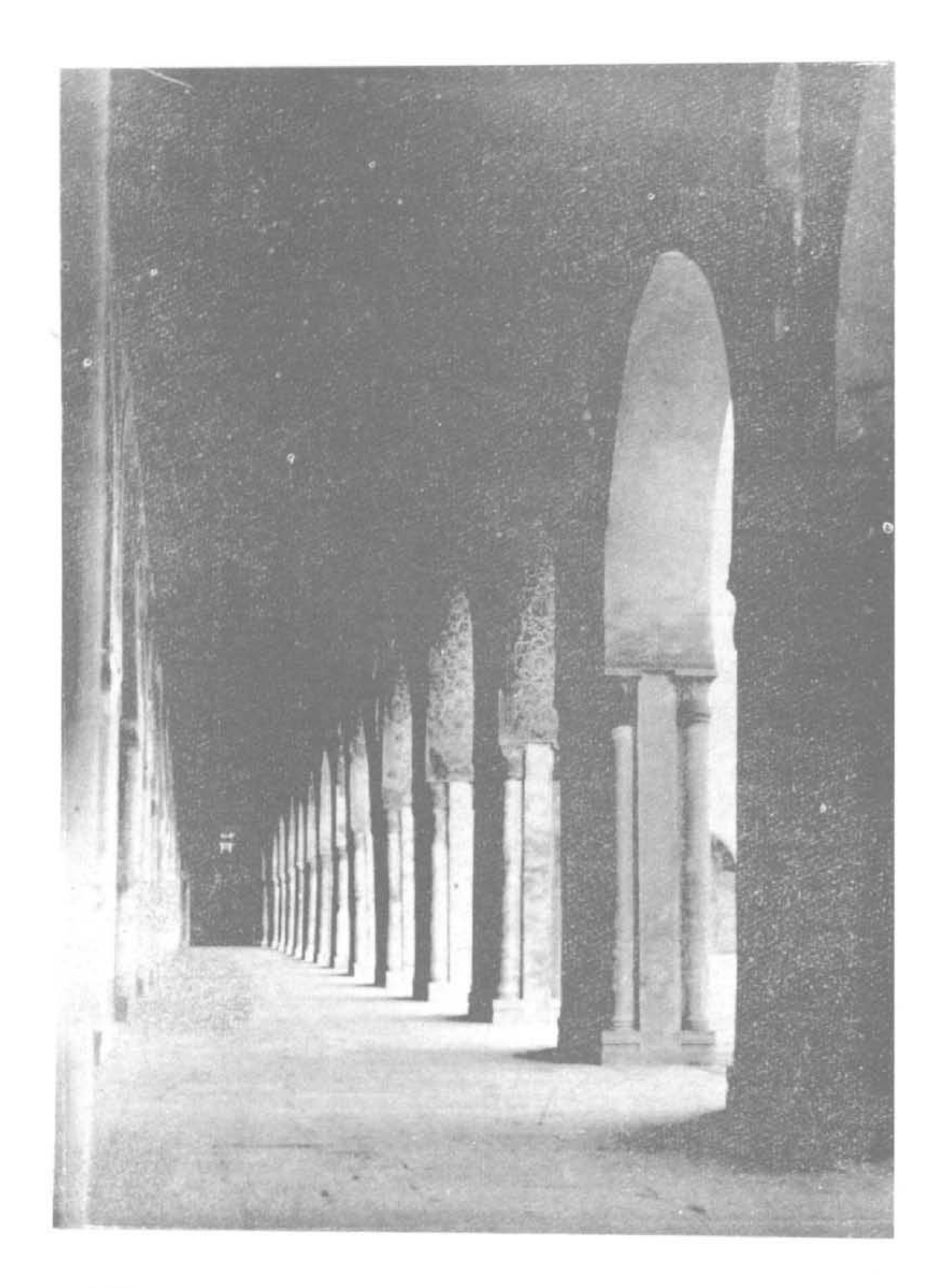
شكل (٤٢) — بيت الصلاة فى المسجد الطولونى .



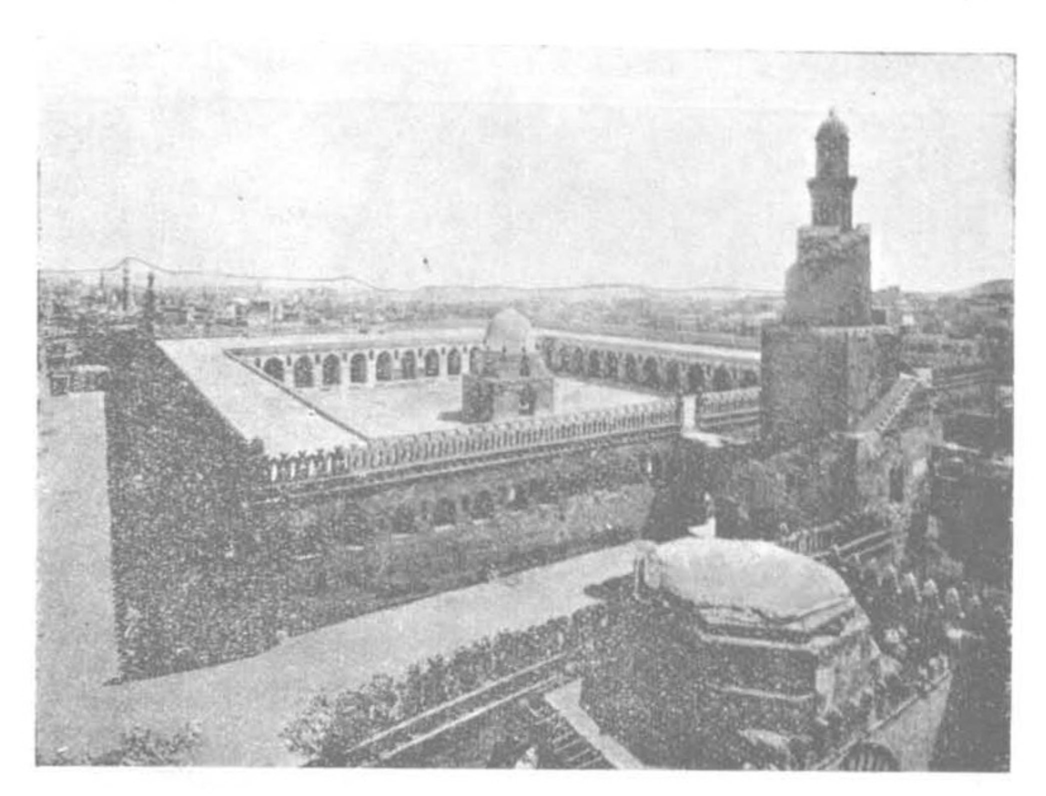
شكل (٤٣) — جزء مجدد من واجهتي بيت الصلاة والمجنبة الغربية على الصحن .



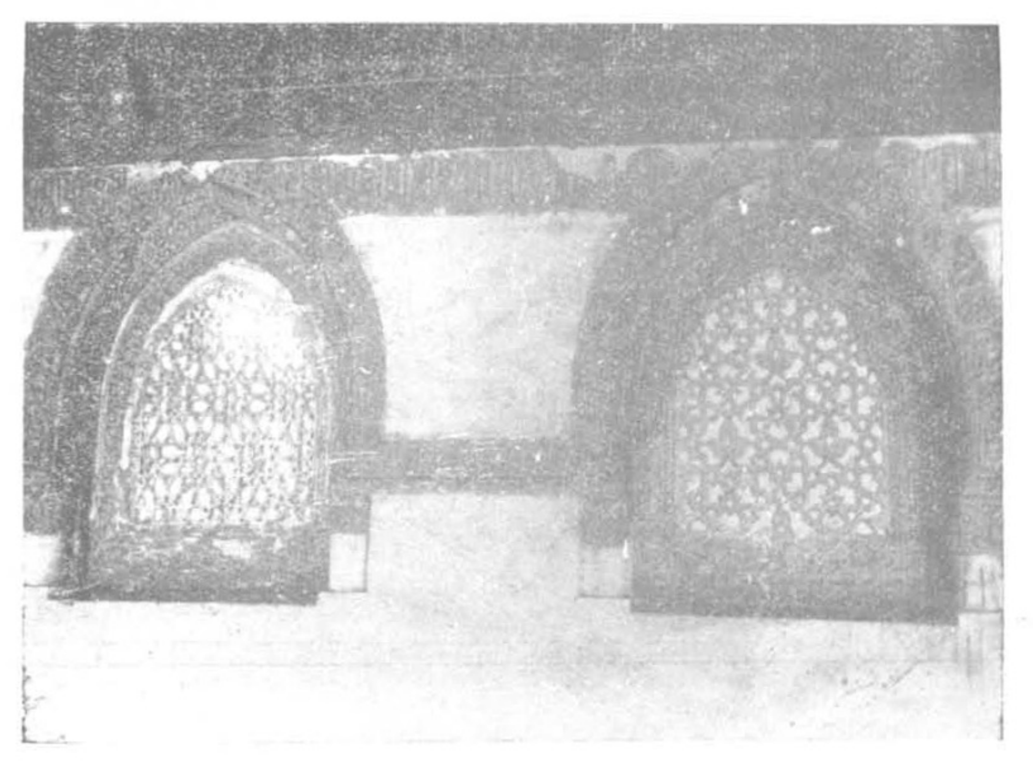
شكل (٤٤) — الرواق المطل على الصحن من المجنبة الشرقية فى المسجد الطولونى .



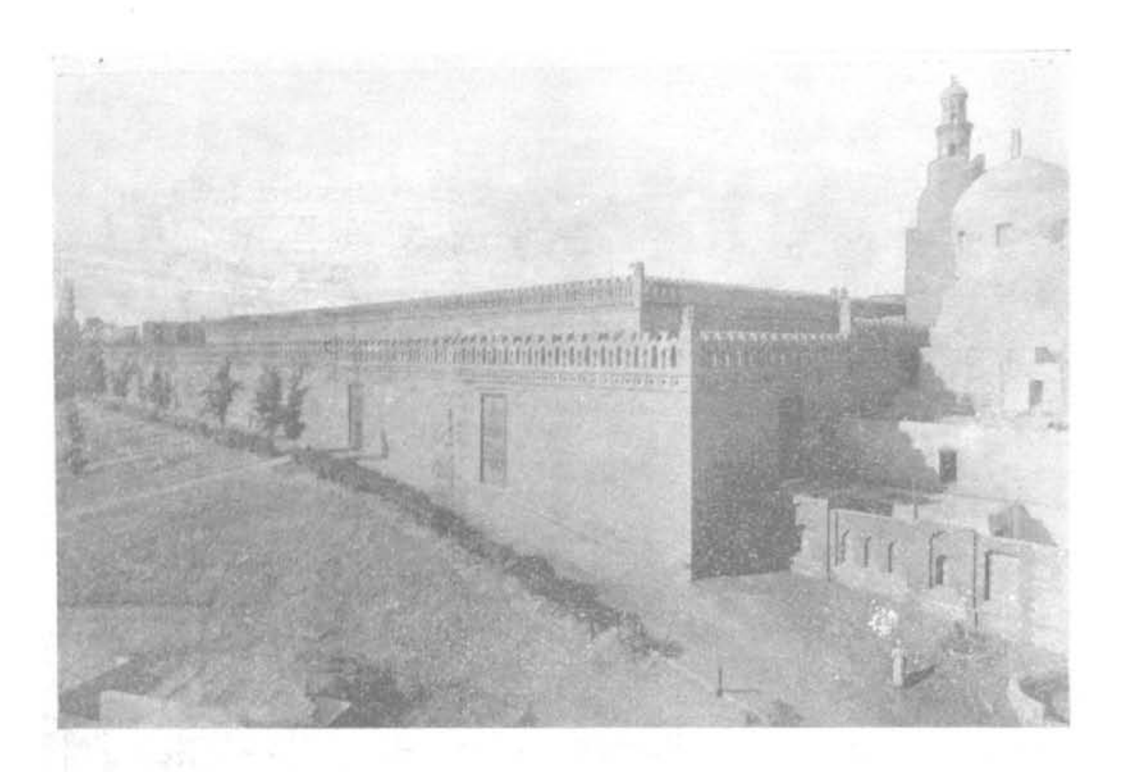
شكل (٤٥) — الرواق المطل على الصحن من المجنبة الغربية فى المسجد الطولونى .



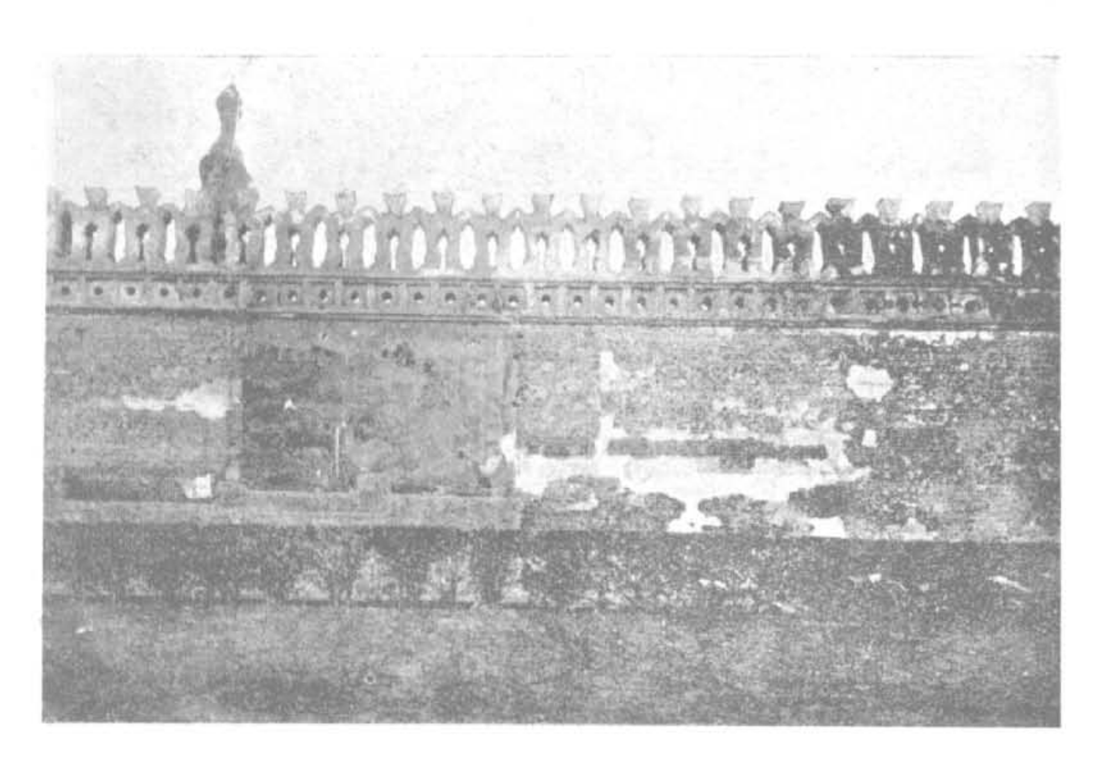
شكل (٤٧) — منظر عام للمسجد الطولونى تشاهد فيه النوافذ المفتوحة فى الجدران .



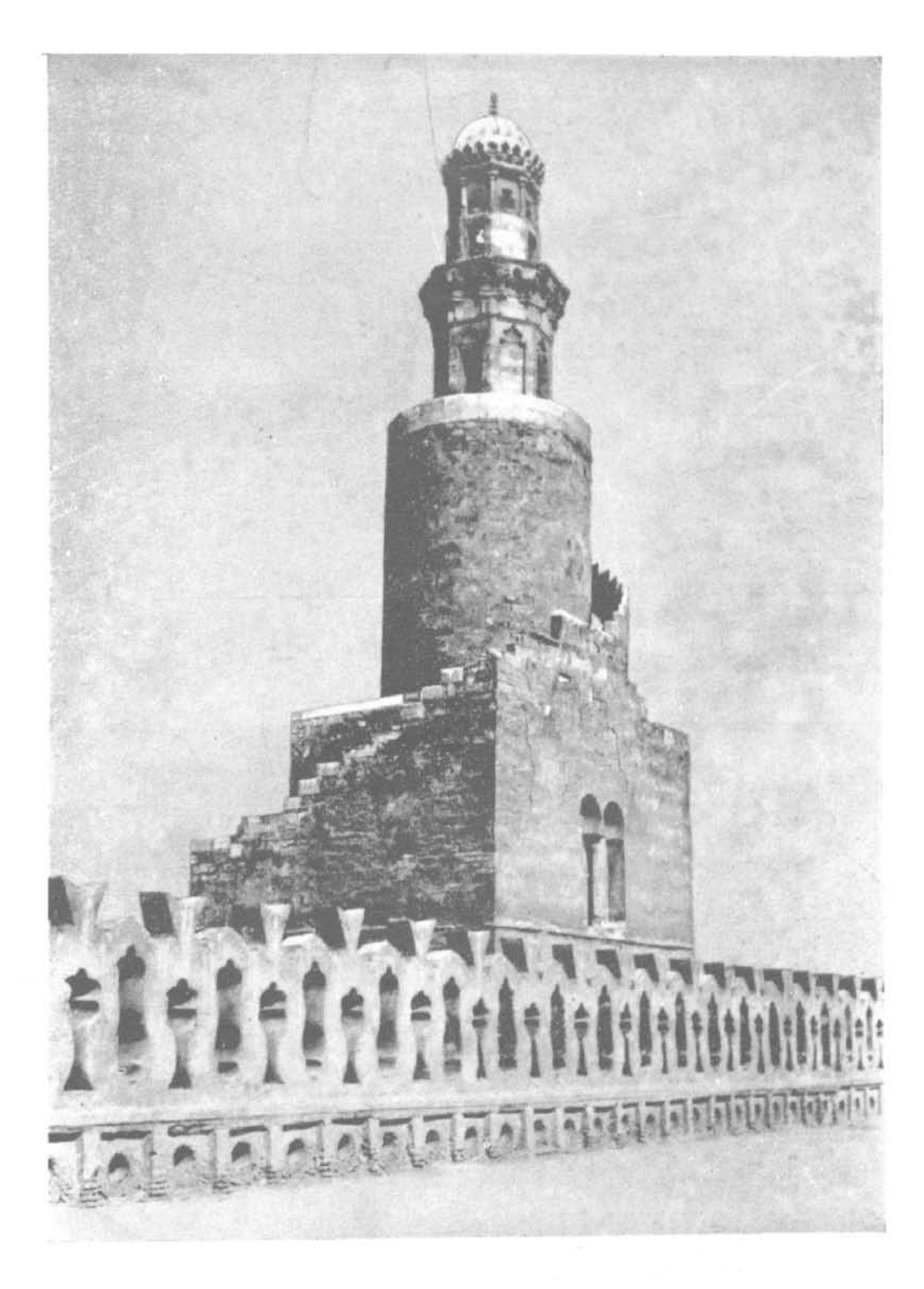
شكل (٤٨) — نافذتان فى جدار القبلة بالمسجد الطولونى .



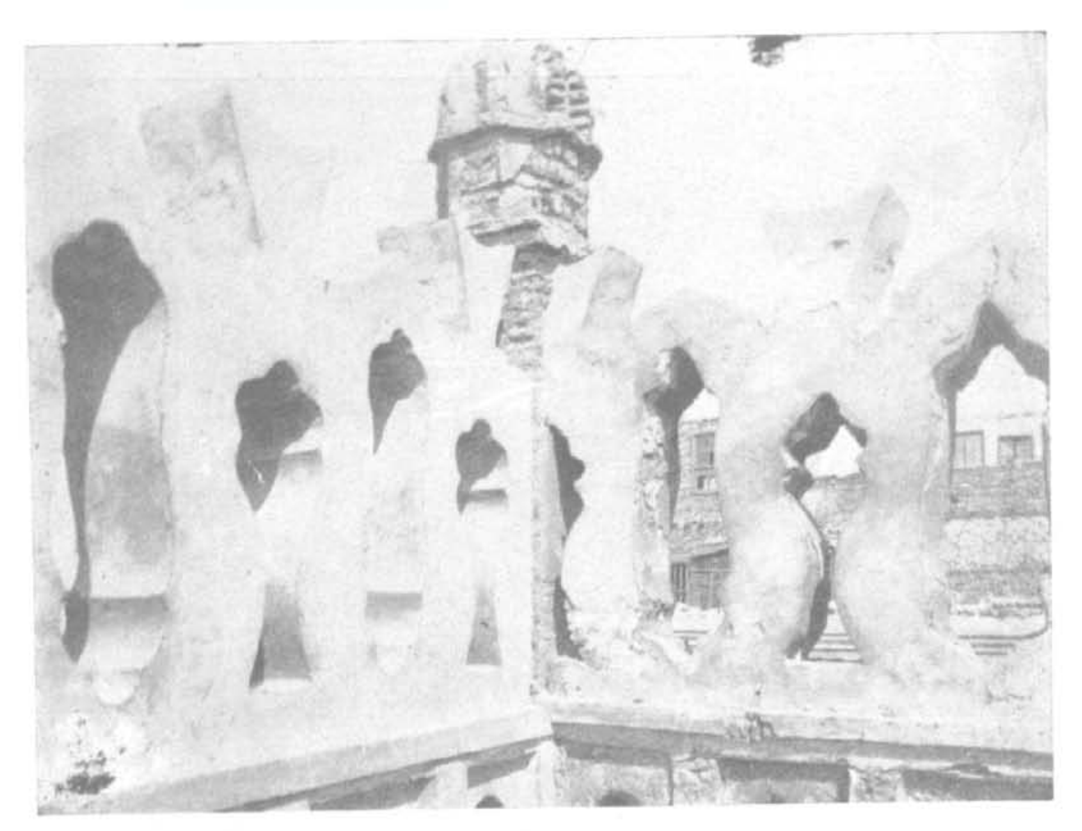
شكل (٥٠) — منظر عام لجدران المسجد الطولونى وجدران الزيادات .



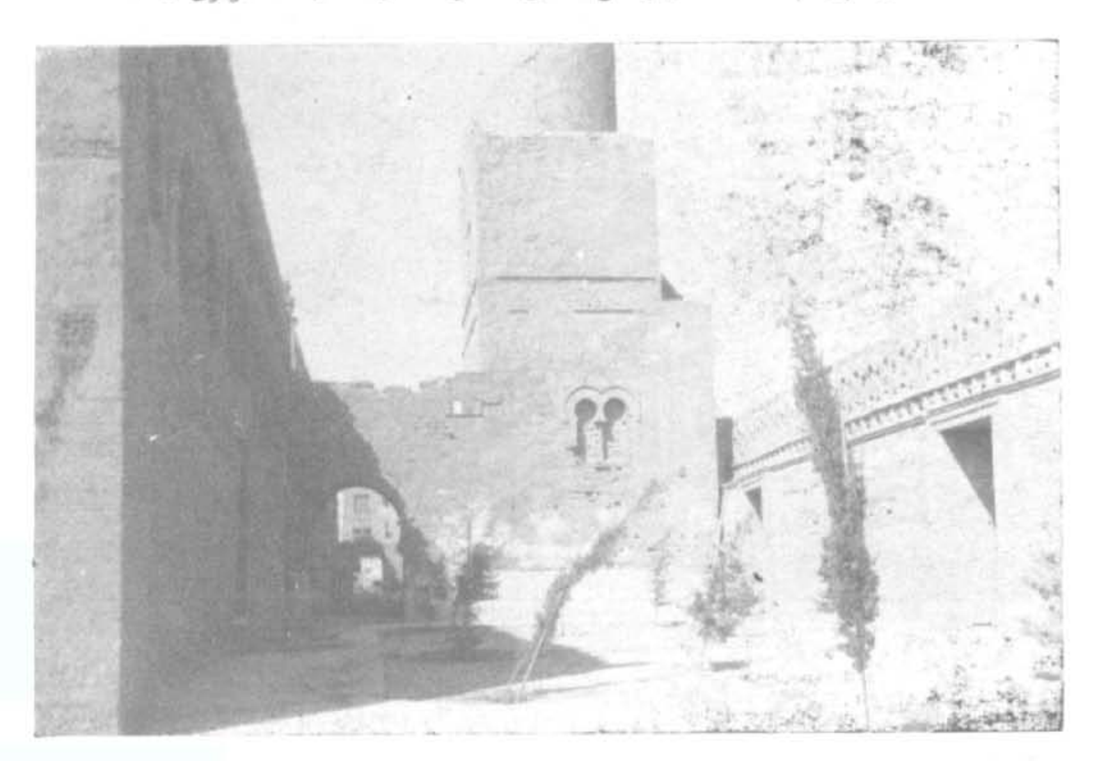
شكل (٥١) — شرفات الجدران فى المسجد الطولونى .



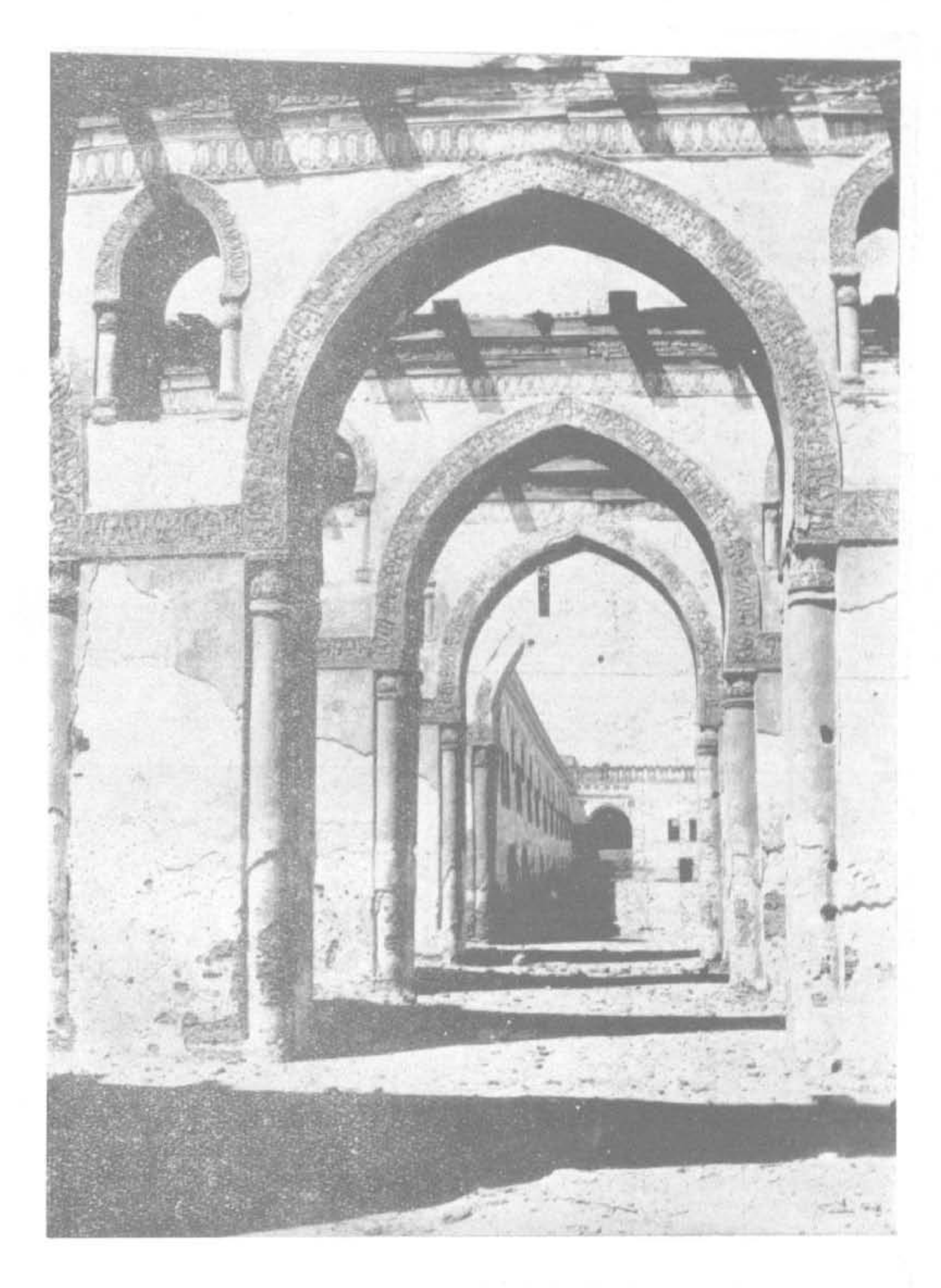
شكل (٥٣) — منظر عام لمئذنة المسجد الطولونى وشرفات جدرانه .



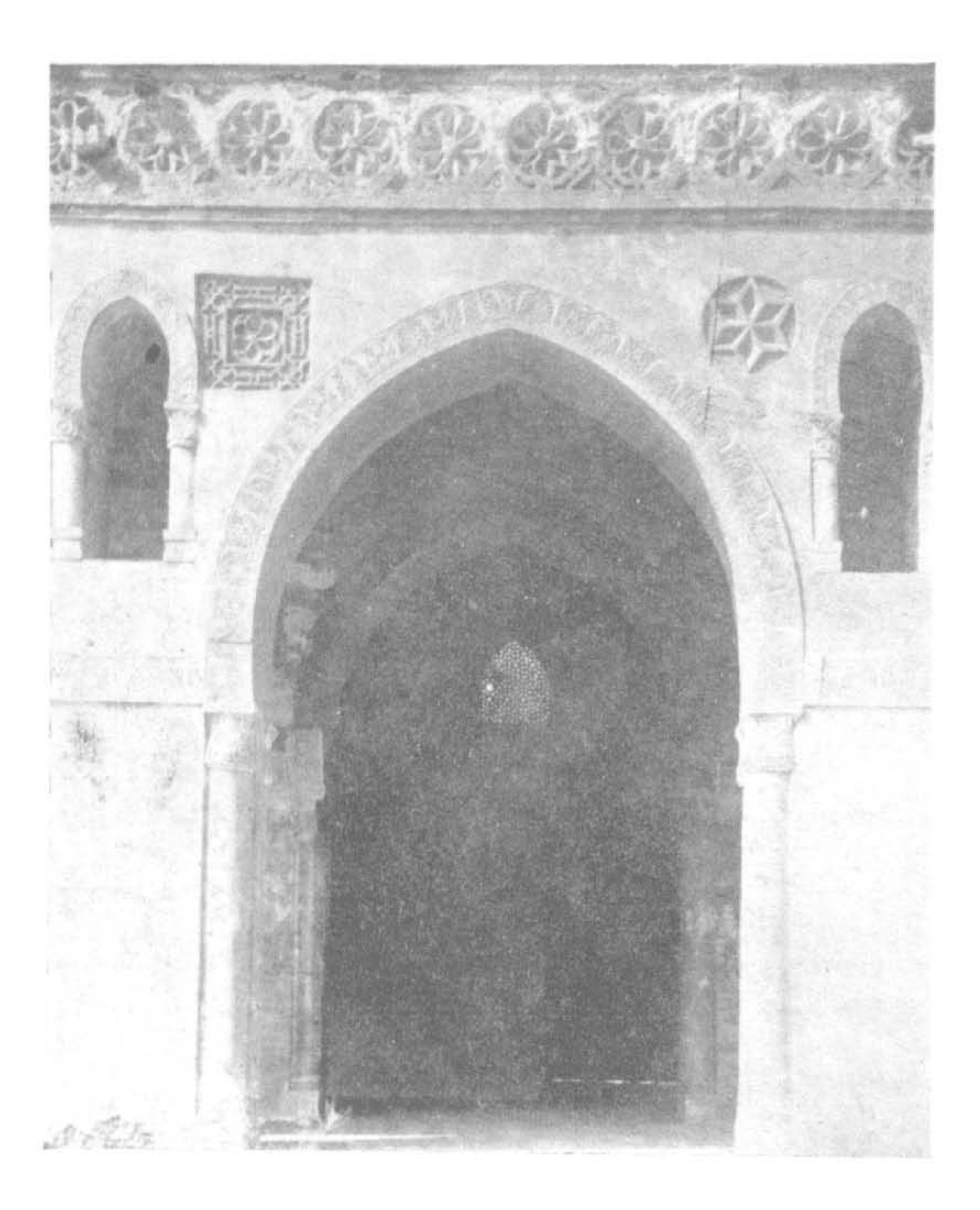
شكل (٥٤) — تفصيل من شكل الشرفات فى المسجد الطولونى .



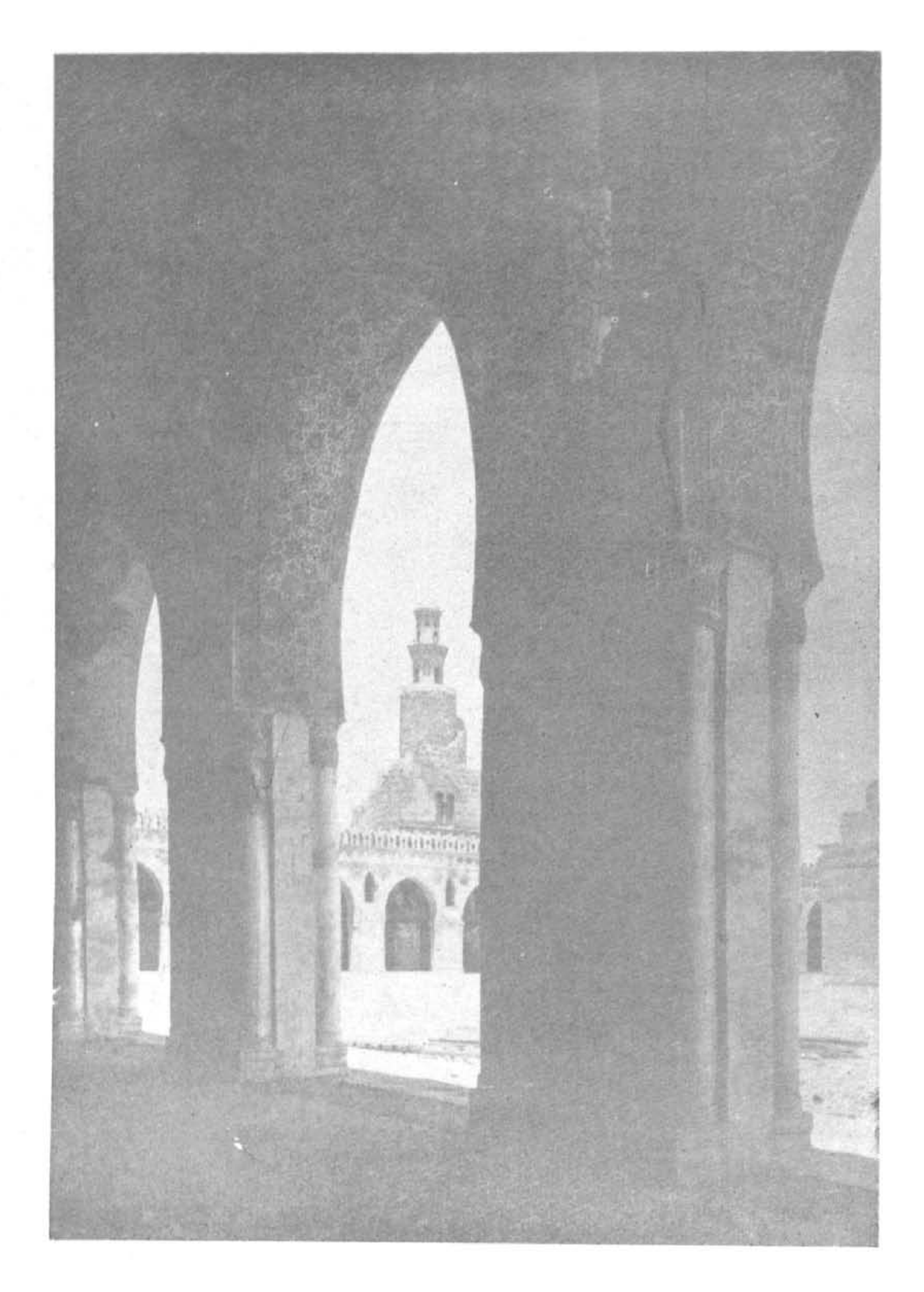
شكل (٥٥) — العقود المنفوخة فى قاعدة المئذنة .



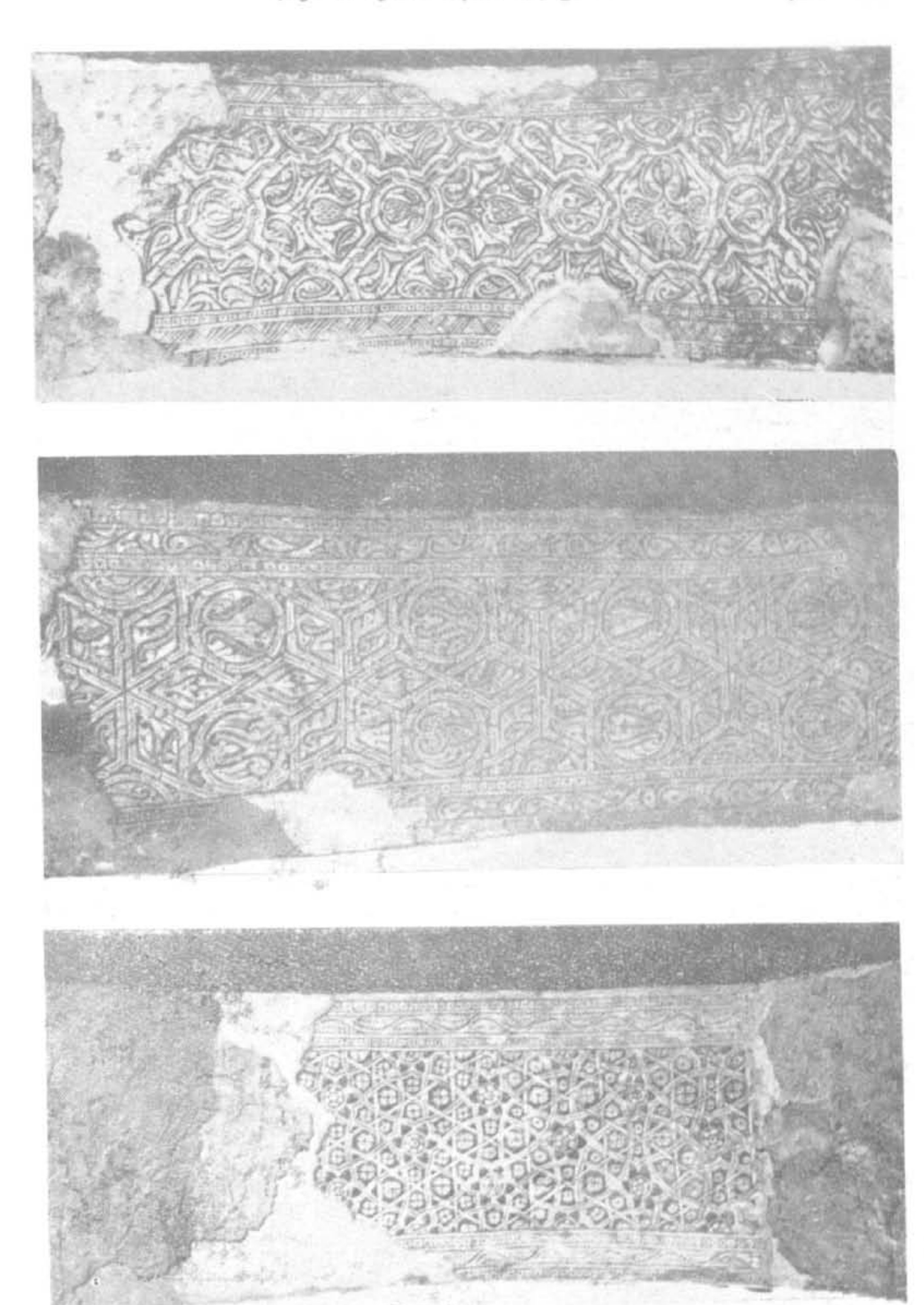
شكل (٥٧) — بيت الصلاة فى المسجد الطولونى قبل إصلاحه — تلتف الاطارات الزخرفية فيه حول العقود والطاقات والدعامات والجدران .



شكل (٥٨) — جزء من واجهة الصحن فى المسجد الطولونى ، تظهر فيها الشرفات والسرر والجامات الوردية .



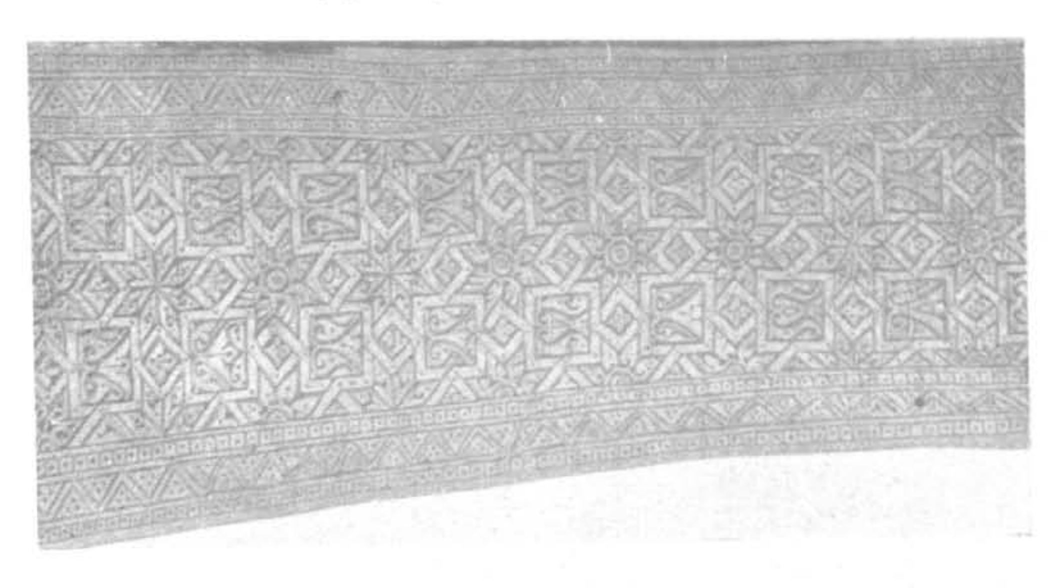
شكل (٦٣) — بواطن العقود فى المجنبة الشرقية .

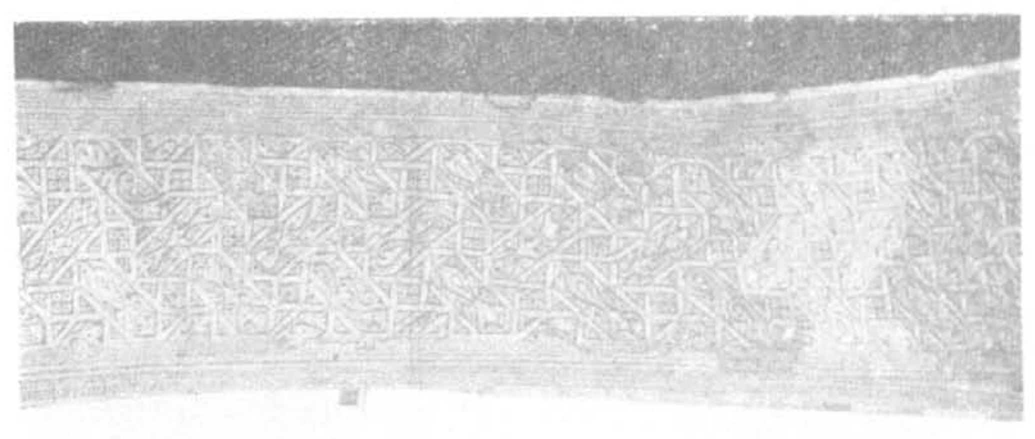


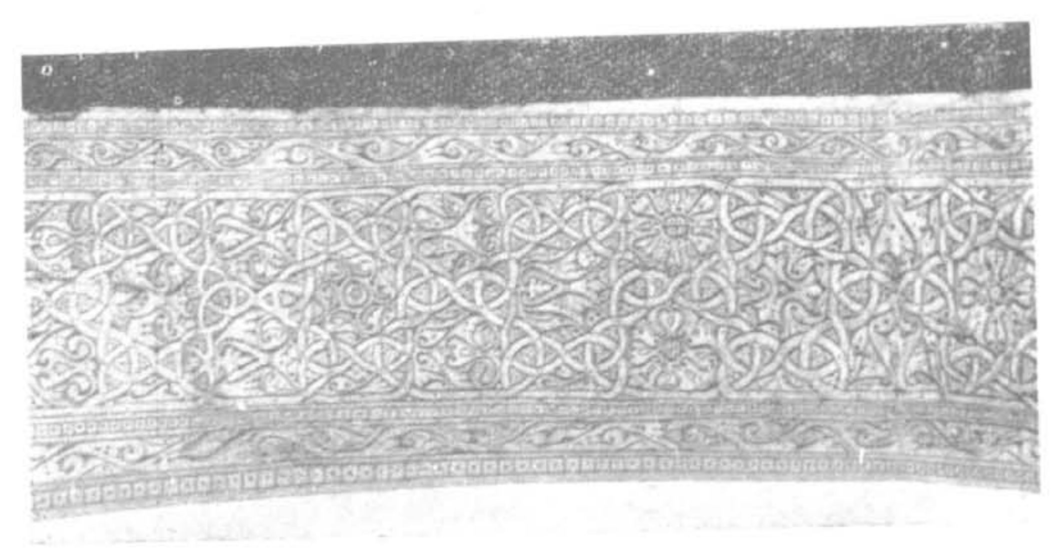
شكل (٦٤) — صورة من زخارف بواطن العقود فى المسجد الطولونى.



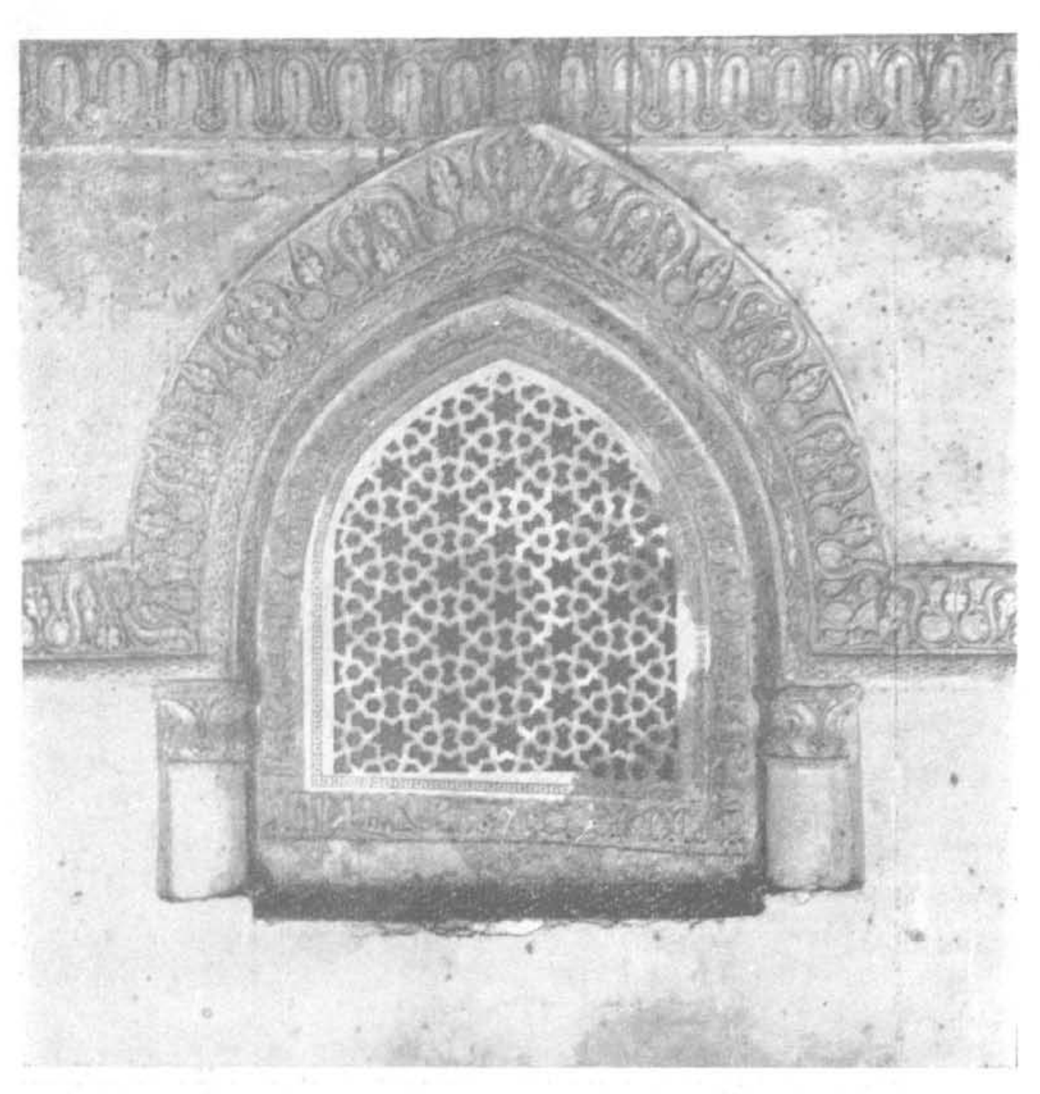
شكل (٦٥) — مثلان من زخارف بواطن العقود فى المسجد الطولونى .

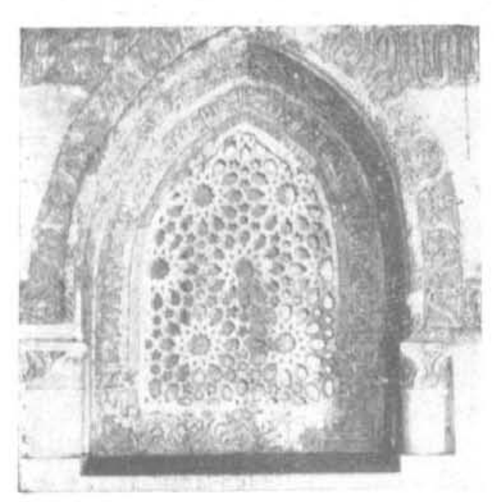






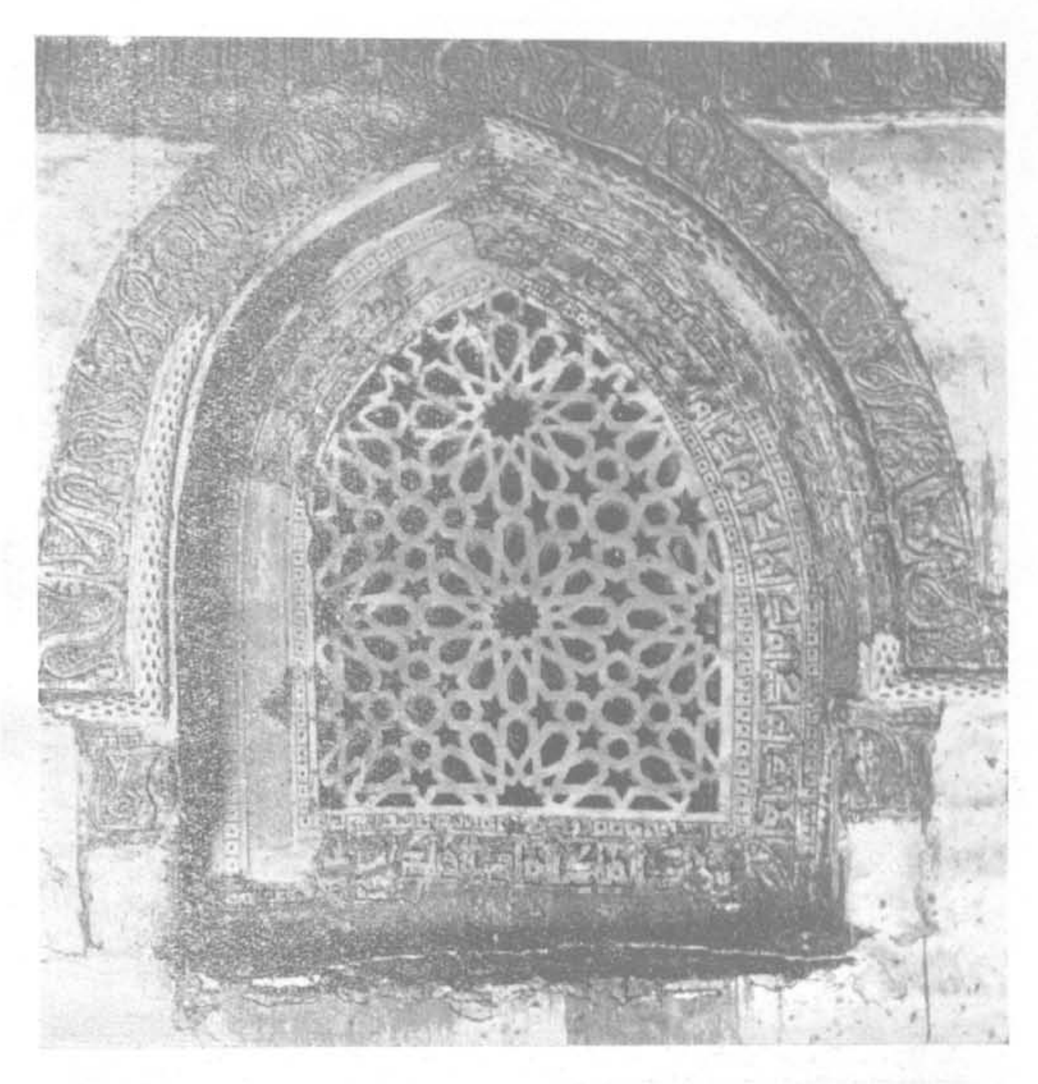
شكل (٦٦) — صور من زخارف بواطن العقود فى المسجد الطولونى .

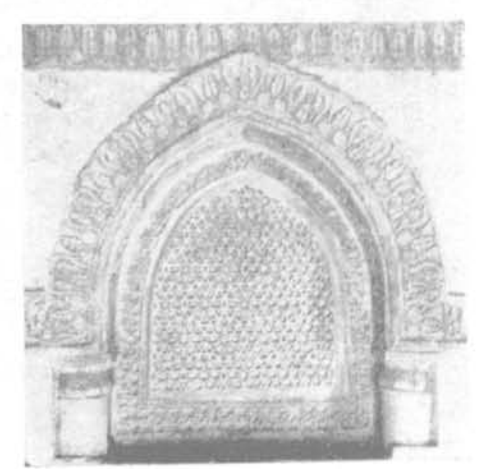


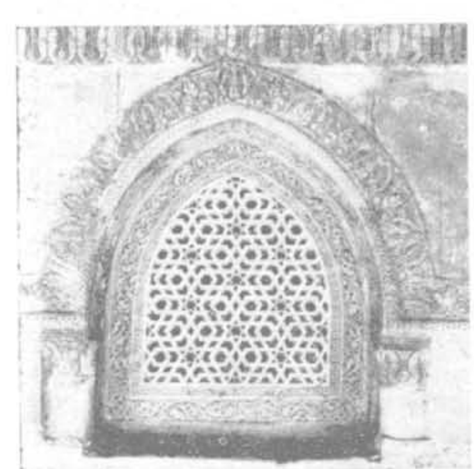




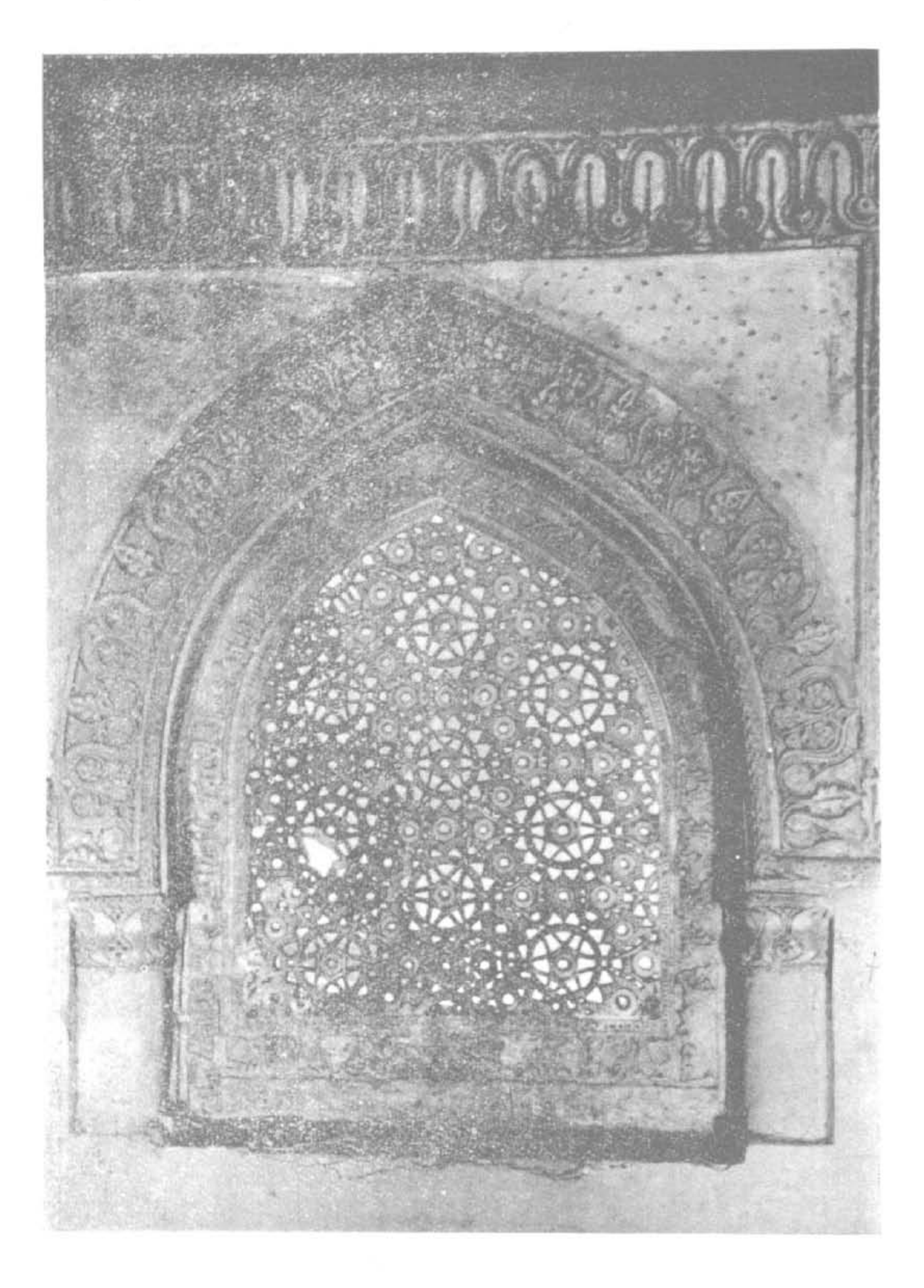
شكل (٧٠) — صور للستائر المخرمة فى نوافذ المسجد الطولونى .



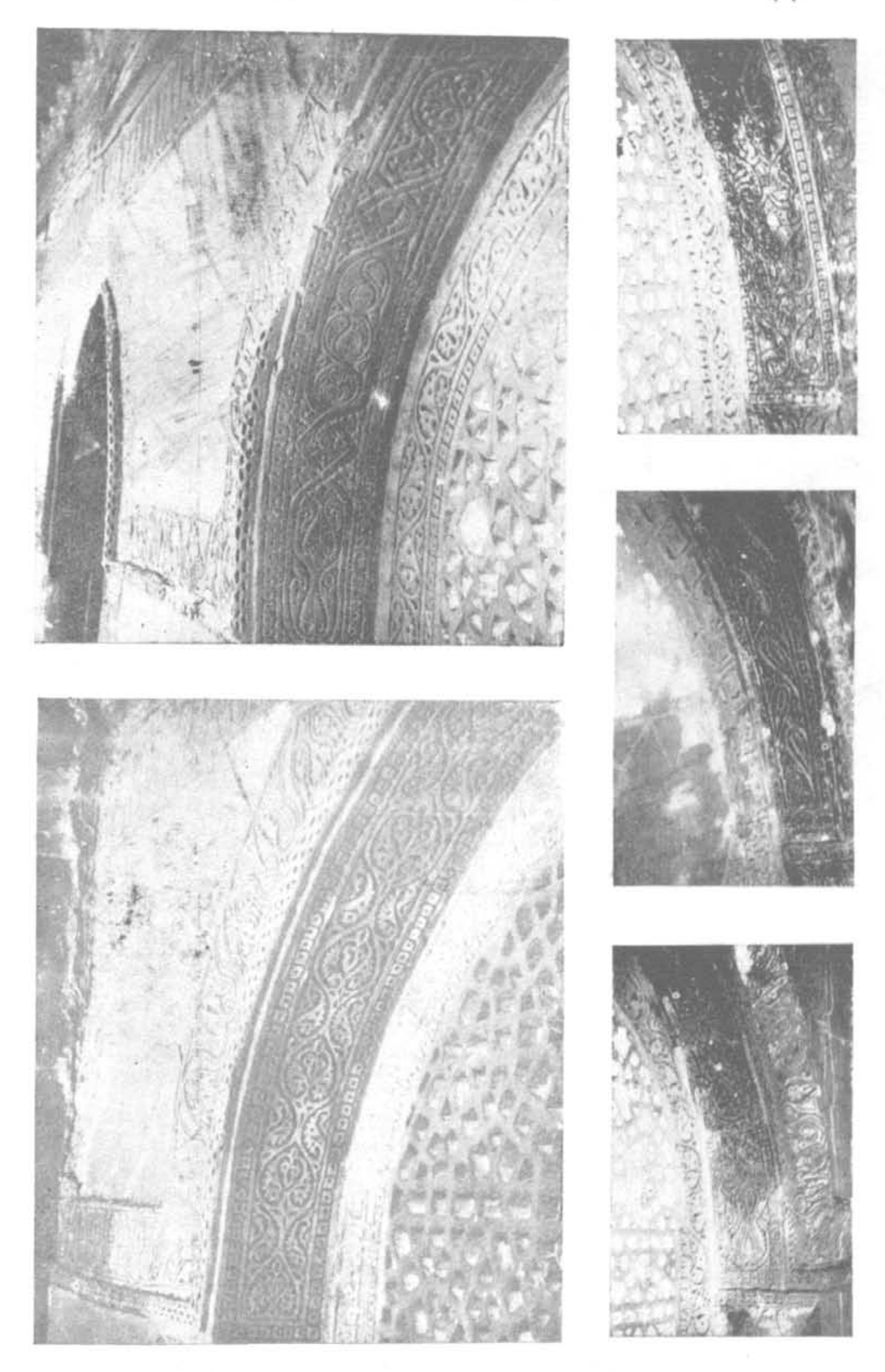




شكل (٧١) — زخارف مشبكة فى الستائر المخرمة على نوافذ بيت الصلاة .



شكل (٧٢) — نافذة عتيقة فى المسجد الطولونى .



شكل (٧٣) — مناطق زخرفية عتيقة من بواطن النوافذ فى الجامع الطولونى

الباب الثالث

تخطيط المساجد المعروفة فيما قبل إنشاء القاهرة

الفصل السادس

المسجد النبوى فى المدينة

١ ــ مقدمة .
٢ ــ المسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛
٣ ــ زيادة المسجد فى عهد الخلفاء الراشدين .
٤ ــ زيادة الوليد فى سنة ٩١ (٧٠٩ م) .
٥ ــ تاريخ المسجد منذ زيادة المهدى فى سنة ١٦٠ (٧٧٨م) ؛
٦ ــ محاولات لرسم تخطيط المسجد النبوى .

الفصل السادس

المسجد النبـــوى فى المدينة

— ١ —

مقدمة

يتضح من تخطيط مسجدى عمرو وابن طولون أنهما متفقان فى معظم عناصر هذا التخطيط . اذ أن بكل منهما بيت للصلاة ، وبكل بيت من هذين البيتين أساكيب ممتدة من الشرق إلى الغرب ، عددها سبعة فى المسجد الأول وخمسة فى المسجد الثانى ، وتنقسم هذه الأساكيب إلى عدد من البلاطات ، كانت جملته عشرين بلاطة فى مسجد عمرو ، تقابل سبع عشرة فى المسجد الطولونى ، وبجدار القبلة فى كل منهما محراب ، أو جملة محاريب ، ويطل بيت الصلاة على صحن . وللمسجد مؤخر يطل كذلك على هذا الصحن ، من الجهة المقابلة لبيت الصلاة . ويربط هذا البيت بالمؤخر مجنبتان تحفان بالصحن ، واحدة عن شرقيه ، والأخرى عن غربيه ، وتمتد أروقة فى هاتين المجنبتين وفى مؤخر المسجد . ولكل من المسجدين جدران فتحت فيها نوافذ وأبواب ، وأحاطت بها زيادات من الخارج .

ولكل من تخطيط مسجدى عمرو وابن طولون ميزات يتفقان فيها معا ، أو ينفرد الواحد منهما بها عن الآخر . وقد أشرت إلى هذه الميزات ، وإلى هذه الفوارق ، عند وصف النظام التخطيطى للمسجدين ، وسأعود إلى الاشارة اليها مرة أخرى فيما بعد .

وإذا كان مسجدا عمرو وابن طولون هما أقدم المساجد المعروفة القائمة

بالقاهرة ، فقد سبق بناءهما مئات من المساجد كانت تنتشر فى البلاد التى فتحها العرب وأظلها الأسلام . ويبدو لى أن تقدير ميزات هذين المسجدين ، من حيث نظام تخطيطهما ، لا يتحقق بغير استعراض نظم التخطيط للمساجد التى سبقتهما تاريخا . ولا يستطيع المؤرخ المدقق أن يحصر عدد هذه المساجد . وإنهما حقاً ظاهرة فريدة فى التاريخ أن تنبت آلاف من المعابد فى المائتى سنة الأولى لنشأة ديانة جديدة . وقد اندثر معظم هذه المساجد ، ولم يتبق منها غير عدد قليل ، ولم يصل الينا منها مسجد واحد كاملا على صورته الأولى ، لم تتناوله الأيدى بالاصلاح والتجديد أو الزيادة والتعمير أو إعادة البناء . وبالرغم من ذلك فان عشرين أو ثلاثين مسجدا من هذه المساجد قد احتفظت بعناصر تخطيطها الأولى التى شيدت عليها فى تاريخ إنشائها ، كما أن الرحالة العرب قد وصفوا بعضا من هذه المساجد وصفا أتاح لعلماء الآثار الاستدلال منه على نظام تخطيطها الأول . وسأستعرض فيما يلى هذه المساجد العتيقة وأصف نظم تخطيطها (١) . وأول هذه المساجد تاريخا وأعظمها أهمية هو المسجد النبوى فى المدينة .

*
*   *

---

(١) تقتصر دراساتى فى هذا الفصل على المساجد الجامعة ، فلم أشر مثلا إلى بناء قبة الصخرة ، وهو أقدم بناء هام قائم ثابت التاريخ فى الآثار العربية الاسلامية . ينظر المقال الذى حاول فيه (جرابار) أن يحدد البواعث الدينية التى دفعت الخليفة عبد الملك بن مروان إلى إقامة هذا البناء ، وإذا كانت النتائج التى قدمها الكاتب فى هذا المقال افتراضية غير مقبولة ، فانه قد اعترف فيه بأن هذا البناء ما يزال « يعتبر من أعظم المبانى التى أخرجها الاسلام من الناحيتين المعمارية والفنية» « One of the most remarkable architectural and artistic achievements of Islam ». Oleg Grabar: The Umayyad Dome of the Rock in Jerusalem, Ars Orientalis, Vol. II, 1959. pp. 33 - 62.

— ٢ —

المسجد النبوى فى عهد الرسول
(صلى الله عليه وسلم)

لم يتبق أثر معمارى من أول مسجد جامع أقيم فى الأسلام . ولكن صورة هذا المسجد ما تزال ظاهرة بارزة واضحة المعالم . فقد كان مصدراً لاهتمام الكتاب والمؤرخين العرب ، فلم يغفلوا شيئا من تاريخه منذ إنشائه حتى اليوم . ولم يحظ أى مسجد آخر فى الدول العربية بمثل ما حظى به المسجد النبوى فى المدينة من عناية هؤلاء الكتاب والمؤرخين . وأقدم من نعرفه منهم هو محمد بن الحسن بن زبالة الذى ألف ، فى شهر صفر من سنة ١٩٩ (سبتمبر ٨١٤) ، كتابا عن تاريخ المدينة وتاريخ مسجدها . ويليه تاريخا يحى بن الحسين . أو يحى بن جعفر العبيدى ، المتوفى سنة ٢٢٧ (٨٩٠م)(١). وقد فقد كتابا هذين المؤرخين ، غير أن السمهودى قرأ مؤلفيهما ، ونقل معظم ما جاء بهما عن مسجد الرسول . ووصلت الينا فوق هذا معلومات وافية قديمة عن هذا المسجد العظيم نقلها ابن سعد والبلاذرى واليعقوبى والدينورى وابن رسته والطبرى وابن عبد ربه . وقد ألف هؤلاء المؤرخون كتبهم فى القرن الثالث الهجرى ، وسجلوا تاريخ المسجد عن المصادر الموثوق بها . وكانت هذه المؤلفات بدورها مصادر رجع اليها الكتاب والمؤرخون والرحالة منذ ذلك العصر .

وأهم ما بين أيدينا اليوم من المراجع العربية الأصيلة كتابان ، أحدهما « كتاب الدرة الثمينة فى أخبار المدينة » ، ألفه محب الدين محمد بن محمود ابن النجار ، المتوفى سنة ٥٩٣ (١١٩٦ م) ، وهو مخطوطة بالمكتبة الأهلية

(١) تنظر صفحة ٢٥٢ من الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفى بأخبار دار المصطفى » لمؤلفه نور الدين على بن أحمد السمهودى ، مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة ، ١٣٢٦ (١٩٠٨) ، وفيها بيان واف عن هذين الكاتبين .

فى باريس . والكتاب الثانى ، « وفاء الوفى بأخبار دار المصطفى » ، كتبه مؤلفه الشيخ نور الدين على بن أحمد السمهودى ، المتوفى سنة ٩١١ (١٥٠٦ م) ، وهو ملخص لكتاب ضخم ألفه هذا الشيخ وأسماه « اقتفاء الوفى بأخبار دار المصطفى » ، ولكنه حرق مع حريق مسجد المدينة فى سنة ٨٨٦ (١٤٨١ م) ، وللكتاب خلاصة ثانية كتبها مؤلفه وأسماها « خلاصة الوفى بأخبار دار المصطفى » (١) . وسنرى أن هذين المرجعين ، قد احتويا جميع ما كتبه المؤرخون من قبل ، فضلا عن أن السمهودى قد تناول مصادره بالتحقيق والتمحيص ، وراجعها على معالم المسجد فى عصره ، وكتب كتابه فى المسجد النبوى نفسه ، أثناء إقامته بالمدينة .

ذكر الرواة أنه « ما وطئت أقدام الرسول أرض المدينة حتى أقام جدران مسجد فيها يجعل منه بيتا لله ، ومركزا لدعايته إلى الأيمان ، وكان هذا أول ما شغل به . وكان بناء المسجد فى نفس المربد الذى بركت فيه ناقته ، ثم بنى لعائشة بيتا ، يليه شارع المسجد ، وجعل بابا فى المسجد تجاه باب عائشة يخرج منه إلى الصلاة » ، وأقام من حول المسجد منازل لأزواجه ، وكانت « كلها فى الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الأمام فى وجه المنبر »(٢) . وقال ابن النجار فى « الدرة الثمينة » عن الامام مالك رضى الله عنه إن « حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولكن أبوابها شارعة فى المسجد » (٣) . وكانت هذه المنازل تسعة ، « بيوت

---

(١) طبع كتاب «خلاصة الوفى بأخبار دار المصطفى» بدار الطباعة بالقاهرة فى سنة ١٢٨٥ (١٨٦٩ م) .

(٢) ابن سعد ، كتاب « الطبقات الكبرى » ، الجزء الأول ، قسم ثان ، صفحة ٢ ؛ والجزء التاسع ، صفحتا ١١٧ و ١١٩ ، وأحمد فكرى ، « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ٤٦ .

(٣) ابن النجار ، « الدرة الثمينة » ، ورقة ٢٣ ، والسمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٦٦ .

باللبن ولها حجر من جريد مطرور بالطين »(١) . وفى قول ، كان بعضها فى الجهة الشرقية من المسجد وبعضها فى الجهة الشمالية (٢) .

أما المسجد ، فكان « مربدا لسهل وسهيل ، غلامين يتيمين من الأنصار ، وكانا فى حجر أبى أمامة أسعد بن زرارة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا ، فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وقال معمر عن الزهرى : وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك . وكان جدارا مجدرا ليس عليه سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس . وكان أسعد بن زرارة بناه فكان يصلى بأصحابه فيه ، ويجتمع بهم فى الجمعة قبل مقدم رسول الله . فأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالنخل الذى فى الحديقة ، وبالغرقد الذى فيه ، أن يقطع ، وأمر باللبن فضرب . وكان بالمربد قبور جاهلية ، فأمر بها رسول الله فنبشت ، وأمر بالعظام أن تغيب ، وكان بالمربد ماء مستنجل فسيره حتى ذهب » .

« وأسسوا المسجد ، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللبن ، وجعلت قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، باب فى مؤخره وباب يقال له باب الرحمة ، وهو الباب الذى يدعى باب عاتكة ، والباب الثالث الذى يدخل فيه رسول الله ، وهو الباب الذى يلى آل عثمان ، وجعل طول الجدار بسطة ، وسقفه جريدا »(٣) .

وأغلب الظن أن المسجد حينذاك كان يقتصر على رحبة واسعة ، تحيط بها جدران من جهاتها الأربعة ، وأنه لم يكن له سقف أول الأمر ، لأن

(١) ابن سعد ، «الطبقات الكبرى» ، الجزء الثامن ، صفحة ١١٩ ؛ والسمهودى ، « خلاصة الوفى » ، صفحة ١٢٧ .

(٢) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٠٥ . وقد ظلت هذه البيوت خارجة عن حدود المسجد حتى أدخلها الوليد فيه .

(٣) ابن سعد ، « الطبقات الكبرى » ، الجزء الأول ، قسم ثان ، صفحة ٢ ؛ والسمهودى « وفاء الوفى » ، الجزء الأول صفحات ٢٣٢ إلى ٢٣٥ .

الناس شكوا إلى الرسول شدة الحر (١) ، فأقام لهم « ظلة » ، وجعل فى المسجد « سوارى من جذوع النخل ، ثم طرحت عليها العوارض والخصف والأذخر » (٢) .

وكان رسول الله يبنى وينقل الحجارة بنفسه ، حتى « يرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه » (٣) .

وقال أنس « بنوا المسجد وصفوا النخل قبلة ، وجعلوا عضادتيه حجارة » ، وقال السهيلى : « جعلت قبلته (أى جدار القبلة) من حجارة منضودة بعضها على بعض ، وحيطانه باللبن ، وجعلت عمده من جذوع النخل » (٤) . وبنيت الجدران أول الأمر « بالسميط ، لبنة على لبنة » ، أى الواحدة بجوار الواحدة ، والواحدة فوق الأخرى ، ثم « بالسعيدة ، لبنة ونصف أخرى » ، أى اللبنة الواحدة متعارضة مع كل لبنتين ، « ثم كثروا ، فقالوا يا رسول الله ، لو زيد فيه ، ففعل ، فبنى بالذكر والأنثى ، وهى لبنتان مختلفتان » (٥) .

واختلف الرواة فى مقاسات هذا المسجد الأول ، قال البعض منهم إنه كان مسائة فى مسائة ذراع ، وإنه كان مربعا ، وقال البعض الآخر إنه كان أقل من ذلك ، وسنرى أن صحة ذرع هذا المسجد الأول ، هو ثلاثة وستون ذراعا عرضا ، وسبعون ذراعا طولا . وقيل كانت بظلته ثلاثة أروقة ، أى ثلاثة أساكيب (٦) . وكانت به ست أساطين ، ثلاثاً إلى يمين المنبر وثلاثاً إلى يساره (٧) .

---

(١) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ابن سعد ، «الطبقات الكبرى» ، الجزء الأول ، قسم ثان ، صفحة ٢ ؛ وابن هشام ، « سيرة » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٣٠ .

(٤) العمرى ، « مسالك الأمصار » ، الجزء الأول ، صفحة ١٢٥ .

(٥) صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » للسمهودى .

(٦) ابراهيم رفعت ، « مرآة الحرمين » ، الجزء الأول ، صفحة ٤٦١ .

(٧) السمهودى ، « وفاء الوفى » الجزء الأول ، صفحات ٢٤٨ و٢٤٩ و٢٥١ إلى ٢٥٣ .

وظلت القبلة متجهة نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، ثم حولت نحو الكعبة ، وأقيمت ظلة ثانية عليها ، وبقيت الظلة الأولى مكانا لأهل « الصفة » ، وكان ما بين الظلتين رحبة واسعة (١) ، ولهذا سمى المسجد بمسجد « القبلتين » (٢) .

وكانت سقف المسجد مطأطأة ، وارتفاع جدرانه سبعة أذرع ، أى ثلاثة أمتار ونصف (٣) ، وقيل فى ذلك « بنى الرسول مسجده عريشا كعريش موسى ، سبعة أذرع ، ثمامات وخشبات وظلة » (٤) .

ولم تمض سبع سنوات حتى كان المسجد قد ضاق بأهله ، فجددت سقفه ، وزيد فيه . « اشترى النبى صلى الله عليه وسلم بقعة من أنصارى زيدت فى المسجد » (٥) ، وكانت هذه الزيادة فى شرقيه بمقدار عشرة أذرع ، أو أسطوانة ، وفى غربيه بمقدار عشرين ذراعا ، أو أسطوانتين ، وفى شماليه بمقدار ثلاثين ذراعا ، فأصبح ذرع المسجد قريبا من مربع ، طول جدار القبلة فيه تسعون ذراعا ، ومنه إلى جدار المؤخر مائة ذراع (٦) . وكانت تمتد فى ظلته حينذاك ثلاثة صفوف من تسع سوار من جذوع النخل (٧) .

---

(١) ابن النجار ، « الدرة الثمينة » ، ورقة ٢١ .

(٢) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٢٥٨ و ٢٥٩ .

(٣) يعادل الذراع الهاشمى ، وهو الذى كان مستخدما فى عصر ابن رسته ، وفى عصر ابن النجار ، واتخذه السمهودى مقياسا ، ٥٢ سنتيمترا تقريبا . تنظر صفحة ١٩ من الجزء الثانى من كتاب (زاره وهرتزفلد) ، « نزهة اثرية » .

(٤) . السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحتا ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٥) السمهودى ، « خلاصة الوفى » ، صفحة ١٠٨ ، و « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤١ ؛ وابن النجار ، « الدرة الثمينة » ، ورقة ٢١ .

(٦) اختلف الرواة فى تحديد نهاية المسجد من الجهة الغربية ، بالرغم من أن غالبيتهم قد اتفقت على أن الزيادة قد جعلت المسجد « قريبا من مائة ذراع » ، وقريبا من « مربع » . وقد ناقش السمهودى فى « وفاء الوفى » رواية المؤرخين مناقشة طويلة ، خرج منها إلى أن « الجمهور على رواية أن المسجد كان مائة فى مائة » ، تنظر صفحات ٢٤٢ إلى ٢٥٦ من الجزء الأول . وسنرى أن تاريخ الزيادات المتعاقبة فى المسجد تؤيد الرأى الذى أبديه ، وهو أنه كان أقل من ذلك .

(٧) هذه هى النتيجة التى توصلت اليها بعد دراسة أقوال الرواة جميعا وتمحيصها ، مما سيتضح من تتبع تاريخ المسجد .

— ٣ —

زيادة المسجد فى عهد الخلفاء الراشدين

ونخرت الجذوع الأولى فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، فجددها ، « وبناها بجذوع النخل وبالجريد » (١) . وضاق المسجد بعد ذلك مرة أخرى بالمصلين (٢) » ، فجدده عمر ، رضى الله عنه ، فى سنة سبع عشرة (٦٣٧ م) ، وبناه على بنائه فى عهد الرسول ، وجعل أساطينه من لبن ، وسقفه من الجريد ، وأعاد عمده خشبا (٣) ، وقال : « أكن الناس من المطر » ، وأوصى البناء الا « تحمر أو يصفر » حتى لا يفتن الناس » (٤) . وزاد عمر فى المسجد فجعله « من المشرق إلى المغرب مائة وعشرين ذراعا » (٥) وما بين جدار القبلة وجدار مؤخره مائة وثلاثين ذراعا (٦) ، وكانت زيادة عمر من القبلة والغرب والشمال ، فقدم جدار القبلة عشرة أذرع ، أو نحو ذلك (٧) ، وزاد من جهة الشام عشرين ذراعا ، وكانت الزيادة من جهة الغرب قدر بيت العباس بن المطلب ، عم الرسول ، وكانت لاصقة بنهاية جدار القبلة فى تلك الجهة (٨) ، وامتد بيت الصلاة غربا قدر

(١) صفحة ٣٠٠ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » للسمهودى .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٤٢ .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٠٠ .

(٤) العمرى ، « مسالك الأمصار » ، الجزء الأول ، صفحة ١٢٥ .

(٥) صفحة ٣٥٨ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » للسمهودى .

(٦) المرجع السابق ، صفحة ٣٤٩ . وقد ذكر السمهودى أن طول المسجد فى عهد عمر كان مائة وأربعين ذراعا ، وسنرى أن هذا القدر يتعارض مع قدر الزيادات التالية .

(٧) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٠ .

(٨) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٨ . وهذا يؤكد ما ذكرته من أن حدود مسجد الرسول كانت أقل من مائة عرضا ومائة أذرعة طولا .

ثلاث أسطوانات ، أى ما يقرب من ثلاثين ذراعا . وجعل عمر للمسجد ستة أبواب ، بأن أبقى على بابى جبريل والنساء ، وقدم باب الرحمة إلى الغرب ، وفتح بابا آخر فيه ، فى موضع بيت العباس ، سمى باب السلام ، وفتح بابين فى مؤخر المسجد (١) .

وفى سنة تسع وعشرين (٦٤٩ م) ، شكى الناس إلى عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، « ضيق المسجد يوم الجمعة » (٢) ، وأجمع الرواة على أنه « زاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج (٣) » ، « ونقل إليه الحصباء من العقيق » (٤) . وكان عثمان يشرف على العمل بنفسه ، وفرغ منه بعد عشرة أشهر (٥) . وزاد عثمان فى قبلته إلى الحد الذى كانت تقع فيه «المقصورة» فى أيام السمهودى (٦) ، وهو حد جدار القبلة فى المسجد إلى اليوم . وقدر هذه الزيادة عشرة أذرع . وزاد فيه إلى «الشام» عشرين ذراعا (٧) . ولم يزد من المشرق شيئا ، وزاد فى غربيه قدر « أسطوان» ، أى عشرة أذرع (٨) ، فأصبح طول المسجد ١٦٠ ذراعا (٩) وعرضه ١٣٠ (١٠). وجعل عثمان للمسجد ستة أبواب ، « على ما كان على عهد عمر » (١١) .

---

(١) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٥ .

(٤) البلاذرى ، « فتوح البلدان » ، صفحة ٦ .

(٥) صفحة ٣٥٦ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » للسمهودى .

(٦) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٨ .

(٧) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٩ ، وفى بعض الروايات ان هذه الزيادة كانت خمسين ذراعا ، والصحة ما ذكرته أعلاه .

(٨) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٧ .

(٩) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٩ .

(١٠) المرجع السابق ، صفحة ٣٦٠ ، وكان السمهودى قد ذكر رواية فى الصفحة السابقة ، صفحة ٣٥٩ ، تجعل عرض المسجد ١٦٠ ذراعا ، ولكنه ناقشها وصححها .

(١١) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٨ .

وذكر الرواة أن زيد بن ثابت ، الذى كان يباشر عمارة المسجد وزيادته فى عهد عثمان بن عفان ، « قدر أساطينه فجعلها على قدر النخل ، وجعل فيه طيقان مما يلى المشرق والمغرب » (١) ، ومعنى ذلك أنه أقام العمد الحجرية فى موضع العمد الخشبية ، بحيث لا يتغير موضع الأساطين التى كانت على عهد الرسول . وهذه سنة اتبعها جميع الذين تعرضوا لتعمير المسجد وتجديده وزيادته منذ إنشائه ، ومازالت أسطوانات المسجد تعرف بأسمائها التى كانت معروفة بها فى عهد الرسول . ومعنى قوله « جعل فيه طيقان فما يلى المشرق والمغرب » ، أنه فتح نوافذ مرتفعة فى الجدارين الشرقى والغربى من بيت الصلاة ، فيما بين الأساطين . ولم تقم على هذه الأساطين عقود ، بل امتدت فوقها السقف على أوتار أو عوارض خشبية .

— ٤ —

زيادة الوليد

وبقى المسجد بعد ذلك على حاله ما يقرب من ستين سنة ، حتى أجرى الوليد بن عبد الملك عمارة هامة فيه . إذ بعث عمال إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان عامله على المدينة ومكة ، وأمره بهدم المسجد وبنائه من جديد ، وهدم حجر زوجات الرسول وإدخالها فى المسجد ، وزيادته من المشرق والمغرب والشام . واستعمل عمر بن عبد العزيز صالح بن كيسان « على هدم المسجد وبنائه » ، وجاء كتاب الوليد بهذا الأمر فى سنة ٨٨ (٧٠٦ م) وبدأت عملية الهدم ، وفرغ من العمارة والبناء ، بعد ثلاث سنين فى سنة ٩١ (٧٠٩ م) (٢) ، وكانت لصالح بن كيسان هذا ، كما سنرى ، أهمية كبرى فى هذه الأعمال .

(١) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، صفحتا ٣٦٥ و ٣٧٠ .

وذكر السمهودى ما رواه ابن زبالة عن محمد بن عمار عن جده قال «لما صار عمر بن عبد العزيز إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب الموالى فقال لهم تعالوا احضروا بنيان قبلتكم ، لاتقولوا غير عمر قبلتنا ، فجعل لا ينزع حجرا إلا وضع مكانه حجرا» (١).

وقيل كانت زيادة الوليد فى المسجد «من المشرق إلى المغرب ستة أساطين» ، «ليس منها فى جهة المغرب سوى اثنتين ، وأربعة منها فى جهة المشرق» (٢) . وقد ذكر أن المسافة بين الأسطوانتين كانت تعادل تسعة أو عشرة أذرعة ، ومعنى ذلك أن زيادة الوليد فى جدار القبلة ، كانت تقرب من ستين ذراعا ، وهى فى الحقيقة أقل من ذلك ، إذ بلغت أقل من أربعين ذراعا ، وذلك لأن صحة زيادة الوليد أسطوانة واحدة غربا ، وثلاثا شرقا ، فأصبح طول جدار القبلة من الشرق إلى الغرب ١٦٥ ذراعا تقريبا (٣). وقد استقر طول هذا الجدار على هذه الصفة منذ ذلك العهد .

---

(١) المرجع السابق صفحة ٣٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٦٨ ، وقد اختلف الرواة فى تقدير زيادة الوليد ، وذكر كثير منهم أن عرض المسجد كان فى عهده مائتى ذراع ، وقد ناقش السمهودى تلك الروايات فى صفحة ٣٦٣ ، وأورد عن أبى زبالة أن عرض المسجد كان فى عهده ١٦٥ ذراعا ونصف ذراع ، وأكد ذلك مرة أخرى فى صفحة ٣٨١ . وذكر ابن رسته فى كتاب «الاعلاق النفيسة» ، صفحة ٧٦ ، أن عدد أساطين المسجد ٢٩٦ أسطوانة ، وأن طوله «من اليمن إلى الشام» ٢٤٠ ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ١٦٥ ذراعا ، وهو رقم قريب جدا مما ذكره السمهودى . وذكر صاحب كتاب «الاستبصار» فى صفحة ٣٧ ، أن عرض المسجد ١٧٠ ذراعا . وقد رأيت أن أوفق بين روايتى ابن زبالة وابن رسته فهما أقرب إلى الحقيقة. والخلاف بين ابن زبالة والسمهودى وصاحب كتاب «الاستبصار» ناشىء من أن المقاسات لم تؤخذ جميعا من خارج الجدران ، ولكنها قيست بعضها داخل بيت الصلاة . وهكذا تكون مقاسات المسجد فى قبلته من الشرق إلى الغرب ، حسب ما أوردته ، (٦٠) ذراعا للمسجد الاول فى عهد الرسول و (٩٠) للمسجد الثانى فى عهد الرسول و(١٢٠) فى عهد عمر ، و(١٣٠)فى عهد عثمان و(١٦٥)فى عهد الوليد ، وهو اليوم ٨٨ مترا. =

أما زيادة المسجد من جهة الشام فقد بلغت أربعين ذراعا ، وأصبح طول الجدار الغربي للمسجد ، وهو الذى استقرت حدوده كذلك منذ ذلك التاريخ : مائتى ذراع ، وقد اتفق المؤرخون على هذا الحد وهذه الزيادة (١) . وكذلك استقرت حدود المسجد من الجهة الشرقية بعد إدخال الحجرة الشريفة فيه ، وهى قبر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، غير أن الجدار الشرقى لم يكن عموديا على جدار القبلة ، وجعله عمر بن عبد العزيز منحرفا عنها إلى الغرب ، فأصبحت حدود المسجد الشمالية أضيق من حدوده القبلية ، وبلغ طول جدار المؤخر ، فى عهد الوليد ، ما يقرب من ١٤٠ ذراعا (٢) .

وعمل صالح بن كيسان الأساس بالحجارة ، والجدران « بالحجارة والقصة » ، وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص (٣) ليس عليها عقود ، ومدت فوقها سقف خشبية .

وأصبح لبيت الصلاة خمسة أساكيب ، بكل منها صف من سبعة عشر

= وناقش السمهودى رواية ابن زبالة كذلك عن أن الزيادة من الشرق إلى الغرب ست أساطين ، وقارنها برواية يحى من أن الزيادة كانت فى الشرق ثلاث أساطين فقط ، وقال « فيحتمل أن يكون له فى الغرب ثلاث أيضا » ؛ والصحة ما ذكرت أعلاه ، تؤيدها المقاسات السابقة ، ويؤيدها أن الحجرة الشريفة التى أدخلها الوليد فى المسجد تحتل ثلاث أساطين فقط . ولكن عمر بن عبد العزيز جعل حول الحجرة الشريفة حائزا يحتل مقدار أسطوانه ، وظن بعض المؤرخين أن هذا الحائز كان حد المسجد النبوى من قبل عهد الوليد ، فى حين أن الحد المتفق عليه كان هو جدار الحجرة نفسه ، وقد وقع السمهودى نفسه فى هذا الخطأ . ينظر ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٨٥ .

(١) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحات ٣٦٩ إلى ٣٨١ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٦٨ ؛ وقد ذكر السمهودى أن عرض المسجد « فى جهة الشام » كان فى عهده « مائة وخمسة وثلاثين ذراعاً » ، وهو عرض المؤخر فى عهد المهدى ، فيكون العرض فى عهد الوليد ١٤٠ ذراعا ، كما يتضح من الرسم ، شكل (٧٩) .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

عمودا ، أى ثمان عشرة بلاطة (١) . وجعل عمر بن عبد العزيز سقايف الشام أربعة أروقة ، بكل منها صف من سبعة عشر عمودا . وأحاط عمر الصحن بمسقفة فى شرقيه ، وأخرى فى غربيه ، أى أحاطه بمجنبتين ، وجعل بالمجنبة الشرقية ثلاثة أروقة ، وبالغربية أربعة (٢) . وأحاط الصحن من جهاته الأربعة ببوائك (٣) ، كان كل من مقدم المسجد ومؤخره يطل عليه

(١) كان المسجد ، كما سبق أن ذكرت ، عشر بلاطات فى عهد الرسول ، زيدت بعد ذلك ثمان بلاطات ، ثلاثا فى عهد عمر ، وبلاطة فى عهد عثمان ، وأربعا فى عهد الوليد .

(٢) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٦٩ .

(٣) لم تكن روايات المؤرخين واضحة فى تحديد عدد الأساطين والبوائك والأروقة المحيطة بالصحن ، وكذلك كانت الروايات التى سجلها السمهودى . وقد استخلصت هذه الحدود والصفات من البيانات المتفرقة الواردة فى كتاب « وفاء الوفى » من الفصل السابع عشر إلى الفصل التاسع والعشرين . وكذلك من وصف ابن جبير للمسجد ، كما سنرى فى الصفحة التالية ، بعد حذف ما ورد فى هذا الوصف من الزيادات بعد عهد الوليد . وقد ذكر السمهودى فى صفحة ٤٨٧ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » عن ابن النجار أن الطاقات المحيطة بصحن المسجد ، أى البوائك أو العقود ، كانت جملتها ستين طاقة ، منها إحدى عشرة فى القبلة ، ومثلها فى المؤخر ، وتسع عشرة فى كل من المشرق والمغرب . وكان قد ذكر فى صفحة ٣٨١ ، أن زيادة المهدى تقدر بست أساطين منها خمس فى السقائف الشامية ، أى فى مؤخر المسجد . ومعنى ذلك ، أن « الطاقات » التى كانت محيطة بالصحن فى كل من المشرق والمغرب كانت أربع عشرة فى عهد الوليد ، وهو ما رجحه السمهودى فى تلك الصفحة وفى صفحة ٣٦٩ التى أكد فيها أن الوليد جعل « جدار المسجد من جهة الشام بعد ١٨ اسطونة من مربعة القبر » ، منها ٤ أساطين للسقايف الشامية . وفى « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » وصف لمسجد المدينة ، (صفحة ٣٧ إلى ٤١) ، جاء فيه أن طول المسجد يزيد مائة ذراع على عرضه (صفحة ٣٧) ، كما جاء فيه ، فى نفس الصفحة ، أن «مقدم المسجد خمس بلاطات معترضة (والبلاطة المعترضة هى التى أسميتها أسكوبا) ومؤخره مثل ذلك ، ومجنبة المسجد الشرقية فيها ثلاث بلاطات معترضة ، ومجنبته الغربية أربع بلاطات » . وذكر الكاتب « ومن مقدم المسجد إلى الصحن أحد عشر قوسا وكذلك من مجنبته الأخرى » وقد قصد بذلك أن بيت الصلاة كان يطل على الصحن بأحد عشر قوسا ، تمتد من طرف المجنبة الشرقية إلى طرف المجنبة الغربية . وهذا يؤكد أنه كان ببيت الصلاة ثمان عشرة بلاطة ، إحدى عشرة منها تطل على الصحن ، وسبعة ، امتدادا لأروقة المجنبتين الشرقية والغربية .

منها بأحدى عشرة بائكة ، وكانت كل من المجنبتين الشرقية والغربية تطل عليه بأربع عشرة بائكة . وأقام عمر بن عبد العزيز فوق هذه البوائك شرفات « تحيط بصحن المسجد من جوانبه الأربعة ، وبينها فرج شبه طاقات الشباك » (١) .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز هذا هو أول من أدخل المحراب المجوف فى المسجد النبوى(٢) ، وإنه جعل للمسجد أربع مآذن،أو « أربع منائر ، فى كل زاوية منه منارة »(٣) . وكذلك جعل فى بيت الصلاة مقصورة من ساج ، بدلا من المقصورة التى جعلها عثمان من حجارة(٤) .

— ٥ —

تاريخ المسجد منذ زيادة المهدى

« نقل ابن زبالة ويحيى أن المسجد لم يزل على حال مازاد فيه الوليد ، إلى أن هم أبو جعفر المنصور بالزيادة فيه ، ثم توفى ، ولم يزد فيه ، حتى زاد فيه المهدى »(٥) . وعهد ببناء هذه الزيادة إلى عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز ، وعبد الملك بن شبيب الغسانى ، ومات ابن عاصم ، فولى المهدى مكانه عبد الله بن موسى الحمصى (٦) .

---

(١) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٧٢ وما يليها . وسأناقش هذه الرواية فى الفصل العاشر من هذا المدخل .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، صفحة ٣٧٢ .

(٥) المرجع السابق ، صفحة ٣٧٩ .

(٦) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٨٠ .

كان ذلك فى سنة ستين ومائة (٧٧٨ م) ، وتمت أعمال البناء بعد سنتين ، أو بعد خمس سنوات (١) . وقيل كانت زيادة المسجد من ناحية الشام ، قدر مائة ذراع ، وسنرى أن صحتها خمسا وستين ذراعا ، « ولم يزد فى القبلة ولا فى المشرق والمغرب شيئا »(٢) . وقدرت هذه الزيادة بما يعادل ست أساطين (٣) . واستقرت حدود المسجد الشمالية على هذا الحد منذ ذلك التاريخ .

وقيل إن المهدى زخرف موءخر المسجد بالفسيفساء ، وكانت مازالت آثار هذه الزخرفة باقية فى عهد السمهودى .

استقرت حدود المسجد النبوى ونظمه على حالها فى عهد المهدى إلى أن احترق فى سنة ٦٥٤ (١٢٥٦ م) (٤) . وكان ابن جبير قد زاره قبل

(١) المرجع السابق ، صفحة ٣٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٨٠ .

(٣) قدر السمهودى ذلك بقوله فى الصفحة المشار اليها ، صفحة ٣٨٠ : كانت نهاية المسجد من جهة الشام فى زمن الوليد بعد أربع عشرة أسطوانة من مربعة القبر ، ومنها إلى آخر المسجد ، (فى عهد السمهودى) ، أربع وعشرون أسطوانة ، أى أنه تتبقى عشر أساطين ، هى التى زادها المهدى ، وقول ابن زبالة ، أن من تلك الأساطين العشرة خمس فى السقائف ، أن المهدى جعل بمسقف الشام ، (أى بمؤخر المسجد) ، خمسة صفوف من الأساطين . ولكن السمهودى ذكر فى الصفحة التالية ، أن المرجح عنده أن زيادة المهدى كانت تقتصر على ست أساطين ، وأن المسجد فى عهد الوليد كان يمتد أربع عشرة أسطوانة بعد مربعة القبر ، وان السقائف الشامية كانت تمتد بعد ذلك وأنه كان بها أربعة صفوف من الأساطين .

(٤) السمهودى ، « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٤٢٧ وما يليها . ويشير السمهودى فى صفحة ٣٨٣ إلى رواية ذكر فيها أن الخليفة المأمون أجرى عمارة فى المسجد وجدده فى سنة ٢٠٢ (٨١٧م) ، ولكنه يشك فى هذه الرواية ويؤكد أنه على كل حال « لم يزد فيه » ، صفحة ٣٨٣ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » . وذكر البلاذرى فى صفحتى ٦ و ٧ من كتاب « فتوح البلدان » أن الخليفة المتوكل أمر « بمرمة مسجد المدينة » فى سنة ٢٣٧ (٨٥١ م) . وذكر ابن رسته فى صفحة ٧٤ ، من « الأعلاق النفيسة » ، أن المعتضد بالله أمر بتجديد عمارة المسجد فى سنة ٢٨٣ (٨٩٦ م) . ولم تعدل هذه الأعمال كلها شيئا من نظام المسجد وحدوده .

ذلك ، في سنة ٥٨٠ (١١٨٤ م) ، وترك وصفا دقيقا له ، هو في واقع الأمر وصف لحالة المسجد ونظامه في عهد الخليفة المهدى ، أى فى سنة ١٦٥ (٧٨٣ م) (١) .

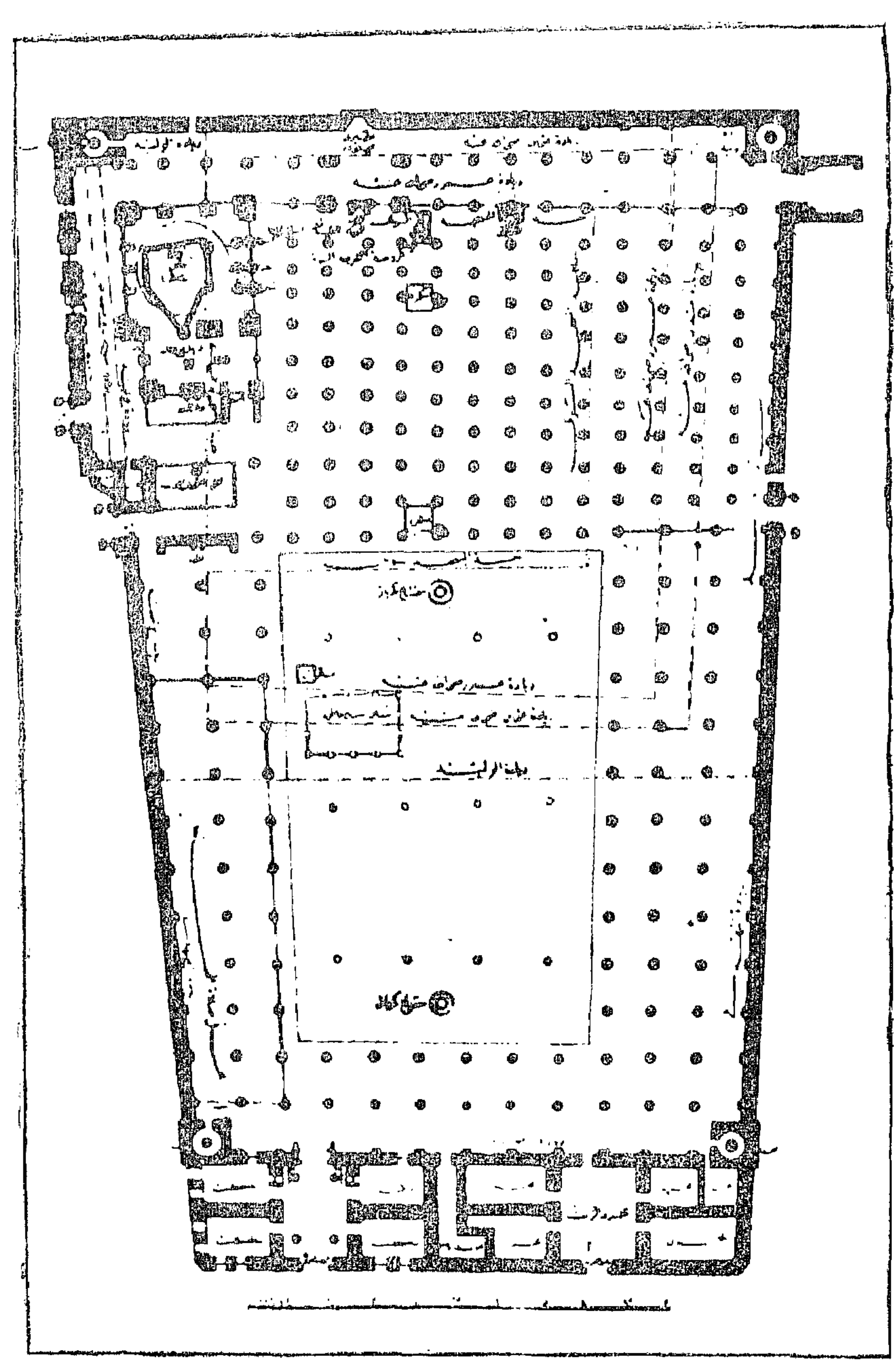
ذكر ابن جبير أنه كان بالمسجد حينذاك بيت للصلاة يشمل خمسة أساكيب ، وفيه خمسة صفوف من الأعمدة بكل منها سبعة عشر عمودا ، وله مؤخر فيه مثل هذا العدد من الأساكيب والأعمدة ، وأنه كان له صحن تحف به مجنبتان ، بالشرقية منها ثلاثة أروقة ، وبالغربية أربعة . وكانت عدد سواريه ٢٩٠ ، « وهى أعمدة متصلة بالسماك ، أى السقف ، دون قسى تنعطف عليها ، فكأنها دعائم قوائم ، وهى من حجر منحوت قطعا قطعا ، وململمة ، توضع أنثى فى ذكر ، ويفرغ بينها الرصاص المذاب . إلى أن تتصل عمودا قائما ، وتكسى بغلالة جيار ، ويبالغ فى صقلها ودلكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض » (٢) .

احتفظ المسجد النبوى إذن ، حتى اليوم . بنظامه وتخطيطه على عهد المهدى ، ولكنه جدد فى السنة التالية لاحتراقه ، أى فى سنة ٦٥٥ (١٢٥٧م) وعمر فى سنة ٧٠٥ (١٣٠٥ م) ، وزيدت أساكيب بيت الصلاة أسكوبين ، وجدد فى سنوات ٨٣١ (١٤٢٧ م) و ٨٥٣ (١٤٤٩ م) و ٨٧٩ (١٤٧٤م). واحترق مرة ثانية فى سنة ٨٨٦ (١٤٨١ م) ، ثم أعيد بناؤه فى تلك السنة ، فى عهد الأشرف قايتباى ، سلطان مصر . وزيد فى عرضه قليلا فى تلك

---

(١) ابن جبير ، « رحلة » ، صفحة ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق . وقد أوضح السمهودى فى صفحة ٤٨٥ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » ، أن جملة أساطين المسجد ، أى أعمدته ، ٢٩٦ عمودا ، كما ذكر ابن زبالة وابن النجار ، وأنه لا خلاف بين هذا العدد وبين ما ذكره ابن جبير ، « لأن ابن جبير لم يعتبر الأساطين الست التى فى جدار القبر الشريف » ، وأن الخلاف يقع فى عمود واحد فقط ، إذ أن صحة جملة عدد الأعمدة هو ٢٩٥ عمودا . وكذلك أضاف السمهودى إلى وصف ابن جبير ما سبق ان ذكرته فى الحاشية رقم (٣) ، صفحة ١٧٧ فيما سبق ، نقلا عن ابن النجار ، من أنه كانت تحيط بالصحن بوائك جملتها ستون بائكة .



شكل (٧٥) — رسم تخطيطى للمسجد النبوى فى مستهل القرن العشرين
(نقلا عن إبراهيم رفعت) .

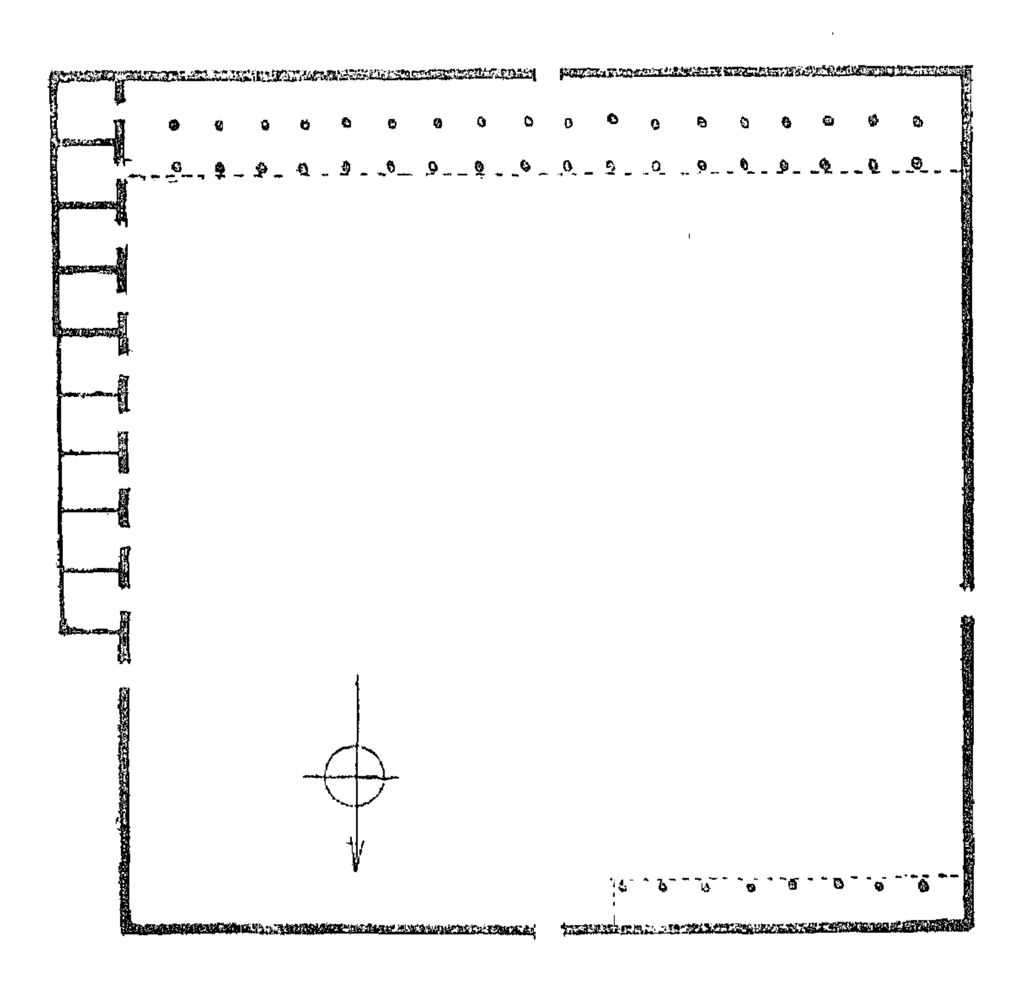
السنة، « إذ خرجوا بجدار المسجد من الجهة الشرقية نحو ذراعين وربعا » (١).
وعمر فى سنة ٩٨٠ (١٥٧٢ م) وفى سنة ١٢٣٣ (١٨١٧ م) ، وجرت
بالمسجد عمارة كبيرة ، فيما بين سنتى ١٢٦٥ و ١٢٧٧ (١٨٤٨ و ١٨٥٩)
وفيها « خرجوا بالجدار الشرقى مرة أخرى خمسة أذرع وربعا » (٢).
فأصبحت حدود المسجد الحالية ، كما يتضح من شكل (٧٥) ، تمتد ٨٨
مترا جنوبا ، و٦٥ مترا شمالا ، و ١٣٨ مترا غربا ، ومثلها تقريبا شرقا. ومن
هذا الطول ١٣ مترا أضيفت فى العمارة الأخيرة . وإذا حولت هذه الأرقام
إلى ما يعادلها من أذرعة ، فإنها تقترب كثيرا من الأرقام التى سبق أن استخلصتها
من روايات المؤرخين المتقدمين (٣).

— ٦ —

محاولات لرسم تخطيط المسجد النبوى

حاول بعض المشتغلين بالآثار الأسلامية أن يرسموا صورة لتخطيط
مسجد المدينة فى عهد الرسول . فتصوره (كريسويل) ، شكل (٧٦) بيتا
من تسع حجر ، كل واحدة منها مربعة لا يتعدى ضلعها ثلاثة أمتار ،
أو ستة أذرع ، صفت الواحدة بجوار الأخرى ، ولكل منها باب ، ينفذ
البابان الأولان منها إلى ظلة ، وتنفذ الأبواب الأخر إلى رحبة واسعة ،
أعدت فى ركنها الشمالى الغربى ظلة أخرى صغيرة ، تعبر عن منزل أهل
الصفة . وجعلت الظلة الأولى ، فى هذا الرسم ، فسحة طويلة ، عرضها
عشرة أذرع ، وطولها مائة ، يمتد فيها صفان من جذوع النخل بكل صف
ثمانية عشر جذعا (٤).

(١) إبراهيم رفعت ، « مرآة الحرمين » ، جزء أول ، صفحة ٤٦٤ .
(٢) المرجع السابق ، صفحة ٤٦٦ .
(٣) طول جدار القبلة ١٧٠ ذراعا ، وطول جدار المؤخر ١٣٥ ذراعا ، وطول كل من الجدارين الشرقى والغربى ٢٦٥ ذراعا .
(٤) صفحة ٥ ، شكل (١) ، من الجزء الأول من كتابه «العمارة الاسلامية الأولى».



شكل (٧٦) — صورة من رسم تخيله (كريسويل) لتخطيط المسجد النبوى فى عهد الرسول .

وقد أهمل (كريسويل) روايات المؤرخين ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، أو لعله تجاهلها ، لأنه لا يعترف باقامة مسجد جامع للصلاة فى عهد الرسول (١) . وقد أخطأ (كريسويل) أخطاء فاحشة فى هذا الرسم ، وجانب الحقائق جميعا ، حتى فى تحديد مقاسات جدران ذلك البناء الذى

(١) فندت ادعاءات (كريسويل) هذه ، واثبت مجافاتها للحقائق التاريخية والشعائر الدينية ، وذلك فى كتاب « المسجد الجامع بالقيروان » ، من صفحة ٤٠ إلى ٤٦ .

وصفه ببيت محمد ، إذ جعل كل ضلع من أضلاعه يعادل مائة ذراع ، معتمدا على رواية واحدة ، دون تمحيص لأقوال المؤرخين . ولهذا فإن التخطيط الذى رسمه (كريسويل) لا يستند على الحقائق التاريخية ، وهو من نسج الخيال (١) .

وحاول (بوتى) أن يرسم شكلا آخر للمسجد النبوى فى عهد الرسول ، شكل (٧٧) ، فلم يكن أكثر توفيقا من زميله (٢) ، إذ رسم حدود المسجد المربعة مختلفة الشكل ، متعرجة الأضلاع . وكان هذا المؤلف يعتقد

(١) هذا فوق أن (كريسويل) جعل حجر زوجات النبى صفا واحدا شرق المسجد ، وكانت منها بيوت فى شماليه . ينظر السمهودى ، « وفاء الوفى » الجزء الاول ، صفحة ٣٢٩ وما يليها .

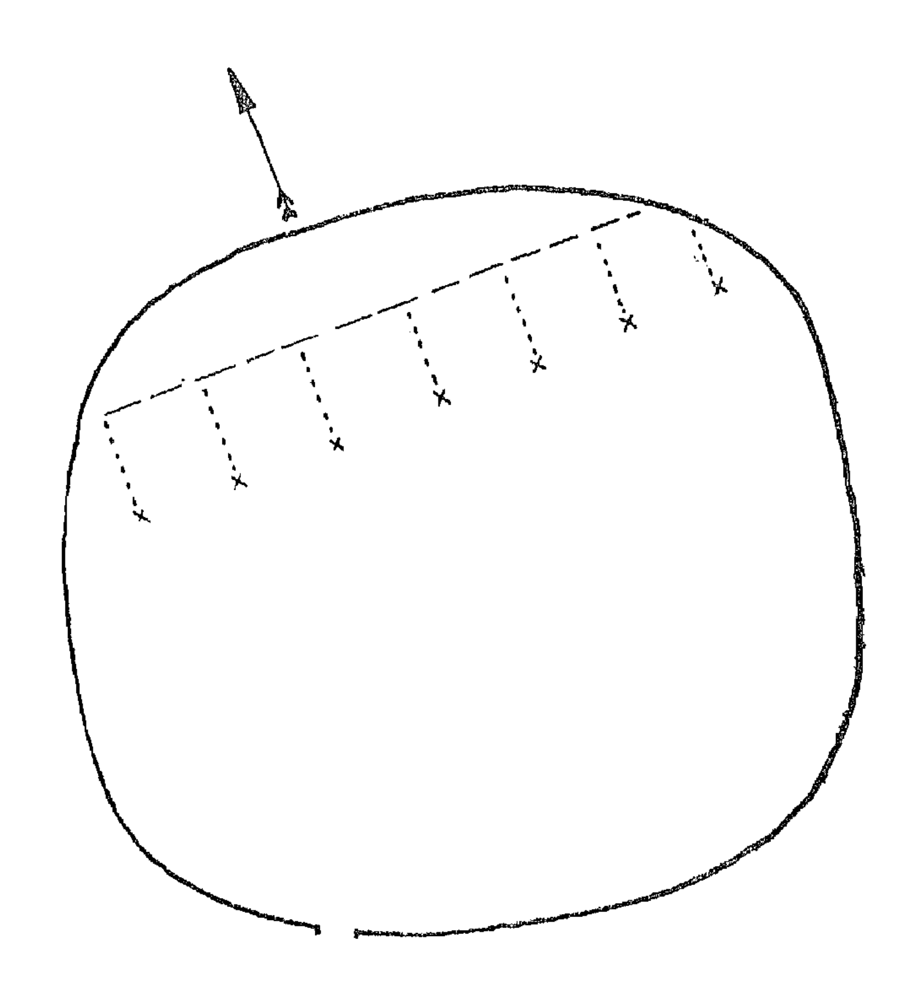
هذا وقد نشر محمود عكوش مقالا باللغة الفرنسية ، ظهر فى سنة ١٩٤٠ ، انتقد فيه انتقادا شديدا رسم (كريسويل) وادعاءاته ، وأورد كثيرا من المستندات والحقائق التى سبق لى أن نشرتها فى كتابى « المسجد الجامع بالقيروان» ، ينظر محمود عكوش :

Conrtibution à une étude des Origines de l'Architecture Musulmane, La Grande Mosquée de Médine, Mélanges Maspero, pp. 377 - 410, Tome LXVIII. Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, 1940.

كما أن (سوفاجيه) نشر فى سنة ١٩٤٧ كتابه عن « مسجد المدينة الأموى »، وانتقد فيه ، فى صفحات ٨ و ٩ و ٩٢ ، انتقادا شديدا البحث الذى كتبه (كريسويل) عن مسجد الرسول بالمدينة ، وأوضح أن (كريسويل) استند فى هذا البحث إلى روايات غير موثوق بصحتها ، وأن بعض هذه الروايات حديثة العهد نسبيا فلا يعتد بها ، أو هى ناقصة مقتضبة ، فضلا عن أن (كريسويل) لم يحلل المعلومات التاريخية التى كانت بين يديه تحليلا وافيا .

J. Sauvaget : La Mosquée Omeyyade de Médine, Paris, 1947.

(٢) صفحة ٩٥ ، شكل ١ ، من مقال (بوتى) ، « تطور شكل التاء فى المساجد » . Edmond Pauty : L'Evolution du Dispnsitif en T. dans les Mosquées à portiques, Bulletin d'Etudes Orientales, Institut Français de Damas, Tome II. pp. 91 - 124.



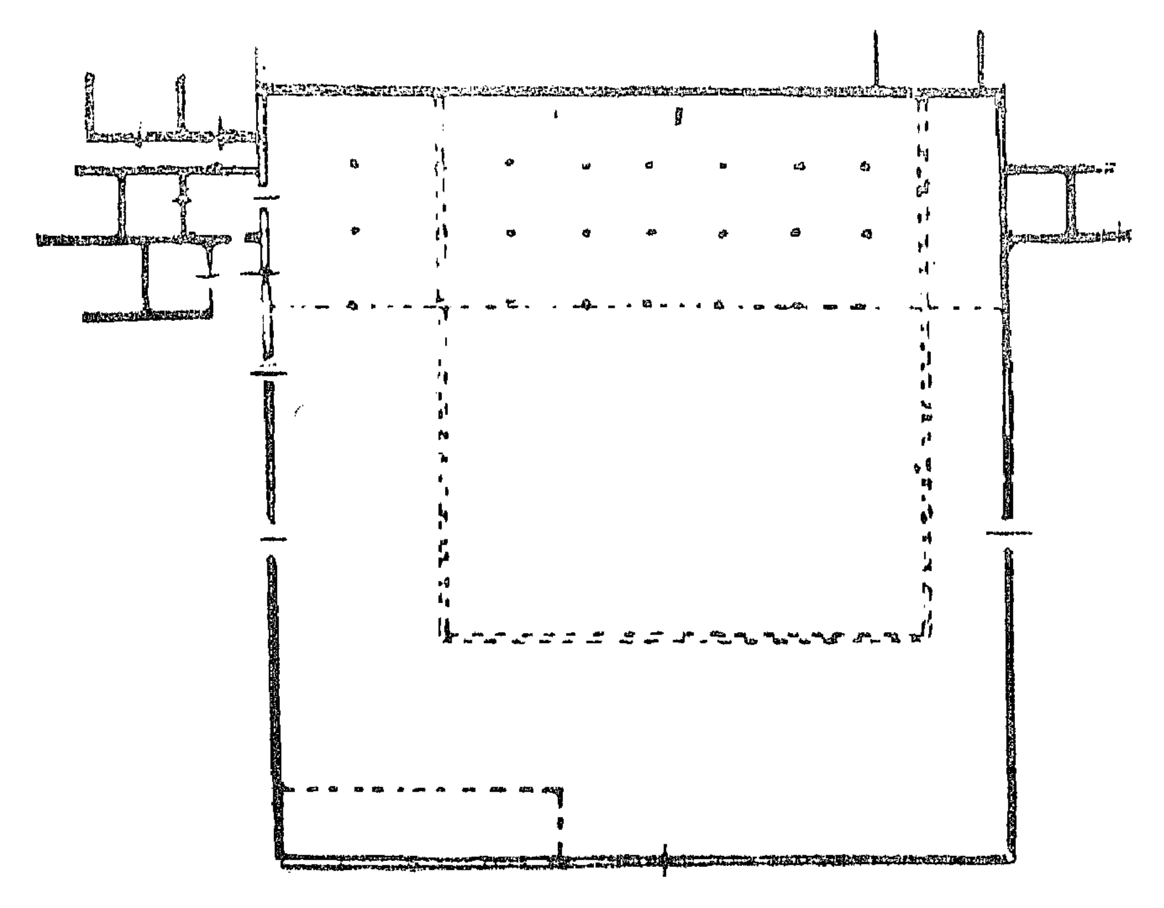
شكل (٧٧) — صورة من رسم تخيله (بوتى) لتخطيط المسجد النبوى الأول .

أن الأعراب كانوا ، فى عهد الرسول ، عاجزين عن تخطيط المربع تخطيطا سليما ؛ ومع ذلك فانه جعل للقبلة جدارا مستقيما فى داخل المربع المتعرج ، وجعل أمامها ظلة ، وجعل للمسجد بابا واحدا فى مؤخره ، وكانت القبلة متجهة إلى بيت المقدس . ولا يستند مشروع (بوتى) إلى الحقائق التاريخية ، ولهذا فإنه لا يعدو أن يكون أيضا من نسج الخيال .

وأخيرا وضع محمود عكوش رسما تخطيطيا ثالثا للمسجد النبوى فى عهد الرسول وحجر زوجاته (١) ، شكل (٧٨) . وهذا الرسم مصغر غير

---

(١) محمود عكوش ، صفحة ٣٨٨ ، شكل (٣) من المقال المشار اليه فى حاشية سابقة .



شكل (٧٨) — صورة من الرسم التخطيطي لمسجد الرسول
(نقلا عن محمود عكوش) .

واضح المعالم . وهو فوق هذا يشتمل على أربعة أخطاء : الخطأ الأول ، أنه جعل لأهل الصفة ظلة صغيرة محدودة فى ركن شمالى المسجد ، فى حين أن المعروف أنه كان للمسجد مؤخر ، هو بيت صلاته الأول الذى كان متجها إلى بيت المقدس وأن ظلته كانت تمتد من المشرق إلى المغرب ، وأن أهل الصفة كان لهم موضع من هذه الظلة . والخطأ الثانى أنه جعل حدود المسجد ، بعد زيادته الأولى ، مائة ذراع ، وقد أوضحت أنها تسعون ذراعا من الشرق إلى الغرب ، لا مائة (١) ، وكان مائة ذراع من القبلة إلى الشام . والخطأ الثالث ، أنه جعل زيادة الرسول للمسجد قدر أسطوانتين

(١) كان مقاس جدار القبلة من حد الحجرة الشريفة ١٤٣ ذراعا ، كما ذكره السمهودى وحققه فى « وفاء الوفى » ، الجزء الأول ، صفحة ٣٤٣ . يسقط منها ٣٠ ذراعا ، زيادة عمر ، و ١٠ أذرعة زيادة عثمان ، و ١٠ أذرعة زيادة الوليد ، فيتبقى ٩٠ ذراعا . تنظر الحاشية رقم (٣) ، صفحة ١٧٥ فيما سبق .

فى شرقيه ، وأسطوانة فى غربيه ، وكانت الزيادة عكس ذلك ، « فى شرقيه بمقدار عشرة أذرع ، أو أسطوانة ، وفى غربيه بمقدار عشرين ذراعا ، أو أسطوانتين »(١) . والخطأ الرابع فى رسم (عكوش) أنه فتح أبواب المسجد الثلاثة فى غير مواضعها منه ، وهى ما زالت محتفظة بهذه المواضع إلى اليوم ، كما يتضح من الأشكال (٧٥ و ٨٠ و ٨٢ و٨٣) .

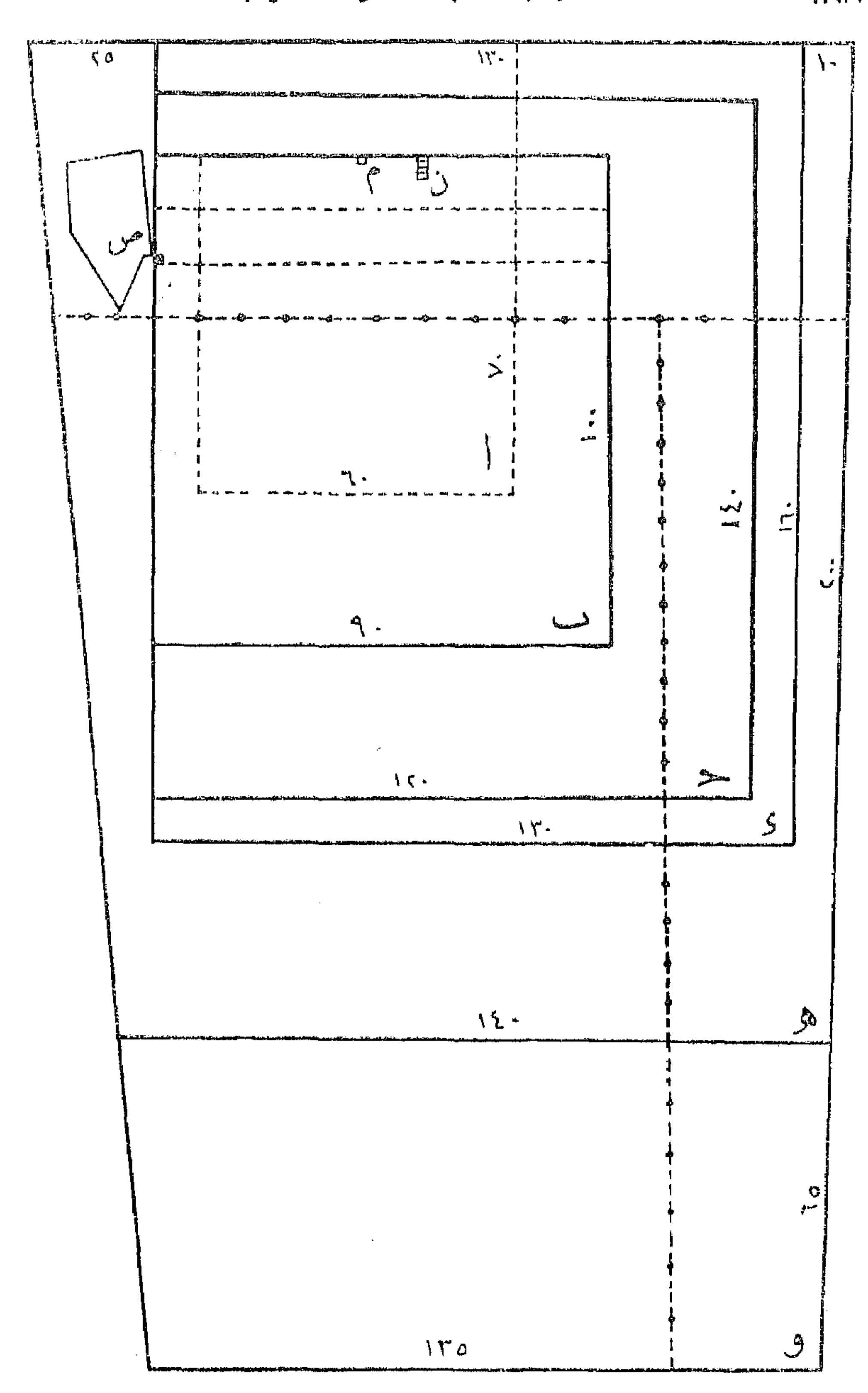
وإزاء هذه المحاولات الفاشلة أو الناقصة ، آثرت أن أرسم مشروعا جديدا لتخطيط المسجد النبوى فى عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم . وقد تطلب هذا أن أبدأ برسم حدود المسجد وزياداته المتعاقبة متتبعا روايات المؤرخين ، بعد تناولها بالتدقيق والمواجهة والتمحيص ، شكل (٧٩) . وفى هذا الرسم تسجيل للنتائج التى أوردتها فى الصفحات السابقة .

ويظهر فى الرسم الذى أنشره لتخطيط مسجد الرسول ، بعد تحويل قبلته إلى الكعبة المكرمة وزيادته الأولى فى السنة السابعة من الهجرة (٦٢٨م) ، شكل(٨٠) أن بيت الصلاة فيه كان ينقسم إلى ثلاثة أساكيب ، بكل صف منها تسعة من جذوع النخل . إذ ذكر السمهودى أنه كان بالمسجد على عهد الرسول خمسة أساطين عن يسار المنبر وأربعة عن يمينه (٢) . وقد رأينا ان جميع البناة فى العصور المتتالية احتفظوا بمواضع الأساطين الأولى فى مسجد الرسول ، وأبقوا محرابه ومنبره فى موضعهما منه . وكذلك احتفظوا بمواضع الأبواب الثلاثة التى كانت بذلك المسجد ، ومازالت تعرف بأسمائها ، وهى باب جبريل ، وسط الجدار الشرقى ، وباب النساء ، فى شمالى هذا الجدار ، يقابله باب الرحمة فى الجدار الغربى .

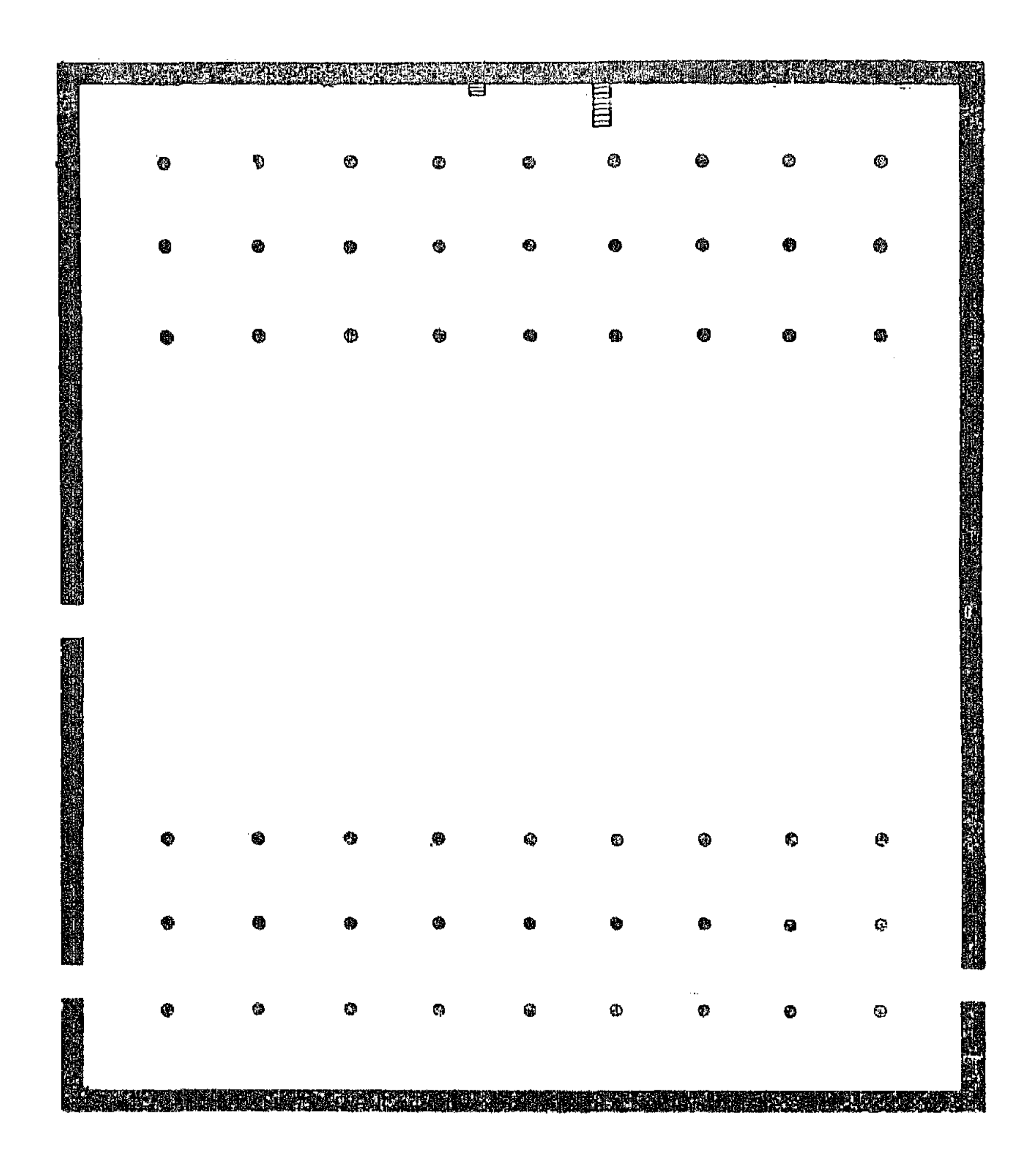
---

(١) ينظر ما قبله ، صفحة (١٧١) ، ويراجع ما سجله (السمهودى) فى « وفاء الوفى » ، من صفحة ٢٤٢ إلى ٢٥٦ من الجزء الأول .

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٢٥٢ وما يليها . وقد احتفظت لبيت الصلاة بثلاثة أساكيب ، وهو أمر افتراضى ، دفعنى اليه أن أحدا من المؤرخين لم يوضحه ، وانه كان بالمسجد الأول ثلاثة أساكيب فى الظلة التى كانت متجهة إلى القدس ، كما جاء فى صفحة ١٦٤ من الجزء الأول من كتاب « مرآة الحرمين » لمؤلفه ابراهيم رفعت ، نقلا عن رواية قديمة . والمعروف أن صحن المسجد كان فسيحا ، وزيادة عدد الأساكيب فى الظلتين عن العدد الذى افترضته يحد من اتساع الصحن .

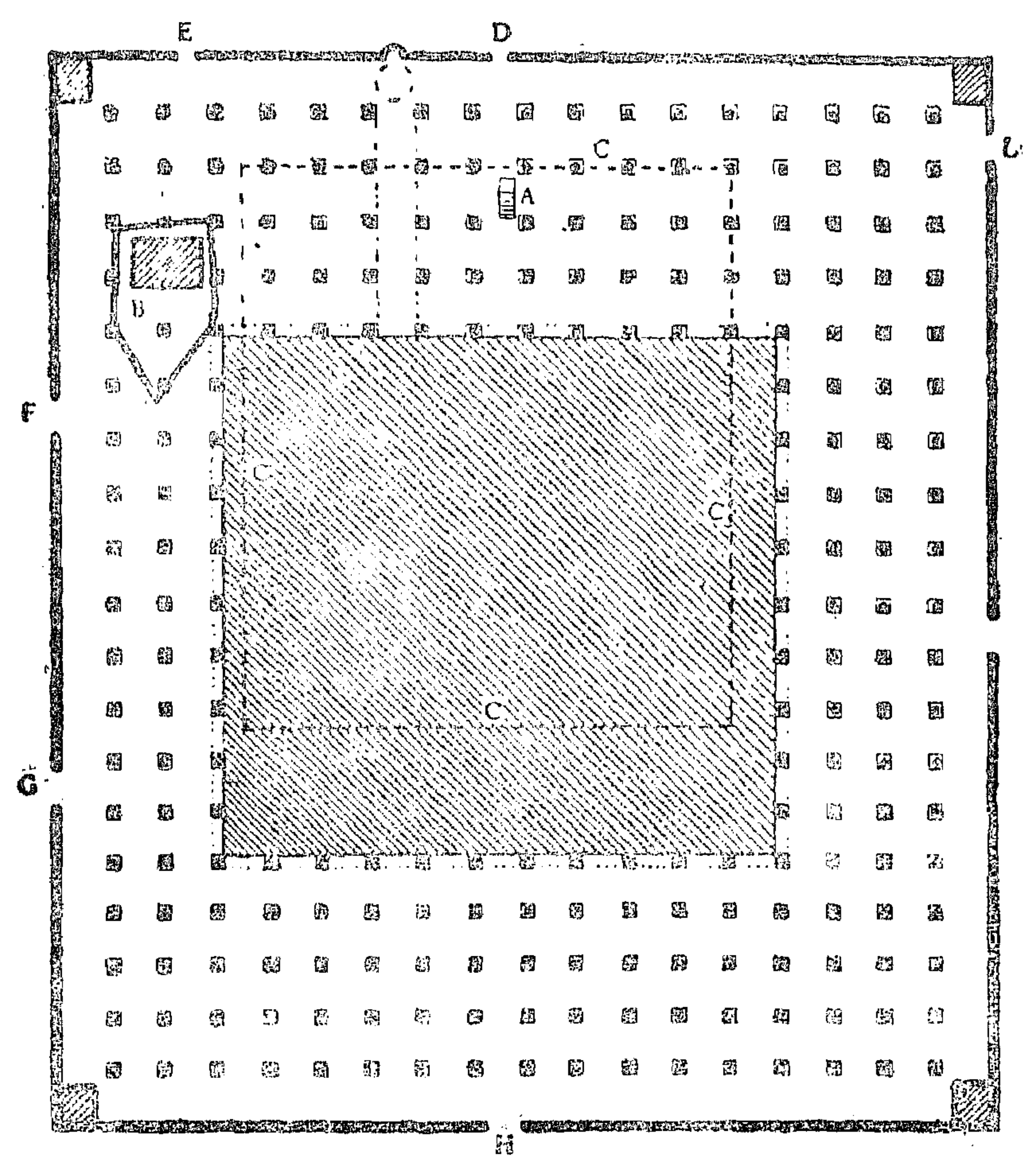


شكل (٧٩) — رسم يبين مراحل زيادات المسجد النبوى بالمدينة منذ إنشائه ،
(من تصميم المؤلف) .



شكل (٨٠) — مشروع رسم تخطيطى للمسجد النبوى فى عهد الرسول ، (من تصميم المؤلف) .

هذه محاولة أولى ، أعترف أن جزءا منها افتراضى ، وقد رأيت أن أجرى محاولة ثانية لرسم تخطيط المسجد النبوى فى عهد الوليد ، بعد زيادة عمر بن عبد العزيز له . وهى ليست المحاولة الأولى ، فقد سبقنى (سوفاجيه)



شكل (٨١) — صورة من الرسم التخطيطي الذى وضعه (سوفاجيه) للمسجد النبوى فى عهد الوليد .

إلى هذه المحاولة فى سنة ١٩٤٧ ، ونشر رسما تخطيطيا لما أسماه المسجد الأموى بالمدينة ، شكل (٨١) (١) .

وأشهد أن (سوفاجيه) قد بذل مجهودا كبيرا فى هذا البحث ، ودرس جميع المراجع التاريخية التى تناولت موضوع مسجد الرسول ، وحللها

(١) شكل (ه) ، مقابل صفحة ٢١ ، من كتاب (سوفاجيه) المشار اليه فيما سبق ، « مسجد المدينة الأموى » .

تحليلا دقيقاً (١) . وقد اقتنع هذا المؤلف بما أكده المؤرخون المتقدمون من أن مسجد الرسول قد احتفظ بنظام تخطيطه الأول ، سواء فى عهد عثمان ، أو فى العهود التالية ، «إذ كانت هنالك دائما رغبة للاحتفاظ بالنظام العتيق» عند تجديد المسجد أو زيادته (٢) .

وأشهد كذلك أن محاولة (سوفاجيه) تكاد تطابق رواية المؤرخين ، وترسم صورة قريبة للحقيقة لتخطيط المسجد النبوى على عهد الوليد . وقد صاحب (سوفاجيه) التوفيق فى رسم بيت الصلاة على حقيقة ما كان عليه : طول جدار القبلة فيه ١٦٥ ذراعا ، وفيه خمسة أساكيب تحددها خمسة صفوف من الأعمدة بكل صف منها سبعة عشر عمودا . ويطل بيت الصلاة على الصحن بواجهة فيها إحدى عشرة بائكة . وعلى جانبي الصحن مجنبتان ، بالشرقية ثلاثة أروقة ، وبالغربية أربعة . غير أن التوفيق جانب (سوفاجيه) فيما عدا ذلك ، ووقعت فى رسمه أخطاء ، تعمد (سوفاجيه) بعضها ، ولم يتعمد البعض الآخر .

أما الخطأ الذى تعمده ، فهو أنه حدد بلاطة المحراب فى بيت الصلاة ، وهى السابعة مما يلى الشرق ، بحائزين ، وادعى أنها «مقصورة» . ولم تكن المقصورة كذلك ، لا فى عهد الوليد ، ولا فى أى عهد من العهود ، وسأعود إلى مناقشة هذا الادعاء فى الفصل التاسع من هذا المدخل. كما أنه تعمد أن يفتح بابا فى منتصف جدار مؤخر المسجد، ولم يكن به باب فى عهد الوليد .

أما الأخطاء التى لم يتعمدها ، ووقعت منه فيما أعتقد ، عن سوء فهم لرواية السمهودى ، فهى خمسة :

الخطأ الأول أن (سوفاجيه) جعل طول الجدار الغربى ١٩٠ ذراعا ،

---

(١) أورد (سوفاجيه) فى صفحات ٣٩ وما يليها من كتابه المشار اليه ٩٠ مرجعا من المراجع التاريخية العربية . وهى مراجع كلها معروفة ، ولم يخرج منها بجديد عما سجله ابن النجار والسمهودى فى كتابيها ، وقد اعترف هو نفسه بذلك فى صفحتى ٣٩ و ٤٠ ، وقرر فى صفحة ٤١ أن كتاب «خلاصة الوفى» للسمهودى كان مرجعه الرئيسى .

(٢) (سوفاجيه) ، «مسجد المدينة الأموى» ، صفحات ١١٧ و ١١٨ و ١٢٠ .

والمتفق عليه أنه كان مائتين ، وقد استقر الرأى على هذا الذرع ، كما أوضحت فى صفحة سابقة (١) .

والخطأ الثانى أنه جعل طول جدار المؤخر ١٦٥ ذراعا مثل طول جدار القبلة ، وهو خطأ بليغ إذ أن السمهودى ، وهو المرجع المفضل عند (سوفاجيه) قد حدد جدار المؤخر بما يزيد قليلا عن ١٣٥ ذراعا ، وهو بالتحديد ١٣٧ ذراعا (٢) .

والخطأ الثالث كان نتيجة للخطأ الثانى ، إذ تبعه أن (سوفاجيه) جعل الجدار الشرقى عموديا على جدار القبلة ، وهو ، منذ زيادة الوليد ، وباعتراف (سوفاجيه) نفسه ، مائل إلى الغرب على هذا الجدار ، كما هو واضح فى الأشكال (٧٥ و ٧٩ و ٨٢) .

والخطأ الرابع أنه وضع الحجرة الشريفة ، وقبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فى موضع يقع شمالى موضعها بمقدار أسطوانة ، أو عشرة أذرع . إذ أن موضع الحجرة الشريفة بالنسبة لجدار القبلة لم يتغير منذ زيادة عثمان للمسجد . وقد حدد المؤرخون جميعا هذا الموضع تحديدا دقيقا (٣) ، ومن ذلك ما ذكره صاحب « كتاب الاستبصار » من أن قبر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يقع فى « ثلث البلاط الأوسط من ناحية الشرق » ، أى الأسكوب الأوسط (٤) . وكذلك أجمع المؤرخون على أن « مربعة القبر هى الرابعة مما يلى جدار القبلة » (٥) ، وقد جعلها (سوفاجيه) الخامسة . ثم إن المسافة الحالية بين جدار القبلة ومربعة « القبر » تساوى عشرين مترا ، أو ما يعادل أربعين ذراعا ، وتطابق ما ذكره السمهودى عن ابن زبالة ويحيى ،

(١) صفحة ١٧٦ فيما سبق ، حاشية (١) .

(٢) تنظر صفحة ١٧٦ فيما سبق ، والحاشية رقم (٢) .

(٣) ينظر الفصل التاسع عشر إلى الفصل الثالث والعشرين من « وفاء الوفى » ، صفحات ٣٨٣ إلى ٤٠٩ من الجزء الأول .

(٤) « كتاب الاستبصار » ، صفحة ٣٨ ، وينظر كذلك ابن جبير ، «رحلة» ، صفحتا ١٧٥ و ١٧٦ .

(٥) تراجع صفحتا ١٧٧و١٧٩ فيما سبق والحاشيتان رقم (٣) فيهما .

وما ذكره جميع الرحالة والمؤرخين . وقد جعلها (سوفاجيه) خمسين ذراعا (١) .

وقد أوقع هذا الخطأ الرابع (سوفاجيه) فى خطأ خامس ، وذلك أنه حدد الجدار الشامى فى رسمه التخطيطى بعد أربع عشرة أسطوانة من مربعة القبر ، على غير ما حققها السمهودى ، كما أوضحت ذلك فيما سبق (٢) ؛ ثم إن (سوفاجيه) جعل مؤخر المسجد خمسة أروقة ، مثل بيت الصلاة ، وكان فى الواقع أربعة فقط . وكذلك جعل عدد أعمدة الصف الممتد من القبلة إلى الشام تسعة عشر عمودا ، بدلا من اثنين وعشرين (٣) . هذا من جهة ، وقد تبع ذلك من جهة أخرى ، أن عدد الأسطوانات المقابلة للصحن على كل من جانبيه الشرقى والغربى نقص أربعة ، وأصبح فى رسم (سوفاجيه) تسع أسطوانات بدلا من ثلاث عشرة . وظهر من جراء ذلك فى هذا الرسم خطأ آخر ، وهو أن بوائك المجنبتين المطلة على الصحن أصبحت عشرا بدلا من أربع عشرة (٤) .

---

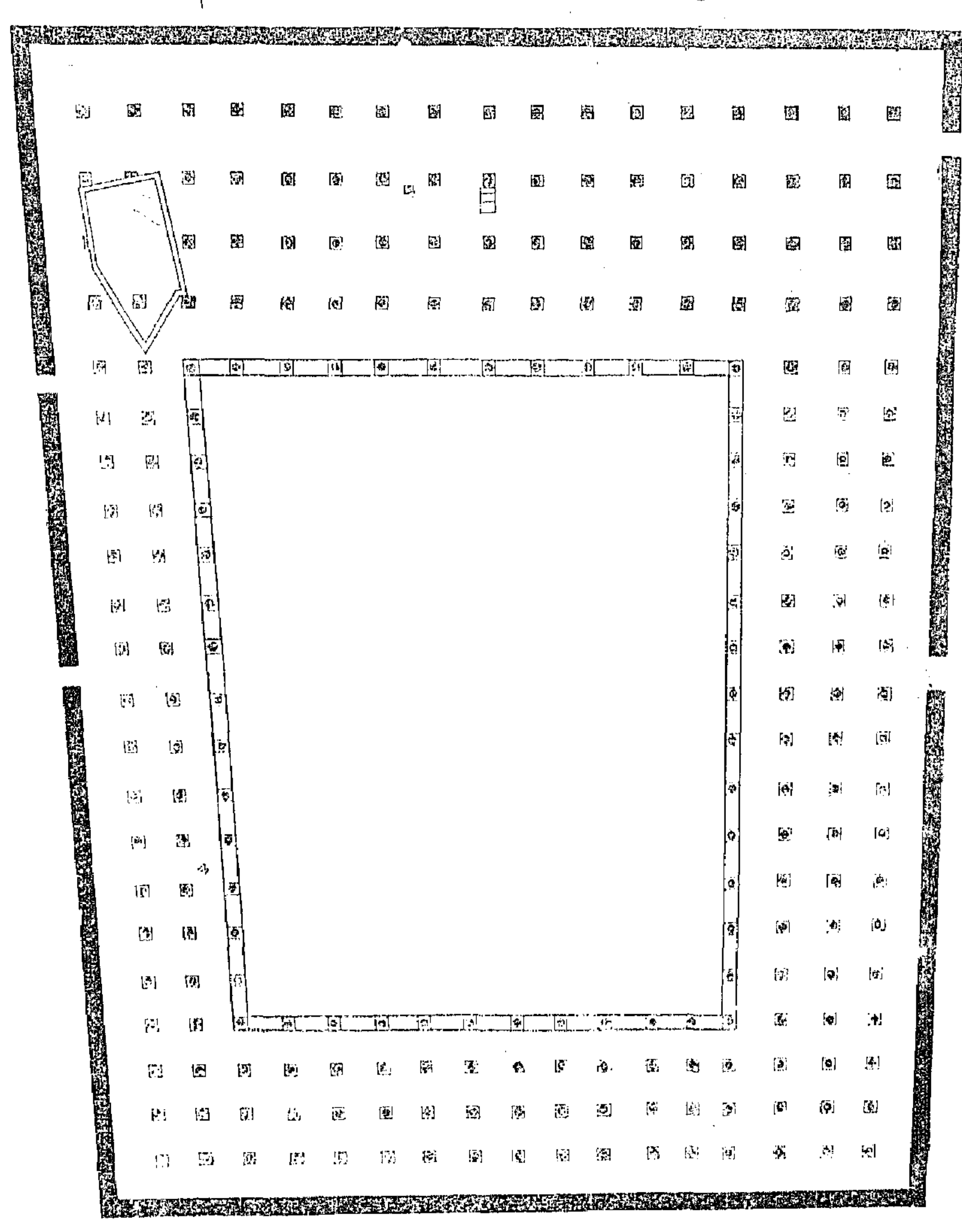
(١) وكذلك أخطأ (سوفاجيه) فى رسم جدار القبلة ، إذ فتح فى مواجهة الحجرة الشريفة ، ما يؤخذ من الرسم التخطيطى على أنه باب ، والقصد منه « خوخة عمر » ، وكانت شبه شباك ، مرتفعا «ثلاث درجات» عن أرضية المسجد ، ولم تكن تعتبر بابا فى المسجد ، تنظر صفحة ٣٨٥ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » للسمهودى . أما باب « الامام » الذى إلى يمين المستقبل للمحراب ، فأغلب الظن أنه سد فى عهد الوليد ، وكان بجدار مؤخر المسجد بابان فى عهد عثمان سدا كذلك فى زيادة الوليد . وذكر ابن جبير انه كان بالمسجد تسعة عشر بابا بقى مفتوحا منها فى عهده أربعة ، منها اثنان فى الجدار الشرقى ، وهما بابا جبريل والنساء (وقد سماه ابن جبير باب الرجاء) ، واثنان فى الجدار الغربى وهما بابا الرحمة والسلام (وقد سماه ابن جبير باب الخشية) ، أما الأبواب الباقية فقد سدت . تنظر صفحة ١٨٠ من « رحلة » ابن جبير . وفيما عدا الأبواب الستة التى أشرت اليها فى صفحة ١٧٣ السابقة ، فان المؤرخين لم يحددوا قط موضع الأبواب الأخرى ، أو تواريخها ، وقد اعترف (سوفاجيه) فى صفحة (٧٦) من كتابه « المسجد الأموى بالمدينة » باستحالة تحديد عدد الأبواب ومواضعها .

(٢) تنظر صفحة ١٧٩ فيما سبق ، والحاشية رقم (٥) فى الصفحة السابقة .

(٣) تنظر الحاشية رقم (٣) فى صفحة ١٧٧ .

(٤) تنظر صفحة ١٧٨ فيما سبق ، والحواشى رقم (٣) ، صفحة ١٧٧ و (١) و (٢) ، صفحة ١٨٠ .

لكل هذه الأسباب يتعين تصحيح الرسم الذى نشره (سوفاجيه). وقد راعيت فى صياغة الرسم الجديد الذى أقدمه عن تخطيط المسجد النبوى فى عهد الوليد تحاشى الأخطاء التى ظهرت فى ذلك الرسم . وحرصت



شكل (٨٢) — مشروع رسم تخطيطى للمسجد النبوى فى عهد الوليد ، (من تصميم المؤلف) .

على أن تظهر فى رسمى ، شكل (٨٢) ، جميع العناصر التى استخلصتها من رواية المؤرخين المتقدمين ، والتى أوضحتها فى الصفحات السابقة (١) :

وأقدم كذلك ، فى الصفحة التالية ، محاولة أخرى لرسم تخطيط المسجد النبوى على ما كان عليه فى سنة ١٦٥ (٧٨٣م) ، بعد زيادة المهدى له ، وإعادة بنائه . وقد اعتمدت فى صياغة هذا الرسم ، شكل (٨٣) ، على كتاب السمهودى من جهة ، وعلى وصف ابن جبير للمسجد من جهة أخرى ، بحيث يطابق تخطيط المسجد فى هذا الرسم ما شاهده ذلك الرحالة وسجله ، من حيث مقاساته وعدد أساكيبه ، وأروقة مجنباته ، وجملة عمده ، وأبوابه (٢) .

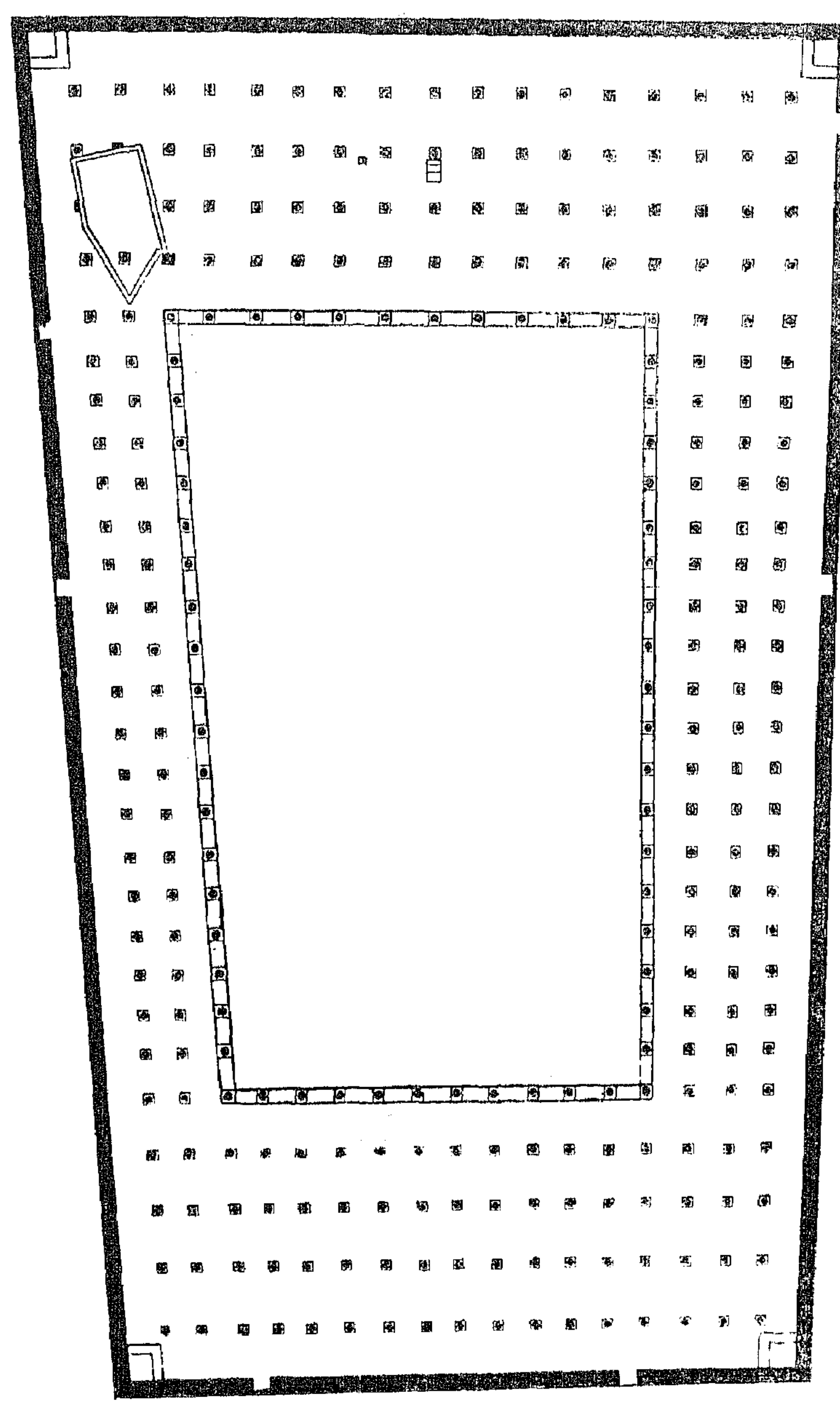
ويتضح من هذه الرسوم التخطيطية أن المسجد النبوى قد احتفظ بعناصره الرئيسية التى اتصف بها منذ إنشائه فى عهد الرسول . فهو اليوم صورة لما كان عليه فى عهد المهدى والوليد (٣) . وكان فى عهد هذين الخليفتين صورة لما كان عليه فى عهد الرسول . وسنرى فى الفصلين التاليين أن المساجد الجامعة التى أقيمت بعد المسجد النبوى ، فى البلاد التى فتحها العرب ، وفى المدن التى مصروها أو أنشأوها ، قد اتبعت جميعها نظام المسجد الجامع الذى أقامه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فى المدينة ، غداة هجرته إليه ، وسنرى أن أنظمتها التخطيطية تؤيد المحاولات التى سجلتها بالرسم فى الأشكال (٨٠ و ٨٢ و ٨٣) لنظام هذا المسجد التخطيطى .

---

(١) تنظر صفحات ١٧٤ إلى ١٧٨ فيما سبق ، وفيها وصف للمسجد النبوى فى عهد الوليد .

(٢) تنظر الحاشية رقم ٣ ، صفحة ١٧٧ فيما سبق .

(٣) اعترف (سوفاجيه) فى صفحات ٤٨ و ٥٣ و ٦٧ من كتابه «مسجد المدينة الأموى» ، بأن هذا المسجد كان صورة للمسجد الذى أنشأه الرسول ، وظل المسجد محتفظا بنظام تخطيطه حتى سنة ٨٨٦ (١٤٨١م) ، وهى السنة التى احترق فيها للمرة الثانية .



شكل (٨٣) — مشروع رسم تخطيطى للمسجد النبوى فى عهد المهدى ،
(من تصميم المؤلف) .

الفصل السابع

المساجد الجامعة فى المائة الأولى من الهجرة

تاريخها ونظم تخطيطها

١ — المساجد الجامعة الأولى .
٢ — مساجد العصر الأموى فى الشام والعراق .
٣ — مساجد من نهاية العصر الأموى .

الفصل السابع

المساجد الجامعة فى المائة الأولى من الهجرة

— ١ —

المساجد الجامعة الأولى

مسجد البصرة (١٤ هـ - ٦٣٥ م)

كان مسجد البصرة أول مسجد أنشىء بعد الفتوحات العربية . وقد اندثر هذا المسجد ، ولم يكشف بعد عن أسس بنيانه وآثار تخطيطه . ولكنى آثرت أن أشير اليه ، وإلى وصف المؤرخين له ، لأن البصرة كانت أول مدينة أحدثت فى الاسلام (١) . قيل إنه لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة : اختار أرضا كثيرة القصبة ، فبنى بها مساكن أنزلها المسلمون ، وبنى مسجدا من قصب وذلك فى سنة ١٤ ، فيقال إنه تولى اختطاط المسجد بيده : ويقال اختطه محجن بن الأدرع البهزى من سليم ، ويقال اختطه نافع بن الحارث بن كلدة حين خط داره ، ويقال بل اختطه الأسود بن سريع التميمى ... وبنى عتبة دار الأمارة دون المسجد » (٢) .

وقيل إن المسجد كان حينذاك مختطا فحسب ولم يكن مبنيا . وإن أبا موسى الأشعرى هو الذى بناه ، وبنى « دار الأمارة باللبن وطين . وسقفها

---

(١) يراجع المسعودى ، « التنبيه والاشراف » ، صفحتا ٣٥٧ و ٣٥٨ ، وابن قتيبة ، « كتاب المعارف » صفحتا ٢٧٩ و ٢٨٠ ، والبلاذرى ، « فتوح البلدان » ، صفحات ٣٤٦ إلى ٣٥١ و ٣٩٧ .

(٢) البلاذرى ، « فتوح البلدان » ، صفحة ٣٤٦ .

بالخشب ، وزاد فى المسجد » (١) . وزيد فى المسجد فى عهد معاوية بن أبى سفيان « زيادة كثيرة وبناه بالآجر والجص وسقفه بالساج »(٢) .

وكان بيت الصلاة حينذاك يضم خمسة أساكيب ، إذ أنه « لما بنى زياد المسجد جعل صفته المقدمة خمس سوارى » ، وكان ذلك سنة ٤٤ (٦٦٥ م) (٣) ، ويفهم من رواية البلاذرى أن المسجد أصبح مربعا فى عهد عبيد الله بن زياد ، إذ كان جانبه الشمالى « متزويا » ، لوجود دار فى زاوية منه ، فهدم عبيد الله « من تلك الدار ما سوى به تربيع المسجد » (٤) .

وزيد فى المسجد بعد ذلك مرتين ، مرة فى عهد الخليفة المهدى ، ومرة فى عهد هارون الرشيد (٥) ، وأدخلت فى عهدهما الدور المحيطة بالمسجد ودار الأمارة .

مسجد الكوفة (١٥هـ - ٦٣٦م)

كانت الكوفة ثانى مدينة أحدثت فى الأسلام ، والمعروف أن المسجد كان « أول شىء خط (فيها) وبنى حين عزموا على البناء » ، فاختطوه (٦) . قيل بناه سعد بن وقاص سنة ١٥ (٦٣٦ م) ، وقيل سنة ١٧ ، إذ « أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة ، فأعلم على موقعه » ، وهكذا كان السهم الأول موجها لتحديد جدار القبلة ، « ثم علا (الرجل) بسهم آخر قبل مهب الشمال ، وأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب ، وأعلم

(١) البلاذرى ، «فتوح البلدان» ، صفحة ٣٤٧ .
(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٣) المرجع السابق ، صفحة ٣٤٨ .
(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٥) المرجع السابق ، صفحة ٣٤٩ .
(٦) المرجع السابق ، صفحة ٢٧٥ .

على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب الصبا ، فأعلم على موقعه » (١) . ثم ترك « المسجد فى مربعة علوة من كل جوانبه ، وبنى ظلة فى مقدمه ليست لها مجنبات ولا مؤخرة » (٢) . ثم إن المغيرة بن شعبة وسع المسجد وبناه ، وقيل بل إن الذى بناه هو زياد « فأحكمه » ، و «كان زياد يقول أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى عشرة مائة » (٣) .

وأعيد بناء مسجد الكوفة فى عهد يزيد بن أبيه سنة ٥١ (٦٧٠ م) . وزار ابن جبير المسجد ، وذكر أنه كان له بيت للصلاة من خمسة « أبلطة » ، أى أساكيب ، وفى سائر جوانب الصحن « بلاطان » ، أى رواقان . وأضاف أن « هذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة من صم الحجارة ، المنحوتة قطعة على قطعة ، مفرغة بالرصاص ، ولا قسى عليها ، على الصفة التى (ذكرها) فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى فى نهاية الطول ، متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها » ، وأضاف إلى ذلك قوله : « فما أرى فى الأرض مسجدا أطول أعمدة منه ، ولا أعلى سقفا » (٤) . وأكد المقدسى وصف ابن جبير ، فذكر أن مسجد الكوفة قائم « على أساطين طوال من الحجارة الموصلة » ، وأنه « بهى حسن » (٥) .

وقد كشفت الحفائر التى أجريت أخيرا فى المسجد عن جدرانه العتيقة (٦) . واتضح انها أقيمت على مساحة مربعة الشكل تقريبا ، طول جدار القبلة فيها ١١٠ مترا ، وجدار المؤخر ١٠٩ مترا ، وطول كل من الجدارين الشرقى والغربى ١١٦ مترا . وقد أجرى (كريسويل) محاولتين اجتهاديتين لرسم شكل المسجد التخطيطى ، معتمدا على هذه المقاسات ،

(١) المرجع السابق ، صفحة ٢٧٦ .
(٢) الطبرى ، « تاريخ الرسل والملوك » ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٨٩ .
(٣) البلاذرى ، « فتوح البلدان » ، صفحة ٢٧٦ .
(٤) ابن جبير ، « رحلة » ، صفحتا ١٩٧ و ١٩٨ .
(٥) المقدسى ، « أحسن التقاسيم » ، صفحتا ١١٦ و ١١٧ .
(٦) « مسجد الكوفة » ، مطبوعات الآثار القديمة فى العراق ، سنة ١٩٤٠ .

شكل (٨٤) — رسم افتراضى لتخطيط مسجد الكوفة فى عهد يزيد بن أبيه ، سنة ٥١ (١٧٠ م) ؛ (من تصميم المؤلف) .

وعلى رواية المؤرخين ، المحاولة الأولى عن مسجد سعد بن وقاص ، والمحاولة الثانية عن مسجد يزيد بن أبيه (١) . ولم أر ضرورة لنقل هذين الشكلين ، لاعتراضى على تقسيم بيت الصلاة فى المسجد الأول إلى ٢٥ بلاطة ، وتقسيمه فى المسجد الثانى إلى ١٧ بلاطة ، وتحديد عرض هذا

(١) الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » ، صفحتا ١٥ و ١٦٩ ، شكل (٦) ، وصفحات ٣٦ إلى ٣٨ ، شكل (٨).

البيت فى المسجد الأول بعشرين مترا ، وفى المسجد الثانى بثلاثين . وأغلب الظن أن جوف بيت الصلاة فى مسجد يزيد بن أبيه كان عمقه خمسا وعشرين مترا ، أو ما يقرب من ذلك ، وأنه كان يشمل عشرين أو تسع عشرة بلاطة (١) . وهذا ما اتبعته فى تصميم الرسم الافتراضى لتخطيط مسجد الكوفة ، شكل (٨٤) . ولم يكن غريبا أن يكون مسجد الكوفة فسيحا ، إذ قيل إنه كان يتسع لأربعين ألفا ، فجعله يزيد بن أبيه يتسع لستين ألفا (٢) .

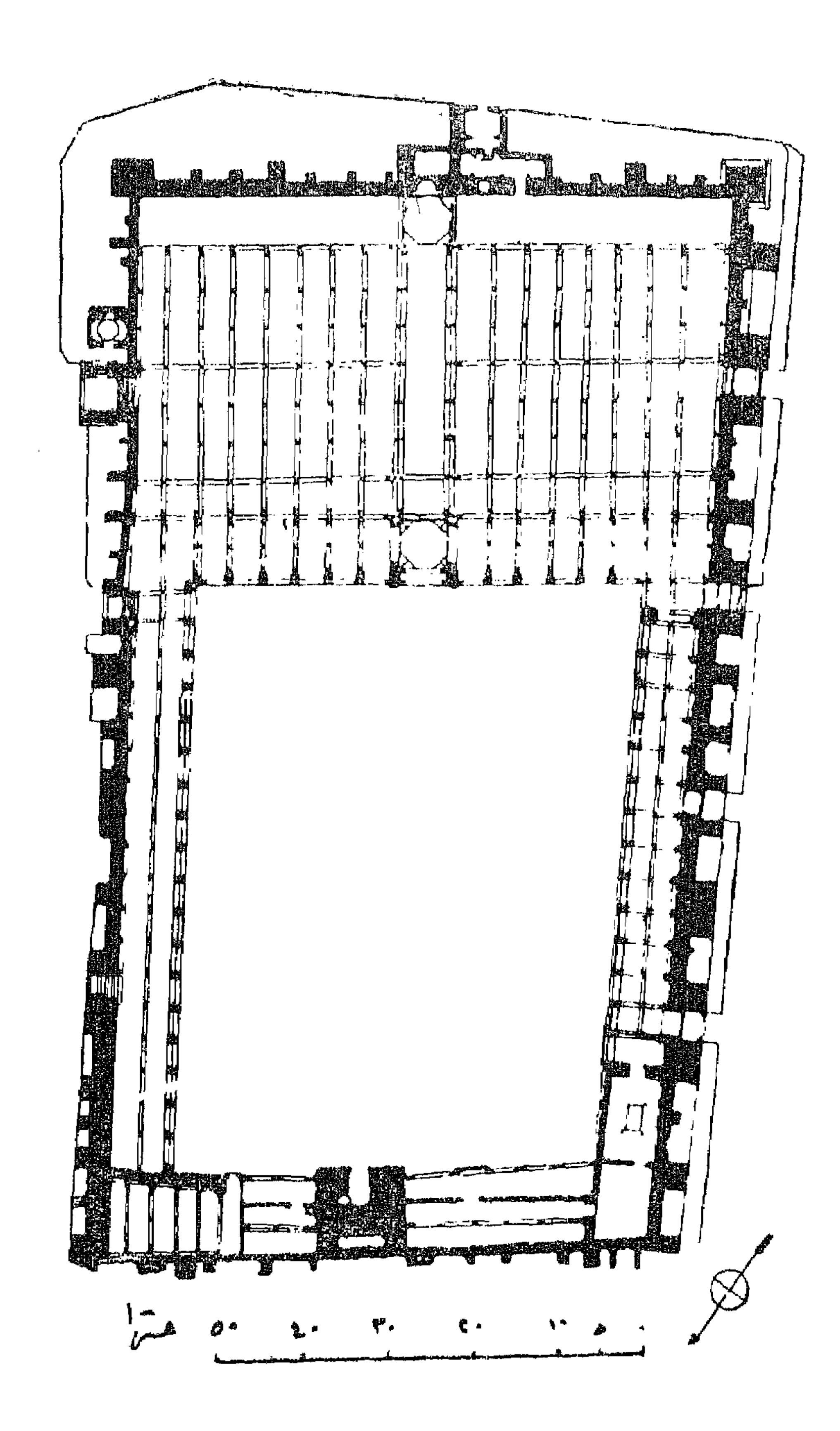
المسجد الجامع بالقيروان (٥٠ إلى ١٠٥هـ - ٦٧٠ إلى ٧٢٣م)

كانت الفسطاط ثالث مدينة أحدثت فى الأسلام ، بعد البصرة والكوفة ، وشيد عمرو بن العاص فيهـا مسجده سنة ٢١ (٦٤٢ م) ، وقد تحدثت بإسهاب فيما سبق عن هذا المسجد (٣) . وكانت القيروان رابع مدينة أحدثت فى الأسلام . بدأ عقبة بن نافع البناء فيها سنة ٥٠ (٦٧٠ م) ،

(١) كما هو الحال فى مسجد واسط ، كما سنرى فيما بعد ، وهو مسجد كان يبلغ جوف بيت الصلاة فيه ٣٦ مترا ، وكان جدار القبلة فيه يمتد ١٠٥ مترا ، مثل امتداده فى مسجد الكوفة .

(٢) ذكر ياقوت فى صفحة ٢٩٧ من الجزء السابع من « معجم البلدان » أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن وقاص « أن اختط موضع المسجد الجامع على عدة مقاتلتكم ، فخط على أربعين ألف انسان ، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف انسان ، وجاء بالآجر ، وجاء بأساطينه من الأهواز » .

(٣) أقيمت مساجد أخرى كثيرة قبل مسجد عمرو ، وقد اندثرت معالمها جميعا ، ومنها مسجد حماه الجامع الذى أقيم فى سنة ١٥ (٦٣٦م)، ولا يعرف بالتحقيق ما إذا كان المسجد الحالى قد أقيم على تخطيط المسجد العتيق ، وكان هذا التخطيط على كل حال مقيدا بوجود أبنية سابقة من العصر المسيحى والعصور القديمة . ومع ذلك فان الرسم الافتراضى الذى وضعه (سوفاجيه) لهذا المسجد يعبر إلى حد كبير عن نظام المساجد الأولى . ينظر شكل (٨) من كتابه « المسجد الأموى بالمدينة » ، وصفحات ١٠٣ إلى ١٠٨ .



شكل (٨٥) — المسجد الجامع بالقيروان — رسم تخطيطي لنظامه الحالي .

وانتهى البناء بعد ذلك بخمس سنوات . وكان أول ما اختط فى المدينه مسجدها الجامع (١) . وقد جدد المسجد مرة أيام حسان بن النعمان حوالى سنة ٨٠ (٦٩٤ م) ، وزاد فيه بعد ذلك بشر بن صفوان ، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك ، زيادة كبيرة فى سنة ١٠٥ (٧٢٣ م) . ثم جدد المسجد مرة ثالثة فى سنة ١٥٥ (٧٧٢ م) ، فى عهد يزيد بن حاتم ، ومرة رابعة قبيل سنة ٢٢١ (٨٣٦ م) ، فى عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب (٢). وأضاف الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب إلى المسجد فى سنة ٢٦١ (٨٧٥ م) الأسكوبين المطلين على الصحن من بيت الصلاة ، وقبة البهو التى تتوسطهما ، والمجنبات الثلاثة المحيطة بالصحن . وقد أجريت فى المسجد بعد ذلك إصلاحات عديدة لم تمس تخطيطه ونظامه الذى بقى محتفظا بمقاساته وصورته التى تمت له فى سنة ٢٦١ (٨٧٥ م) (٣) ، (شكل ٨٥) . ولنتتبع تطور تخطيط هذا المسجد فى المائتى سنة الأولى من عمره .

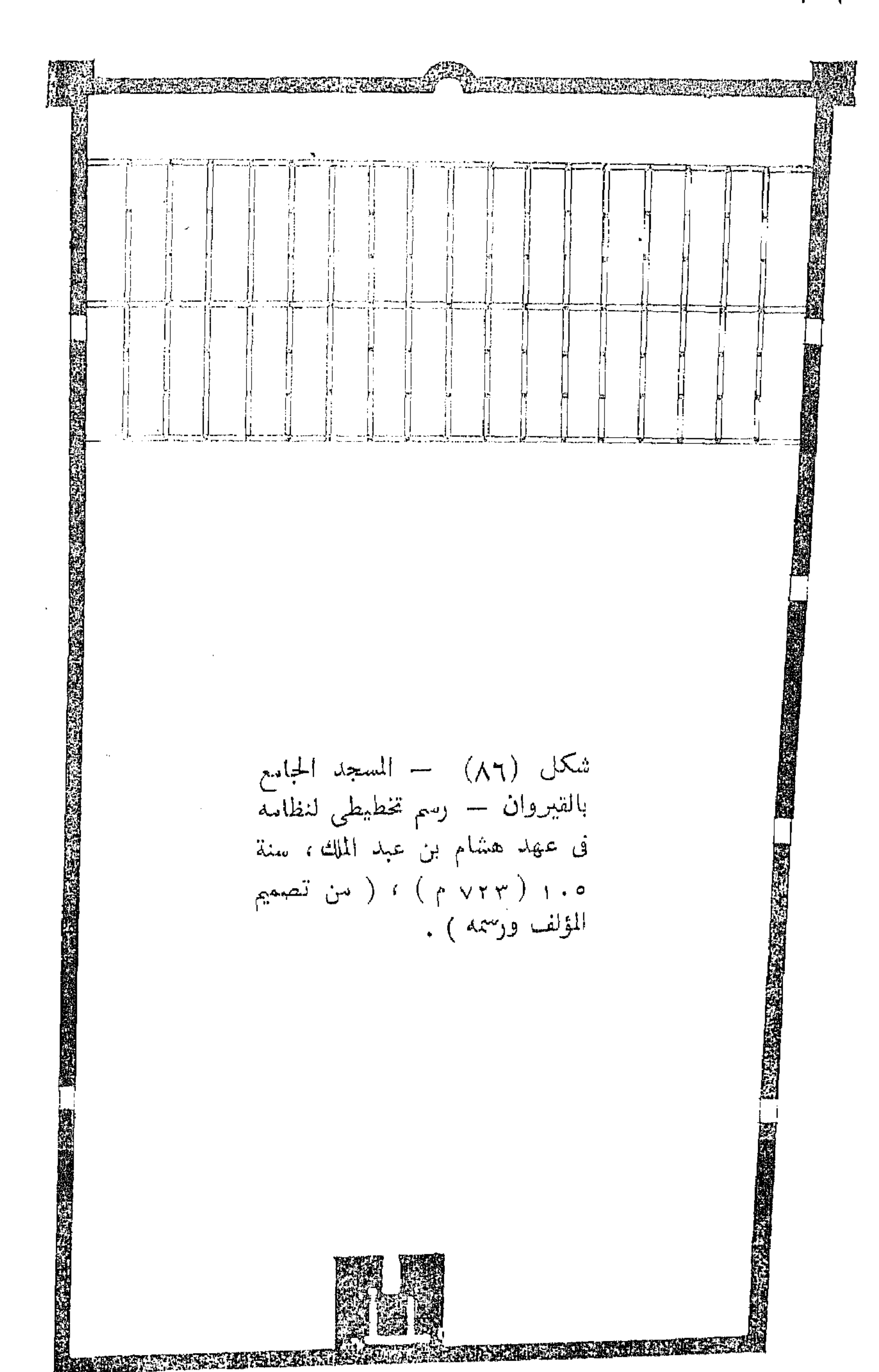
أيدت الأبحاث التى أجريتها شخصيا فى هذا المسجد ، فى سنوات ١٩٣١ إلى ١٩٣٤ ثم فى سنة ١٩٣٦ ، ما أجمع عليه المؤرخون من أن محراب مسجد عقبة بن نافع الذى ركز لواءه فى موضعه سنة ٥٠ (٦٧٠ م) ما زال باقيا إلى اليوم، وإن كانت قد ألصقت حوله، فى عهد زيادة الله، سنة ٢٢١ (٨٣٦)، كسوة من لوحات من الرخام المخرم المحلى بزخارف بديعة، أخذت من ورائها معالم المحراب العتيق (٤). وهكذا يرجع إلى عهد عقبة بن نافع، من عناصر تخطيط المسجد الجامع بالقيروان ، موضع المحراب وتخطيط جدار القبلة .

(١) ينظر كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحات ١٢ إلى ٢٦ .

(٢) كان من المعروف أن أعمال زيادة الله تمت فى سنة ٢٢١ ، ولكن ابن عذارى يذكر أنها تمت قبيل ذلك ، ينظر ابن عذارى ، «البيان المغرب» ، طبعة بروفنسال، الجزء الأول ، صفحة ١٠٦ .

(٣) أهم ما أجرى فى المسجد بعد تلك السنة هو عمل المقصورة الخشبية البديعة التى صنعت فى عهد المعز بن باديس ، سنة ٤٤١ (١٠٤٩ م) .

(٤) أفاض المؤلف شرح هذا الموضوع فى مقال « بدعة المحاريب » الذى نشر فى العدد ١٤ من المجلد ٤ ، نوفمبر ١٩٤٦ ، من مجلة الكاتب المصرى ، الصفحات ٣٠٦ إلى ٣٢٠ .



شكل (٨٦) — المسجد الجامع بالقيروان — رسم تخطيطي لنظامه فى عهد هشام بن عبد الملك، سنة ١٠٥ (٧٢٣ م)، (من تصميم المؤلف ورسمه).

وقد أكدت أبحاثى فى القيروان كذلك أن مسجدها الجامع كان فى سنة ١٠٥ (٧٢٣ م) ، أيام هشام بن عبد الملك ، يحتل نفس المساحة التى يحتلها اليوم ، من جدار القبلة إلى المئذنة فى جدار المؤخر ، وما بين الجدارين الشرقى والغربى (١) ، (شكل ٨٦) . وطول جدار القبلة فى هذا المسجد ٧٢ مترا ، وجوف بيت الصلاة فيه ٣٤ مترا. وكان بيت الصلاة هذا يشمل سبعة أساكيب تنقسم إلى ثمان عشرة بلاطة . والظاهر أن هذا البيت تكون على مرحلتين : المرحلة الأولى تمت فى عهد حسان بن النعمان ، وكان بيت الصلاة فيها يتكون من أربعة أساكيب ، يحدها صف من العقود يطل على الصحن ومواز لجدار القبلة ، أى أنه كانت تمتد فيه أربعة صفوف من الأعمدة ، بكل صف منها ١٧ عمودا . والمرحلة الثانية أضيفت فيها ثلاثة أساكيب إلى الأربعة الأولى ، يحدها صف من العقود مواز لجدار القبلة كان يطل حينذاك على الصحن ، أى أنه أضيف إلى صفوف الأعمدة فى بيت الصلاة ثلاثة بكل صف منها ١٧ عمودا ، وهذه هى مرحلة هشام بن عبد الملك . ويبلغ عرض الأساكيب أربعة أمتار وربع ، أما أسكوب المحراب فهو أكثر سعة ويبلغ عرضه خمسة أمتار ونصف ، ويحد هذا الأسكوب صف من العقود مواز كذلك لجدار القبلة . ويتراوح عرض البلاطات بين ثلاثة أمتار ونصف وأربعة أمتار وربع . وفيما عدا صفوف العقود الثلاثة الموازية لجدار القبلة ، فقد كانت الأعمدة تحمل صفوفا من العقود ممتدة فى اتجاه عمودى على هذا الجدار ، ولكن هذه الصفوف لا تصل إلى جدران القبلة ولا تخترق أسكوب المحراب ، بل كانت تبدأ من هذا الأسكوب وتنتهى عند الصحن . وكان صحن المسجد فسيحا يقرب طوله من تسعين مترا ، ويزيد عرضه عن سبعين مترا . وتتوسط المئذنة جدار مؤخر المسجد ، ولكنها لا تقع فى منتصفه تماما ، بل هى أقرب إلى شرقيه منها إلى غربيه .

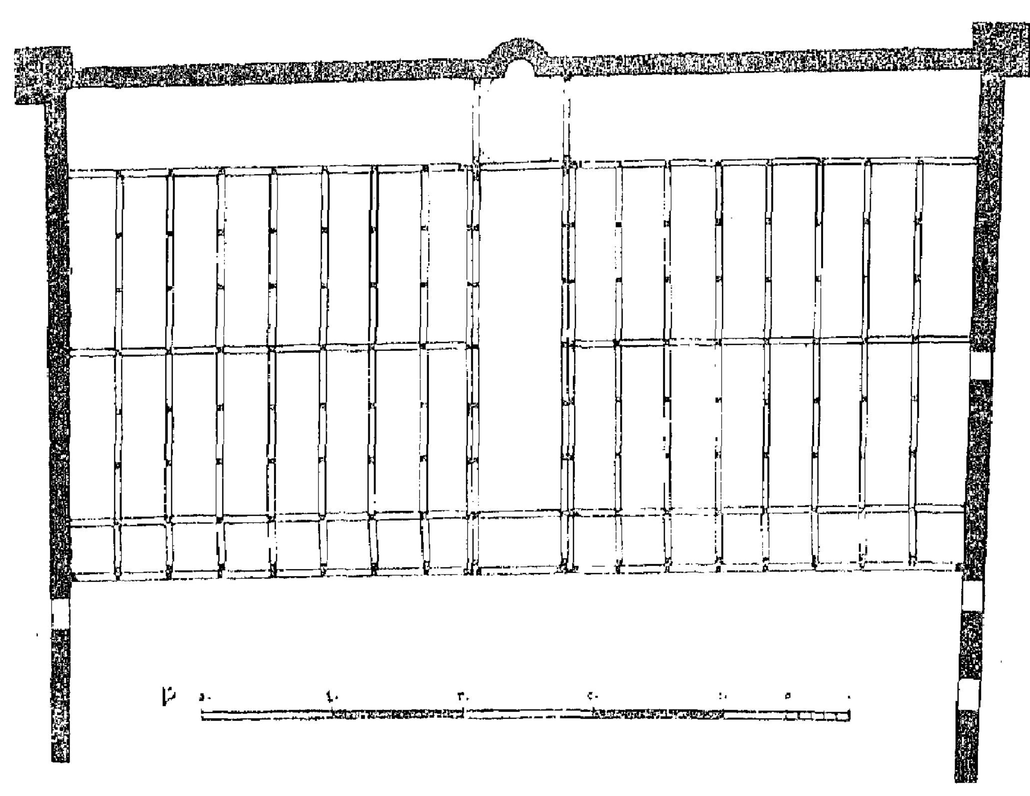
وتغير تخطيط المسجد فى عهد زيادة الله فى سنة ٢٢١ (٨٣٦ م) ، أو

---

(١) تنظر صفحة ٦٦ من كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » .

على الأصح تغير تخطيط بلاطة المحراب فى بيت الصلاة ، فقد أقام زيادة الله ، كما ذكرت ، محرابا جديدا للمسجد ، وشيد من فوقه قبة عظيمة ، ووسع البلاطة التى أمامه ، فهدم صف الأعمدة الذى كان يتوسط بيت الصلاة ، أمام المحراب ، وجعل من البلاطتين اللتين كان هذا الصف من الأعمدة يفصل بينهما ، بلاطة واحدة واسعة ، هى التى أصبحت بلاطة المحراب (١) ، وأصبح لبيت الصلاة سبع عشرة بلاطة بدلا من ثمان عشرة ، (شكل ٨٧) . وكذلك أضاف زيادة الله إلى بيت الصلاة أسكوبا ، كان يطل على الصحن حينذاك ، ويحده صفان متجاوران من الأعمدة ، بكل منها ١٩ عمودا ، فأصبح لبيت الصلاة ثمانية أساكيب بدلا من سبعة .

(١) يعترض (كريسويل) على هذا الرأى ، ويؤرخ قبة المحراب فى القيروان فى سنة ٢٤٨ (٨٦٢ م) ، على عهد أبى ابراهيم أحمد ، لا فى سنة ٢٢١ (٨٣٦ م) على عهد زيادة الله ، وذلك فى صفحتى ٢٢٠ و ٢٢١ من الجزء الثانى من كتابه « العمارة الاسلامية » ، وفى صفحة ٢٥٧ من كتابه « المختصر » . ولكن اعتراض (كريسويل) لا يستند على روايات تاريخية موثوق بها ، بل بالعكس يناقض رواية المؤرخين . ينظر كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ١٤ . وكذلك يناقض رأى (كريسويل) الحقائق الأثرية ، وهو يعترف فى الصفحات التى أشرت اليها أعلاه من كتابيه أن الصفين الداخلين من الأعمدة فى بلاطة المحراب قد أضيفا إلى بناء سابق ، وهذا ما حققته فى كتابى « القيروان » وسجلته مستندا إلى رواية المؤرخين . أما (كريسويل) فيفسره تفسيرا بعيدا عن المنطق المعمارى الأثرى . إذ أنه يدعى أن بلاطة المحراب كانت قبل بناء القبة تزيد سعة بمقدار متر وعشرين سنتيمترا عن سعتها بعد إضافة الصفين الداخلين ، ولما كان يدعى كذلك أن بيت الصلاة قد بنى من جديد فى عهد زيادة الله ولم يكن البناء الحالى قائما فيه من قبل ، فانه لم ير مانعا من أن يدعى ادعاء ثالثا بأن أبا ابراهيم أحمد هو الذى بنى القبة ، وضيق بلاطة المحراب ، ولكن (كريسويل) لم يفسر كيف كانت العقود تترجل الصفين المتطرفين من الأعمدة فى عهد زيادة الله ، حسب ادعائه ، مع أن المسافة بينهما كانت ضعف المسافة بين صفوف العقود الأخرى ، ثم هو لم يفسر كذلك كيف كانت تلك الأعمدة المتطرفة القصيرة تقوى على احتمال قوة الضغط المندفعة من تلك العقود الضخمة العالية التى كان يجب أن تمتطيها ، حسب ادعائه . أو لعله لم يقدر خطر هذا الادعاء من الناحية المعمارية الأثرية كما أنه لم يدرك تناقضه مع الحقائق التاريخية .



شكل (٨٧) — المسجد الجامع بالقيروان — رسم تخطيطى لنظام بيت الصلاة فى عهد زيادة الله بن الأغلب، سنة ٢٢١ (٨٣٦ م)؛ (من تصميم المؤلف ورسمه).

واتخذ مسجد القيروان صورته التخطيطية النهائية فى عهد إبراهيم بن أحمد، سنة ٢٦١ (٨٧٥ م)، إذ أضيفت إلى الصحن مجنباته الأربعة وبكل منها رواقان، وأقيمت قبة البهو على نهاية بلاطة المحراب، شكل (٨٥).

— ٢ —

مساجد العصر الأموى فى الشام والعراق

المسجد الأقصى فى القدس (٦٥هـ - ٦٨٥ م)

أنشأه الخليفة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقيل إن الوليد ابن عبد الملك أعاد بناءه فى سنة ٨٧ (٧٠٦ م) (١)، وذلك على خلاف ما اتفق عليه معظم المؤرخين من أن عبد الملك بن مروان، أبا الوليد،

(١) ابن الأثير، «الكامل فى التاريخ»، الجزء السادس، صفحة ٥؛ ابن الطقطقى، «الفخرى»، صفحة ١٧٣.

هو الذى أعاد بناءه فى سنة ٦٥ (٦٨٥ م) (١) . وأيا كان القول الصحيح ، فان المسجد القائم حاليا يختلف اختلافا كليا عن المسجد الذى أقامه عمر ، والذى أعيد بناؤه فى صدر الدولة الأموية. وذكر المؤرخون أن زلزالا هدم سقف المسجد و « طرحت المغطى » ، وأنه أعيد بناؤه ، فى أيام الدولة العباسية ، « أوثق وأغلظ صناعة مما كان » (٢) . ويغلب على الظن أن ذلك تم فى عهد الخليفة المهدى سنة ١٦٣ (٧٨٠ م) (٣) . وزعزعت زلازال أركان المسجد مرة أخرى ، فأصلحه الخليفة الفاطمى الظاهر سنة ٤٢٧ (١٠٣٥م) ، ثم جدده المستنصر بالله سنة ٤٥٨ (١٠٦٥م) ، وأجريت فيه فى العصور التالية إصلاحات عديدة غيرت من معالمه الأولى (٤) .

وقد أمكن الاستدلال على آثار فى المسجد ترجع إلى عهد الخليفة الظاهر ، كما يسرت أعمال الحفر والاصلاح التى أجريت فيه منذ خمس وثلاثين سنة الكشف عن آثار من عهد الخليفة المهدى ، وعن بعض أسس جدران فيه ودعامات من العصر الأموى . وكان ناصرو خسرو ، الرحالة الفارسى ، قد وصف المسجد الأقصى كما شاهده حوالى سنة ٤٤٠ (١٠٤٨م) أى بعد إصلاحات الخليفة الظاهر (٥) ، كما أن المقدسى كان قد وصفه من قبل هذه الأصلاحات فى سنة ٣٧٥ (٩٨٥م) . وقد

(١) المقدسى ، «أحسن التقاسيم» ، صفحتا ١٦٨ و ١٦٩ ؛ مجير الدين ، « كتاب الانس الجليل » ، الجزء الأول ، صفحات ٢٤٠ إلى ٢٤٢ .

(٢) المقدسى ، « أحسن التقاسيم » ، صفحتا ١٦٨ و ١٦٩ .

(٣) مجير الدين ، « الأنس الجليل » ، الجزء الأول ، صفحتا ٢٥٠ و ٢٥١ ؛ وصفحة ٩٣ من كتاب (لسترنج) ، « فلسطين تحت الحكم الاسلامى » .

Le Strange : Palestine under the Moslems.

(٤) ينظر تاريخ المسجد فى كتاب (هاملتون) ، « تاريخ المسجد من الناحية المعمارية » وخاصة ص ٧٤ .

R. W. Hamilton : The Structural History of the Aqsa Mosque.

(٥) ناصرو خسرو ، «سفرنامه» ، طبعة الدكتور يحيى الخشاب ، صفحات ٢١ إلى ٢٦ .

أمكن إعادة رسم تخطيطه وتحديد مساحته ونظامه على عهد الخليفة المهدى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى وصف المقدسى لهذا المسجد (١) وإلى أبحاث (هاملتون) فيه (٢) .

٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ مترا

شكل (٨٨) — رسم اجتهادى لتخطيط المسجد الأقصى فى العصر الأموى ، (من تصميم المؤلف) .

ويستدل من هذا الوصف أن بيت صلاة المسجد الأقصى كان يشغل فى أواخر القرن الثانى الهجرى مستطيلا فسيحا طول جدار القبلة [illegible] حوالى مائة متر ، وطول جوفه حوالى سبعين مترا ؛ وأنه كان [illegible] ستة عشر أسكوبا تجتاز خمس عشرة بلاطة ، وأن سقفه كانت تقوم على أعمدة من

(١) « أحسن التقاسيم » ، صفحتا ١٦٨ و ١٦٩ .

(٢) وذلك فى كتابه : « تاريخ المسجد الأقصى من الناحية المعمارية »

الرخام «أحدثها عبد الله بن طاهر» فى عهد الخليفة المأمون ؛ وأنه كانت به «قبة حسنة» ، وكان به أحد عشر بابا مفتوحة فى الجدار الشرقى ، وخمسة عشر بابا أخرى ، مفتوحة فى الجدار الشمالى ، كل باب منها أمام بلاطة من البلاطات ، فتكون جملة عدد أبواب المسجد ، كما ذكرها المقدسى ، ستة وعشرين بابا . وكان للمسجد صحن «مبلط» ، وله مؤخر «مرصوف بالفسيفساء الكبار» .

وقد وضعت رسما اجتهاديا لتخطيط المسجد فى العصر الأموى ، شكل (٨٨) ؛ معتمدا على نتائج الحفائر التى أجريت فيه (١) . ويتضح من هذا الرسم أن بيت الصلاة كان يشغل حينذاك مستطيلا طول جدار القبلة فيه ٦٥ مترا ، وعرضه ٥٠ مترا ، وأنه كان ينقسم إلى أحد عشر أسكوبا تجتاز عشر بلاطات ، وأن المحراب لم يكن يتوسط جدار القبلة ، بل كان يجاور الدعامة الرابعة من غرب هذا الجدار ، وأن عقود المسجد كانت تمتد فى بوائك عمودية على جدار القبلة ، أما الدعامات التى أقيمت عليها فقد كانت صفوفا موازية لهذا الجدار ، وكان بالمسجد حينئذ ٢١ بابا ، منها أحد عشر بابا فى الجدار الشرقى والباقية فى الجدار الشمالى .

أما المسجد فى العهد العباسى فقد وضع (كريسويل) رسما لتخطيطه (٢) ، غير أن (هاملتون) يعترض على هذا الرسم (٣) ؛ من حيث أن عقود المسجد كانت تقوم معظمها حينذاك على دعامات ؛ ومن حيث توزيع العمد على الرسم بصورة لا تتفق فى رسم (كريسويل) مع نتائج الحفائر التى أجريت فى بيت الصلاة ، ومن حيث أن عدد الأساكيب فى هذا الرسم أحد عشر أسكوبا فى حين أنها كانت فى عهد المهدى ستة عشر ، منها أحد

---

(١) يراجع تقرير (هاملتون) المشار اليه ، رسم رقم (٣٠) ، صفحة ٥٣ ، قطاع AB,c d ، والرسم رقم ١١ ، صفحة ٥٤ ، والرسم رقم ٣٠ ، صفحة ٥٣ .

(٢) شكل ١١٩ المقابل لصفحة ١١٢ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل) «العمارة الاسلامية» وشكل (٤١) فى صفحة ٢١١ من كتابه «المختصر» .

(٣) صفحتا ٧١ و ٧٢ من تقرير (هاملتون) المشار اليه .

عشر تنتهى بأبواب مفتوحة فى الجدار الشرقى ، وخمسة لا أبواب لها . ولاشك فى أن هذه الأساكيب الخمسة هى التى أضيفت إلى المسجد الأموى فى عهد المهدى .

ويتضح من أبحاث (هاملتون) أن المسجد الأموى لم يكن له بلاطة وسطى متسعة ، كتلك التى تظهر فى عصر المهدى ، وإنما اتسعت هذه البلاطة عندما أراد ذلك الخليفة أن يشيد قبة أمام المحراب ، فتطلب ذلك الاستغناء عن صف الدعامات الذى كان يتوسط بيت الصلاة (١) . وبالتالى لم يكن للمسجد الأموى قبة تتصدر بلاطة المحراب ، وقد ذكر مجير الدين أن المسجد الأموى هدم مرتين ، مرة فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور الذى أعاد بناءه ، « ثم كانت الرجفة الثانية ، فوقع البناء الذى كان أمر به أبو جعفر ، ثم قدم المهدى من بعده ، وهو خراب ، فرفع ذلك اليه ، فأمر ببنائه وقال : رث هذا المسجد وطال ، وخلا من الرجال (أى أرجل العقود) ، أنقصوا من طوله ، وزيدوا فى عرضه ، فتم البناء فى خلافته » (٢) .

المسجد الجامع بواسط (٨٤ هـ - ٧٠٣ م)

المعروف أن واسط العراق كانت خامس مدينة أحدثت فى الأسلام ، بناها الحجاج بن يوسف الثقفى فى وسط العراق سنة ٨٣ أو ٨٤ (٧٠٣ - ٧٠٤ م) ، وبنى مسجدها الجامع (٣) ، وانتهى من البناء سنة ٨٦ (٧٠٦م) . وذكر بحشل ، مؤرخ واسط ، أنه بدىء فى البناء سنة ٧٥ (٦٩٤م) ، وانتهى منه بعد ذلك بثلاث سنوات (٤) .

(١) ينظر القطاع AB من الرسم رقم (٣٠) من تقرير (هاملتون) .

(٢) مجير الدين ، « الأنس الجليل » ، الجزء الأول ، صفحتا ٢٥٠ و ٢٥١ .

(٣) المسعودى ، « التنبيه والاشراف » صفحة ٣٦٠ .

(٤) فؤاد سفر ، « واسط » ، مطبوعات مديرية الآثار القديمة ، الحكومة العراقية ، سنة ١٩٥٢ ، صفحتا ١ و ٢ ، وفيها بيان واف بمراجع تاريخ واسط .

وذكر المؤرخون أن مسجد الحجاج هذا كان مربعا ، طول جدار القبلة فيه مائتا ذراع ، وأنه كان بواسط مسجدا جامعا ثانيا ، شيده موسى ابن بغا القائد التركى فى سنة ٢٦١ (٨٧٤م) (١) ، واندثر المسجدان ، واختفت معالمها ، وطغت على أنقاضها كثب الرمال ، حتى كانت سنة ١٩٣٦ ، إذ بدأت أعمال الحفر فى منطقة واسط وانتهت فى سنة ١٩٤٢ بالكشف عن آثار مسجد الحجاج . وقد وجدت أسس بناء هذا المسجد الجامع راسخة تحت أسس مساجد ثلاثة أخرى بنيت على التعاقب من فوق مسجد الحجاج ، فى القرون التالية (٢) . وقد أمكن الاستدلال على تخطيط أسس بناء مسجد الحجاج ، فيما عدا أسس المحراب الذى اندثرت معالمه (٣) . وظهر أن جدران هذا المسجد وأسسه كانت مبنية من الآجر والجص الضارب للحمرة (٤) ، وأن أعمدته من « أساطين من قطع من حجارة رملية منحوتة وموضوعة قطعة فوق قطعة ، مفرغ فيها الرصاص ، ومسكوكة بسفود حديد يخترق جميعها على طول الأسطوانة » (٥) . ويظن الأستاذ فؤاد سفر ، الذى أشرف على هذه الحفائر ، أن حجارة هذه الأساطين قد أعيد استخدامها فى بناء المساجد التى أقيمت على أنقاض مسجد الحجاج ، وأنها ما زالت تحتفظ ببعض زخارفها العتيقة .

والذى يبدو واضحا من نتائج الحفائر التى أجريت فى تلك المنطقة هو تخطيط الأسس التى قام عليها مسجد واسط الجامع ، وهو الذى يهمنا فى هذا الفصل . ويتضح من الرسم الذى وضع لهذا التخطيط ، والذى

---

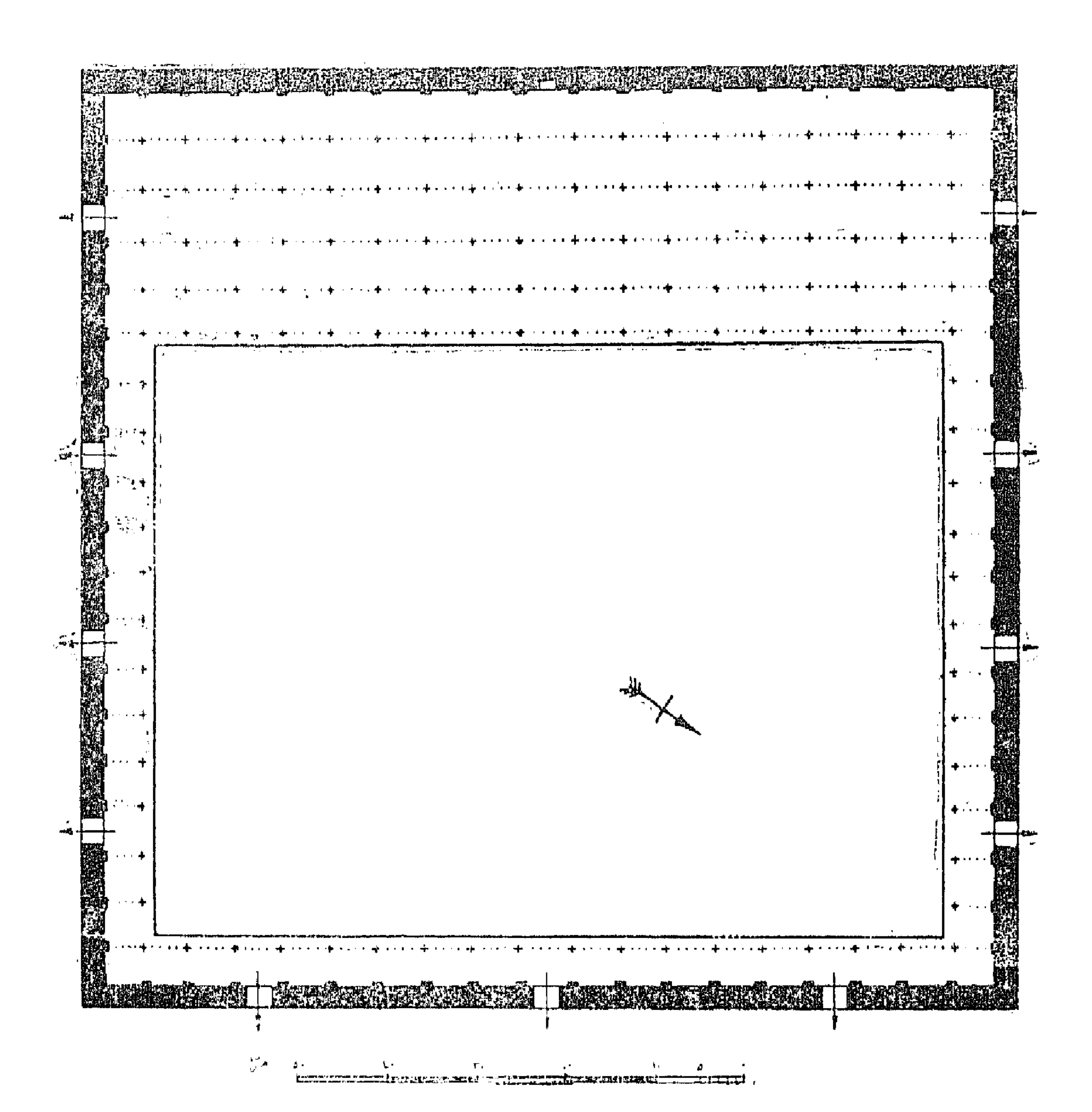
(١) صفحة ٣٨٢ من الجزء الثامن من « معجم البلدان » لياقوت الحموى .

(٢) يرجح الأستاذ فؤاد سفر فى كتاب « واسط » ، صفحة ٤٣ ، أن الجامع الثانى شيد بعد سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م) وقبل سنة ٥٥٠ (١١٥٦م) ، وأن الجامع الثالث شيد فى منتصف القرن السادس (منتصف القرن الثانى عشر الميلادى) وأن الجامع الرابع شيد فى منتصف القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) .

(٣) فؤاد سفر ، المرجع السابق ، صفحة ٢٠ .

(٤) المرجع السابق صفحة ٢٧ .

(٥) المرجع السابق ، صفحة ٢٥ .



شكل (٨٩) — رسم تخطيطى لمسجد واسط فى عهد الحجاج سنة ٨٦ (٧٠٦ م) ، رسم مقتبس من كتاب « واسط » لفؤاد سفر .

أنشر رسما مقتبسا منه شكل (٨٩) ، أن اتجاه القبلة منحرف انحرافا كبيرا . وقد ذكر أن الحجاج قد تعمد هذا الانحراف (١) . وطول جدار القبلة فى هذا المسجد ٩٨ مترا من الداخل و١٠٣ مترا من الخارج ، وطول

(١) المرجع السابق ، صفحة ٣٠ ، وقد نقل الاستاذ فؤاد سفر هذه الواقعة عن رسالة للجاحظ منشورة فى صفحة ٧٧ من الجزء الثالث من كتاب « عصر المأمون » ، لمؤلفه أحمد فريد الرافعى .

الجدار الشرقى من الخارج ١٠٤ مترا . وهذه المقاسات تتفق مع ما ذكره المؤرخون من أن مسجد الحجاج كان مربعا « ذرعه مائتين فى مائتين » (١) . ويمتد جوف بيت الصلاة مسافة ٢٦ مترا ، وينقسم هذا البيت إلى خمسة أساكيب متساوية عرضا ، فيما عدا أسكوب المحراب ، فهو أقل فسحة منها ، وتنقسم هذه الأساكيب إلى تسع عشرة بلاطة غير متساوية عرضا ، فقد اتسعت بلاطة المحراب قليلا عن متوسط اتساع غيرها من البلاطات ، وصغرت البلاطتان المتطرفتان قليلا عن متوسط اتساع جاراتها . وصحن المسجد مستطيل طوله ٨٨ مترا وعرضه ٦٦ مترا ، وتحيط به من جهاته الثلاثة مجنبات بكل منها رواق واحد ؛ فى رواق مؤخر المسجد ، تسع عشرة مربعة تحدها ثمان عشرة أسطوانة ، وفى كل من الرواقين الشرقى والغربى ثلاث عشرة مربعة ، يحد كل منها ثنتا عشرة أسطوانة .

المسجد الجامع الأموى بدمشق (٨٧ هـ - ٧٠٦ م)

« هو من أشهر جوامع الأسلام حسنا ، وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه » . هذا ما سجله ابن جبير فى سنة ٥٨٠ (١١٨٤م) ، مستهلا وصفه لهذا المسجد العظيم (٢) ، الذى بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ (٧٠٦م) وتم العمل فيه سنة ٩٦ (٧١٤م) . وقيل كان قد خطه أبو عبيدة ابن الجراح ، وكذلك مسجد حمص (٣) .

ولبناء هذا المسجد قصة طويلة ، ملخصها أنه كان بموضع هذا المسجد كنيسة ، ولما فتح خالد بن الوليد دمشق ، سنة ١٣ (٦٣٤م) ، استولى على نصف الكنيسة الشرقى ، فصيرها مسجدا ، وبقى النصف الغربى منها

(١) فؤاد سفر ، « واسط » ، صفحتا ٢٩ و ٣٠ ، نقلا عن ياقوت ، « معجم البلدان » ، الجزء الرابع صفحة ٨٨٥ .

(٢) ابن جبير ، « رحلة » ، صفحة ٢٤٩ وما بعدها إلى صفحة ٢٦١ .

(٣) هكذا ذكر النويرى فى صفحة ٣٤١ من الجزء الأول من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » .

بأيدى المسيحيين ، وكانوا اصطلحوا على ذلك مع أبى عبيدة بن الجراح ، الذى كان قد دخل دمشق من الجانب الغربى ، قبيل دخول خالد بن الوليد لها من الجانب الشرقى (١) . ثم أراد الوليد بن عبد الملك آن يقيم مسجدا جامعا شامخا ، فاستولى على النصف الثانى من الكنيسة ، وعوض المسيحيين عنه « بمال عظيم أرضاهم به » (٢) ، وهدم الكنيسة كلها ، « وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون وأكملوا هدمها » (٣) ، وكان ذلك فى سنة ٨٧ (٧٠٦ م) .

وقيل لما أراد الوليد أن يبنى المسجد ، أشار ببنائه « أسطوانات إلى الطاقات » (٤) ، فدخل بعض البنائين فقال لاينبغى أن يبنى هكذا ، ولكن ينبغى أن يبنى فيه قناطر ، وتعقد أركانها ثم تجعل أساطين ، وتجعل عمدا ، وتعقد فوق العمد قناطر تحمل السقف ، وتخفف عن العمد البناء » (٥) . وبنى المسجد جميعا : بيت الصلاة والمجنبات فى عهد الوليد ، فيما عدا الجدار القبلى للمسجد ، فانه يظن أنه كان قائما قبل فتح العرب دمشق .

ويحتفظ المسجد الجامع الأموى بمعظم عناصره التخطيطية التى بنى

---

(١) جرت مناقشات طويلة متناقضة حول هذه القصة وحول مدى صحتها وأثرها فى بناء المسجد وتخطيطه ، وفى اشتقاق هذا التخطيط من نظام الكنائس ، وسأحاول البحث عن الحقائق فى كل هذه الموضوعات ، فى الفصل التاسع من هذا المدخل . وأكتفى هنا بأن أشير إلى أن هذه الأسطورة قد نبعت من أسطورة أخرى رواها زيد ابن واقد ، وكان قائما على العمال فى بناء المسجد فى عهد الوليد ، وادعى فيها أنه وجد أثناء البناء مغارة ، فنزل اليها ليلا مع الوليد ، فاذا هى « كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففتح ، فاذا فيه سفط ، وفى السفط رأس يحيى ابن زكريا عليه السلام ، مكتوب عليه : هذا رأس يحيى بن زكريا »........ « وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير » — تنظر صفحة ٣٤١ من الجزء الأول من « نهاية الأرب » للنويرى .

(٢) ابن جبير ، « رحلة » ، صفحة ٢٥٠ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) أى بناؤه على عمد من غير عقود ، كما كان الحال فى المسجد النبوى ومسجد واسط ومسجد الكوفة .

(٥) العمرى ، « مسالك الأبصار » ، الجزء الأول ، صفحة ١٨١ .

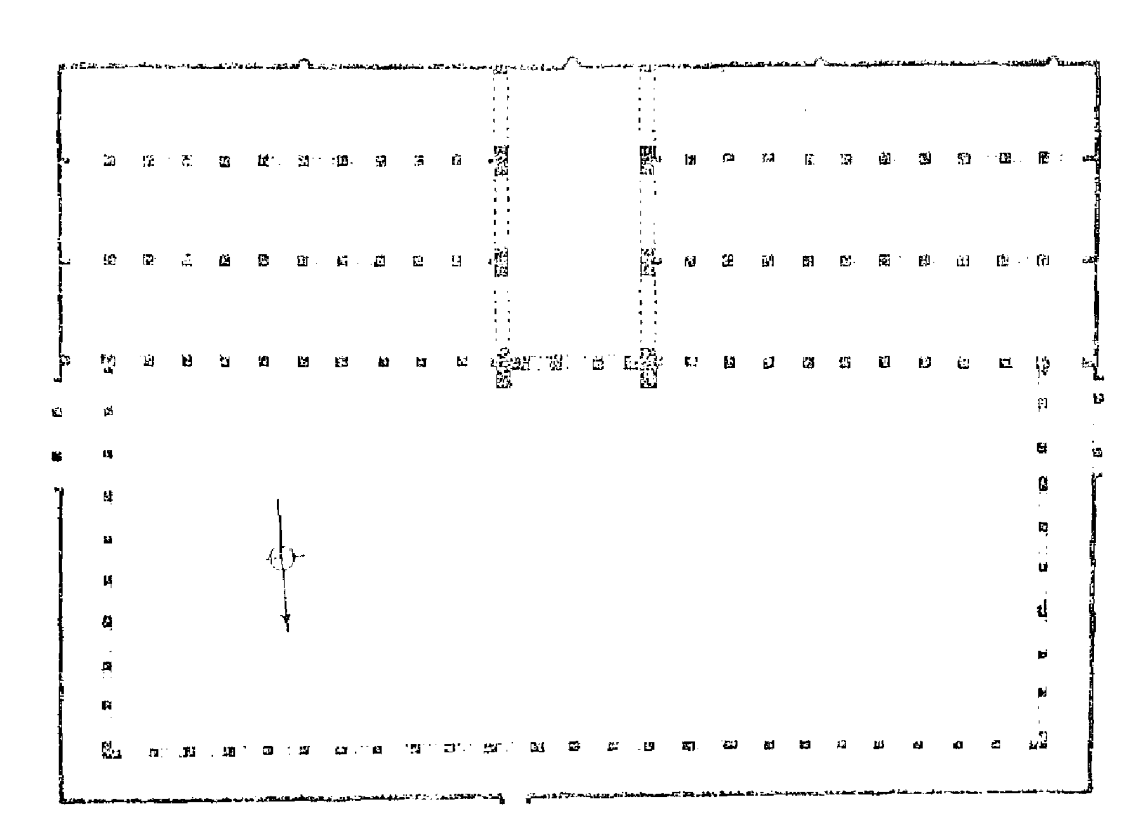
عليها فى عهد الوليد بن عبد الملك ، بالرغم مما تعرض له من أحداث جسام فى العصور التالية ، وبالرغم من الحرائق التى أتلفت أجزاء كبرى منه ، ومن أعمال الاصلاح والتجديد التى تمت فيه ، وشوهت بعض آثاره العتيقة ، وبالرغم من أن القبة التى تتوسط بيت الصلاة فيه ، والتى أقيمت هى ودعاماتها فى عهد السلطان ملكشاه فى سنة ٤٧٥ (١٠٨٢) (١) ، قد غيرت من مظهريه الداخلى والخارجى .

وكان المسجد الجامع فى عهد الوليد يشغل مستطيلا طوله ١٦٠ مترا تقريبا ، وعرضه مائة متر ، وطول جدار القبلة فى بيت الصلاة ١٣٦ مترا ، شكل (٩٠) ، ويمتد جوف هذا البيت مسافة ٣٦ مترا ، وينقسم إلى ثلاثة أساكيب ، عرض كل منها ١٢ مترا تقريبا . وترتفع سقف بيت الصلاة حوالى أحد عشر مترا . وبهذا البيت أربعة محاريب ، ولا يتوسط المحراب الأوسط تماما جدار القبلة . وتمتد أمام هذا المحراب بلاطة فسيحة تصله بالصحن ، ويبلغ عرضها ٢٢ مترا تقريبا . وتنقسم الأساكيب بالأضافة إلى هذه البلاطة ، إلى ٢٢ بلاطة أخرى ، سعة كل منها خمسة أمتار ونصف تقريبا ، تقع إحدى عشرة منها إلى يمين بلاطة المحراب ، ومثلها إلى يسارها . وتمتد عقود بيت الصلاة على صفوف الأعمدة موازية لجدار القبلة ، ولكنها تقف من الجانبين عند بلاطة المحراب ، فلا تخترقها . ويحف بهذه البلاطة بائكتان من العقود القائمة على دعامات ، بكل دعامة ثلاثة عقود ، تتجه إلى الصحن ، عمودية على جدار القبلة . وكان يعلو بلاطة المحراب فى عهد الوليد ، ثلاث قباب ، « قبة تتصل بالجدار الذى إلى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما » (٢) .

وصحن المسجد الجامع مستطيل فسيح ، طوله ١٢٥ مترا تقريبا ، ويزيد عرضه عن ستين مترا ، ويحف به من كل من جوانبه الشرقية والغربية

(١) كان هذا التاريخ مسجلا على لوحات حجرية بالمسجد قبل الحريق الذى تعرض له فى سنة ١٨٩٣ .

(٢) ابن جبير ، « رحلة » ، صفحة ٢٥٢ .



شكل (٩٠) — رسم تخطيطى للمسجد الأموى بدمشق على عهد الوليد فى سنة ٨٧ (٧٠٦ م) ، (من تصميم المؤلف) .

والشمالية ، مجنبة من رواق واحد يدور حول هذا الصحن من هذه الجهات « وقد أزرت جدره وسواريه بالرخام الملون ، وعقدت رؤوس عمده وسواريه بالقناطر ، وجعل على قنطرة منها طاقات صغار ، يفصل بين كل اثنتين منها عمود رخام أو سارية » (١) .

يحتل المسجد الجامع الأموى بدمشق مكانة بارزة فى تاريخ العمارة العربية الاسلامية ، سواء من ناحية تخطيطه ، أو بالنسبة لأهمية عناصره المعمارية والزخرفية (٢) ، وسأشير إلى بعض هذه العناصر فيما يلى من

(١) العمرى ، « مسالك الأمصار » ، الجزء الأول ، صفحة ١٩٥ .

(٢) يجد القارىء وصفا موجزا وبحثا ملخصا للمسجد الأموى فى صفحات ٣٩ إلى ٤٤ من كتاب (بريجز) ، « العمارة المحمدية » ، الذى سبقت الأشارة إليه وفى صفحات ٢٥ إلى ٣٠ من كتاب (ريشموند) ، « العمارة الاسلامية » :
Richmond : Moslem Architecture, London, 1926.

فصول هذا الكتاب ، كما أنني سأناقش آراء المستشرقين فيما يخص تخطيطه ، وأصالة هذا التخطيط . ومازال الباب مفتوحاً لاستكمال البحث في آثار هذا المسجد ، وتحقيق عناصره العتيقة . ولكن المتفق عليه ، فيما أعتقد ، أن تخطيط المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك يطابق الرسم الذي أنشره في شكل (٩٠) .

— ٣ —

مساجد من نهاية العصر الأموي

أثبت البحث العلمي أن بعضا من المساجد التي تنتمي إلى نهاية العصر الأموي قد تبقت منها آثار عتيقة ، وكشفت الحفائر عن أسس مساجد أخرى في هذا العصر ، وهي :

١ — مسجد قصير الحلابات

٢ — مسجد خان زبيب

٣ — مسجد أم الوليد

وهي مساجد ثلاثة صغيرة اكتشفت آثار المسجد الأول منها غير بعيد من عمان ، وآثار المسجدين الآخرين على بعد مائة كيلو مترا جنوبيها ، ويظن (كريسويل) أنها شيدت فيما بين سنة ٨٩ (٧٠٨م) وسنة ١٣٣ (٧٥٠م) .

٤ — مسجد قصر الحير الشرقي بالرصافة ، وقد شيد سنة ١١٠ (٧٢٨م) ، وهو أكبر مساحة من المساجد الثلاثة الأولى .

ويتفق نظام تخطيط هذه المساجد الأربعة(١)من حيث انقسام بيت الصلاة في كل منها إلى ثلاثة أساكيب ، تحدها صفوف من الأعمدة أو الدعامات

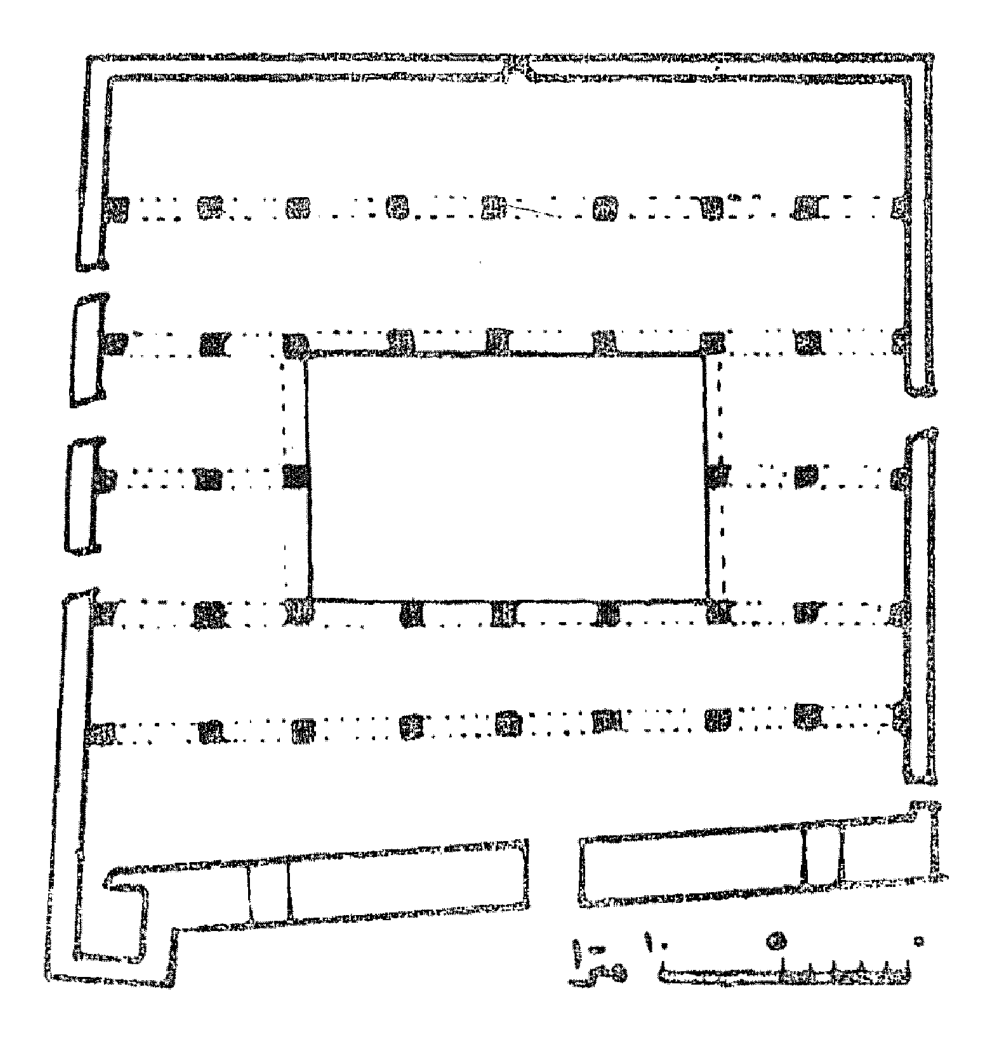
---

(١) تنظر صفحات ٢٨٤ إلى ٢٨٨ ، والأشكال المنشورة بها من الجزء الأول من كتاب (كريسويل) ، « العمارة الاسلامية » .

موازية لجدار القبلة . ومن المعتقد أن محرابا كان يتوسط هذا الجدار فى كل منها . أما تقسيم هذه الأساكيب إلى بلاطات ، عددها ثلاثا فى خان زبيب وخمسا فى مسجد قصير الحلابات وسبعا فى قصر الحير ، فهو افتراضى محض ، وقد اعترف (كريسويل) نفسه بذلك .

مسجد البصرى

كشف منذ قريب عن آثار هذا المسجد الذى شيده الخليفة يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠٢ (٧٢٠م) ، فى جنوب الشام . وقد جدد هذا المسجد



شكل (٩١) — رسم تخطيطى اجتهادى لمسجد البصرى فى جنوب الشام على عهد يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠٢ (٧٢٠ م) ، (من تصميم المؤلف) .

مرة فى سنة ١٢٨ (٧٤٥م) ، ومرة أخرى فى سنة ٦١٨ (١٢٢٠م) ، ثم تهدم واندثر ، وكان يجرى إصلاحه وإعادة بنائه منذ قريب (١) ، وأظهرت الحفائر بعض نظام تخطيطه . وقد نشر رسم غير كامل لتخطيط هذا المسجد ، وتعمد واضعه أن يجعل للمسجد بلاطة وسطى فسيحة . وهو مجرد ظن لا يقوم على أى سند تاريخى أو أثرى ، بل إنه يتعارض مع نظام المسجد المنطقى ، إذ أن نظام بيت الصلاة فى هذا المسجد ، يطابق نظام مؤخره ، وتتقابل الأعمدة فى كل منهما (٢) .

وقد رأيت أن أنشر رسما مصححا لهذا الرسم ،شكل (٩١) ، ويبدو فيه أن مسجد البصرى كان شبه مربع ، طول جدار القبلة فيه ٣٥ مترا . وكان له بيت صلاة من أسكوبين موازيين لهذا الجدار ، وكان يحدهما صفان من الدعامات بكل صف منها تسع ، وكان كل أسكوب ينقسم إلى ثمان مربعات ، وكذلك كان مؤخر المسجد ، ولم يكن المحراب يتوسط جدار القبلة . وكان للمسجد صحن مستطيل غير فسيح ، طوله ١٦ مترا وعرضه ١٠ أمتار ، وعلى كل من جانبيه مجنبة من رواقين بكل منهما مربعتان .

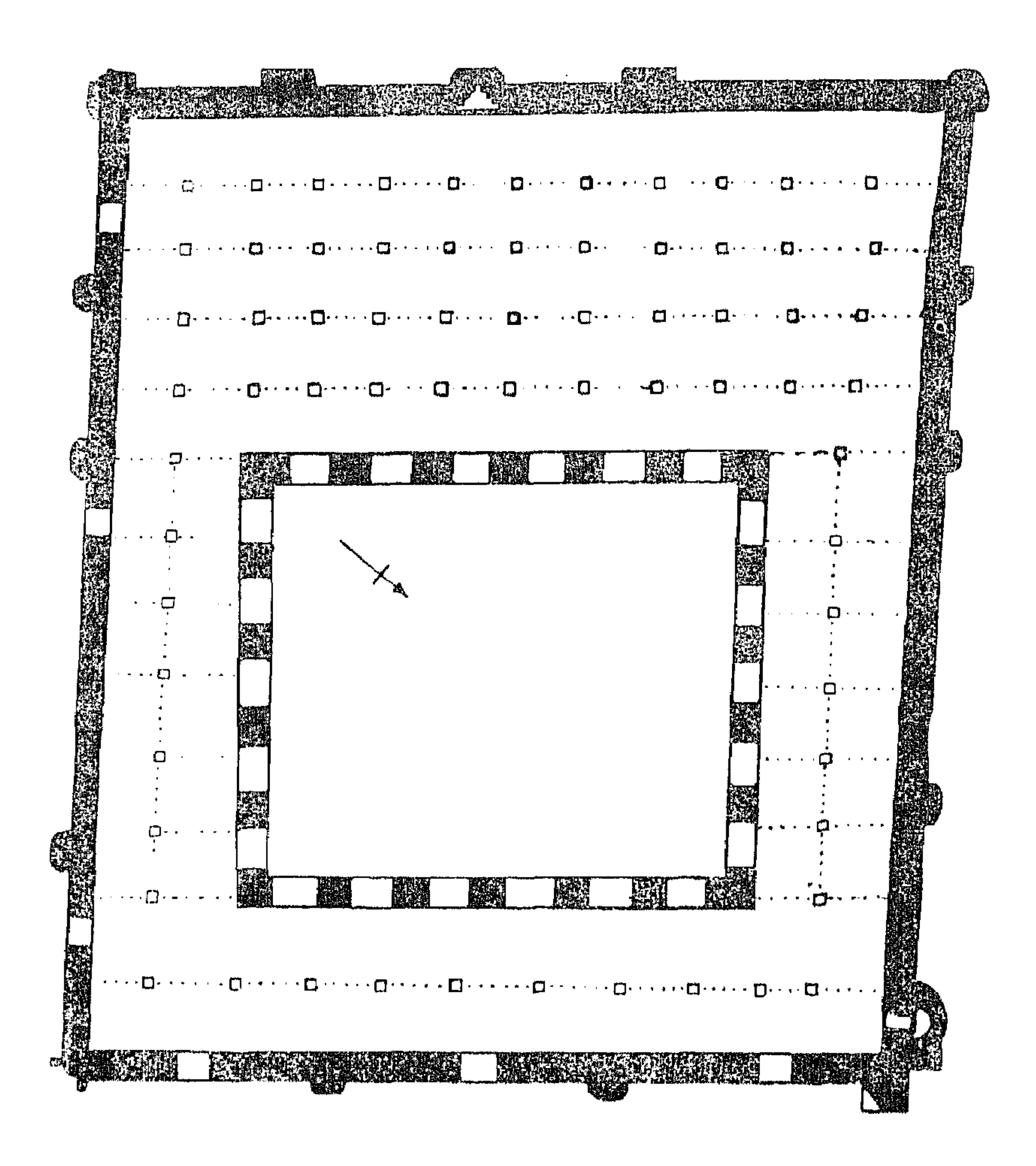
المسجد الأموى فى مدينة اسكاف بنى جنيد

كشفت مديرية الآثار العراقية منذ عهد قريب عن آثار هذا المسجد العتيق . وتعرف آثار مدينة اسكاف بنى جنيد الواقعة على النهروان باسم « سماكة » . وقد كشف فى هذه المدينة عن قصر ينسب إلى خالد بن عبد الله القسرى ،

---

(١) ينظر مقال (سوفاجيه) ، « الكتابات العربية فى مسجد البصرى » :
J. Sauvaget: Les Inscriptions arabes de la Mosquée de Bosra, Syria, Tome XXII. pp. 53-65, Paris, Geuthner, 1941.

(٢) ينظر الشكل المنشور فى صفحة ٥٣ من المقال المشار اليه فى الحاشية السابقة ، والشكل (٧ ب) ، صفحة ١٠٢ من كتاب (سوفاجيه) ، «المسجد الأموى بالمدينة » .



شكل (٩٢) — رسم تخطيطى للمسجد العلوى فى مدينة اسكاف بنى جنيد بالعراق من عهد هشام بن عبد الملك فى سنة ١١٠ (٧٢٨ م) .

الذى كان عاملا لهشام بن عبد الملك فى هذه المدينة ، حوالى سنة ١١٠ (٧٢٨م) . وكذلك كشف عن آثار المسجد الجامع . وأغلب الظن أن بناء هذا المسجد جدد مرتين ، وأضيفت إليه المئذنة المبينة على الرسم التخطيطى فى الركن الشمالى للمسجد . وقد كشف فى نفس الوقت عن

سد كان مقاما على النهروان على بعد ثلاثة كيلومترات من المدينة ، وهو ينسب أيضا إلى خالد بن عبد الله القسرى . وتدل آثار الآجر المكتشف فى القصر والسد والمسجد على أن مقاساتها متطابقة ، مما يؤيد بناءها فى عهد واحد . ومن المحتمل أن المسجد المكتشف يقوم على أسس مسجد أقدم عهدا منه ، سابق لعهد هشام بن عبد الملك (١) .

ويستدل من الرسم التخطيطى لأساسات هذا المسجد ، شكل (٩٢) ، أنه يشغل مربعا غير منتظم الأضلاع ، طول جدار القبلة فيه خمسون مترا وطول جداره الشرقى خمسة وخمسون . وكان بيت الصلاة يشمل خمسة أساكيب ، تنقسم إلى اثنتى عشرة بلاطة ، أى أنه كان يمتد فى هذا البيت أربعة صفوف من الدعامات موازية لجدار القبلة ، بكل صف منها إحدى عشرة دعامة. وكان للمسجد صحن مستطيل تحيط به من كل من جوانبه الشمالية والشرقية والغربية ، مجنبة من رواقين . وكان يدور حول هذا الصحن صف من الدعامات ، منها أربع دعامات مزدوجة فى الأركان ، وخمس فى كل من قبليه وشماليه ، وأربع فى كل من شرقيه وغربيه .

وكان لبيت الصلاة محراب مثلث القاعدة ، يواجه البلاطة السادسة ، ولا يتوسط جدار القبلة . وكان للمسجد ستة أبواب ، ثلاثة منها فى الجدار الشرقى ، ومثلها فى الجدار الشمالى .

---

(١) تفضل السيد فؤاد سفر ، مفتش التنقيبات العام بمديرية الآثار العراقية ، بتزويدى مشكورا بالمعلومات التاريخية والأثرية الواردة أعلاه . كما تفضل فأعارنى الرسم التخطيطى الذى وضعته مديرية الآثار العراقية بعد الكشف عن أسس هذا التخطيط وهو الرسم الذى نقلت عنه شكل (٩٢) . هذا وقد أطلعت أثناء طبع هذا الفصل على مقال عنوانه : « التحريات الأثرية فى مناطق مشاريع الرى الكبرى فى العراق » ، وقد نشره الأستاذ فؤاد سفر فى الصفحات ٣ إلى ١٢ من الجزء الأول والثانى من المجلد السادس عشر ، سنة ١٩٦٠ ، من مجلة (سومر) التى تصدرها مديرية الآثار العامة للجمهورية العراقية فى بغداد . وفى صفحة (١١) من هذا المقال مجمل للبيانات الواردة أعلاه ، وفى اللوح (١١) مخطط المسجد وفيه مقياس الرسم .

المسجد الجامع فى حران

تقع حران شمالى الرقة ، غير بعيد منها ، وقد كشف فيها عن آثار المسجد الجامع . وأغلب الظن أن هذا المسجد قد شيد فيما بين سنتى ١٢٦ و ١٣٢ (٧٤٤ — ٧٥٠م) ، وهى الفترة التى اتخذت فيها حران عاصمة للخلافة ، فى عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية .

وقد زار ابن جبير حران فى رحلته المشهورة ، وكتب عن هذا المسجد (١) أنه « مسقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط (٢) ، وسعته خمس عشرة خطوة (٣) ، وهو خمسة أبلطة . وما رأينا جامعا أوسع حنايا منه (٤) ، وجداره المتصل بالصحن ، الذى عليه المدخل إليه ، مفتح كله أبوابا ، عددها تسعة عشر بابا ، تسعة يمينا ، وتسعة شمالا . والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار إلى أسفله ، بهى المنظر جميل الوضع ، كأنه باب من أبواب المدن الكبار .... فشاهدنا من حسن بناء هذا المسجد وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا قلما يوجد فى المدن مثل انتظامه » .

وقد كشفت الحفائر عن بعض آثار هذا المسجد التى يستدل منها على أنه كان يشغل مربعا تقريبا طول جدار القبلة فيه ١١٠ مترا . كما كشفت عن كثرة أبوابه المفتوحة على الصحن ، وظهرت سعة الباب الذى يتوسطها . وهذا الكشف يطابق ما ذكره ابن جبير ، غير أن (كريسويل) ، الذى عاين آثار هذا المسجد ، اعترف بأنه عاجز عن أن يضع صورة صحيحة لرسمه

---

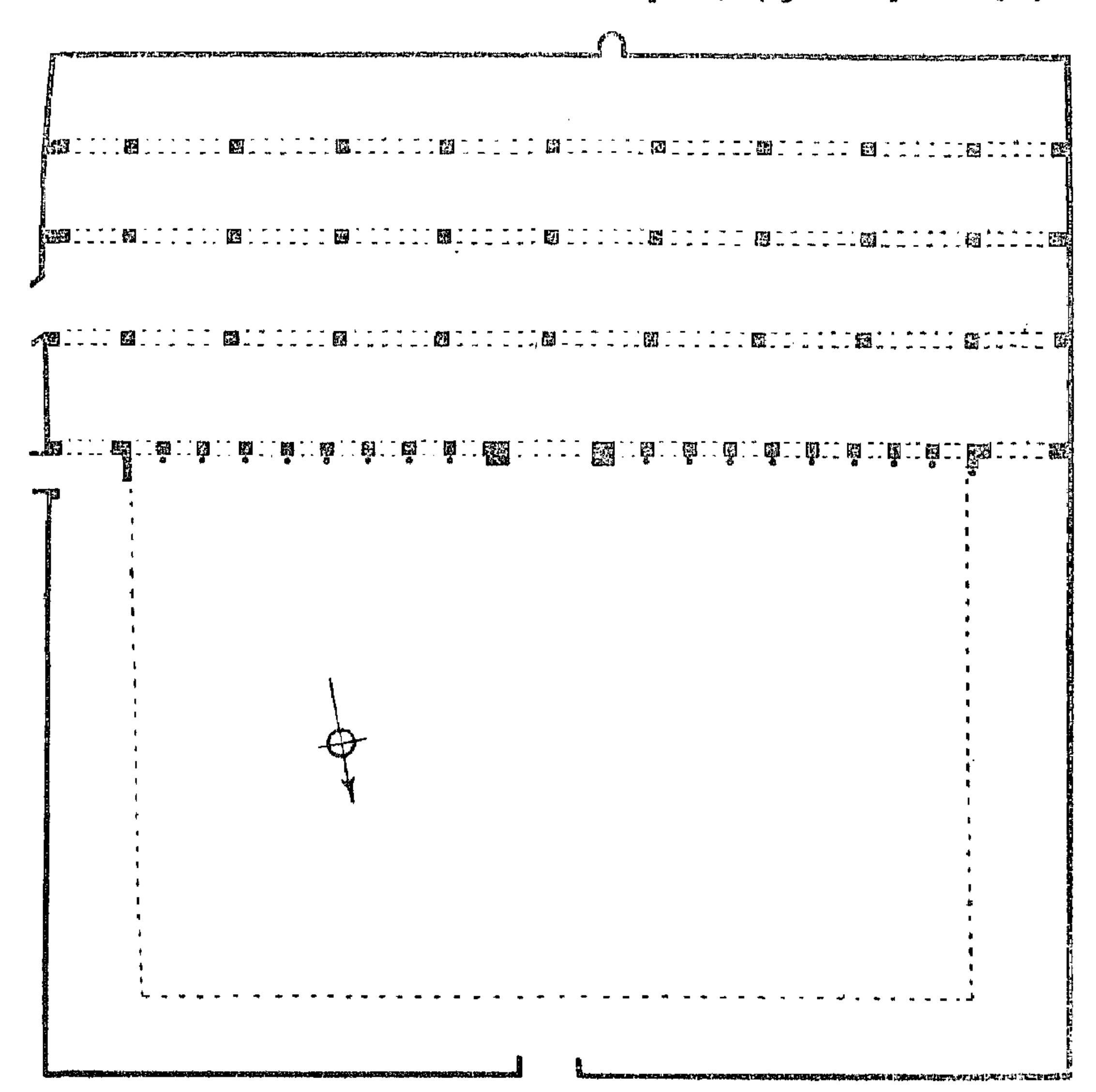
(١) « رحلة » ، صفحتا ٢٣٣ و ٢٣٤ ؛ و أبو الفدا ، « المختصر فى تاريخ البشر » ، الجزء الأول ، صفحتا ٤٦٨ و ٤٨٨ .

(٢) يقصد ابن جبير بالبلاطة ما اصطلحنا على تسميته بالأسكوب .

(٣) سعة الأسكوب فى المسجد الجامع الأموى بمقاس ابن جبير ١٨ خطوة .

(٤) أغلب الظن أن الذى يقصده ابن جبير بالحنايا هى عقود بيت الصلاة القائمة على دعامات .

التخطيطي نظرا لاختلاف أوضاع الأنقاض المتخلفة عن المسجد ، والتي تبدو له « غاية في الغرابة والتعقيد » (١) .



شكل (٩٣) — رسم تخطيطي للمسجد الجامع في حران ، في عهد مروان بن الحكم حوالي سنة ١٣٠ (٧٤٨ م) ، (من تصميم المؤلف) .

ولا يبدو لي الأمر كذلك ، فحدود المسجد ظاهرة واضحة المعالم ، وبيت الصلاة فيه محدود كذلك من نواحيه الأربعة ، وآثار الدعامات التي كانت تقوم عليها الحنايا ظاهرة متصلة بالجدار الشرقي لهذا البيت ، وجوفة

(١) الجزء الأول ، صفحة ٤٠٧ من كتابه « العمارة الاسلامية » .

المحراب قائمة فى جدار القبلة ، وبضعة من أبواب بيت الصلاة على الصحن ما زالت أسسها قائمة ، وآثار « الباب العظيم وسط هذه الأبواب » باقية . وكل هذه التفاصيل من نظام تخطيط المسجد ظاهرة على الرسم الذى نشره كريسويل (١) ، وجميعها كذلك مطابق لوصف ابن جبير . فيما عدا تفصيل واحد ، وهو أن ابن جبير ذكر أن بلاطات بيت الصلاة « خمسة » . وأسس الدعامات لا تصلح لغير أربعة أساكيب . وقد حاولت أن أوفق بين وصف ابن جبير وبين آثار أسس المسجد ، ووضعت رسما تخطيطيا له ، شكل (٩٣) ، يظهر فيه ما ذكره ابن جبير من سعة الأساكيب ، وتعدد أبواب بيت الصلاة على الصحن .

وفى هذا الرسم يبلغ طول جدار القبلة ١١٠ مترا وجوف بيت الصلاة ٣٨ مترا . ولا يتوسط المحراب جدار القبلة . ولا يواجه « الباب العظيم » المطل على الصحن . وتمتد فى بيت الصلاة ثلاثة صفوف من الدعامات تقسمه إلى أربعة أساكيب ، وهذه تنقسم بدورها إلى عشر بلاطات ، ويبلغ متوسط عرض كل من البلاطات والأساكيب تسعة أمتار ، فهى فسيحة. وهذه هى الظاهرة التى أثارت دهشة ابن جبير فكتب عنها أنه ما رأى « جامعا أوسع حنايا » من المسجد الجامع فى حران (٢) .

---

(١) شكل (٩٤) فى الجزء الأول من الكتاب المشار اليه . ويلاحظ أن (كريسويل) أخطأ فى تحديد اتجاه الشمال ، وبالتالى اتجاه القبلة ، فى هذا الشكل ، وصححه فى كتابه « المختصر » ، شكل ٢٨ ، صفحة ١٥١ . وقد سبق للآنسة (بل) دراسة هذا المسجد فى صفحات ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٨ من كتابها «قصر الأخيضر ومسجدها» :
Gertrude Bell ; Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914.

هذا وقد تعرض (سوفاجيه) لدراسة هذا المسجد فى كتابه (المسجد الأموى بالمدينة) ، فى صفحات ٩٧ إلى ١٠٠ ، وافترض أن تخطيط مسجد حران فى العصر الأموى كان يشمل ٣ أساكيب وأن بيت الصلاة كانت تتوسطه بلاطة فسيحة، وهو محض افتراض تخيل الكاتب أنه «لا يبدو غير معقول» كما قال فى صفحة ٩٩ :
« semble sans invraisemblance ».

(٢) « رحلة » ، صفحة ٢٣٤ .

الفصل الثامن

المساجد الجامعة فى القرنين الثانى والثالث
تاريخها ونظم تخطيطها

١ — مساجد المشرق العربى .
٢ — مساجد الأندلس .
٣ — مساجد المغرب .

الفصل الثامن

المساجد الجامعة فى القرنين الثانى والثالث

— ١ —

مساجد المشرق العربى

أوردت فيما سبق وصفا موجزا لتخطيط جميع المساجد الجامعة الأولى المعروفة فى الدول العربية ، والتى تنتمى إلى العصر الإسلامى الأول ، منذ الهجرة وإلى نهاية الدولة الأموية . وهى المساجد التى تخلفت عنها آثار أمكن الاستدلال منها على نظم تخطيطها فى ذلك العصر .

وسألخص فيما يلى تاريخ جميع المساجد المعروفة فى الدول العربية التى تنتمى إلى الفترة الممتدة من قيام الدولة العباسية إلى سنة ٢٦٥ (٨٧٩ م) ، وهى السنة التى تم فيها بناء المسجد الطولونى ، كما أنى سأوضح نظم تخطيطها .

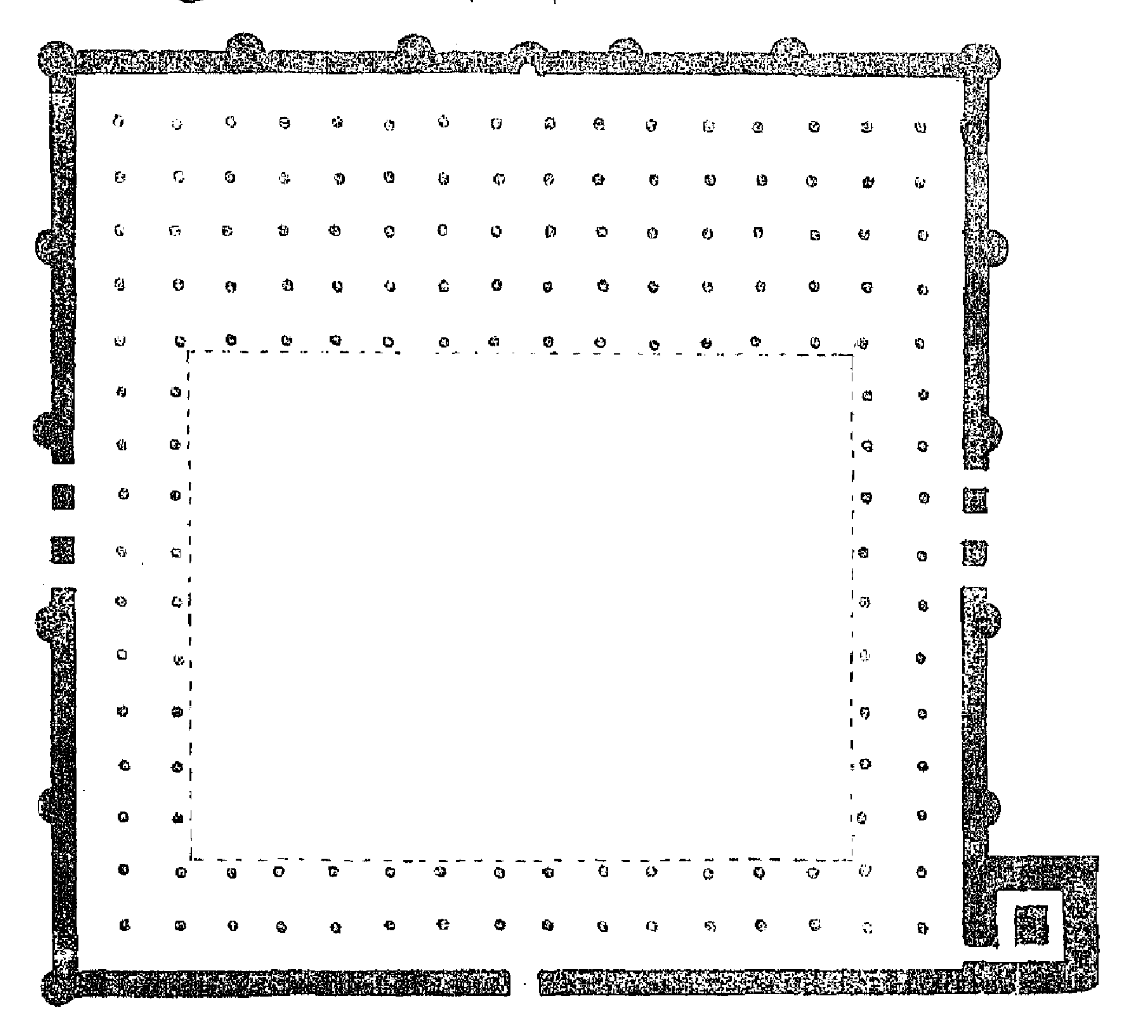
وأول هذه المساجد تاريخا هو :

مسجد المنصور ببغداد (١٤٩ هـ - ٧٦٦ م)

والمعروف أن الخليفة المنصور قد باشر بنفسه تخطيط عاصمة الخلافة الجديدة ، وأشرف على بنائها (١) . وقد اختار المنصور أن يكون موضع المسجد من تلك العاصمة فى مركزها ومحورها . وعهد بتخطيط مسجده

(١) الطبرى ، « تاريخ الرسل والملوك » ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٧٧ ؛ وابن الخطيب ، « تاريخ بغداد » ، الجزء الأول ، صفحات ١٠٧ إلى ١٠٩ .

إلى «الحجاج بن أرطأة» (١). وشرع فى تشييد المسجد فى نفس الوقت الذى بدىء فيه ببناء العاصمة فى سنة ١٤٥ (٧٦٢م)، وتم البناء بعد ذلك بأربع سنوات.

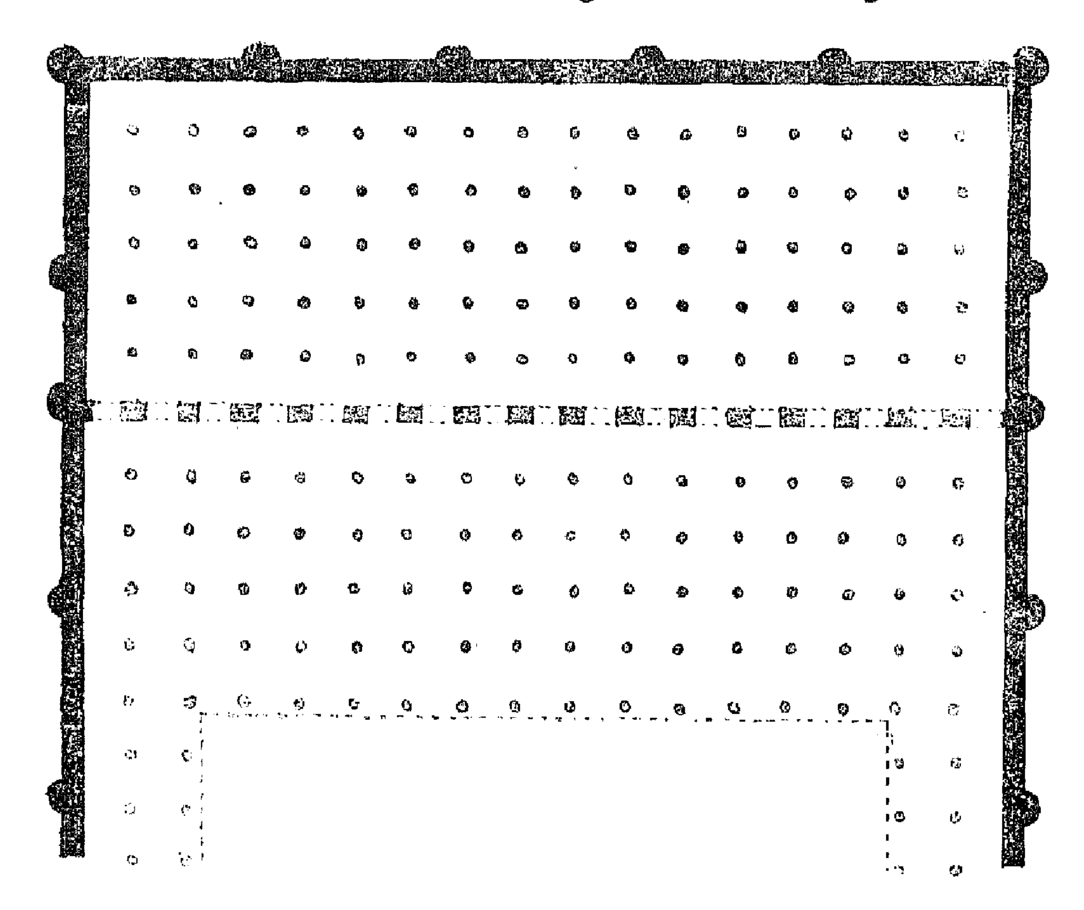


شكل (٩٤) — رسم تخطيطى لمسجد بغداد على عهد المنصور فى سنة ١٤٥ (٧٦٢ م). رسم منقول عن (هرتزفلد).

وقد اندثر المسجد وعفت آثاره العتيقة، غير أنه يمكن الاستدلال من أقوال المؤرخين، ومن معاينة موضعه القديم، على أنه كان يشغل مربعا طول كل ضلع من أضلاعه مائتى ذراع، أى ما يقرب من مائة

(١) الطبرى، المرجع السابق، صفحة ٣٢١.

متر ، وكان به بيت فسيح للصلاة يشغل ثلث مساحة المسجد كله ، ويحتوى خمسة أساكيب ، صفت فى كل منها ستة عشر عمودا من الخشب ، أى أن الأساكيب كانت تنقسم إلى سبع عشرة بلاطة . وكان بيت الصلاة يطل على جانب من الصحن ، وكانت تحيط بالصحن من جوانبه الثلاثة الأخرى مجنبات ، بكل منها رواقان ، شكل (٩٤) .



شكل (٩٥) — رسم تخطيطى لزيادة بيت الصلاة فى مسجد بغداد فى عهد المعتضد بالله سنة ٢٨٠ (٨٩٣ م) ، (من تصميم المؤلف) .

وذكر المؤرخون كذلك (١) ، أن الخليفة هارون الرشيد أمر بتجديد المسجد وإعادة بنائه فى سنة ١٩٢ (٨٠٧م) . ولعله أعاد البناء على ما كان

(١) ابن الخطيب ، « تاريخ بغداد » ، الجزء الأول ، صفحات ١٠٧ إلى ١٠٩ ؛ والمقدسى ، « أحسن التقاسيم » ، صفحة ١٢١ ؛ وابن بطوطه ، « رحلة » ، الجزء الثانى ، صفحة ١٠٧ .

عليه ، ثم ان المسجد ضاق بالمصلين ، فأمر الخليفة المعتضد بالله بزيادته في سنة ٢٨٠ (٨٩٣م) ، وأضاف إلى بيت الصلاة من جهة القبلة بيتا آخر يعادله حجما ، من خمسة أو ستة أساكيب أخرى ، وامتدت البلاطات السبعة عشر إليها فاجتازتها إلى جدار القبلة الجديد . وجعل المعتضد للمسجد صحنا ثانيا ، في امتداد الصحن العتيق ، في مؤخرة المسجد (١) ، شكل (٩٥).

مسجد الأخيضر

تعددت الآراء بشأن قصر الأخيضر في العراق ، ولا يعرف بالتحديد منشىء هذا القصر وتاريخ إنشائه (٢) . قيل إن هذا القصر هو « دومة الحيرة » التي شيدت في العصر الأموي ، وقيل إنه من المحتمل أن يكون بانيه عيسى بن موسى — ابن عم السفاح — في مستهل العصر العباسي .

وأيا كان وجه الصحة في تاريخ إنشاء القصر والمسجد القائم فيه فالذي يهمنا أنه قد كشف عن آثار هذا المسجد ، في سنة ١٩٠٩ ، وأمكن الاستدلال على محرابه ونظام تخطيطه. ويظهر في الشكل الذي نشر لتخطيط هذا المسجد أنه يحتل مستطيلا طول جدار القبلة فيه ٢٥ مترا تقريبا ، وطول كل من جداريه الشرقي والغربي ١٥ مترا تقريبا . ويتكون بيت الصلاة من أسكوب

---

(١) وضع رسمان افتراضيان متعارضان لمسجد المعتضد ، الرسم الأول وضعه (هرتزفلد) ونشره في ص ١٣٧ من الجزء الثاني من كتابه « نزهة أثرية » ، والرسم الثاني وضعه (كريسويل) ونشره في صفحة ٣٣ من الجزء الثاني من كتابه « العمارة الاسلامية » وفي صفحة ١٨١ من كتابه « المختصر » . أما الرسم الذي أنشره والذي يتفق مع رسم « هرتزفلد » ، فهو يستند إلى أنه كان من المتبع في زيادات المساجد الجامعة أن يهدم جدار القبلة وتضاف أساكيب جديدة إلى بيت الصلاة الأول من جهة القبلة. هذا ما حدث في مسجد المدينة ومسجد عمرو ومساجد سوسة والقرويين وقرطبة وغيرها .

(٢) ينظر « الأخيضر » من مطبوعات مديرية الآثار العراقية ، سنة ١٩٣٧ ، صفحات ٣٣ إلى ٤٥ . وفي هذا الدليل رسم لمخطط المسجد .

واحد ، يتوسطه محراب من طاقة مجوفة مستطيلة القاعدة ، وعرض هذا الاسكوب خمسة أمتار تقريبا . وهو يطل على الصحن ببائكة من خمسة عقود ، وللصحن مجنبتان غيره ، تطل كل منهما عليه بثلاثة عقود ، وليس للمسجد مؤخر (١) .

مسجد الرقة (١٥٥هـ - ٧٧٢م)

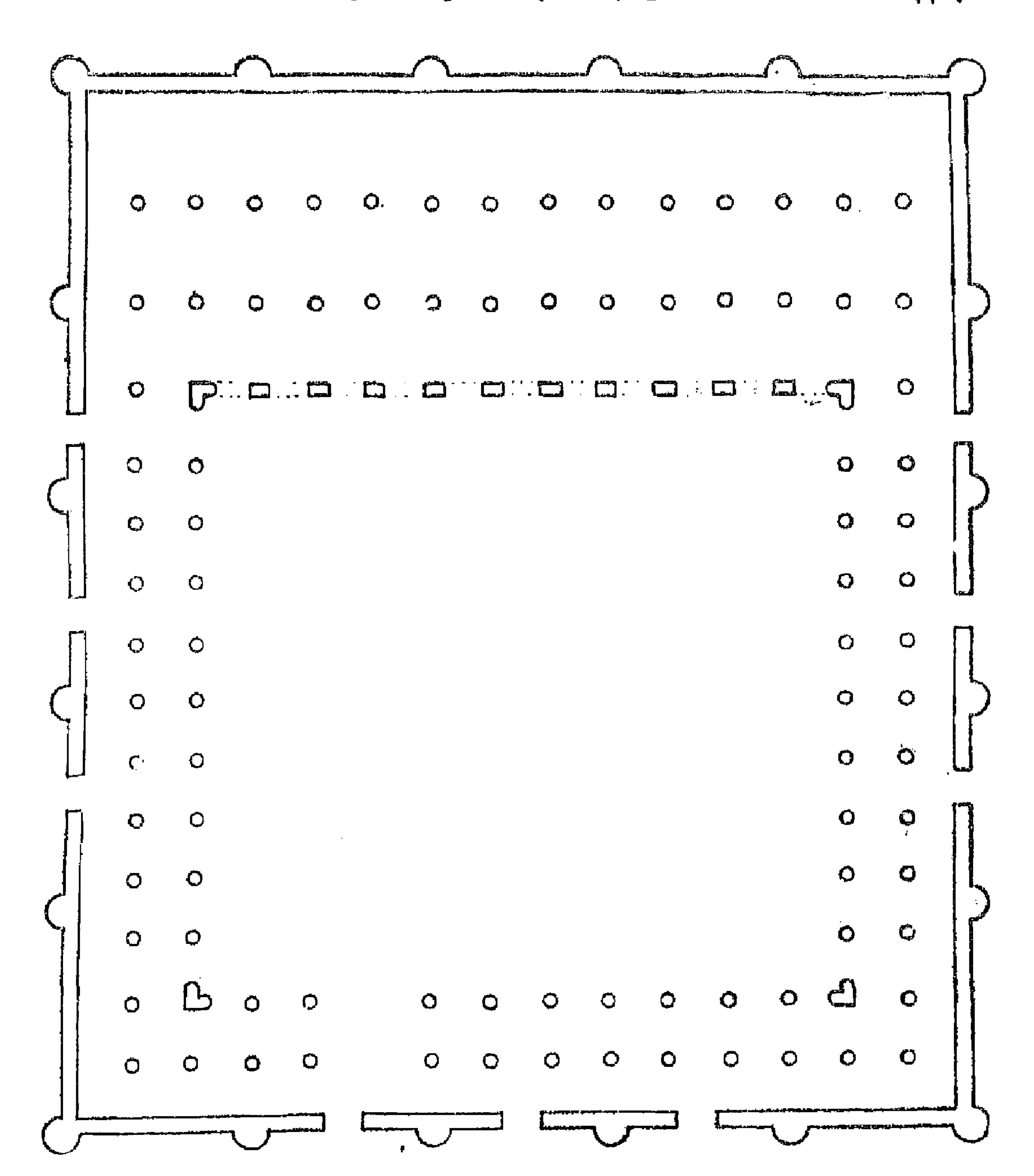
أنشأ المنصور هذا المسجد فى سنة ١٥٥ ، وهى السنة التى أنشأ فيها مدينة الرقة . وقد اندثرت المدينة والمسجد ، ولكنه تخلفت منهما آثار لها أهمية كبرى بالنسبة لعناصر البناء والزخرفة العربية .

وقد كشفت الآثار عن أن مسجد الرقة شكل (٩٦) : كان يحتل مستطيلا مقاساته داخل الجدران هى ١٠٨ مترا طولا و ٩٣ مترا عرضا . ويعادل هذا العرض طول جدار القبلة . وكان جوف بيت الصلاة يمتد اثنين وثلاثين مترا ، وينقسم إلى ثلاثة أساكيب عريضة ، مثل أساكيب مسجد حران ، عرض كل منها عشرة أمتار تقريبا .

ويبدو أن أسكوب المحراب فى هذا المسجد كان أكثر سعة من الأسكوبين الآخرين إذ أنه كانت تقوم خارج الجدارين الشرقى والغربى من بيت الصلاة دعامتان متقابلتان كما يرى فى الشكل المنشور على الصفحة التالية . ولابد أن صف الأعمدة الذى يتوسط الأسكوبين الثانى والثالث كان يقع فى امتدادهما ، إذ ليس من المنطق المعمارى أن ينحرف صف الأعمدة عن سمت هاتين الدعامتين ، كما يظهر على الرسم الذى افترضه (هرتزفلد) (٢) . وعلى

(١) ينظر (ماسينيون) مقال « الأخيضر » فى دائرة المعارف الاسلامية ،
L. Massignon-Art. Ukhaidir. Encyclopédie de L'Islam, T. IV, p. 1047.
وينظر (بل) « الأخيضر » ؛ وصفحات ٩٦ و ٩٨ من الجزء الثانى من كتاب (كريسويل) ، « العمارة الاسلامية » .
Gertude L. Bell: Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914.

(٢) وذلك فى كتاب (زاره و هرتزفلد) « نزهة أثرية » .



شكل (٩٦) — رسم تخطيطي لمسجد الرقة فى عهد المنصور سنة ١٥٥ (٧٧٢ م)
رسم منقول عن (هرتزفلد) ، مع بعض التعديل .

الرسم الثانى المطابق له الذى نشره (كريسويل) (١) . وقد افترض (هرتزفلد) أن هذه الأساكيب كانت تنقسم إلى خمس عشرة بلاطة ، أى أنه كان فى بيت الصلاة صفان من الدعامات بكل صف منها ١٤ دعامة ، ويؤيد هذا

(١) صفحة ٤٦ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية » .

الافتراض مقاسات المسافات الفاصلة بين آثار الدعامات . وكان للمسجد صحن يكاد يكون مربعا ، طوله ٦٨ مترا وعرضه ٦٣ . ويتضح من آثار دعامات فى أركان هذا الصحن أنه كانت تحيط به ثلاث مجنبات ، بكل منها رواقان . ولم يتحقق (هرتزفلد) من موضع المحراب ورسمه .

مسجد سامراء الجامع (٢٣٥هـ - ٨٥٠م)

المعروف أن الخليفة المتوكل هو الذى بنى المسجد الجامع فى سامراء ولكنه لا يعرف تحديدا تاريخ بنائه له ؛ وقد تولى المتوكل الخلافة فيما بين سنتى ٢٣٢ و ٢٤٧ (٨٤٧ – ٨٦١م) ، فيكون المسجد قد شيد فيما بين هاتين السنتين .

وقد اندثر هذا المسجد ، كما اندثرت جميع مساجد العراق القديمة ولم يتبق منه غير جدرانه الخارجية ومئذنته المشهورة باسم « المنارة الملوية »(١). وهذه الجدران سميكة إلى حد كبير ، إذ يزيد سمكها عن المترين والنصف ، وتحيط بها دعامات خارجية ضخمة ، قطرها يزيد عن الثلاثة أمتار ونصف المتر . وهى تبعد الواحدة منها عن الأخرى ١٥ مترا . ويبلغ عدد هذه الدعامات ٤٤ ، أربعة منها فى أركان الجدران ، و١٢ فى كل من الجدارين الشرقى والغربى ، و ٨ فى كل من الجدارين الجنوبى والشمالى .

وكان المسجد يحتل المساحة المنحصرة بين هذه الجدران . وهى تشغل مستطيلا طوله ٢٤٠ مترا وعرضه ١٥٦ مترا ؛ فكأن هذا المسجد كان أكبر المساجد التى شيدت فى العصور الأسلامية كلها ، خاصة وأنه كانت تحيط بجوانبه الشرقية والغربية والشمالية زيادات خارج جدرانه ؛ مما كان يجعل مقاساته الخارجية ٤٤٤ مترا طولا و ٣٧٦ مترا عرضا ، أى ما يعادل مساحة أربعين فدانا .

---

(١) ينظر البحث الذى نشره (هرتزفلد) عن « آثار سامراء » وعنوانه :
Erst vorlaufiger Bericht uber die Ausgrabungen von Samarra, Berlin, 1912.
واللوحة (٢٠) من الجزء الثالث من كتابه « نزهة أثرية » .

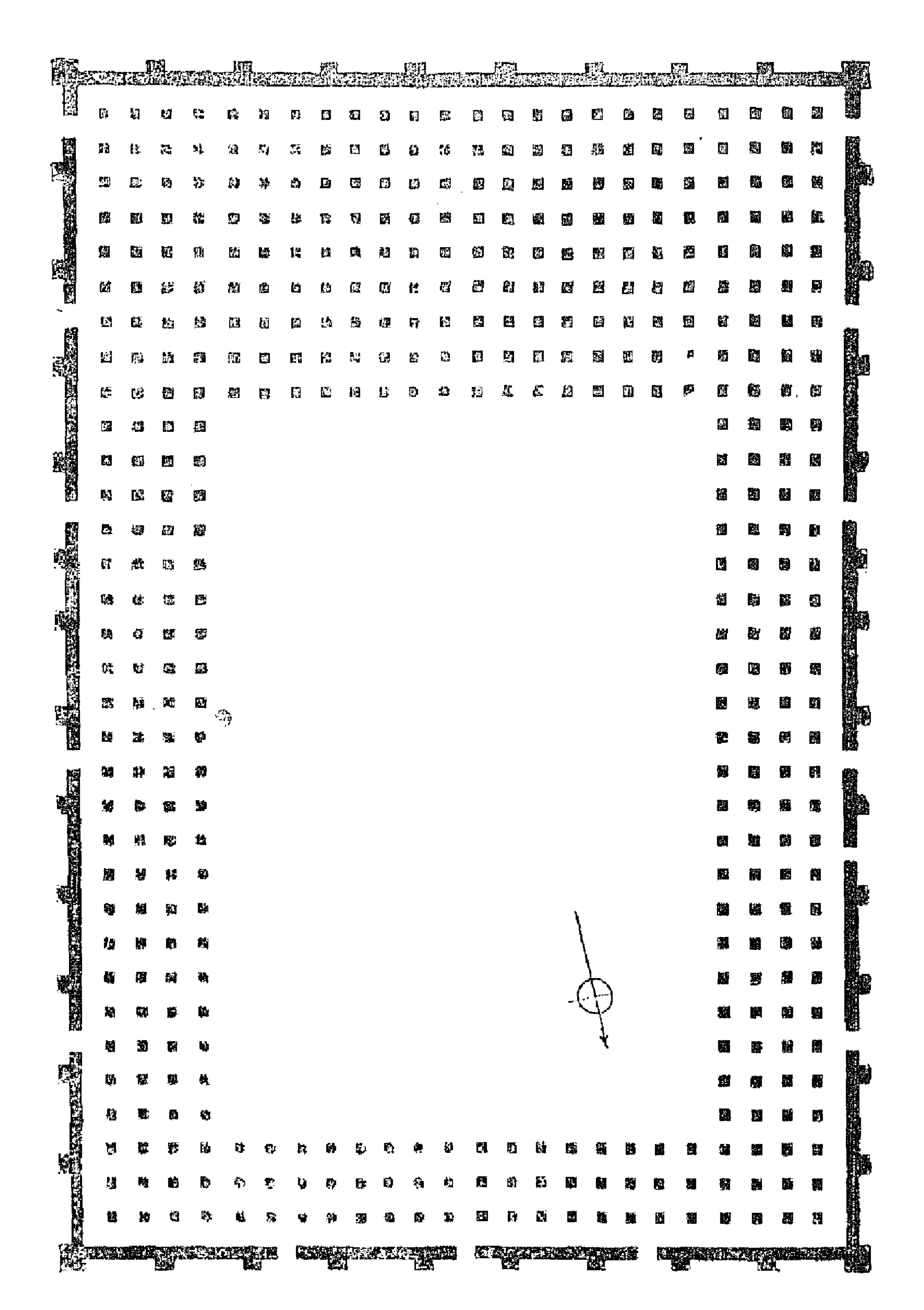
ويستدل من نتائج الحفائر التى أجريت فى هذا المسجد ، والتى نشرها (هرتزفلد) لأول مرة فى سنة ٩١٢ ، شكل (٩٧) ، على أن طول جدار القبلة ١٥٠ مترا ، وجوف بيت الصلاة ٦٢ مترا . وكان بيت الصلاة هذا ينقسم إلى تسعة أساكيب ، يحدها تسعة صفوف من الدعامات ، موازية لجدار القبلة ، بكل صف منها ٢٤ دعامة تقسم الأساكيب إلى خمس وعشرون بلاطة . وكانت الدعامات مربعة القاعدة ، طول ضلع كل منها متران ، وكانت تعلو إلى ارتفاع يقرب من عشرة أمتار ونصف المتر ، على هيئة مضلع من ثمانية أضلاع ، يحف بكل ركن من أركانه الأربعة أسطوانة من الرخام . وكان المحراب طاقة مستطيلة تتوسط جدار القبلة ، مقاساتها متران وستون سنتيمترا ، طولا ، وما يقرب من مترين ، عرضا ، وبلغ عدد الدعامات فى بيت الصلاة وحده ٢١٦ دعامة .

وكان يحيط بصحن المسجد الفسيح مجنبات فى جهاته الثلاثة ، فى المؤخر منها ثلاثة أروقة ، على نظام أساكيب بيت الصلاة ، أى أنه كان بكل منها خمس وعشرون مربعة ، وفى كل من المجنبتين الشرقية والغربية أربعة أروقة تحدها أربعة صفوف من الدعامات فى اتجاه القبلة ، بكل صف منها إحدى وعشرون دعامة ، أو اثنتان وعشرون مربعة . أى أن جملة عدد الدعامات الداخلية فى المسجد بلغت ٤٥٦ دعامة .

وتعددت أبواب المسجد تبعا لاتساع أرجائه ، فكانت جملتها ١٦ بابا ، منها اثنان يحفان بالمحراب ، ومثلها فتحا فى جدار المؤخر ، وخمسة مفتوحة فى الجدار الشرقى ، وسبعة فى الجدار الغربى .

أما المنارة الملوية ، فقد سبق أن أشرت اليها فيما قبل (١) ، وهى تقوم على قاعدة مربعة ، طول ضلعها ٣٣ مترا ، وتتصل بمؤخر المسجد عن طريق طوله ٢٥ مترا وعرضه ١٢ مترا . وكانت قمة المنارة تعلو إلى ارتفاع خمسين مترا فوق سطح قاعدتها .

(١) تنظر صفحة ١١٨ فيما سبق .



شكل (٩٧) — رسم تخطيطي لمسجد سامراء في عهد المتوكل سنة ٢٣٥ (٨٥٠) ، رسم منقول عن (هرتزفلد) .

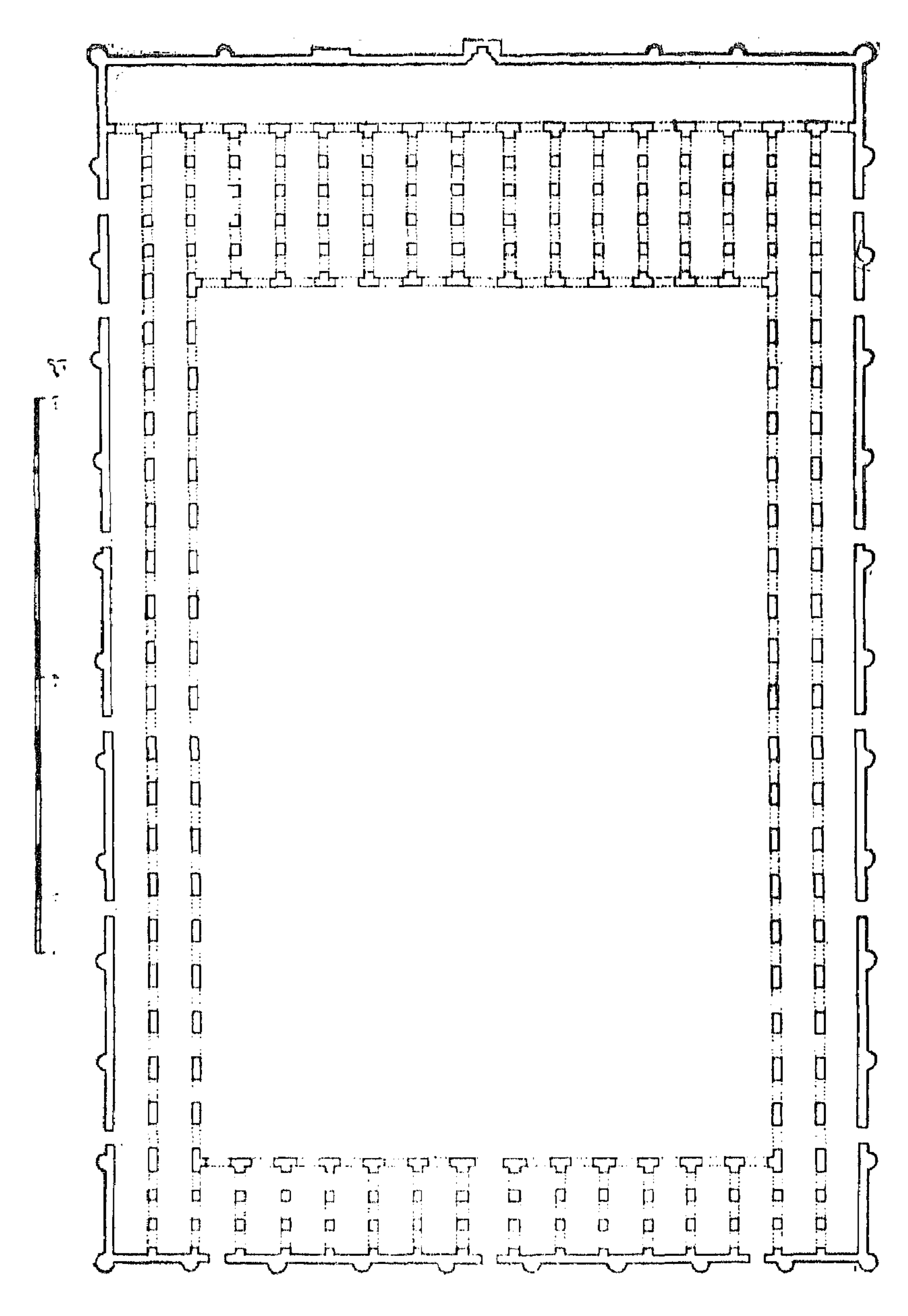
مسجد أبى دلف الجامع (٢٤٥هـ - ٨٦٠م)

بنى الخليفة المتوكل بعد سامراء مدينة جديدة أسماها الجعفرية (١) ، وشيد فيها مسجد أبى دلف الجامع (٢) . بدىء البناء سنة ٢٤٥ (٨٦٠م) وتم بعد سنة وستة أشهر ، ثم هجر المسجد مع المدينة بعد ذلك ببضعة أشهر ، فى شوال سنة ٢٤٧ (ديسمبر ٨٦١ م) وذلك بعد مقتل الخليفة المتوكل . وقد اندثرت معظم جدران المسجد ، وتخلفت آثار من بنيانه ، شكل (٩٨) . يستدل منها على أنه كان مسجدا فسيحا ، قريبا فى مساحته من مسجد سامراء إذ أنه كان يشغل مستطيلا طوله ٢٢٠ مترا وعرضه ، أى جدار القبلة فيه ، ١٤٠ مترا . وكان جوف بيت الصلاة يمتد ٤٠ مترا ، وكان به أسكوب فسيح يلى جدار القبلة هو أسكوب المحراب وكان يمتد من خلف دعاماته خمسة أساكيب أخرى ، موازية كذلك لجدار القبلة ، ولكن اتجاه دعاماتها وبوائكها عمودى على هذا الجدار . وكانت هذه الأساكيب السبعة تنقسم إلى سبع عشرة بلاطة . وكانت المساحة بين الدعامات ، سواء بالنسبة للأساكيب أو بالنسبة للبلاطات أربعة أمتار تقريبا ، فيما عدا أسكوبى المحراب ، فكان عرض كل منهما ستة أمتار ، وبلاطة المحراب ، فكان عرضها خمسة .

وكان للمسجد صحن فسيح طوله ١٥٦ مترا وعرضه ١٠٤ ، تطل عليه من جهاته الأربعة بوائك قائمة على دعامات ، منها بائكة من اثنتى عشرة دعامة فى كل من جنوبيه وشماليه ، وبائكة من تسع عشرة دعامة فى كل من شرقيه وغربيه ، وترتكز دعامة أخرى فى كل من أركانه الأربعة . وتحيط بالصحن مجنبات بكل منها أروقة تتجه عقودها جميعا فى اتجاه القبلة ،

(١) يسميها البلاذرى « المتوكلية » فى صفحة ٢٩٨ من « فتوح البلدان » ، ويسميها الطبرى « الماحورة » فى صفحة ١٤٣٨ من الجزء الثالث من « تاريخ الرسل والملوك » .

(٢) يراجع (هرتزفلد) ، صفحتا ٧٢ ، ٧٣ من الجزء الأول من « نزهة أثرية » ، والشكل الذى أنشره مقتبس من هذا الكتاب ، لوحة (١٤) .



شكل (٩٨) — رسم تخطيطي لمسجد أبي دلف في عهد المتوكل سنة ٢٤٥ (٨٦٠ م)، رسم منقول عن (هرتزفلد) .

بالمؤخر ثلاثة أروقة ، وبكل من المجنبتين الشرقية والغربية رواقان. وكانت سقف المسجد تستند على عقود وترتفع ثمانية أمتار فوق سطح الأرض .

وجدران المسجد غليظة ، كانت تحيط بها دعامات خارجية ، على غرار جدران مسجد سامراء . وكانت تخترقها خمسة عشر بابا ، ثلاثة شمالا ، وستة فى كل من الجدار الشرقى والغربى . وكذلك كانت تحيط بالمسجد زيادات ، بحيث كانت المساحة الشاملة للمسجد وزياداته تنحصر فى مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٣٥٠ مترا . والمئذنة أطلال وخراب ، ولكنها كانت صورة مصغرة للمنارة الملوية فى سامراء .

— ٢ —

مساجد الأندلس

مسجد قرطبة الجامع (١٧٠هـ - ٧٨٦م)

كانت الأندلس غنية بمساجدها فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وقد اندثرت هذه المساجد ، ولكن الأندلس ما زالت غنية بآثارها العربية . فانه ما زال ينتصب فى ربوعها مسجد قرطبة(١)، وهو أكبر مسجد قائم فى الأسلام ، وثالث المساجد الكبرى مساحة ، بعد مسجدى سامراء وأبى دلف

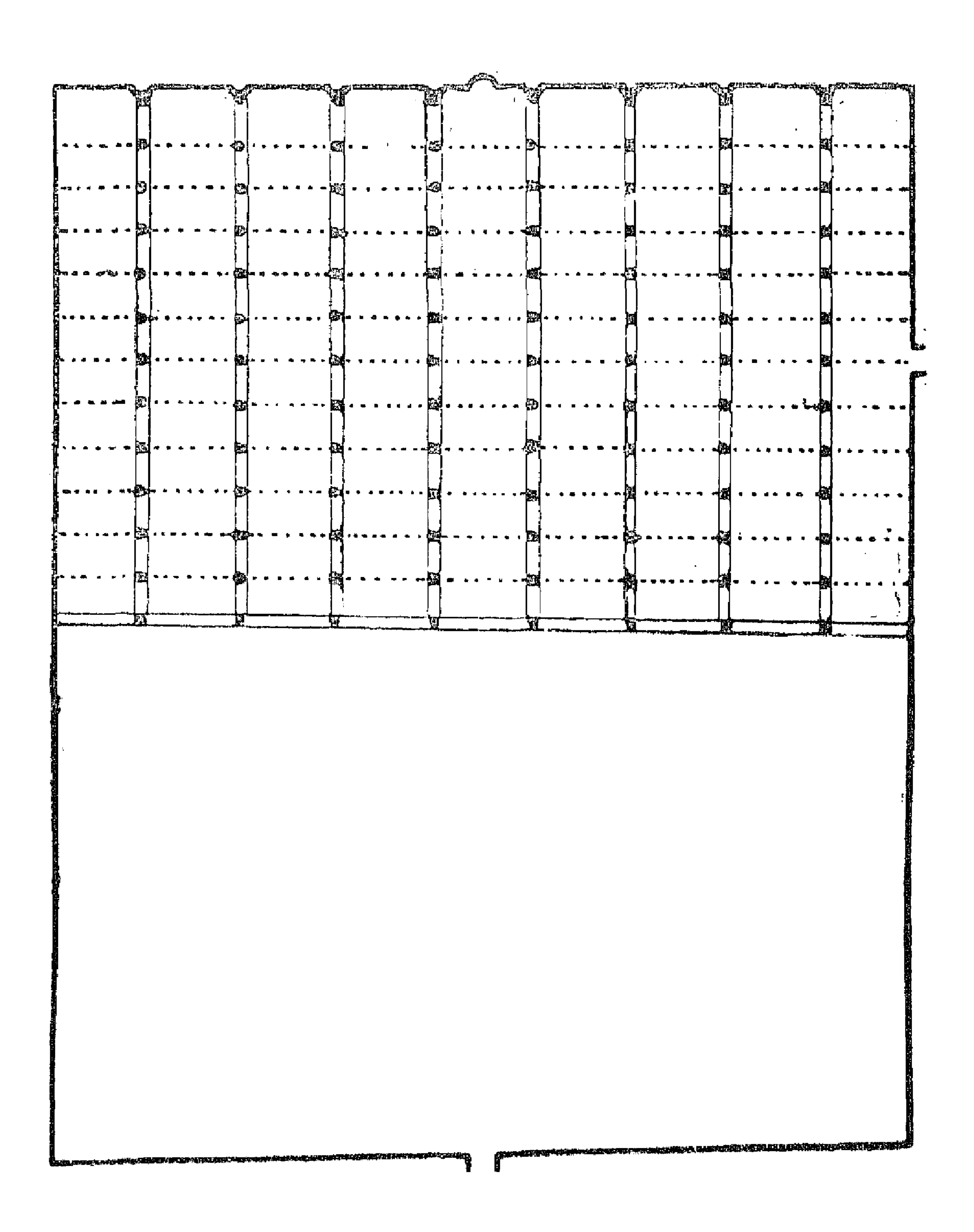
(١) أهم المراجع عن تاريخ مسجد قرطبة هى : المقرى ، « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، صفحة ٢٥٨ وما يليها ؛ والحميرى ، « الروض المعطار » ، صفحات ١٥٣ إلى ١٥٨ ؛ وابن عذارى ، « البيان المغرب » جزء ثان ، صفحات ٢٢٩ إلى ٢٤١ ؛ والكتب الافرنجية التالية :

Manuel Gomez-Moreno: El Arte Arabe Espanol. Vol. III de Ars Hispaniae, pp. 19-61, 91-171. Madrid, 1961.

Marçais, George: L'Architecture Musulmane d'Occident, Paris, 1954, pp. 135-151.

K.A.C. Creswell: Early Muslim Architecture, vol. II, pp. 138-161.

Terrasse, Henri: L'Art Hispano-Mauresque, Paris, 1932.



شكل (٩٩) — رسم تخطيطي لمسجد قرطبة الجامع في عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ (٧٨٦ م) ، عن (مانويل جوميث مورينو) .

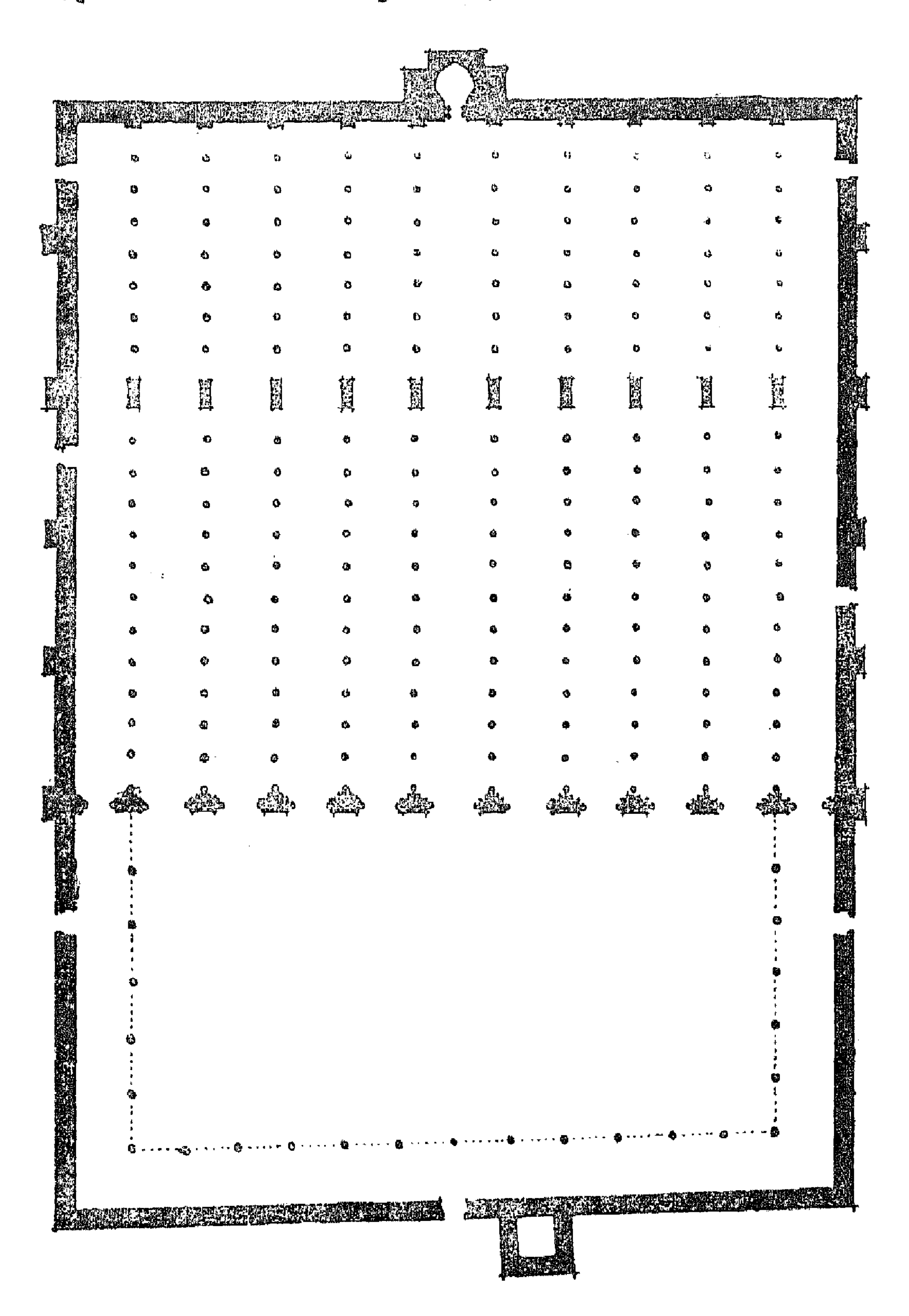
اللذين اندثرا ، وهو إلى هذا أكثر المساجد قاطبة أهمية معمارية ، وفخامة زخرفية ، وأحفلها تاريخا . إنه مسجد فريد بين آثار العمارة العربية الاسلامية ، ولن نجد أثراً مثله ، ينطق بتاريخ دولة بأسرها (١) .

وأول من شيد المسجد القائم حاليا هو عبد الرحمن الداخل ، فى سنة ١٧٠ (٧٨٦ م) . وكان المسجد حينئذ ، شكل (٩٩) ، مستطيلا طوله ٧٥ مترا تقريبا ، وعرضه ٦٥ مترا وكان بيت الصلاة فيه يمتد ٦٥ مترا فى موازاة جدار القبلة ، و ٣٧ مترا فيما بين هذا الجدار والصحن . وكان هذا الصحن يشغل مساحة تعادل مساحة بيت الصلاة تقريبا ، وجعل عبد الرحمن الداخل فى هذا البيت اثنى عشر أسكوبا تنقسم إلى تسع بلاطات. وزاد هشام بن عبد الرحمن فى المسجد ، قبل سنة ١٨٠ (٧٩٦م) ، مجنبة لبيت الصلاة على الصحن . وما لبث المسجد أن ضاق بالمصلين ، فأمر الخليفة عبد الرحمن الأوسط بزيادته . وزيد فيه مرتين ، المرة الأولى سنة ٢١٨ (٨٣٣م) ، إذ أضيفت إلى بيت الصلاة بلاطتان ، واحدة فى شرقيه وأخرى فى غربيه (٢) ، وأضيفت إلى الصحن مجنبتان ، واحدة فى الجهة الشرقية ، والأخرى مقابلة لها ، فى امتداد البلاطتين الجديدتين . وتمت الزيادة الثانية بعد ذلك بست عشرة سنة ، فى سنة ٢٣٤ (٨٤٨ م) ، إذ أمر عبد الرحمن الأوسط بهدم جدار القبلة ، وزيد المسجد من جهتها

(١) أحمد فكرى ، « العمارة فى الأندلس » ، مجلة الكاتب المصرى ، مجلد ٢ ، عدد ٥ ، فبراير ١٩٤٦ ، صفحة ١٠٩ إلى ١١٧ .

(٢) يلاحظ أن كريسويل وضع رسما مختلا للمسجد فى عهد عبد الرحمن الداخل ، زاد فيه من عدد البلاطات ومن مساحة الصحن ، وذلك فى الكتاب المشار اليه أعلاه صفحة ١٥٥ ، شكل (١٤٧) ، وفى كتابه « المختصر » المطبوع سنة ١٩٥٨ ، صفحة ٢٢٥ ، شكل(٤٤). ولم يراع كريسويل النصوص التاريخية التى كشف عنها ونشرت قبل طبع كتابه الأول بأربع سنوات ، وقبل طبع كتابه الثانى باثنى وعشرين سنة ، ينظر :

E. Lambert; Histoire de la Grande Mosquée de Cordoue, Annales de L'institut d'Etudes Orientales, T. II. Année 1936, pp. 165-179.



٠ ٥ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ متراً

شكل (١٠٠) — رسم تخطيطى لمسجد قرطبة الجامع فى عهد عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٤ (٨٤٨ م) ، عن (جوميث مورينو) .

ثمانية أساكيب ، وبنى للقبلة جدار جديد ، وبنى به محراب آخر بدلا من محراب عبد الرحمن الداخل ، فتضاعفت مساحة بيت الصلاة تقريبا ، وأصبح يشمل عشرين أسكوبا ، تنقسم إلى إحدى عشرة بلاطة ، كما أصبح جوفه يمتد سبعين مترا ، من جدار القبلة إلى الصحن شكل (١٠٠) . وقد روعى فى تخطيط الأساكيب أن تتوازى امتدادا ، وتتساوى عرضا ، أما البلاطات فتختلف مقاساتها ، وأقلها اتساعا بلاطة يبلغ عرضها ستة أمتار وتسعين سنتيمترا ، وأكثرها اتساعا ، وهى بلاطة المحراب ، يبلغ عرضها سبعة أمتار وثمانين سنتيمترا . وأضيف إلى البهو مجنبة فى جهته الشمالية ، أى فى مؤخره ، فأصبحت تحيط به مجنبات من الجهات الأربعة (١) .

وكان بالمسجد ثلاثة أبواب فى جداره الغربى ، منها اثنان ينفذان إلى بيت الصلاة ، وثلاثة تقابلها فى الجدار الشرقى ، وباب واحد فى مؤخره . كما كان للمسجد مئذنة خارج هذا المؤخر وإلى جوار هذا الباب . وبلغت مساحة المسجد ، فى تلك المرحلة الثانية الكبرى من تاريخه ، ١٣٠ مترا طولا و ٧٥ مترا عرضا .

مات عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد الجديد ، فأتمها ابنه محمد ، فى سنة ٢٤١ (٨٥٥م) ، وسجل تاريخ ذلك على أحد أبواب المسجد الجانبية ، كما أنه عمل مقصورة بجوار المحراب . ثم إن الأمير عبد الله بن محمد هذا ، أقام « الساباط » بين قصر الأمارة والمسجد الجامع ، وكان يفصلها طريق ، فربط بينهما .

وجددت زخارف المسجد فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فى سنة ٣٤٠ (٩٥١م) ، وبنيت به مئذنة جديدة ، وأجريت به إصلاحات وتجديدات ، ولم يزد فيه ولم يتغير تخطيطه .

ولكن المسجد زيد مرة رابعة فى عهد الحكم المستنصر بالله سنة ٣٥١ (٩٦١م) ، فهدم جدار القبلة مرة ثانية ، ونقلها على بعد ٣٥ مترا إلى الجنوب ، وأضاف إلى بيت الصلاة اثنى عشر أسكوبا ، أى أن بلاطات

---

(١) لم تظهر مجنبة بيت الصلاة فى شكل (١٠٠) المنقول عن (جوميث مورينو) .

المسجد الأحدى عشرة أصبحت تجتاز كل منها اثنين وثلاثين أسكوبا ، وبلغت مساحة بيت الصلاة ٧٥ مترا عرضا ، في موازاة جدار القبلة ، و ١٠٥ مترا طولا ، فيما بين هذا الجدار والصحن (١) .

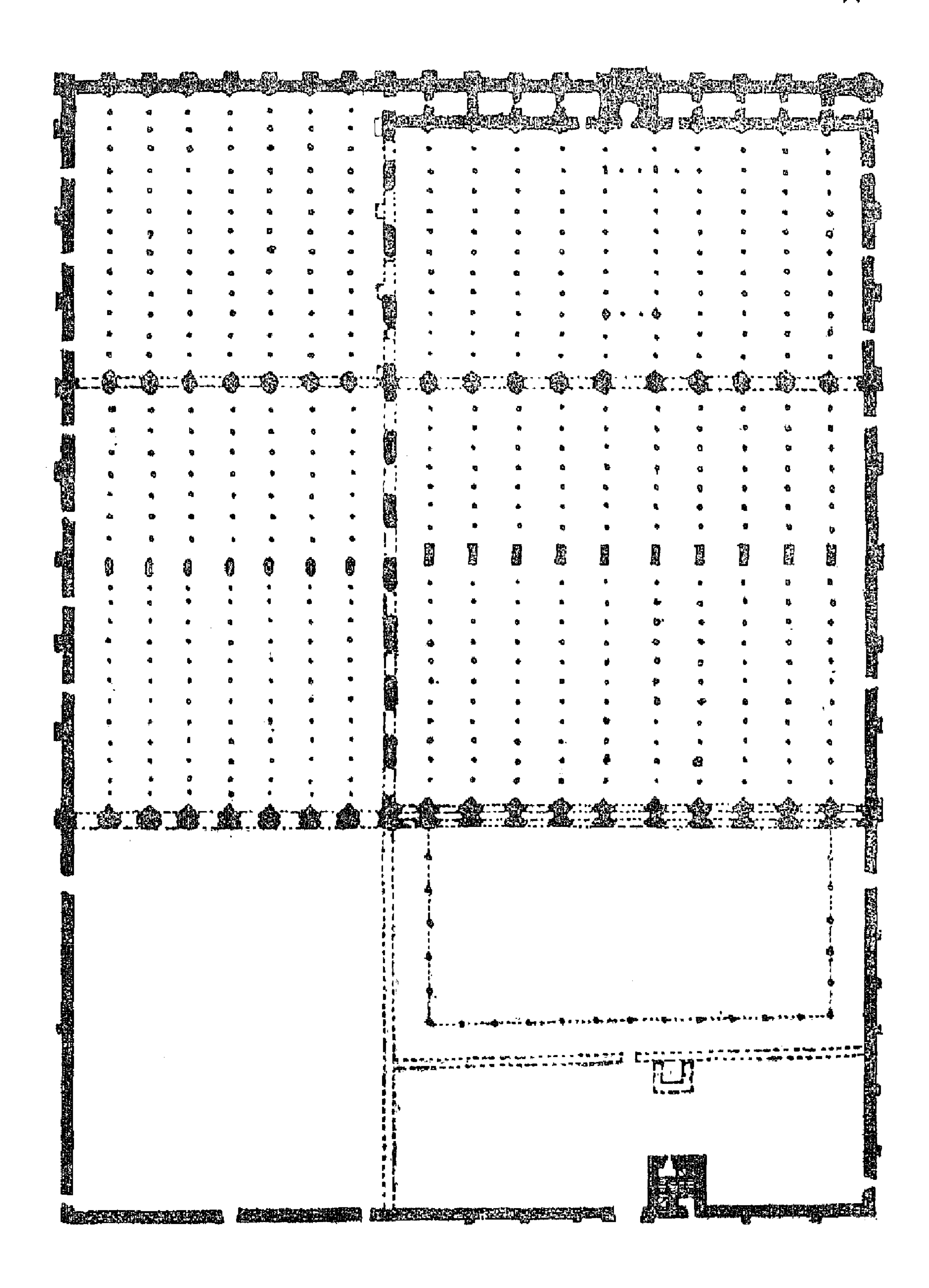
وبالرغم من هذه الزيادات كلها ، فقد ضاق المسجد مرة خامسة بالمصلين ، فشرع المنصور بن أبي عامر ، ولى الخليفة هشام بن الحكم ، في زيادة المسجد ، سنة ٣٧٧ (٩٨٧م) ، وتمت الزيادة في هذه المرة شرقي بيت الصلاة والصحن ، ومد جدار القبلة خمسين مترا شرقا ، وزيد في بيت الصلاة ثمان بلاطات امتدت مثل امتداد بلاطات بيت الصلاة السابقة ، أي مساحة ١٠٥ مترا ، فأصبح بيت الصلاة يشمل تسع عشرة بلاطة واثنين وثلاثين أسكوبا (٢). وبلغت مساحة المسجد جميعا ١٢٥ مترا في موازاة جدار القبلة ، و ١٨٠ مترا فيما بين هذا الجدار وجدار مؤخر المسجد . وهي مساحة تبلغ اثنين وعشرين ألفا وخمسمائة من الأمتار المربعة ، أو ما يزيد عن خمسة أفدنة ، شكل (١٠١) في الصفحة التالية (٣) ، وهي المساحة التي مازال المسجد العظيم يشغلها إلى اليوم ، والتي يشغل بيت الصلاة منها أكثر من ثلاثة أفدنة ، جعلت منه أعظم بيوت صلاة المساجد في العالم الاسلامي حجما ، وأكثرها اتساعا .

---

(١) أوضح ابن عذارى تاريخ المسجد تفصيلا ، وخاصة أعمال الحكم المستنصر بالله فيه . ينظر الجزء الثاني من « البيان المغرب » ، صفحات ٢٢٩ إلى ٢٤١ .

(٢) زيادة المنصور نفسها تشمل ٣٤ أسكوبا ، لأنه أضيف إلى جدار القبلة أسكوبان بدلا من المقاصير القائمة بجوار هذا الجدار في زيادة الحكم المستنصر بالله ، ينظر شكل (١٠١) .

(٣) يلاحظ في هذا الشكل أن المجنبة التي كان هشام بن عبد الرحمن قد أقامها قبل وفاته في سنة ١٨٠ (٧٩٦ م) لصلاة النساء ، ملاصقة لبيت الصلاة على الصحن ، قد أزيلت في عهد الحكم المستنصر بالله ، ونظمت عوضا عنها واجهة منسقة لهذا البيت .



شكل (١٠١) – رسم تخطيطي لمسجد قرطبة الجامع بعد زيادة المنصور في عهد هشام بن الحكم سنة ٣٧٧ (٩٨٧ م) ، عن (جوميث مورينو) .

— ٣ —

مساجد المغرب

تمتاز بلاد المغرب ، وهى المعروفة فى كتب المتقدمين باسم إفريقية ، بأنها تضم مجموعة من المساجد العتيقة التى أقيمت فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة . وهذه المساجد هى بلا شك أفضل مساجد تلك القرون قاطبة احتفاظا بعناصرها المعمارية ونظم تخطيطها الأولى . وقد رأينا فيما سبق أن معظم المساجد الجامعة المتخلفة من القرنين الأول والثانى قد اندثرت بعضها ، وأعيد بناء البعض الآخر ، أو أدخل عليها من التغيير والأضافات ما كاد يقطع صلتها بعهدها الأول . كما رأينا أن مسجد القيروان الجامع ما زال قائما على ما كان عليه أيام هشام بن عبد الملك فى سنة خمس ومائة (٧٢٣م) (١) . وقد أقيمت فى عهد الأغالبة ، فى البلاد التونسية ، مساجد عدة ، تخلف منها على حالتها الأولى أربعة مساجد ، شيدت فيما بين سنة ٢٠٦ (٨٢١م) وسنة ٢٥٠ (٨٦٤م) ، وذلك بالأضافة إلى المسجد الجامع فى القيروان . وتضم مدينة سوسة وحدها ثلاثة من هذه المساجد التى تمتاز بأنها تحتفظ بتاريخ إنشائها مسجلا بالحجارة على بنائها ، وذلك بالإضافة إلى احتفاظها كما ذكرت ، بعناصرها المعمارية والزخرفية القديمة . وتحتفظ المدينة كذلك بأسوارها التى تعتبر أنموذجا رائعا للعمارة الحربية العربية ، والتى أقيمت فى سنة ٢٤٥ (٨٥٩ م) . ولمدينة سوسة من هذه الوجهة أهمية كبرى لم تتوافر مثلها لمدينة أخرى من المدن العربية . وفوق هذا فان هذه المجموعة التونسية من المساجد متناسقة مظهرا وبنيانا ، وسنرى أن أهميتها بارزة فى تخطيط المساجد .

---

(١) ينظر فيما قبل ، الفصل السابع ، صفحة ٢٠٣ وما يليها .

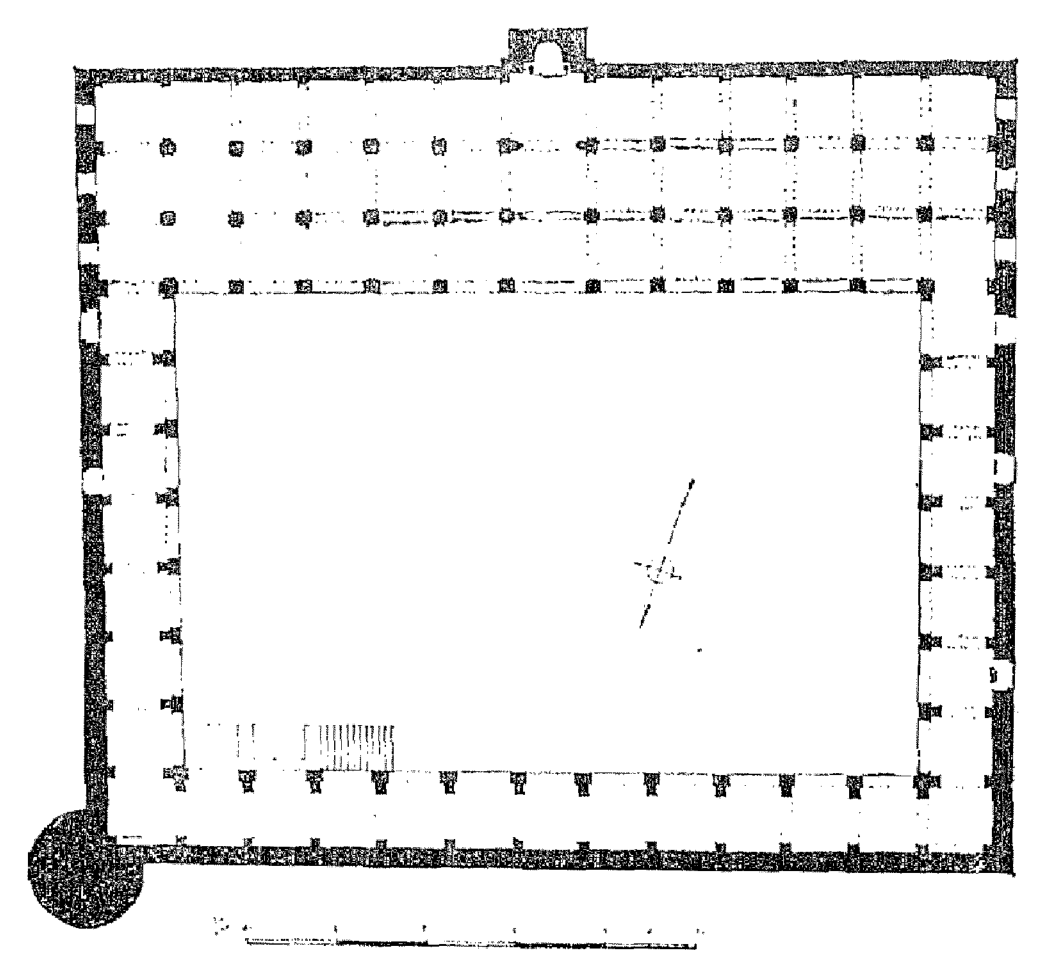
المسجد الجامع فى سوسة (٢٣٦هـ - ٨٥٠م)

يدور حول صحن هذا المسجد وفوق عقوده إطار طوله مائة وخمسة وثلاثون مترا ، نقشت عليه كتابة كوفية بديعة المظهر ، منحوتة بارزة على الحجارة ، فيها آيات من القرآن الكريم ، وفيها تاريخ المسجد . وقد سقطت نصف هذه الحجارة وتبعثرت فى سنة ١٩٤٤ إثر سقوط قذيفة على صحن المسجد ، وكان لى حظ تنظيم هذه الحجارة والمعاونة فى إعادة تركيبها من جديد على حالتها الأولى . ولكن الجزء الذى كان يمتد منها على واجهة بيت الصلاة كانت قد اختلت مواضعه عند إضافة رواق إليه فى سنة ١٠٨٦ (١٦٧٥م) ، وسقطت بعض حروفه وكلماته . ولهذا فان النص التاريخى لبناء المسجد ليس كاملا ، وانما نقرأ فيه « مما أمر به ... محمد ألا ...... ست وثلاثون ومائتين فى المسجد ... » . والمعروف أن الأمير الذى كان واليا على تونس فى ذلك العهد هو أبو العباس محمد بن الأغلب .

وقد أضيفت إلى المسجد إضافات فى عصور تالية غير معروفة ، وهدم جدار القبلة ، وزيد فى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب من جهة القبلة ، وأقيم لها جدار جديد ، ومحراب بدلا من المحراب العتيق ، ولكن هذه الأضافات لم تغير من نظام المسجد الأول الذى تعنينا دراسته هنا ، والذى كان محددا بالأطار الكتابى المنقوش على الحجارة من جهة ، وبوحدة البناء من جهة أخرى .

كان هذا المسجد ، شكل (١٠٢) ، يشغل مستطيلا طوله ٥٢ مترا ، وعرضه ٤٤ . ويدور حوله جدار ضخم سمكه مترا ، ويحد الجدار الشرقى فى الركن الشمالى منه برج كان يتخذ مئذنة ، هدم جزوءه الأعلى ، وما زال سلمها باقيا من عهد بناء المسجد (١) .

(١) رسم (كريسويل) تخطيط هذا المسجد فى الجزء الثانى من كتابه « العمارة الاسلامية » ، صفحة ٢٥٠ ، شكل (١٩٩) ، وفى كتابه « المختصر » ، صفحة ٢٦٩ ، شكل (٥٦) . وهذا الرسم يختلف بعض الاختلاف عن الرسم المنشور فى الصفحة التالية ، والذى وضعته معتمدا على المقاسات التى رفعتها شخصيا .



شكل (١٠٢) — رسم تخطيطي للمسجد الجامع فى سوسة من عهد أبى العباس محمد بن الأغلب فى سنة ٢٣٦ (٨٥٠ م) ، (من تصميم المؤلف ورسمه) .

وللمسجد بيت للصلاة كان يقتصر على ثلاثة أساكيب . وكان مقاس جدار القبلة فيه من الداخل ٤٩ مترا . وكان جوفه يزيد قليلا عن عشرة أمتار . وفيه ثلاثة صفوف من الدعامات بكل منها اثنتا عشرة دعامة . ويطل الصف الأخير منها على الصحن . ويحمل كل صف من هذه الدعامات بائكة من العقود موازية لجدار القبلة . فيها ثلاثة عشر عقدا . كما أن هذه الدعامات تحمل اثنتى عشرة بائكة عمودية على جدار القبلة . بكل بائكة منها ثلاثة عقود . وتحد هذه العقود بلاطات بيت الصلاة الثلاثة عشر . أى أن كل دعامة من دعامات بيت الصلاة تحمل أطراف عقود أربعة . كما أن العقود قد صفت فى هذا البيت فى اتجاهين متعامدين . ومقاسات

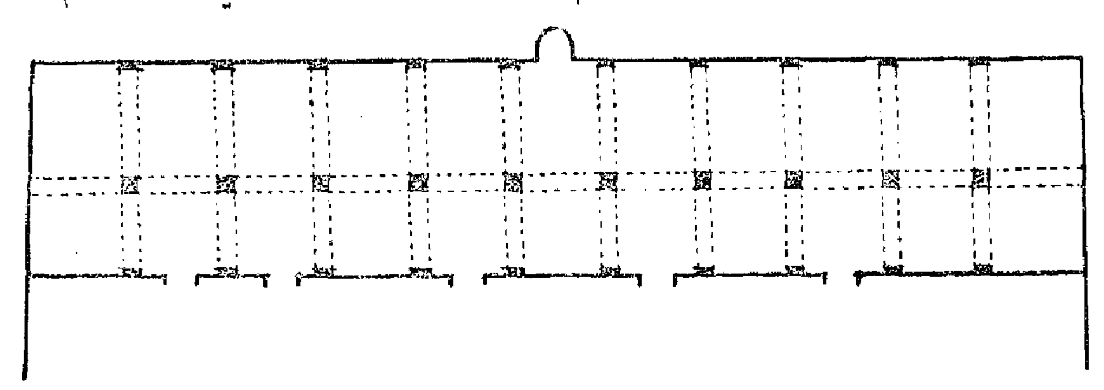
البلاطات والأساكيب ، بين الدعامات ، تزيد قليلا عن ثلاثة أمتار ، أما بلاطة المحراب فهى أكثر اتساعا ويبلغ عرضها أربعة أمتار وثلاثين سنتيمترا.

وكانت مساحة صحن المسجد إحدى وأربعين مترا طولا ، وسبعة وعشرين عرضا ، وتحيط به مجنبات من جهاته الثلاثة ، بكل منها رواق واحد . وقد رأينا أنه أضيفت إلى الصحن فى سنة ١٠٨٦ مجنبة رابعة من جهة بيت الصلاة . وتطل أروقة المجنبات على الصحن ببوائك عدد عقودها سبعة فى كل من الجانبين الشرقى والغربى ، وإحدى عشرة فى الجانب الشمالى ، الذى ألصق سلم المئذنة بثلاث بوائك منها .

وكان للمسجد ثلاثة أبواب شارعة فى المجنبة الغربية ، وكانت هذه هى أبواب المسجد الرئيسية ، وكان يقابلها ثلاثة أخرى تنفذ فى المجنبة الشرقية ، وقد سد واحد منها فيما بعد ، وتبقى بابان ، ولم يكن حينذاك للمسجد أبواب أخرى فى بيت الصلاة ولا فى مؤخره .

مسجد الرباط فى سوسة (٢٠٦هـ - ٨٢١م)

رباط سوسة بناء أثرى مشهور ، توجد فوق باب مئذنته لوحة حجرية نقش عليها نص كتابى جاء فيه « مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاه على يدى مسرور الخادم مولاه فى سنة ست ومائتين » (٨٢١م).



شكل (١٠٣) — رسم تخطيطى لمسجد رباط سوسة من عهد زيادة الله بن ابراهيم الأغلب فى سنة ٢٠٦ (٨٢١ م) ، (من تصميم المؤلف ورسمه) .

ورباط سوسة ما زال قائما ، ثابت الأركان ، منذ ذلك التاريخ .

ويعلو سطحه مسجد يحتل من هذا السطح مستطيلا طوله الداخلى ٣٩ مترا ، وعرضه ٧ أمتار . ويقتصر المسجد على بيت للصلاة ، إذ ليس له صحن ولا مجنبات ، شكل (١٠٣) . ويتكون هذا البيت من أسكوبين اثنين موازيين لجدار القبلة ، عرض أسكوب المحراب فى طرفيه ثلاثة أمتار وسبعون سنتيمترا ، وعرض الأسكوب الثانى متران وسبعون سنتيمترا ، وما بين الأسكوبين صف من الدعامات عددها عشر ، وعرض كل منها سبعون سنتيمترا . وترتفع على هذه الدعامات عقود ، على نظام بيت الصلاة فى المسجد الجامع ، منها صف من أحد عشر عقدا توازى جدار القبلة . وعشرة صفوف ، بكل منها عقدان ، يتجهان إلى القبلة . وتنحصر بين هذه العقود الأخيرة إحدى عشرة بلاطة . وتختلف مقاسات البلاطات ، بين الدعامات ، أقصاها طولا متران وتسعون سنتيمترا ، وأقصرها متران وأربعون . وتختلف المقاسات كذلك فى بداية البلاطة الواحدة وعند نهايتها . ولهذا ليست عقود البلاطات جميعا عمودية على جدار القبلة ، ولا هى موازية بعضها بعضا . وتزداد البلاطتان المتطرفتان سعة عن البلاطات الأخرى .

وفتحت فى الجدار المواجه لجدار القبلة خمسة أبواب ، اثنان عن يمين المواجه للمحراب ، وثلاثة عن يساره ، ولم يفتح باب يقابل المحراب نفسه فى ذلك الجدار .

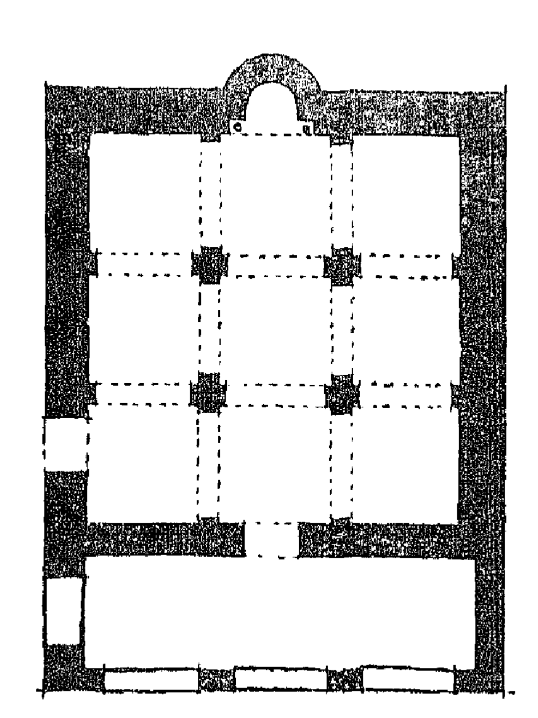
مسجد بو فتاتة (٢٢٣ إلى ٢٢٦ هـ - ٨٣٨ إلى ٨٤١ م)

لا يعرف السبب فى تسمية هذا المسجد بهذا الاسم . وهو مسجد صغير تبلغ مساحته الخارجية ثلاثة عشر مترا طولا وعشرة أمتار عرضا . ولكنى أعتقد أن المسجد كان له صحن يحيط به من شرقيه وغربيه وشماليه ، على غير النظام الذى تبدو عليه الجدران التى تحيط به حاليا من الشرق ومن الشمال . وذلك لأن الكتابة الكوفية المسجلة على الحجارة فى إطار يعلو جدار واجهة

المسجد الشمالية ، كانت تمتد كذلك على واجهته الغربية ، وما زالت تشاهد آثار منها على هذه الواجهة .

وفى هذه الكتابة نص يقرأ فيه «بن ابراهيم الأغلب» ، وهو الأمير أبو عقال الذى كان واليا على تونس فى المدة من سنة ٢٢٣ إلى ٢٢٦ (٨٣٨ — ٨٤١م) .

ولم يتبق من هذا المسجد غير بيت صلاته ورواق أمام هذا البيت ، كان يطل على الصحن ، شكل (١٠٤) .



شكل (١٠٤) — رسم تخطيطى لمسجد بوفتاته فى سوسة (من تصميم المؤلف ورسمه) .

وينقسم هذا البيت إلى ثلاثة أساكيب تحدها بائكتان موازيتان لجدار القبلة ، بكل بائكة ثلاثة عقود ترتكز على دعامتين . ويقوم على هذه الدعامات الأربعة بائكتان أخريان عموديتان على جدار القبلة ، بكل بائكة ثلاثة عقود كذلك . أى أن تخطيط بيت الصلاة يرسم مربعا فيه ثلاثة أساكيب تتقاطع معها ثلاث بلاطات ، ويتكون منها تسع مربعات طول كل ضلع منها متران ونصف تقريبا ، ويتوسط المحراب جدار القبلة .

ويقابل المحراب باب مفتوح على رواق مسقوف ، كان يطل على الصحن من الجهة الشمالية ببائكة من ثلاثة عقود ، ولهذا الرواق باب مفتوح على الصحن من الجهة الشرقية . وأغلب الظن أن هذا الرواق كان يستخدم صحنا للجنائز ، تقام فيه صلاة الجنازة ، إذ ليس من المتبع فى بلاد المغرب أن تقام هذه الصلاة داخل بيوت الصلاة فى المساجد .

مسجد الزيتونة الجامع (١١٤ إلى ٢٥٠ هـ - ٧٣٢ إلى ٨٦٤ م)

كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بنى المسجد الجامع فى تونس ، وهو المعروف بمسجد الزيتونة ، وكان ذلك فى سنة ١١٤ (٧٣٢ م) . وأغلب الظن أن البناء تم بعد ذلك بسنتين (١) . وقد جدد هذا المسجد ، وأصلح ، وأضيف اليه ، وزيد فيه ، وجمل وزخرف فى عصور مختلفة ، وسجل كل هذا بدقة فى نصوص تاريخية منقوشة على الحجارة ، ذكر فيها وصف هذه الأعمال وتاريخها ، بل وذكر فى بعضها أسماء الصناع الذين تولوا عملها ، حتى أن الباحث فى آثار هذا المسجد يستطيع أن يحدد فى ثقة تامة مراحل تطوره ، سواء من حيث تخطيطه ، شكل (١٠٥) ، أو من حيث بنيانه وزخرفته (٢) .

« ولعله ينقصنا نقش واحد ، هو النقش الذى يسجل تاريخ إنشاء عبيد الله بن الحبحاب لمسجد الزيتونة سنة ١١٤ (٧٣٢ م) » . غير أن دراساتى الأثرية فى المسجد جعلتنى أعتقد أن المسجد فى ذلك التاريخ كانت له الحدود الخارجية التى احتفظ بها منذ إنشائه ، وأن بيت الصلاة كان يقتصر على الأربعة الأساكيب المجاورة لجدار القبلة ، وأنه كان له محراب فى الموضع الذى ما زال المحراب قائما فيه . ومع ذلك فانى لم أستطع أن أغامر بعمل رسم افتراضى للمسجد ، أكثر وضوحا وتفصيلا مما يبدو عليه تخطيطه . إذ أننى لم أستطع الكشف عن عناصر بنيان المسجد العتيق . وليس من السهل إجراء حفائر به للكشف عن أسس تخطيطه . والذى أستطيع أن أقطع بصحته

(١) البكرى « كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، صفحة ٣٧ ؛ وابن عذارى ، « البيان المغرب » ، صفحة ٥١ من الجزء الأول .

(٢) ينظر مقال المؤلف « مسجد الزيتونة الجامع فى تونس » ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، سنة ١٩٥٢ ، صفحات ٦٥ إلى ١١٢ . ويأسف المؤلف لأن هذا المقال لم يعرض عليه قبل الطبع ، ولم تتح له فرصة تصحيح الأخطاء المطبعية العديدة التى وقعت فيه .

هو أن مسجد الزيتونة الجامع كان قائما قبل سنة ٢٤٨ (٨٦٢م) فى حدود جدرانه الحالية (١) .

فى تلك السنة، شرع الأمير أبو ابراهيم أحمد فى تجديد المسجد ، وزيادة عدد أساكيب بيت الصلاة ، وأتم أخوه زيادة الله ذلك التجديد وتلك الزيادة . ويحدد هذه الأعمال ويوضحها نقشان تاريخيان يحملان سنة ٢٥٠ (٨٦٤ م) . يدور أحد هذين النقشين « حول قبة المحراب ، ويمتد الآخر على واجهة الأسكوب السابع المطل على الصحن ، من أولها إلى آخرها ، أى أنه لا شك فى أن بيت الصلاة كله ، فيما عدا مجنبة الصحن الشمالية ، كان قائما فى تلك السنة » (٢) .

رسم تخطيط مسجد الأغالبة إذن أمر يسير ، إذ أنه يكفى أن نحذف من تخطيط المسجد الحالى المرسوم فى شكل (١٠٥) ، جميع الأضافات التى أدخلت عليه منذ تلك السنة ، وهى بالتحديد « مجنبات الصحن الأربعة ، ومقاصير المحراب ، والقسم الشرقى الخارجى جميعه ، وهو الذى يمتد من المكتبة الحمدونية إلى المكتبة العبدلية مارا بصحن الجنائز » ، ولا يدخل فى وضع الرسم الذى يخرج من ذلك ، شكل (١٠٦) ، « أى عنصر خيالى أو افتراضى ، فان حدود كل هذه الأضافات مبينة فى النقوش التاريخية المسجلة فى المسجد ، كما أن عناصر البنيان والزخارف توضحها وتؤكدها » (٣) .

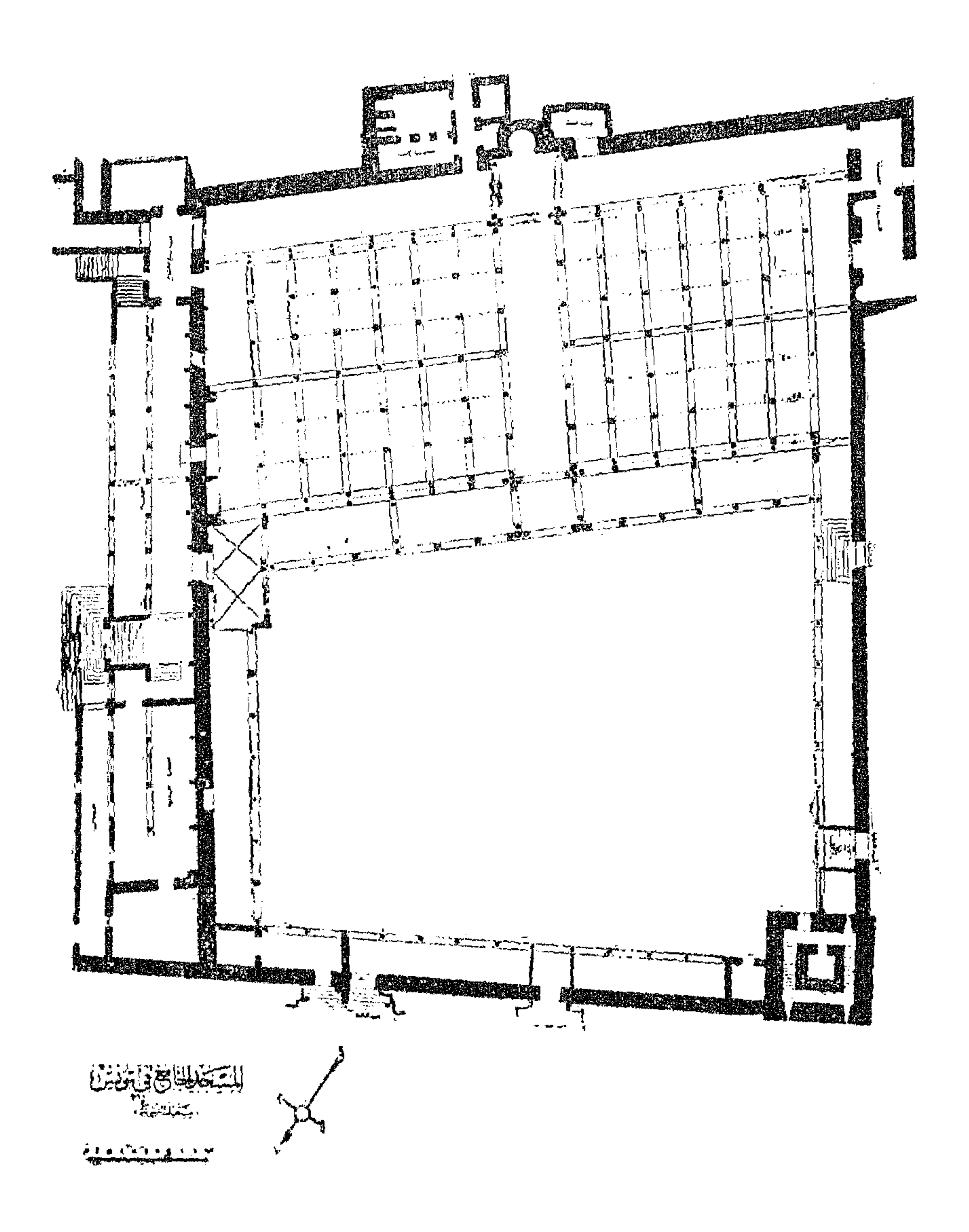
كان مسجد الزيتونة الجامع إذن فى سنة ٢٥٠ (٨٦٤م) ، كما يتضح

---

(١) كما أستطيع أن أؤكد أن بيت الصلاة كان قبل ذلك التاريخ يقتصر على أربعة أساكيب ، وأنه زيدت فيه فى تلك السنة ثلاثة أخرى ، وقدم جدار القبلة ، وأقيمت قبة أمام المحراب . وهذا هو السبب فى أن قاعدة هذه القبة لا ترسم مربعا سليما متساوى الأضلاع ، وأن حدوده اختلفت كما يتضح من شكل (١١٠) فيما بعد . وذلك لارتباط المهندس البناء الذى تولى زيادة عدد الأساكيب وتشييد القبة ، باتجاه العقود فى بلاطة المحراب فى المسجد الذى كان قائما من قبل . ينظر المقال السابق ، صفحات ٧١ ، ٧٢ .

(٢) المقال السابق ، صفحتا ٧٢ و ٧٣ .

(٣) المقال السابق ، صفحة ٧١ .



شكل (١٠٥) — رسم تخطيطي لمسجد الزيتونة الجامع في تونس في حالته الراهنة ، (من تصميم المؤلف ورسمه) .

من شكل (١٠٦) ، ينحصر فى مستطيل غير منتظم الأضلاع ، طول جدار القبلة الخارجى فيه ٦١ مترا ، والجدار الشرقى ٦٥ مترا ، والجدار الشمالى ٥٧ مترا ، والجدار الغربى ٧٦ مترا .

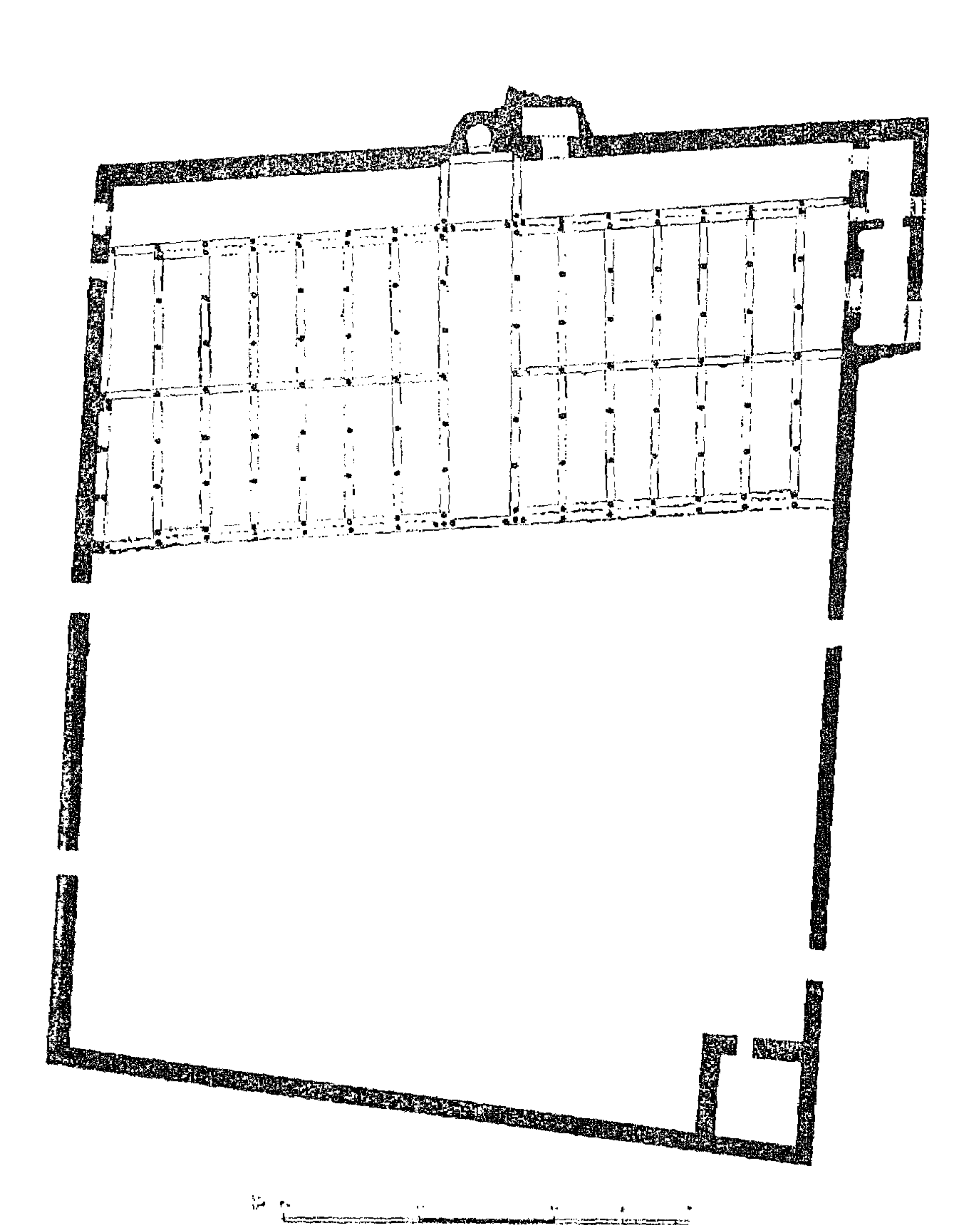
« أما بيت الصلاة فكان ينقسم إلى سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة ، يبلغ طول كل واحد منها أربعة وخمسين مترا ونصف المتر ، وتجتازها خمس عشرة بلاطة تبلغ طول الواحدة منها خمسة وعشرين مترا تقريبا ، ومتوسط عرض كل من الأساكيب والبلاطات ، فيما بين الأعمدة ، ثلاثة أمتار ، عدا أسكوب المحراب فعرضه أربعة أمتار وثلاثون سنتيمترا ، وبلاطة المحراب ، فعرضها أربعة أمتار وثمانون سنتيمترا » (١) .

وفى بيت الصلاة محراب يتوسط جدار القبلة ، وتقوم أمامه قبة ، فوق تقاطع بلاطة المحراب وأسكوبه . وفتح فى شرقى هذا الأسكوب باب يؤدى إلى مقصورة من قاعتين مستطيلتين ، وتمتد هذه المقصورة إلى حدود الأسكوب الرابع ، وتبرز خارج جدار بيت الصلاة بمقدار خمسة أمتار . وإلى يمين المحراب باب يؤدى إلى قاعة صغيرة هى بيت المنبر .

وفى بيت الصلاة أربعة عشر صفا من الأعمدة تحمل أربع عشرة بائكة ، متجهة إلى القبلة ، فى كل بائكة ستة عقود مبتدئة من الصحن ، منتهية عند أسكوب المحراب ، ولكنها لا تجتاز هذا الأسكوب . وفى بيت الصلاة ، غير هذه الصفوف ، صفان من الأعمدة المزدوجة ، موازيان لجدار القبلة ، أحدهما يحد أسكوب المحراب ، والآخر يطل على الصحن . وتمتد على كل من هذين الصفين بائكة مزدوجة فيها خمسة عشر عقدا ، ثلاثة منها منفردة ، وهى التى تجتاز بلاطة المحراب والبلاطتين الأولى والأخيرة من بيت الصلاة ، أما العقود الاثنا عشر الباقية من كل بائكة فهى مزدوجة . وتنتصف بيت الصلاة بائكتان أخريان موازيتان لجدار القبلة ، فيما بين الأسكوبين الرابع والخامس ، عن يمين بلاطة المحراب وعن يسارها ، بكل بائكة منها سبعة عقود .

---

(١) المقال السابق ، صفحة ٧٠ .



شكل (١٠٦) — رسم تخطيطى لمسجد الزيتونة الجامع فى تونس على حالته فى سنة ٢٥٠ (٨٦٤ م) ؛ (من تصميم المؤلف ورسمه) .

وكان صحن المسجد ، أو بهوه ، يشغل مستطيلا غير منتظم الأضلاع ، أكثر أضلاعه طولا فى مؤخر المسجد ، ومقاسه **٥٢ مترا** ، وأقلها طولا فى شرقيه ، ومقاسه ٣٧ مترا ، ولم يكن للصحن مجنبات . وتقع المئذنة فى ركنه الشمالى الغربى .

وكان للمسجد خمسة أبواب ، إثنان منها يؤديان إلى الصحن فى غربيه ، وثلاثة فى شرقيه ، منها واحد يشرع فى الأسكوب الثانى من بيت الصلاة . ولم يكن للمسجد فى عهد الأغالبة غير هذه الأبواب .

الفصل التاسع

مصادر تخطيط المساجد الجامعة

١ — مزاعم المستشرقين .
٢ — المساجد والكنائس .
٣ — المساجد والقصور الفارسية .
٤ — المساجد وقاعات الاستقبال الرومانية .
٥ — المساجد والهياكل اليهودية .

الفصل التاسع

مصادر تخطيط المساجد الجامعة (١)

— ١ —

مزاعم المستشرقين

استعرضت فى الفصول الثلاثة السابقة تخطيط جميع المساجد التى بنيت فى الدول العربية قبل مسجدى عمرو وابن طولون ، والتى أمكن الاستدلال على نظمها التخطيطية فى تلك القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة . وسأحاول فى هذا الفصل ، وفى الفصل التالى ، أن أبين أثر تخطيط هذه المساجد فى اتخاذ مسجدى عمرو وابن طولون لنظاميها التخطيطيين . غير أن هذا البحث يقتضى أن نحدد أولا الأصل فى نشأة النظام التخطيطى للمسجد الجامع ، وصلة هذا النظام بالنظم المعمارية التى سبقت الأسلام ، كما أنه يتطلب منا أن نحدد العناصر الرئيسية لتخطيط المساجد الجامعة .

وقد تعددت الآراء والنظريات فى مصادر النظام التخطيطى للمسجد ومدى صلته بآثار الدول القديمة . وأكثر هذه النظريات غرابة هى تلك التى أبداها (كيتانى) فى سنة ١٩١٥ (٢) ، وتمسك بها (كريسويل) منذ

---

(١) البحث فى هذا الفصل ، كما سبق أن ذكرت بالنسبة للفصلين السابقين ، قاصر على المساجد الجامعة وهى التى أعدت لصلاة الجمعة . أما المساجد التى تؤدى فيها الصلاة بصفة عامة والتى لم تعد لصلاة الجمعة فليس لها نظام معمارى خاص ، ولا أحكام تخطيطية ، ويصح أن تتخذ أى شكل مناسب من الأشكال .

(٢) «حوليات الاسلام» ، جزء أول ، صفحات ٤٤٧ إلى ٤٦٠ ، وجزء ثالث ، صفحة ٩٦٥ — Caetani: Annali del Islam, vol. I, Milan, 1905.

ظهر كتابه الأول فى سنة ١٩٣٢ (١) ، والتى ادعيا فيها أن الأسلام لم يتخذ مساجد جامعة للصلاة إلا بعد وفاة الرسول ، وأنه لم يكن للأعراب المسلمين مسجد جامع فى المدينة قبل ذلك . وزعم هذين العالمين أن المسجد الذى بناه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فى المدينة لم يكن معدا ليكون مسجدا ، بل كان منزلا للرسول ومساكن لزوجاته ، وأن المسلمين كانوا يجتمعون أحيانا ، فى فناء هذا المنزل . وقد ناقشت هذه النظرية مناقشة طويلة فى كتاب آخر ، وقدمت البرهان القاطع على فسادها ، وأثبت أن « الصلاة فرضت على المسلمين قبل هجرة الرسول ، وأنه فرض عليهم أداء صلاة الجمعة فى مكان جامع ، وأن بناء مسجد النبى بالمدينة حقيقة مؤكدة دينيا وأثريا وتاريخيا . وقد أجمع مؤرخو الاسلام على أن مساكن النبى كانت قائمة بذاتها بجوار المسجد ، وأنها بقيت محتفظة بمظهرها القديم حتى سنة سبع وثمانين بعد الهجرة ، حيث أدمجت بالمسجد ، ودخلت فى بنائه » (٢) .

وما كنت أود أن أعود إلى ذكر هذه النظرية ومناقشتها لولا أن (كريسويل) ، الذى لم يحاول مرة واحدة أن يرد على الأسانيد التى قدمتها لتفنيد نظريته(٣) ، عاد مرة أخرى فنشر آراءه تلك فى كتاب له ظهر حديثا (٤) ، وزعم مرة أخرى أنه لم يكن للمسلمين مسجد جامع قبل وفاة الرسول ، وأن البناء الذى شيده النبى محمد فى المدينة لم يكن مسجدا بالمعنى المعروف ، بل كان فناء لمساكنه ومساكن زوجاته . وسنرى فيما يلى أن هذه النظرية ليست واهية فحسب ، بل هى ليست من العلم فى شىء ، وإنما هى فكرة يتمسك بها رجل متعصب فى آرائه .

---

(١) صفحة ٦ وما يليها من الجزء الأول من « كتاب العمارة الاسلامية » .

(٢) « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ٥٠ ، وتفصيل مناقشة هذه النظرية تقع من هذا الكتاب فى الصفحات ٣٩ إلى ٥٠ .

(٣) وذلك بالرغم من أنه ناقش مناقشة طويلة رأيا تفصيليا كنت أبديته فى نفس الكتاب خاصا بدعامات الجدران الخارجية لمسجد القيروان ، ينظر الجزء الثانى من كتابه المشار إليه صفحتا ٢١٥ و ٢١٦ .

(٤) صفحة ٣ من كتابه « المختصر » المنشور فى سنة ١٩٥٨ .

يدعى (كريسويل) أن السبب فى إنشاء المساجد الجامعة لم يكن فى الأصل دينيا بل كانت له عوامل سياسية ، وأن الفضل فى إنشاء المساجد الجامعة يرجع إلى زياد بن معاوية ، الذى زاد فى مسجد البصرة زيادة كبيرة فى سنة ٤٤ (٦٦٥ م) ، وذلك لكى يصرف جماهير العرب عن مساجد القبائل ، وليتخذ من المساجد الجامعة ميدانا للاجتماعات الرسمية التى كان ينظمها لالقاء الخطب فى المناسبات السياسية الهامة (١). ولا يستند هذا الادعاء إلى أى دليل صحيح ، بل تناقضه الحقائق التاريخية . فقد كان السبب الوحيد فى زيادة المساجد ما ذكره جميع الرواة والمؤرخين من أن هذه المساجد كانت تضيق بالمصلين (٢) .

ويدعى (كريسويل) من جهة أخرى أن العرب المسلمين فى المدينة ظلوا بغير مسجد جامع يؤدون فيه صلاة الجمعة حتى سنة ٥٤ (٦٧٤م)(٣).

---

(١) صفحة ٣٥ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » وصفحة ١٢ من كتابه « المختصر » .

(٢) يراجع ما أشرت اليه فيما سبق عن ضيق المساجد الجامعة بالمصلين ، الأمر الذى أدى إلى الزيادة فيها . وأسجل هنا على سبيل المثال ما ذكره المقدسى فى « أحسن التقاسيم » ، صفحة ١٩٨ ، عن مسجد عمرو بن العاص ، قال « وسمعتهم يذكرون انه يصلى قدام الأمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل ، فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير ، فرأيت الأمر قريبا مما قالوا ، وأبطيت يوما عن السعى إلى الجمعة ، فلقيت الصفوف فى الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع ، ورأيت القياسر والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين » . وقد كتب المقدسى هذا فى سنة ٣٧٥ (٩٨٥ م) . وكذلك اسجل ما كتبه البكرى فى « كتاب المغرب » ، صفحة ٢٣ ، من أن مسجد القيروان ضاق بالمصلين فزاد فيه بشر بن صفوان زيادة كبيرة . وأسجل كذلك ما رواه السمهودى فى صفحة ٤٨٧ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » ، قال ، « ذكر ابن زبالة عن محمد بن اسماعيل قال أدركت المسجد (المسجد النبوى) كان يضيق عن الناس يوم الجمعة حتى يصلى بعضهم فى دار القضاء .. ودار النحاسين ... ودار عاتكة » . وما جاء فى صفحة ٣٦٥ من الكتاب نفسه أن الناس شكوا « إلى عثمان ضيق المسجد يوم الجمعة » كما جاء فى صفحة ٣٦٦ أن الناس كانوا « يصلون فى بيوت النبى ، قبل زيادة الوليد ، فى يوم الجمعة ، لضيق المسجد » .

(٣) صفحات ١ إلى ١١ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الاسلامية» وصفحتا ٥ و ٦ من كتابه « المختصر » .

وليس أدل على تخبط هذا العالم الأثرى من أنه فى الوقت الذى ينكر فيه وجود مسجد جامع فى المدينة ، يعترف بوجود مسجد جامع فى البصرة ، وآخر فى الكوفة ، بل إنه يعترف أن المسجد الذى أقامه عمرو بن العاص فى الفسطاط قد «شيد على نظام بيت الرسول فى المدينة» (١) . وهكذا يريد (كريسويل) أن يوهم قراءه بأن العرب المسلمين لم يشعروا بحاجتهم إلى مسجد جامع فى بلادهم إلا بعد الهجرة بأربع وخمسين سنة ، ولكنهم شعروا بهذه الحاجة قبل ذلك ، لأسباب سياسية ، فى البصرة والفسطاط ، ولأسباب غير سياسية ، فى الكوفة . إذ يدعى (كريسويل) كذلك أن إقامة المساجد الجامعة كان يرجع إلى عاملين «تافهين» حدثا فى الكوفة ، أولهما تعيين حدود المسجد برمى سهم ، وثانيهما حماية بيت المال من السرقة ، لأن بيت المال أقيم ملاصقاً لهذا المكان الذى كان آهلا بالناس ليلا ونهارا (٢).

(١) صفحة ١١ من الكتاب السابق وصفحة ٢٨ من الجزء الأول من كتاب «العمارة الاسلامية» .

(٢) صفحة ٣٠ من الكتاب السابق وصفحة ٩ من كتابه «المختصر» ويستند كريسويل فى هذا الادعاء إلى الصفحات ٢٤٨١ ، ٢٤٩١ ، ٢٤٩٢ ، ٢٤٩٤ من الجزء الأول من «تاريخ الرسل والملوك» للطبرى . أما الصفحة الأولى فليست بها أية إشارة إلى ما يدعيه (كريسويل)، وأما ما جاء فى الصفحات الثلاثة الأخرى وفى صفحتى ٢٤٨٨ و ٢٤٨٩ فانى أورد ملخصه هنا ليدرك القارىء مدى شطط (كريسويل) فى ترجمة النصوص العربية وتفسيرها . قال الطبرى فى صفحتى ٢٤٨٨ و ٢٤٨٩ «أول شيء خط بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد ، .... فاختطوه ثم قام رجل فى وسطه ، رام شديد النزع ، فرمى عن يمينه ، فأمر من شاء أن يبنى وراء موقع ذلك السهم ، ورمى من بين يديه ومن خلفه ، وأمر من شاء أن يبنى وراء موقع السهمين فترك المسجد فى مربعة غلوة من كل جوانبه ، وبنى ظلة فى مقدمه ليست لها مجنبات ولا مواخير ، والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا ، وكذلك كانت المساجد ، ماخلا المسجد الحرام ، فكانوا لا يشبهون به المساجد تعظيما لحرمته . وكانت ظلته مائتى ذراع على أساطين رخام كانت للأكاسرة ... » . وقال الطبرى فى صفحة ٢٤٩١ « ثم إن بيت المال نقب عليه نقبا وأخذ من المال ، وكتب سعد بذلك إلى عمر ، ووصف له موضع الدار وبيوت المال من الصحن مما يلى ودعة الدار ، فكتب إليه عمر أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جانب الدار ، واجعل الدار قبلته ، فان للمسجد أهلا بالنهار والليل ، وفيهم حصن لمالهم » . وروى الطبرى فى صفحة ٢٤٩٤ أن عطاء أبو محمد ، مولى إسحاق بن طلحة ، قال «كنت أجلس فى المسجد الأعظم قبل أن يبنيه زياد ، وليست له مجنبات ولا مواخير ، فأرى منه دير هند وباب الجسر» .

ويذهب (كريسويل) إلى أبعد من ذلك ، فيدعى أن محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، لم يشيد مسجدا للمسلمين لأنه كان يكره البناء ، ويحض الناس على اجتنابه ، ويقول « إن البناء مفسدة للمؤمن» ، وينقل (كريسويل) هذا الحديث عن ابن سعد ، ويضع رواية ابن سعد هذه موضع الثقة (١) . أما ما سجله ابن سعد فى كتاب « الطبقات الكبرى » نفسه عن بناء مسجد الرسول بالمدينة (٢) ، فلم يكن جديرا بثقة (كريسويل) ، وأما ماجاء فى القرآن الكريم عن تعمير المساجد وعمارة بيوت الله التى « أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » (٣) ، وأما ما جاء فى الأحاديث النبوية من أن « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة » (٤) ، فلم يكن فيه ، كله أو بعضه ، سندا قويا لاقتناع (كريسويل) ببناء المساجد فى عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

وأخذ المستشرقون بصفة عامة بأقوال كيتانى ، وأنكرت غالبيتهم معه بناء الرسول مسجده فى المدينة فى السنة الأولى للهجرة (٥) ، ولكنهم اختلفوا فى تحديد مصادر تخطيط المساجد . وكان أحدهم (سلادان) قد

---

(١) (كريسويل) ، صفحة ٧ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » وصفحة ٤ من كتابه « المختصر » ؛ وابن سعد ، « كتاب الطبقات الكبرى » ، جزء أول ، صفحة ١٨١ وجزء ثامن ، صفحة ١٨٠ .

(٢) ابن سعد ، شرحه ، الجزء الأول ، قسم ثان ، صفحتا ٢ و ١٨٠ ، والجزء التاسع صفحتا ١١٧ و ١١٩ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة النور ، آية ٣٦ .

(٤) المقريزى فى « الخطط » ، الجزء الثانى ، صفحة ٣٦٥ .

(٥) سجلت فى صفحتى ٣٩ و ٤٠ من كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » أسماء هؤلاء المستشرقين وأسماء الكتب التى نشروها وبيان الصفحات التى أبدوا فيها آراءهم وسأشير إلى البعض الآخر منهم فيما يلى من الصفحات . هذا وقد نشر (سوفاجيه) بعد ظهور كتابى بعشر سنوات ، كتابا عن (المسجد الأموى بالمدينة) ، أوضح فيه أن (كريسويل) نقل آراء (كيتانى) نقلا ولم يضف إليها شيئا من عنده ، وأن هذه الآراء تتعارض مع الأسانيد التاريخية الموثوق بصحتها ، وأن (كيتانى) ومن بعده (كريسويل) قد تجاهلا تماما الحقائق التاريخية . كما أن (عكوش) نشر فى سنة ١٩٤٠ المقال الذى سبق أن أشرت اليه فى صفحة ١٨٤ ، حاشية (١) ، وقد اورد فى هذا المقال بعض الأسانيد التى تفند آراء (كريسويل) وتدحضها .

أدعى فى سنة ١٨٩٩ أن تخطيط المساجد اشتق من معابد قدماء المصريين (١)، وشاركه (هوتكور) هذا الرأى فى سنة ١٩٣٠ (٢) . ويغنينى عن الرد على هذا الادعاء ما سجله عالم أوروبى فى الآثار الاسلامية ، هو (بريجز) ، من أنه لا يوجد تعارض بين نظامين من نظم العمارة أكثر وضوحا من التعارض بين نظام مساجد الاسلام ونظام معابد الفراعنة (٣) .

وذكر فريق من المستشرقين أن البازيليكيات الرومانية كانت المصدر الذى اشتقت منه نظم المساجد . وقد ناقشت هذه النظرية من قبل ، فى كتاب آخر (٤) ، وقدمت الأسانيد على أن تخطيط المساجد يختلف اختلافا جوهريا عن تخطيط البازيليكيات ، وسأعود فيما بعد إلى مناقشة هذه النظرية (٥) .

— ٢ —

المساجد والكنائس

أدعى معظم المستشرقين أن الأعراب لم تكن لهم معرفة بأصول البناء ، ولا رغبة فى العمارة ؛ ولم تكن لهم مساجد فى ديارهم ، حتى فتحوا بلاد الشام والعراق ، واتصلوا بالحضارتين البيزنطية والفارسية ، وشاهدوا آثارها العظيمة ومبانيها الضخمة ، فبهرت مظاهرها عيونهم ، وغمرت معانيها ومعالمها قلوبهم ، وأثارت فى نفوسهم الرغبة فى بناء المساجد ، وتساءلوا لم لا يكون لهم وللمسلمين مساجد ، وقد كان للرومان والبيزنطيين معابد وكنائس ؟

(١) صفحة ٣٧ من كتاب « مسجد سيدى عقبة » :
Saladin: La Mosquée de Sidi Okba à Kairouan, Paris, 1899.

(٢) صفحة ٣٠٢ من كتاب (فييت) و (هوتكور) ، « مساجد القاهرة » .

(٣) صفحة ١٥ من كتاب « العمارة المحمدية » .

(٤) صفحة ٢٩ إلى ٣٥ من كتاب « المسجد الجامع بالقيروان » .

(٥) فى نهاية هذا الفصل وفى الفصل السادس من الجزء الأول من هذا الكتاب .

ويقول (كريسويل) إن العرب والمسلمين قنعوا أول الأمر بكنيسة واحدة كانوا يستولون عليها فى كل بلد من البلاد التى فتحوها ، ثم يتخذونها مسجدا ، أو يقتسمونها مع أصحابها (١) . واقتنع (كريسويل) بذلك لأن البلاذرى ذكر أن العرب استولوا فى حمص على ربع الكنيسة ، وفى حلب على نصفها (٢) .

وأدعى (كريسويل) كذلك أن مسجد حماه قد أقيم على أنقاض كنيسة (٣) ، وقد فند (سوفاجيه) هذا الادعاء ، وأشار إلى أن (كريسويل) قد اتبع المستشرقين الذين سبقوه إلى هذا الرأى ، ولكنه لم يحققه ، لأن دراسة آثار هذا المسجد تؤكد أنه يختلف اختلافا تاما عن بناء الكنيسة . وقد نشر (سوفاجيه) رسما يؤيد نتائج دراساته (٤) .

هذا وقد ناقشت موضوع تحويل الكنائس إلى مساجد فى مقدمة هذا المدخل . والذى أريد أن أضيفه هنا هو أن خيال (كريسويل) لم يقف عند حد نقل الأستثناء إلى قاعدة عامة ، بل إنه ظن أن تحويل الكنائس إلى مساجد كان أمرا هينا ، وأخذ يشرح للمسلمين الطريقة المثلى لذلك ، وقال إن الأمر لا يتطلب أكثر من غلق باب الكنيسة الغربى ، أو أبوابها الغربية الثلاثة ، وفتح أبواب أخرى بدلا منها فى جدار الكنيسة الشمالى ، واتخاذ جدارها الجنوبى جدارا للقبلة ، وجناحها الجنوبى بيتا للصلاة . ثم إنه يصبح بعد ذلك ، فى رأى (كريسويل) ، أن يترك المسلمون للمسيحيين نصف الكنيسة الشمالى ليدبروا شئونهم ويؤدوا صلاتهم فيه (٥) . ولكن (كريسويل) نسى أن يشرح للمسيحيين طريقة أداء صلاتهم فى مثل هذا النصف المشطور من كنيستهم .

(١) صفحة ١٢ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » « وصفحتا ٧ و ١٢ من كتابه « المختصر » .

(٢) البلاذرى ، « فتوح البلدان » ، صفحتا ١٣٦ و ١٤٧ .

(٣) صفحة ١٤ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » .

(٤) صفحة ١٠٣ إلى ١٠٨ من كتاب (سوفاجيه) : « المسجد الأموى بالمدينة » ، شكل (٨) .

(٥) صفحة ١٢ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » ، وصفحة ٧ من كتابة « المختصر » .

والمعروف أن اقتسام الكنائس وتحويلها إلى مساجد ، إن لم يكن أسطورة مختلقة ، فقد كان على الأقل أمرا نادرا ، وإجراء مؤقتا . وقد نقل (كريسويل) نفسه (١) عن أحد الرحالة البيزنطيين الذين زاروا القدس سنة خمسين (٦٧٠ م) ، بعد فتحها بثلاث وثلاثين سنة ، رواية أقر فيها ذلك الرحالة أن العرب لم يستولوا على كنائس القدس ولم يقتسموها ، وأنه شاهدهم « يترددون على بناء مربع الشكل أقاموه للصلاة ، وبنوه بأنفسهم بناء غليظا » و« سقفوه بعوارض خشبية على آثار متهدمة » ، وأضاف ذلك الرحالة ، واسمه (اركولف) ، « أن هذا البناء كان يتسع لثلاثة آلاف رجل مرة واحدة » (٢) . ولم يرض (كريسويل) برواية الرحالة كلها ، وعز عليه أن يكون العرب المسلمون قد شيدوا مسجدا جامعا عظيما ، مربع الحدود ، واسع الأطراف ، قادرا على أن يضم ثلاثة آلاف من المصلين ، فأخذ يبحث فى كتب التاريخ حتى اهتدى إلى رواية عن قصر من القصور التى هدمها (تيتوس) فى سنة ٧٠ ميلادية ، وأكد (كريسويل) بصفة قاطعة ، على حسب عادته ، أن هذا القصر كان هو المكان الذى شاهده الرحالة (اركولف) وذكر عنه أن المسلمين اتخذوه مسجدا جامعا لهم ، وبنوه بناء غليظا (٣) . ونظرية (كريسويل) خيالية لا تستند على أى نص تاريخى أو معالم أثرية . والثابت تاريخا هو أن المسجد الأقصى الذى بناه المسلمون سنة خمسين للهجرة قد اندثر ، ولم يتبق منه آثار ، وأن القصر الذى تخيل (كريسويل) منظره كان قد اندثر كذلك قبل بناء المسجد الأقصى بستمائة سنة ، ولم يحدثنا المؤرخون والرواة العرب عن شىء من أطلاله وآثاره .

(١) صفحة ٢٥ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » وصفحة ١٠ من كتابه « المختصر » .

(٢) تنظر صفحة ٢٣٧ من كتاب (كوندر) :
« Col. C. R. Conder: The City of Jerusalem, London, 1909
وصفحة ٣٢ من كتاب (بريجز) ، « العمارة المحمدية » وقد سجل هذان المؤلفان أقوال الرحالة (Arculph)

(٣) قال (كريسويل) فى الصفحة المشار إليها أعلاه :
« As for these ruins, they must have been those of the Royal Stoa of Herod ».

ويفترض فريق من علماء الآثار أن نظام المساجد اشتق من نظام الكنائس السورية ، ويستند معظمهم فى ذلك إلى الآراء التى أبداها (سبيرز) ، و (ديكى) فى سنة ١٨٩٧ (١) ، والتى رجحا فيها أن المسجد الأموى بدمشق كان فى الأصل كنيسة ، وأن الوليد أبقى على بناء معظم أجزائها ، واحتفظ بنظامها ، واتخذها مسجدا جامعا للمسلمين . وقد أخذ (دييل) فى سنة ١٩١٠ بهذا الرأى (٢) ، وشاركه فى نفس السنة (شترزجوفسكى) مع (فان برشم) (٣) . وفى سنة ١٩٢١ ، نشر (فاتزنجر) و (فولزنجر) كتابا حاولا فيه أن يعززا هذا الرأى ويزيداه إيضاحا (٤) . وفى سنة ١٩٢٢ ، نشر الأستاذ الفرنسى (دوسوه) بحثا وافيا فى هذا الموضوع ، ونظرية كاملة ، جمع فيها شتات الآراء التى أبديت منذ سنة ١٨٩٧ ، للدلالة على أن المسجد الأموى بدمشق أقيم فى حرم المعبد الرومانى القديم الذى كان قد اتخذ كنيسة فيما بعد ، وأن هذا المسجد احتفظ بنظام تلك الكنيسة (٥) . وأخيراً نشر الأب (لامنس) ، فى سنة ١٩٢٥ ، مقالا يردد فيه هذا الرأى (٦) .

والواقع أن آراء هؤلاء العلماء قد اتفقت على أمر واحد ، هو أن المسجد الأموى أقيم على نظام الكنائس ، ولكنها تضاربت جميعا فى الأسانيد التى تؤيد هذا الادعاء ، لأن هذه الأسانيد تناقض رواية المؤرخين جميعا ،

---

(١) أشار (كريسويل) فى صفحة ١٢٩ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » إلى نظرية هذين العالمين (Phené Spiers) و (Dickie) والى كتابهما :
The Great Mosque of the Omeiyades, Damascus, 1897.

(٢) — Charles Diehl: Manuel d'Art Byzantin, Paris: 1910

(٣) — Max Van-Berchem & J. Strzygowski: Amida, Heidelberg, 1910; Max Van Berchem: Art. Architecture, Encyclopédie de l'Islam, Tome I, p. 429.

(٤) صفحة ٩٣ من الجزء الأول من كتاب :
Watzinger und Wulzinger; Damascus, 1921-1924.

(٥) صفحات ٢١٩ و ٢٣٥ و ٢٥٠ من البحث الذى ظهر سنة ١٩٢٢ فى العدد الثالث من مجلة Syria :
R. Dussaud: Le Temple de Jupiter Damascénien.

(٦) Lammens, Ziad ibn Abihi, Revista degli Studi Orientali, Vol. IV, 1925.

عربا ومسيحيين ، ولأنها من جهة أخرى تناقض الاتجاهات المعروفة للمسجد وللكنيسة على السواء (١) . وقد تصدى (كريسويل) ، هذه المرة ، للرد تفصيلا على هؤلاء العلماء ، وتولى هو تفنيد أسانيدهم فى جزء كبير من كتابه ، وانتهى إلى القول بأن نظرية هؤلاء العلماء قد « هوت إلى الحضيض » (٢) . والواقع أن الأمر كان كذلك وكان الطريق ممهدا أمام (كريسويل) ، إذ أنه استخدم أسانيد بعض هؤلاء العلماء لنقض أسانيد البعض الآخر ، كما أن النصوص التاريخية ، عربية وأوربية ، تجمع على أن الوليد هدم الكنيسة وأقام مسجده فى موضعها .

وإذا كان (كريسويل) قد أوضح أن المسجد الأموى كان بناء مستقلا عن كنيسة (يوحنا) ، إلا أنه عاد وافترض أن الوليد اختار نظام مسجده من نظام الكنائس المسيحية فى سوريا ، وجعل له ثلاثة أساكيب ، على صورة أفنية الكنيسة الثلاثة ، وذلك لأنه يظن أن المسلمين فى الشام على عهد الوليد كانوا قد ألفوا بناء المساجد على هذه الصورة ، تبعا لعادتهم فى تحويل الكنائس السورية إلى مساجد (٣) . فكأنه هدم نظرية زملائه المستشرقين ليستأثر هو بفضل إقامتها من جديد على الأنقاض التى تخلفت من معاول هدمه.

ونظرية (كريسويل) الأخيرة قائمة كذلك على الافتراض ، فهى معرضة للهدم مثل نظريات زملائه ، إذ أنه ليس لديه دليل أثرى أو سند تاريخى يقوم حجة على أن العرب فى سوريا كانوا قد « ألفوا » بناء المساجد

---

(١) ذهب بعض العلماء فى المغالاة إلى حد بعيد ، فاطلقوا اسم « المساجد الكنائسية »(Mosquées Eglises)على بعض المساجد الفارسية الصغيرة التى أقيمت فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى (الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) . ومن ذلك ما ذكره (ديولافوى) Dieulafoy فى صفحة ٢٤ من كتاب Mélanges Hartwig Derenberg ، وما ذكره (فان برشم) فى صفحتى ٤٢٤ و ٤٢٥ من الجزء الأول من دائرة المعارف الاسلامية ، مقال « العمارة » .

(٢) الصفحات ١٢٨ إلى ١٣٥ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » والصفحات ٥٩ إلى ٧٣ من كتابه « المختصر » .

(٣) صفحة ١٣٥ إلى ١٣٧ من الكتاب الأول وصفحتا ٧٣ و ٧٤ من الكتاب الثانى المشار اليهما فى الحاشية السابقة .

على نظام الكنائس . ويكفيني أن أرد على (كريسويل) بحجته هو ، فقد ذكر في كتابه أن المسجد الأموي في دمشق لا يمكن أن يشبه أية كنيسة في سوريا (١) وأنه لا يوجد بهذه البلاد أثر واحد لكنيسة يبلغ طول فنائها ١٣٦ مترا ، وهو طول جدار القبلة في المسجد الأموي ، كما أنه أكد أنه لم توجد في سوريا ، لا قبل المسجد الأموي ولا بعده ، كنيسة تبلغ نسبة طولها إلى عرضها أكثر من ٣ إلى ٢ ، في حين أن نسبة طول بيت الصلاة في هذا المسجد إلى جوفه تزيد على ٣ إلى ١ .

وبالأضافة إلى ذلك ، فانه ليس في الشام كنيسة واحدة يتساوى عرض أفنيتها الثلاثة ، مثل ما يتساوى عرض أساكيب بيت الصلاة في المسجد الأموي ، إذ أن عرض الفناء الوسيط في الكنائس يبلغ عادة ضعف عرض فنائها الجانبي ، وهو جناحيها .

والقول بأن نظام تخطيط المسجد اشتق من الكنائس ، استنادا إلى أن بيت الصلاة في المسجد الأموي يتكون من ثلاثة أساكيب ، هو ادعاء باطل ، لأن عناصر المسجد التخطيطية تختلف اختلافا جوهريا عن عناصر الكنيسة التخطيطية ، كما سنرى في الفصل التالي . وذلك فضلا عن أنه ليس لعدد الأساكيب أهمية رئيسية ، أو قاعدة ثابتة ، في تخطيط المساجد ، وقد سبق أن استعرضنا مساجد عتيقة لها أسكوب واحد ، وأخرى بها أسكوبان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو سبعة ، أو أكثر من ذلك عددا . والثابت الذي لاشك فيه هو أن المسلمين في سوريا لم يلتزموا نظام الثلاثة الأساكيب في بناء المساجد ، وبالتالي لم « يألفوا » هذا النظام . وليس أدل على ذلك من أنهم غيروا من نظام كنيسة غزة ، ذات الأفنية الثلاثة ، وأضافوا اليها فناء رابعا ، لكي يحوروها إلى مسجد .

وقد كان يكفيني في الرد على (كريسويل) أن أسجل ما كتبه (سوفاجيه) من أنه « قد أصبح من المقرر أن المسجد الأموي في دمشق

---

(١) صفحة ١٣٢ من الكتاب الأول وصفحتا ٦٢ و٧٣ من الكتاب الثاني المشار اليها في الحاشية السابقة .

لايمين بشيء إلى الكنيسة التي كانت في موضعه من قبل » (١) ، لو أنه قد استند في ذلك إلى الأسانيد التي قدمها شخصيا ، ولكنه قد حاول أن يهدم آراء (كريسويل) وآراء العلماء الذين سبقوه ، ليقيم نظرية جديدة ، سأناقشها بعد قليل .

الثابت اذن أن نظرية قيام المسجد الأموى بدمشق على نظام كنيسة (يوحنا المعمدان) نظرية باطلة . وقد شعر أخيرا أحد علماء الآثار ببطلان هذه النظرية ، وحاول أن يحيها على صورة جديدة . فادعى ادعاء غريبا ، وتخيل المسجد الأموى مكونا من كنيستين ، توأمتين ، معترضتين ، إحداهما تتجه إلى الشرق والأخرى إلى الغرب ، ضمت الأولى إلى الثانية ، وفصلت رأسها ، فاشتركتا في رأس واحدة ، تتمثل في القبة الوسطى من المسجد (٢) . وإذا كان باب الخيال مفتوحا على مصراعيه أمام الراغبين فيه ، فانه موصد في حقول البحث العلمى ، ومن العبث أن أحاول الرد على تخيلات متجول في الآثار .

المسجد الأموى بدمشق لم يقم على نظام الكنائس ، وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها اليوم . وحتى إذا افترضنا أو تخيلنا ، أن هذا المسجد أقيم على نظام الكنائس فليس ينهض هذا دليلا على أن نظام الكنائس قد اتبع

---

(١) صفحة ٩٥ من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » ونص ما كتبه (سوفاجيه) في تلك الصفحة هو :

« Il a été établi que ia mosquée Omeyyade de Damas ne doit rien à l'église â laquelle elle a succédé.

وقد فند (سوفاجيه) في الصفحة المشار إليها من كتابه وفي صفحات كثيرة أخرى منه ، وخاصة في صفحة ١٢٢ ، آراء (كريسويل) ونقدها نقدا شديدا .

(٢) تنظر صفحة ١٤ من مقال (لامبير) « مصادر المسجد » :

Elie Lambert: Les Origines de la mosquée et l'Architecture Religieuse des Omeiyades. Stndia Islamica, Vol. V, Paris, Larose, 1956

وقد تجاهل (لامبير) أن المسجد الأموى بدمشق كان يحوى ثلاث قباب ، لا قبة واحدة ؛ تنظر صفحة ٢١٨ فيما سبق .

في المساجد الأخرى ، وقد رأينا أنه سبق بناء المسجد الأموى بناء مئات من المساجد في أطراف الدولة العربية ، ولم يكن للمسجد الأموى بالذات صلة ما بتشكيل نظام هذه المساجد السابقة له ، كما أنه لم يكن له أثر يذكر في تخطيط المساجد التي أنشئت من بعده .

هذه كلها أدلة على أنه لم يكن لنظام الكنائس أى تأثير في تكوين نظام المساجد الجامعة . وأسوق دليلا آخر على ذلك من مساحة هذه المساجد ، إذ أن معظم هذه المساجد كانت تشغل كل منها مساحة شاسعة تقدر ببضعة آلاف من الأمتار المربعة ، ولم يكن لهذه المساحات الشاسعة نظير قط في كنائس الشام والبازيليكيات البيزنطية ، قبل الأسلام أو بعده . وإذا اقتصرت مقارنتنا على بيوت الصلاة ، وعلى جدار القبلة ، وهو أقل الجدران طولا في معظم المساجد ، لتبين لنا أن طول جدران القبلة في مساجد الكوفة وعمرو وواسط وبغداد يتراوح بين مائة ومائة وعشرة أمتار . وأن طول جدار القبلة في مسجد ابن طولون ١١٨ مترا وفي المسجد الأموى بدمشق ١٣٦ . وفي مسجد أبي دلف ١٤٠ ، وفي مسجد سامراء ١٥٠ . وفي مسجد القيروان ٧٢ مترا . وليس في الكنائس المسيحية التي سبقت الاسلام ، جميعا ، كنيسة واحدة يبلغ أطول جدار فيها طول أقصر جدار للقبلة في هذه المساجد . وهو مسجد القيروان ، وجدار القبلة فيه أقل طولا بكثير من جدارى الجانبين .

والظاهر أن العلماء أحسوا بأن أدعاءاتهم باشتقاق نظام تخطيط المسجد من الكنائس ضعيفة ، وأرادوا أن يدعموها . وظنوا أنهم يستطيعون أن يؤيدوها بادعاء آخر ، هو أن نظام المسجد لم يكن وحده « موروثا » عن الكنائس بل إن عناصر هامة منه ، كالمئذنة والمنبر والمحراب والمقصورة ، كانت كلها كذلك موروثة عن المسيحية (١) .

---

(١) تنظر مثلا صفحتا ١١٤ و١١٥ من الفصل الذي كتبه (جورج مارسيه) في الجزء الأول من كتاب :

L'Art des Origines à nos jours, 2 Vols. Larousse, Paris 1933.

أما المئذنة ، فهى ليست عنصرا رئيسيا فى تخطيط المسجد وبنائه ؛ ومن المساجد ما لامئذنة له ؛ ومنها ما كان له أربع مآذن أو أكثر . وليس ما يمنع أن يكون شكل المئذنة قد اقتبس من بناء سابق للأسلام ، وقد سبق أن رجحت اشتقاق هذا الشكل من أشكال الأبراج السورية (١) . ومع ذلك فانه من الثابت أن فكرة المئذنة فكرة أصيلة فى الاسلام ، وأن بلال كان يؤذن ، على عهد الرسول « على منارة فى دار حفصه ابنة عمر التى تلى المسجد . . . وكان يرقى على أقتاب فيها ، وأنه كان فى دار عبد الله بن عمر أسطوان فى قبلة المسجد يؤذن عليها » ، وكانت « مربعة » (٢) . وقد اعترف (سوفاجيه) بأن هذه المئذنة الأولى ، فى أول مسجد ، قد اتخذت أنموذجا فى جميع المساجد من بعد (٣) .

وأما المنبر فقد التمس بعض المشتغلين بالآثار فيما رواه ابن دقماق والمقريزى حجة على اعتبار المنبر عنصرا « موروثا » عن الكنائس . ورواية هذين المؤرخين صحيحة فيما ذكراه من أنه كان بمسجد عمرو منبر « لا يعرف أقدم منه غير منبر الرسول » (٤) . أما ما أضافه المؤرخان إلى هذه الرواية فهو محض افتراض ، إذ كتبا « قيل هو منبر عبد العزيز بن مروان وذكر إنه حمل إليه من بعض كنائس مصر » ، وأردفا بذلك أنه « قيل إن زكريا ابن برقى ملك النوبة أهداه إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبعث معه نجاره حتى ركبه ، واسم هذا النجار بقطر من أهل دندره » (٥) .

(١) « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ١١١ .

(٢) صفحة ٣٧٥ من الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفى » للسمهودى . وتنظر صفحة ٤٠٨ من مقال (محمود عكوش) : « مصادر العمارة الاسلامية » .

(٣) صفحة ١٥٦ من كتاب (سوفاجيه) : « المسجد الأموى بالمدينة » .

(٤) صفحة ٦٣ من الجزء الرابع من « كتاب الانتصار » لابن دقماق ، وصفحة ٢٤٨ من الجزء الثانى من « الخطط » للمقريزى . والذى جاء فى رواية هذين المؤرخين « لا يعرف أقدم من (منبر عمرو) بعد منبر الرسول » وصحة الرواية « غير منبر الرسول » . تنظر صفحة ٦٥ من كتاب « الولاة » للكندى .

(٥) المقريزى ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وهكذا ذكر المؤرخان روايات ثلاثة ، أكدا الأولى منها توكيدا ، ورويا الأثنتين الأخرين افتراضا ، ولم يسبقهما مؤرخ من المتقدمين إلى ذكرهما . ومع ذلك فقد اختار (كريسويل) الرواية الثانية وصدقها ، وزادها ، فى رأيه حجة ، بأن أدعى أن شكل المنبر الذى قيل إنه حمل إلى عبد العزيز بن مروان من كنائس مصر ، قد نقل عن شكل بناء اكتشفه (كويبل) فى دير من أديرة سقارة (١) . وهو محض افتراض أكد (سوفاجيه) أنه « ليس فيه أى احتمال للصحة » (٢) .

والمعروف عن ثقة أن المنبر اتخذ فى مسجد الرسول بالمدينة ، وأنه كان « بناء » من « مرقاتين » أو « عتبتين » ، وقيل كان المنبر أولا من طين ، قبل أن يتخذ من خشب فى سنة ٧ أو ٨ (٦٢٩ م) .

وأما المحراب فقد نبتت نظرية اشتقاقه من الكنائس من رواية بعض المؤرخين عن استقدام عمر بن عبد العزيز بعمال من الروم والقبط للعمل فى مسجد الرسول بالمدينة ، وربط هذه الرواية برواية أخرى ذكر فيها المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز استحدث المحراب المجوف فى المسجد النبوى . وادعى المستشرقون أن تفسير هاتين الروايتين هو أن العمال القبط هم الذين أحدثوا المحراب المجوف فى عمارة المساجد . سنة ٩١ (٧٠٨ م) فى المدينة ، وسنة ٩٣ (٧١٠ م) أيام قرة بن شريك بمسجد عمرو .

---

(١) ينظر (كريسويل) صفحة ٣٢ وشكل ٧ من الجزء الأول من كتابه « العمارة الاسلامية » وقد ازداد (كريسويل) اقتناعا برأيه فى صفحة ٣٠ من مقال نشره عن « التأثيرات القبطية فى العمارة الاسلامية الأولى » جاء فيها :

« There can therefore be little doubt that the form taken by the Muslim minbar was derived from that of the East Christian pulpit». K.A.C. Creswell: Coptic Influences on Early Muslim Architecture, Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Tome V, Le Caire 1939.

(٢) صفحة ٤٠١ من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » . غير أن (سوفاجيه) ادعى ان المنبر مشتق ، لفظا وشكلا ، من الحبشة ، وانه يمثل « كرسى العرش » وان الرسول اتخذه فى مسجده بالمدينة ، تشبها « بسرير الملك » . وافتراض (سوفاجيه) لا يحتمل من الصحة أكثر من افتراض (كريسويل) .

وقد سبق لى أن أوضحت تفصيلا خطأ هذا الادعاء ، وابتعاده عن الحقيقة التاريخية الأثرية (١) ؛ وأضيف اليوم إلى ما أوضحته فى سنتى ١٩٣٦ و ١٩٤٦ : ما كان (بريجز) قد سجله قبل ذلك ؛ وهو أن المحراب المجوف كان « شكلا بدائيا فى تاريخ العمارة ، وأنه لاشك فى أن المسلمين الأوائل قد اختاروا هذا الشكل لبساطته فحسب ، ولم يفكروا فى اقتباسه أو تقليده عن الكنائس » (٢) .

وقد نشر (سوفاجيه) منذ أعوام كتابا انتقد فيه انتقادا شديدا قصة العمال القبط ؛ التى ضخمها (كيتانى) وأبرزها (كريسويل) . وأكد (سوفاجيه) أن هذه الرواية « أسطورة لا تستحق الاعتبار » و « أنه لا أساس لها من الصحة » (٣) . كما أن (سوفاجيه) أوضح بطلان الادعاء

(١) ينظر مقال المؤلف « بدعة المحاريب » ، فى المجلد الرابع ، العدد ٤١ ، نوفمبر ١٩٤٦ ، من مجلة « الكاتب المصرى » ، الصفحات ٣٠٦ إلى ٣٢٠ ، وكتابه « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحات ٥٤ إلى ٦٠ .

(٢) صفحة ٥٩ من كتاب « العمارة المحمدية » ، تأليف (بريجز) ، وفيها :
«...as the niche is a very elementary feature in architecture development, and as the early Muslims were careful not to imitate Christian or other infidel ritual for their worship, it seems more likely that they adopted the niche-from for its simplicity rather than because it was an established characteristic of a Christian chuch or of a Budhist temple.

كما أن (بوتى) أوضح فى مقال « تطور نظام البناء » ، ص ٩٨ ، أوجه الخلاف بين المحراب وبين مذبح الكنيسة ، وكذلك أوضحه (سوفاجيه) كما يتضح مما يلى.

(٣) أقر (سوفاجيه) فى صفحتى ١١٥ و ١١٦ من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » الرأى الذى كنت قد أبديته شخصيا فى صفحة ٥٩ من كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » ، وهو أن وجود عمال أجانب لا يؤثر على النظام المعمارى للبناء ، ونص ما كتبه (سوفاجيه) هو :
«rien qui ait pu influer, si peu que fut, sur les caractères architecturaux de la construction ».

أما ما كتبه (سوفاجيه) عن أسطورة العمال الروم والقبط فنصه :
«ne mérite assurément pas que l'on fasse sur lui grand fonds».

وذلك فى صفحة ١١٣ من كتابه المشار إليه . وناقش (سوفاجيه) هذه الأسطورة ، وانتهى فى صفحة ١١٤ إلى قوله : « on serait obligé de lui retirer toute valeur, comme ne reposant sur rien ».

باشتقاق المحراب من الكنائس (١) . وقد أكد (سوفاجيه) أن لفظ المحراب كان يعبر قبل الاسلام فى اللغة العربية عن جسم مجوف ، أو طاقة صماء . وانتهى من دراسته إلى التأكيد بأن المحراب موضع من المسجد أعد خصيصا للأمام ، (٢) وهو نفس الرأى الذى كنت قد أبديته شخصيا من قبل(٣) .

وأما المقصورة ، فلم تكن مستخدمة فى مسجد الرسول ، واستحدثت بعد ذلك . قيل إن « أول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان ، حين طعنه الخارجى ، وقيل مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى ، ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما » (٤) . ومن هاتين الروايتين يفهم السبب فى إحداثها فى المسجد ، فهى سياج كان يحمى الحاكم حين يتوجه للصلاة فى المسجد . وهى نوع من الأثاث الملحق بالبناء ، فلا تدخل فى تخطيط المساجد . وليس لها على كل حال صلة بشئون الكنائس . أما القول بأن استحداثها فى المساجد كان سببا فى تطور نظم تخطيطها ، فهو رأى انفرد (سوفاجيه) بالتعبير عنه (٥) . ولم يشاركه أو يتبعه أحد فيه . وسأناقش هذا الرأى فى الموضع المخصص له ، فى الفصل السادس من الجزء الأول من هذا الكتاب .

---

(١) صفحة ١٤٥ من الكتاب المشار اليه أعلاه . وقد أضاف (سوفاجيه) إلى تحليله ما سبق لى أن سجلته من أن « الشبه بين مظاهر عنصرين معماريين لا يعتبر وحده دليلا على اشتقاق أحدهما من الآخر » ، مالم تتضح بصفة قاطعة الأسباب العملية التى تبرر هذا الاشتقاق .

« Il ne suffit pas d'enregistrer un rapport formel entre deux éléments architecturaux pour que leur filiation soit établie ipso facto, il faut encore demontrer qu'il existe entre ces éléments des rapports fonctionnels qui justifient l'emprunt ».

(٢) صفحة ١٤٦ من الكتاب المشار اليه فى الحاشية السابقة .

(٣) صفحتا ٥٩ و ٦٠ من كتاب المؤلف « المسجد الجامع بالقيروان » .

(٤) صفحة ٢٥٠ من الجزء الثانى من « مقدمة ابن خلدون » .

(٥) صفحة ٨٤ وما يليها من « كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » .

— ٣ —

المساجد والقصور الفارسية

سقطت الواحدة بعد الأخرى تلك الحجج التي حاول المستشرقون أن يستندوا اليها للادعاء باشتقاق تخطيط المساجد من نظم الكنائس . وبالرغم من ذلك فان (كريسويل) ظل مثابرا ، أكثر من زملائه المستشرقين ، على التحيز في تفسير أسانيده ، وكان أصلبهم عودا في التعصب لآرائه ، وفي التصميم على هذا التعصب . إذ أنه حاول أن يثبت بأي شكل من الأشكال أن نظام تخطيط المسجد الجامع لم يتكون إلا بعد وفاة الرسول ، وأن هذا النظام اشتق من نظام الكنائس المسيحية في الشام . ولعله أدرك أن المساجد تختلف أنظمتها عن نظام الكنائس ، ولهذا فانه يدلي بنظرية أخرى ، أو أنه على الأصح يثير نظرية قديمة أخرى ، كان المستشرقون قد سبقوه إلى إثارتها (١) ، وهي أنه يوجد نوعان من نظم المساجد ، النظام المسيحي أو الشامي ، والنظام الفارسي أو العراقي ، وأن هذا النوع الأخير قد اشتق من قاعات الاستقبال في القصور الفارسية (٢) .

(١) صفحة ٤١١ من كتاب « العمارة الاسلامية » ، وصفحتا ٤٢ و ١٥٨ من كتابه « المختصر » .

(٢) ذكر (دييز) في سنة ١٩١٥ أنه من المحتمل أن يكون نظام المساجد مشتقا من القصور الفارسية الأخمينية ، وذلك في صفحة ٨ وما بعدها من كتابه :

E. Diez: Die Kunst der Islamischen Volker, Berlin, 1915

كما أشار إلى ذلك في مقاله عن « المسجد » في « دائرة المعارف الاسلامية » ، صفحات ٤٠٣ إلى ٤٤٢ من الجزء الثالث :

Encyclopédie de l'Islam, Art. Masdjid, T. III

هذا ويخلط (كريسويل) بين عناصر التخطيط وعناصر البناء ، ومع ذلك فلا بأس من مناقشته فيهما معا ، وقاعات الاستقبال التي قصدها (كريسويل) هي المسماة (apadana) .

ولنتتبع ما ذكره (كريسويل) عن النظام العراقي . وهو يدعى أن المساجد العراقية اشتقت نظمها من قاعات الاستقبال فى القصور الفارسية استنادا إلى أن هذه وتلك تشترك فى العناصر التالية :

١ — الحدود المربعة ؛ ٢ — الجدران المبنية بالآجر ، وأحيانا باللبن ؛ ٣ — السقف المسطحة الخشبية ؛ ٤ — السقف القائمة مباشرة على عمد من غير عقود ؛ ٥ — العمد الحجرية أحيانا والخشبية غالبا (١) .

وهذه العناصر كلها لا تكفى للدلالة على اشتقاق بناء من آخر . إذ المهم فى هذا البحث هو نظام البناء نفسه ، ولم يقدم (كريسويل) رسما لقاعة ساسانية حتى يصح الحكم بأن نظامها اتخذ أنموذجا لوضع نظام المسجد الجامع ، بل لم يقدم اسما لأثر قديم ، خالد أو مندثر ، لمثل هذه القاعة ، حتى يمكن إجراء مقارنة ما بينها وبين مسجد جامع . ومع ذلك فان مسجد الكوفة الذى اتخذه (كريسويل) حجة للمقارنة ، لم يكن له أول الأمر جدارا مبنيا ، لا من الآجر ولا من اللبن . وقد أوردت فيما سبق رواية المؤرخين عن الطريقة التى اتبعت لجعل حدود هذا المسجد مربعة ، ولم يذكر أحد منهم أن سعد بن الوقاص يعث رسولا إلى بلاد فارس لينظر كيف كانت الحدود المربعة فى قاعات قصورها .

ولكن هذه العناصر الخمسة التى ذكرها (كريسويل) كانت مجتمعة كلها فى مسجد الرسول بالمدينة . فقد كانت حدوده مربعة ؛ وجدرانه من اللبن ، وسقفه جريدا ؛ أى مسطحة ، وعمده جذوع نخل ؛ أى خشبية ، ولم يكن عليها عقود . وقد اعترف (كريسويل) نفسه بأن أبنية الرسول فى المدينة كانت بدائية . وإن كانت فى رأيه لم تكن تعتبر مسجدا (٢) ، فهى باعترافه ، لم تقتبس من نظام سابق ، وكانت قائمة قبل فتح العرب بلاد العراق ، وقبل إقامة مساجد جامعة فيها بسنوات عديدة . فالأصح إذن أن تكون مساجد العراق قد اشتقت من مسجد الرسول بالمدينة . ولكن (كريسويل)

(١) صفحة ١١٤ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » وصفحتا ٤٢ و ١٥٨ من كتابه « المختصر » .

(٢) صفحة ٣ من الكتاب السابق وصفحة ٥ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » .

يسترسل فى ادعاءاته ، ليقدم برهانا آخر على اشتقاق نظام تلك المساجد من قاعات الاستقبال الفارسية ، إذ نقل ما ذكره (المقدسى) (١) من أن المسجد الجامع فى (اصطخر) « بنى على عمل جوامع الشام بأساطين مدورة ، على رأس كل اسطوانة بقرة . ذكروا أنه كان فى القديم بيت نار » ، وفسر (كريسويل) هذا الوصف بأنه يعتقد أن مسجد (اصطخر) هذا كان فى الأصل بهوا من الأبهاء الفارسية المحاطة بالأعمدة . ولم يقف خياله عند هذا الحد ، بل إنه رسم صورة لما كانت عليه أعمدة بيت الصلاة فى ذلك المسجد ، فوضع على كل عمود رأس ثورين ضخمين (٢) . ولم لا تكون رؤوس البقر والثيران تمرح فى المسجد الجامع فى (اصطخر) ، كما كانت تمرح ، فى اعتقاد (كريسويل) ، فى المسجد الجامع فى (قزوين) ؟ ألم يقل أحد الكتاب الأوربيين إن أول مسجد بنى فى تلك المدينة ، وهو الذى بناه محمد بن الحجاج ، كان يعرف باسم « مسجد الثور » (٣) ؟

ومن هذين المثلين الفريدين فى التاريخ ، بقرات المسجد الجامع فى اصطخر ، وثيران المسجد الجامع فى قزوين ، افترض هذا العالم الأثرى أن العرب والمسلمين اتخذوا من قاعات الاستقبال فى القصور الفارسية بيوتا للصلاة ، ثم بنوا مساجدهم الجامعة على نظامها ومنوالها ، وجره هذا الافتراض إلى التأكيد بأن مسجد الكوفة كان مماثلا فى نظامه لقاعة الاستقبال فى القصور الفارسية القديمة ، تلك القاعة التى كان يطلق عليها أحيانا « قاعة الأعمدة » .

يبدو لى أن افتراض الكاتبين (كريسويل) واه ، لأنه لا يستند على حقائق تاريخية ، أو أدلة أثرية ، فهو محض افتراض وتخيل لا مجال لمناقشته ، والبحث العلمى يقضى برفضه . وسنرى فيما بعد أن نظام تخطيط المساجد

---

(١) المقدسى ، « أحسن التقاسيم » ، الجزء الأول ، صفحة ٤٣٦ .

(٢) صفحة ١٤ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية »، وصفحة ٨ من كتابه « المختصر » .

(٣) صفحة ٢١٩ من كتاب :

Le Strange: Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1930.

وقد نقلها (كريسويل) فى الصفحات المشار إليها فى الحاشية السابقة .

يختلف اختلافا تاما ، من حيث وضعه وعناصره وأحكامه وأغراضه ، عن هذه القاعات الفارسية المزعومة . وليس أكثر عجبا على تخبط (كريسويل) من أنه لم يستطع أن يطبق نظريته « العراقية الفارسية » على مسجد من مساجد الجزيرة ، هو مسجد الرقة ؛ إذ رأى نفسه مضطرا أن يدعى أن هذا المسجد « نصفه عراقى ونصفه سورى » (١) ؟ نصفه عراقى ، لأنه مربع أو يكاد يكون مربعا ، وكذلك صحنه مربع أو يكاد ، ولأنه قد تعددت أبوابه ؛ ونصفه سورى ، لأن بيت الصلاة فيه يقتصر على ثلاثة أساكيب ؛ وهو يسمى هذه الأساكيب فى لغته « أجنحة » ، تشبيها لها بأجنحة الكنائس (٢) .

ويكفى للدلالة على اختلال نظرية اشتقاق نظام المساجد العراقية من القصور الفارسية أن أورد ما ذكره الاستاذ (ديز) فى موسوعة الفن الفارسى (٣) ، من أن المساجد الفارسية القديمة قد اتبعت النظام التقليدى المشترك الذى كان سائدا فى جميع البلاد الأسلامية والعربية فى القرون الأولى بعد الهجرة ، وأن المساجد الأولى فى إيران كانت ذات أعمدة خشبية ، على نظام المساجد فى غيرها من الدول الأسلامية . ويقرر (ديز) ، استنادا إلى ياقوت الحموى ، أنه شاع بعد ذلك استخدام العمد الآجرية والحجرية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) (٤) ، وأن هذه العمد الحجرية كانت تنتزع من مبان سابقة ، وأنه كان لمسجد (بلخ) أعمدة من الرخام .

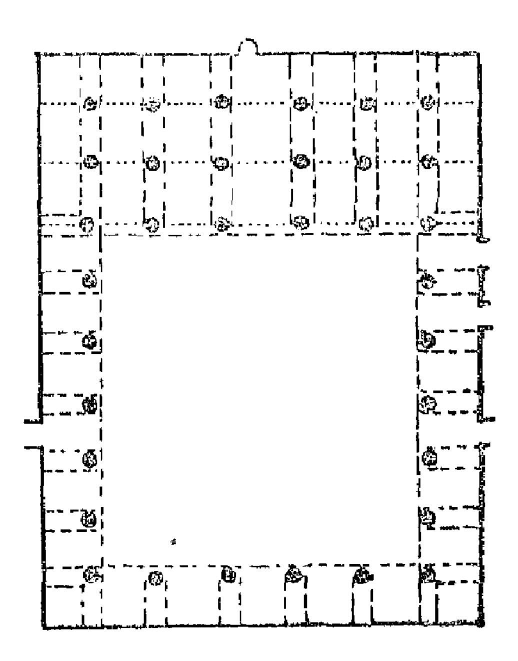
(١) صفحتا ٤٨ و ٤٩ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية » و صفحة ١٩٠ من كتابه « المختصر » .

(٢) الحقيقة التى تجاهلها (كريسويل) هى أن الأجنحة (aisles) فى الكنائس عناصر إضافية لرحبة كبرى وسطى ، هى جسد الكنيسة ، أما الأساكيب فهى من بيت الصلاة جوهره وكيانه .

(٣) صفحة ٩٢٠ من الجزء الثانى من كتاب :
Pope; Survey of Persian Art, Oxford, 1939.
والذى كتب الفصل المشار اليه هو الاستاذ (ارنست ديز) (Ernst Diez)

(٤) ياقوت ، « معجم البلدان» ، الجزء الأول ، صفحة ٧١٣ والجزء الرابع ، صفحتا ٨١٧ و ٨١٨ ، طبعة ليبزج .

ويعتبر مسجد (دمغان) من أقدم المساجد القائمة فى إيران ، شكل (١٠٧) ، وقد أقيم فيما بين سنتى ١٣٠ و ١٧٠ (٧٤٧ — ٧٨٦ م) ؛ وهو مسجد ذو أعمدة ، فيه بيت للصلاة من ثلاثة أساكيب وسبع بلاطات ، وله مجنبات ثلاث تطل على صحن . ويعترف (شرودر) فى موسوعة الفن الفارسى كذلك ، أن مسجد (دمغان) هذا بناء ساسانى أقيم على نظام « تخطيط عربى » (١) . وهذا اعتراف صريح من عالم من علماء الآثار الأيرانية بأن المساجد الفارسية الأولى نفسها أقيمت على نمط المساجد العربية ، لا على نظام قاعات استقبال القصور الفارسية ، وفى هذا رد صريح كذلك على ادعاء (كريسويل) .



شكل (١٠٧) — رسم تخطيطى لمسجد دمغان .

(١) صفحة ٩٣٣ — ٩٣٤ من الجزء الثانى من كتاب :

Pope Survey of Persian Art,

وكتب الفصل الاستاذ (اريك شرودر) (Eric Schroeder) والنص المشار إليه هو « Sasanian construction upon an arab plan »

— ٤ —

المعابد وقاعات الاستقبال الرومانية

اتضح اضطراب المستشرقين فى البحث عن مصادر مسيحى أو فارسى لتخطيط المساجد ، واعترف أحدهم صراحة بأن « جميع النظريات التى وضعت عن مصادر تكوين نظام المسجد تحوي ضعفا مشتركا ، هو ضعف خطير قد جردها من كل قيمة » (١) ، ذلك أن هذه النظريات قد أهملت جميعا البحث عن الدوافع العملية التى تدخلت فى تكوين تخطيط المسجد ، ولم تراع العلاقة التى تربط هذه الدوافع المادية بالشرائع الدينية والنظم السياسية (٢) .

وضرب (سوفاجيه) مثلا لما أسماه « تعقيد » البحث عن المصادر ، هو محاولة المستشرقين العثور على أدلة ، « بأى ثمن » ، لربط نظام المسجد الأقصى بنظام « كنيسة بيزنطية » (٣) . وانتهى (سوفاجيه) إلى التأكيد

---

(١) صفحة ١٢٢ من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » وفيها :

«Toutes les théories avancées jusqu'à ce jour présentent en effet, une faiblesse commune, si grave qu'elle leur retire pratiquement toute autorité».

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة وصفحة (٩٢) . وكذلك اعترف (جرابار) بأهمية العوامل التاريخية فى تحديد نظم التخطيط وذلك فى صفحة ٤٣ من المقال الذى نشره بعنوان « قبة الصخرة » وأوضح فيه مثلا من أمثلة اختلاف آراء المستشرقين الناتجة عن إهمالهم لهذه العوامل التاريخية ، وهو تحديد القصد من بناء قبة الصخرة فى سنة ٧٢ (٦٩١ م) . ينظر:

Oleg Grabar: The Umayyad Dome of the Rock in Jerusalem, Ars Orientalis, Vol. III, 1959 pp. 33-62

(٣) صفحة ١٠٠ من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » ، ونص ما كتبه (سوفاجيه) هو :

«Ceux qui ont voulu à tout prix y retrouver une église byzantine».

بأن « نظام المسجد لا يمكن أن يكون مشتقا من الكنيسة » (١) . واعترف الكاتب بأثر مسجد الرسول بالمدينة في تطور العمارة الأسلامية (٢) .

ولكن (سوفاجيه) ، الذى انتقد نظريات المستشرقين من قبله ، وأنكر صلة المسجد سواء بالكنيسة أو بالقصور الفارسية ، ابتكر نظرية جديدة ، هى اشتقاق نظام المسجد من البازيليكية الرومانية ؛ وهى المكان الذى كانت تقام فيه السوق ، وتعقد فيه المحكمة ، وكان يعتبر قاعة الاستقبال الرسمية (٣) .

ويفسر (سوفاجيه) نظريته في صفحات طويلة (٤) ، ملخصها أن المسجد لم يكن يستخدم مكانا للعبادة بقدر ما كان يستخدم مكانا للاجتماعات الرسمية والشعبية . وكان يستخدم فى شتى الأغراض ، فى نظره ، فقد كان

---

(١) صفحة ١٧٤ من الكتاب المشار إليه فى الحاشية السابقة :

« La mosquée ne peut donc dériver de l'église ».

(٢) المرجع السابق ، صفحة ١٢١ وما يليها . وكذلك اعترف (جرابار) فى صفحة ٦١ من المقال المشار اليه ، « قبة الصخرة » ، بأثر مسجد الرسول فى تطور العمارة الأسلامية العربية .

(٣) صفحة ١٢٣ من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » . ولفظ البازيليكية (Basilica) مشتق من الكلمة اليونانية (Basileus) ومعناها الملك . وهذا يفسر ، فى رأى (سوفاجيه) كيف أن البازيليكية فى الاصطلاح الرومانى ، قبل المسيحية ، كانت مدلولا على « قاعة المحكمة التى يجلس فيها الملك » ، وكيف أن نظامها اشتق من نظام القصور الهلينستيه ، وأصبحت بعد المسيحية ، أنموذجا لبناء الكنائس . تنظر صفحات ١٧٦ و ١٨٤ و ١٨٥ من الكتاب المشار إليه هنا . وقد أوضح (سوفاجيه) كذلك فى صفحات ١٧٠ و ١٧١ و ١٩٠ و ١٩١ كيف اشتق نظام الكنائس من قاعات الاستقبال الملكية ، وكيف أن الشعائر الدينية المسيحية كانت تتبع نظم الحفلات الرومانية الرسمية ، فكان العامة يجتمعون فى الأفنية الجانبية ، وهى أجنحة الكنيسة ، أما الفناء نفسه ، وهو القاعة الرئيسية ، فكان الجزء الشرقى منه مخصصا للهيكل وفيه يوضع المذبح ومائدة القراءة المقدسة ، ويجتمع القسس والمطارنة والمرتلون ، وكان فناء الكنيسة يبقى خاليا ممن عدا هؤلاء وأولئك ، وكان عرش المطران يقام من خلف المذبح . ونظام هذه الشعائر ، ونظام التخطيط الموضوع لها ، يختلفان تماما عن شعائر الصلاة فى الأسلام وطريقة اجتماع الناس فى المسجد ونظم بيت الصلاة فيه ووظيفة المحراب منه .

(٤) صفحة ١٢٣ وما يليها من كتاب « المسجد الأموى بالمدينة » .

بمثابة قاعة المحكمة ، ومخزن الأسلحة ، وخزانة الدولة أو بيت المال ، وكانت تستعرض فيه الرؤوس المشطورة ، والأصابع المبتورة ، وأكفنة الموتى (١) .

ويدعى (سوفاجيه) أن نظام المسجد قد استقر في العصر الأموى ، وأن مسجد الوليد في المدينة كان أنموذجا احتذى من بعد ، وأن أهم وظيفة للمسجد في العصر الأموى كانت إعداد مكان لاجتماع الناس يوم الجمعة ، أو في المناسبات الرسمية ، لا لأداء الصلاة الجامعة ، بل للاستماع إلى الخطبة ، خطبة الحاكم أو الخليفة . ولم تكن « للخطبة » ، في رأى (سوفاجيه) ، صلة بصلاة الجمعة (٢) . بل إن الأمر كان كذلك في عهد الرسول وكان المسجد النبوى ، وفقاً لنظرية (سوفاجيه) : « ملحقا شعبيا » لمنزل النبى ، وكذلك أصبح في العصر الأموى « ملحقا عاما رسميا » لقصر الخلافة (٣) .

وظيفة المسجد إذن ، في هذه النظرية الجديدة ، شبيهة بوظيفة قاعة الاستقبالات ، في العصر الرومانى ، وفى قصور الخلافة ، والفرق بينهما هو أن قاعة الاستقبال كانت قاعة للخاصة ، أما المسجد فهو ساحة شعبية (٤) . يؤكد صاحب هذه النظرية أن الصلة بينهما كانت صلة وثيقة ، وأن الساحة الشعبية المزعومة ، وهى بيت الصلاة في المسجد ، قد أعدت على نظام قاعة الاستقبال الخاصة في القصور الملكية ، الرومانية أولا ، والأموية ثانيا . وهكذا ظن (سوفاجيه) أنه قد وجد حلا موفقاً لمشكلة البحث عن المصادر بالادعاء باشتقاق نظام المسجد من النظام البازيليكى الرومانى (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، صفحة ١٣٨ . وفى رأى (سوفاجيه) أن شعائر الصلاة لم تكن عاملا في تشكيل نظام المسجد وتخطيطه ، وأن نظم الحكم وخاصة نظام الاجتماعات الرسمية ، هى التى كانت العامل الرئيسى في هذا التشكيل . وهو رأى سبق لى أن أوضحت مدى بعده عن الحقائق التاريخية والدينية .

(٢) المرجع السابق ، صفحات ١٣٤ و ١٣٥ و ١٤٣ .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، صفحة ١٥٧ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة . وكان (سوفاجيه) مقتنعا تمام الاقتناع بصواب نظريته ، ومعتقدا أنها تقوم على أسس متينة (solidement fondée) .

وقد وقع (سوفاجيه) فى نفس الأخطاء التى أخذها هو على زملائه المعاصرين والسابقين ، وأهمل تماما تطبيق المبدأ الذى كان قد أشار اليه ، مبدأ مراعاة العلاقة بين الظروف المادية التى صاحبت بناء المسجد وبين الشرائع الدينية التى أملت عليه نظامه . ويجد القارىء فيما سبق من الصفحات ردودا مفصلة على العناصر التى بنى عليها (سوفاجيه) نظريته ، كما سيجد فى الفصل التالى تفنيداً لهذه الآراء والمزاعم .

— ٥ —

المساجد والهياكل اليهودية

تعددت نظريات المستشرقين فى البحث عن مصادر تخطيط المسجد ، وقد رأى أخيرا أحد الأساتذة الذين اجتذبتهم بدائع الآثار العربية فى الأندلس ، أن المجال الذى اتسع للنظريات الرومانية والفارسية والسورية المسيحية والبيزنطية قد يتسع لنظرية يهودية . والحق أنه أدلى بهذه النظرية الجديدة فى حذر شديد ، ولم يجسر ، مثل زملائه ، أن يؤكدها أو يثق بها ، بل اعترف بأنه يفترضها افتراضا (١) .

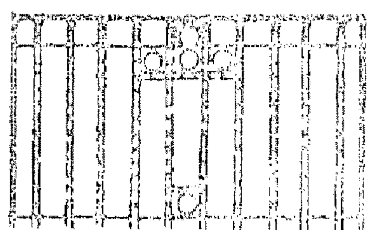
كان (لامبير) قد أخذ أول الأمر بآراء المستشرقين الذين سبقوه فى اشتقاق نظام المسجد من نظام الكنائس (٢) ، وأعان مثل معظمهم أن

(١) وذلك فى مقال نشره (لامبير) عن « مصادر المسجد » :
Elie Lambert: Les Orignes de la mosquée et l'Architecture Religieuse des Omeiyades, Studia Islamica, Vol. VI, Paris, Larose 1956, pp. 5-18

(٢) كان (لامبير) قد ألقى محاضرة فى سنة ١٩٤٧ عن « المساجد ذات الطابع الأندلسى » ونقل من هذه المحاضرة معظم ما أورده فى المقال السابق ، وكانت هذه المحاضرة قد نشرت فى العدد الرابع عشر من مجلة « الأندلس » .
Elie Lambert: La mosquée du Type Andalou en Espagne et en Afrique du Nord. Al-Andalus, Vol. XIV, Madrid, 1949, pp. 273-289.

مسجد الرسول بالمدينة كان فى الأصل مسكنا خاصا بسيطا (١) . غير أن (لامبير) لم يكن متحمسا لنظرية المصدر الكنائسى ، فادعى أن من المساجد نوعين ، نوع تأثر بالنظام الذى كان متبعا فى مسجد الرسول بالمدينة ، تبدو الأصالة فيه من امتداد بيت الصلاة من الشرق إلى الغرب ، ومن أهمية جدار القبلة ، ومن فسحة الصحن (٢).

أما النوع الثانى فأساسه المسجد الأقصى ، ونظامه فى رأى (لامبير) مشتق من نظام الكنائس . وهو نظام صليبى يمتاز بتعدد الأجنحة (٣) . وقد عزز (لامبير) رأيه برسم صوره لتخطيط جزء من مسجد قرطبة بحيث يظهر فيه هذا النظام الصليبى ، شكل (١٠٨) .



شكل (١٠٨) — تحوير تخطيط مسجد قرطبة إلى تخطيط كنيسة (عن لامبير)

وعاد (لامبير) بعد ذلك بخمس سنوات فأدلى بنظرية جديدة ، أوضح فيها أول الأمر أوجه الخلاف بين نظام المسجد والنظام الكنائسى . ونفى الصلات التى كان زملاؤه يظنون أنها تربط بين المحراب والمنبر وبين نظائرها فى الكنيسة ، وأكد الفوارق بين الشعائر الاسلامية والشعائر المسيحية. ولكن (لامبير) جعل من أوجه الخلاف هذه مقدمة للتقريب بين الاسلام واليهودية ، والادعاء بأن المقارنة واجبة بين المنبر فى المسجد والعرش فى الهيكل اليهودى . بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك وادعى أن المقارنة بين نظام مسجد الكوفة وبين نظام الهيكل اليهودى ترجح اشتقاق تخطيط المسجد

---

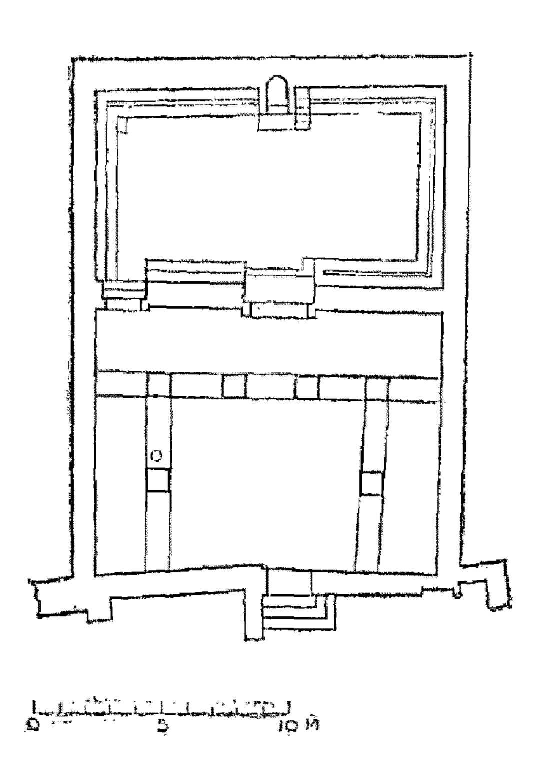
(١) صفحة ٢٧٣ من المحاضرة السابقة ، وصفحة ٦ من مقال « مصادر المسجد » وفيها قوله : (une simple maison privée).

(٢) صفحة ٢٧٤ من محاضرة (لامبير) وصفحة ٦ و ٧ من مقاله المشار إليه .

(٣) صفحتا ٢٧٧ و ٢٨٢ من « المحاضرة » ، وصفحة ١٦ من « المقال » .

هذا ويجد القارىء تفنيدا لكل هذه المزاعم فيما أوضحته فى الفصل الأول من هذا « المدخل » وفى الصفحات السابقة من الفصل التاسع .

من تخطيط الهيكل (١) . وقد نشر (لامبير) رسما يؤيد نظريته . وإنى أنقله فى شكل (١٠٩) ، ولعل هذا الرسم وحده يوضح شطط (لامبير) ، ويؤكد غرابة الرأى الذى يبديه ، وهو رأى ينحصر فى مجال الظن والخيال .



شكل (١٠٩) — رسم تخطيطى لهيكل يهودى ، (عن لامبير)

(١) صفحة ٥ من مقال « مصادر المسجد » . وكان (لامبير) قد نشر من قبل مجمل هذا المقال فى الجزء الثالث من مجلة (Semitica) :

Elie Lambert: La Synagogue de Doura-Europos et les Origines de la Mosquée, Semitica, Vol. III, Paris, 1950, pp. 67-72.

اولا شك فى أن عقيدة (لامبير) الدينية هى التى دفعته وحدها على إبداء هذا الرأى المضطرب فى هذين المقالين .

الفصل العاشر

مراحل تخطيط المسجد الجامع

١ — النظام التخطيطي .
٢ — موقع المسجد من العمران ومساحته .
٣ — جدار القبلة والمحراب .
٤ — حدود المسجد وبيت الصلاة .
٥ — تخطيط الأساكيب .
٦ — تخطيط البلاطات .
٧ — البهو والمؤخر والمجنبات .
٨ — ملحقات التخطيط : الأبواب ، النوافذ ، المئذنة ، المنبر ، المقصورة .

الفصل العاشر
مراحل تخطيط المسجد الجامع

— ١ —

النظام التخطيطى

إذا كان المستشرقون وعلماء الآثار قد تضاربت أقوالهم ، وتعارضت نظرياتهم ، فى مصادر اشتقاق النظام التخطيطى للمساجد ، فذلك لسبب رئيسى هو أنهم لم يدرسوا دراسة كافية عناصر هذا التخطيط ، ولم يبحثوا بحثا موضوعيا خصائص هذه العناصر وأغراضها ، ولم يدركوا الحكمة فى وجودها وتجمعها ، وارتباطها بشعائر دينية مفروضة محددة . وهذا هو الموضوع الذى سأخصه بالبحث فى الصفحات التالية .

وأود أن أقرر أولا حقيقة تجاهلها حتى اليوم معظم الذين اختصوا بدراسة العمارة الأسلامية ، وكتبوا فيها . وهى أن النظام التخطيطى لبناء ما ليس مجرد رسم على الورق ، بل هو مرآة تعكس على الأرض صورة هذا البناء ونظامه . وليس معنى ذلك أن النظام التخطيطى يقل أهمية عن البناء المتجسم فى الفضاء ، فان كليهما مرتبطان ببعض ارتباطا وثيقا ، وكل منهما عامل فى صياغة الآخر وتكوينه . ولكن النظام التخطيطى للبناء يعتبر بمثابة جدول أعمال ، وهو للبناء كالفهرس المفصل لأبواب الكتاب .

وأود أن أنبه كذلك إلى خطأ جسيم لم ينج منه علماء الآثار الأسلامية ، ذلك أنهم يخلطون بين الرسم التخطيطى والمسقط الأفقى للمساجد ، والفرق بينهما واضح ، فالرسم التخطيطى هو رسم التخطيط الأرضى للبناء وللأسس التى سيقام عليها ، أما المسقط الأفقى فهو الصورة الأرضية للبناء القائم .

أى أن الرسم التخطيطى هو خطة البناء قبل تشييده ، والمسقط الأفقى هو مرآته ، وظله على سطح الأرض بعد تشييده . وقد لا ينطبق الشكلان تماما .

هذه ناحية ، وناحية أخرى أود أن أشير اليها ، وهى أن النتائج التى أقدمها فى هذه الصفحات قد بنيت على دراساتى للمساجد التى سبق أن استعرضت نظمها التخطيطية فى الفصول السابقة ، وهى المساجد التى أقيمت قبل بناء مسجدى عمرو وابن طولون ، والتى أمكن الاستدلال على نظمها التخطيطية ، سواء من أقوال الرواة ، أو من الآثار التى تخلفت عنها ، أو من الحفائر التى أجريت فيها (١) . وقد اقتصرت دراساتى هنا على هذه المساجد ولم أشأ أن أشير إلى مساجد عديدة أخرى ذكرها الرواة دون تفصيل أو إيضاح لنظمها ، أو إلى المساجد التى لاحصر لعددها والتى أقيمت بعد ذلك التاريخ ، إذ أننى سأشير إلى هذه المساجد الأخيرة فى الأجزاء التالية من هذا الكتاب .

وأود أن أنبه أخيرا إلى أننى قد اعتمدت فى بحثى هذا على دراساتى المباشرة للآثار التى أتيحت لى فرصة زيارتها ودراستها ، أما الآثار التى لم أحظ فيها بهذه الدراسة المباشرة ، وهى آثار العراق ، فقد اعتمدت على مطبوعات مديرية الآثار القديمة فيها وعلى بحوث المستشرقين ، بالرغم من اقتناعى بأن الرسوم التخطيطية التى وضعت لمسجدى أبى دلف وسامراء ، مثلا ، لا تعبر تماما عن الحقيقة . إذ أنه قد روعى فى وضع بعض هذه الرسوم ما كان يعلق بأذهان العلماء التى درسوها من اشتقاق نظمها من نظم

(١) لم أشر فى هذا البحث إلى قبة الصخرة ، التى أنشئت سنة ١٨ (٦٣٨م) وأعيد بناؤها فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فيما بين سنتى ٦٦ و ٨٧ (٦٨٥ — ٧٠٥م)، لأنها ليست مسجدا جامعا ، ولأن لها نظام خاص تنفرد به وتخرج معه عن نطاق المساجد ، كما أنه روعيت فى بنائها ظروف سياسية أو دينية خاصة . يراجع : المقدسى « أحسن التقاسيم » ، صفحات ١٥٩ و ١٦٨ و ١٧١ ؛ واليعقوبى « تاريخ » ، جزء ثان ، صفحة ٣١١ ؛ والحاشية رقم ١ من الفصل السادس من هذا المدخل ، صفحة ١٦٦ فيما سبق .

الآثار السابقة لها . وقد تحققت ذلك مثلا بالنسبة لمسجد عمرو ، وأشرت اليه فيما سبق (١) ، كما تحققته بالنسبة لمسجد حسن فى الرباط ، إذ أن الرسم التخطيطي المنشور عن آثار هذا المسجد العظيم لايطابق تماما الواقع ، وقد اكتشفت أسسا لعمد فى أماكن من آثار المسجد ظهر هذا الرسم خاليا منها (٢) ، وكذلك الحال بالنسبة لمسجدى القيروان فى تونس ، والقرويين فى فاس ، وسأشير إلى هذه الأخطاء فى موضعها من أجزاء هذا الكتاب .

— ٢ —

موقع المسجد من العمران

كان أول ما يعنى به المسلمون فى كل فتح من فتوحاتهم أن يقيموا مسجدا جامعا للصلاة (٣)،وكان أول ما يخطر لهم هو تحديد موقع هذا المسجد . وكان العرب يحرصون على أن يكون هذا الموقع فى وسط المدينة الجديدة أو فى موضع قريب من هذا الوسط ، بحيث يكون مجاورا لدار الأمارة أو لقصر الخليفة . وقد رأينا أن مسجد المدينة كان يجاور مساكن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن مسجد الكوفة قد حدد موضعه أولا ثم حددت خطط القبائل من حوله ، وأن مسجد عمرو بالفسطاط كان

(١) تنظر فيما سبق ، صفحة ٨٠ وما يليها .

(٢) تراجع الرسوم المنشورة فى صفحة ١٦٧ من بحث (ديولافواى) :
Dieulafoy : La mosquée de Hassan, Mémoire de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, Vol. XLII.
وفى كتاب (تراس) ، « الفن الاسبانى المغربى » ؛ وفى صفحة ٢٠٨ شكل ١٣٢ من كتاب (مارسيه) ، « العمارة الاسلامية الغربية » .

(٣) بالاضافة إلى ما ذكرته فيما سبق فى هذا الشأن أشير إلى ما ذكره البلاذرى فى « فتوح البلدان » ، صفحة ٢٨٩ ، من أن أول ما شغل به العرب فى « المدائن » بناء المسجد ، « بناه سعد بن أبى وقاص وأصحابه ، ثم وسع بعد وأحكم بناؤه ، وجرى ذلك على يدى حذيفة بن اليمان ، وبالمدائن مات حذيفة سنة ٣٦ » (٦٥٦م) .

يلتصق بدار الامارة . وكان مسجد قرطبة يجاور قصر الخليفة ، وبينها ساباط ، وتخط مسجد المنصور فى بغداد وسط المدينة مجاورا قصر الخليفة ، وكذلك أقيم مسجد ابن طولون فى القطائع ، ومسجد سامراء . والأمثلة على ذلك عديدة ، ولم ينشأ مسجد جامع قط بعيدا عن العمران . بل إن المساجد كانت دائما مركزا حيويا فى المدن التى أنشئت فيها . أما المصلى أو الزاوية أو المسجد الذى لم يعد لأقامة صلاة الجمعة ، فلم يكن لموقعها حكم ، أو لعناصر أنظمتها قواعد وتقاليد ، وهى لا تدخل فى نطاق هذا البحث . كما أن ما أنشىء منها فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة قد اندثر جميعه ، ولا يعرف عن رسومها التخطيطية شىء واف (١) .

وكانت الخطوة التى تلى تحديد موقع المسجد ، هى تحديد مساحته . ونستطيع أن نستخلص من المساجد المعروفة لنا أن هذه المساحة كانت فى الغالب شاسعة . ويكفى أن نعرف أن أول مسجد جامع أقيم فى الأسلام ، وهو مسجد المدينة ، وهو المسجد الذى وصفه المستشرقون بأنه كان صغيرا وبدائيا (٢) ، كان يشغل مساحة تزيد عن نصف فدان ، وأنه زيد فى هذه المساحة فى حياة الرسول نفسه فأصبحت تقرب من مساحة فدان ، وأن مسجد الكوفة كان عند إنشائه يشغل مساحة تقرب من ثلاثة أفدنة ، وكذلك كان مسجد المنصور فى بغداد ، كما رأينا أن مسجد ابن طولون يشغل مساحة تعادل ستة أفدنة . وكانت مساحة مسجد أبى دلف تزيد عن سبعة أفدنة ، أما مسجد سامراء فكان يشغل مساحة عشرة أفدنة بدون زياداته ، وأربعين فدانا بما فيها هذه الزيادات .

---

(١) ينظر ما جاء فى كتب المؤرخين عن « المصلى » وخاصة ما رواه السمهودى، فى صفحتى ٦ و ١١ من الجزء الثانى من « وفاء الوفى » ، والكندى ، فى صفحتى ١٣ و ٢٠٢ من « كتاب الولاة » ، والمقريزى ، فى صفحتى ٤٥٤ و ٤٥٥ من الجزء الثانى من « الخطط » .

(٢) ينظر الفصل السادس من هذا المدخل ، وقد شبه (سوفاجيه) مسجد الرسول بالمدينة « بمستودع » (hangar) وذلك فى صفحة ١١٠ من كتابه « المسجد الأموى بالمدينة » .

— ٣ —

جدار القبلة والمحراب

وكانت الخطوة الثالثة في التخطيط هي تحديد اتجاه القبلة وموضع المحراب . وكان ذلك يحدد أول الأمر بجذع من النخل . ثم روئى منذ القدم أن يكون المحراب « مجوفا » وأن يتخذ شكل المشكاة ، وهي الطاقة المسدودة غير النافذة (١) وأتم مثل معروف لذلك هو محراب عقبة بن نافع في مسجد القيروان وتاريخه سنة خمسين (٦٧٠م) (٢) . وقد سبق أن أوضحت الحكمة من اتخاذ المحراب على هيئة طاقة أو تجويف في جدار القبلة ، ونفيت الصلة

(١) وكان السمهودي قد ذكر في صفحة ٣٧٢ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » أن عمر بن عبد العزيز كان أول من أحدث المحراب (المجوف) في مسجد الرسول بالمدينة وكان ذلك سنة ٩١ (٧٠٩م) . ولم يؤكد السمهودي هذا الخبر وإنما أورده من غير سند تاريخي قوي ، وقد أوضحت في صفحة ٦٥ من كتاب « القيروان » وفي مقال « بدعة المحاريب » ، أن هذه الرواية لا يعتد بها ولم يجمع المؤرخون عليها ، بل إنها موضع شك . وبالرغم من ذلك فان (كريسويل) يعتبرها حقيقة تاريخية ، ويتخذ ذلك التاريخ حجة وسندا لتحديد تاريخ بعض المساجد ، مثل مسجد الأخيضر فانه يؤكد في صفحة ٩٦ من الجزء الثاني من كتاب « العمارة الاسلامية » وفي صفحة ١٠٢ من كتابه « المختصر » أن هذا المسجد بني بعد تلك السنة « لأن به محرابا مجوفا » . كما أنه لم يحاول اطلاقا الرد على الحقائق التي أوردتها عن المحراب المجوف في كتابي ومقالي المشار إليها ، وعلى ما سقته من الأدلة فيها ويصر على رأيه بقوله في صفحة ٣٠٨ من الجزء الثاني من كتابه « العمارة الاسلامية » « إنه ليس من المعقول أن يكون لمسجد القيروان محراب مجوف في عهد عقبة بن نافع لأن المحراب المجوف استحدث في الاسلام في عهد الوليد » :

« . . . it is incredible that Ukba's mosque of 50 H. (670) could possibly have had a concave mihrab for concave mihrabs were not introduced into Islam untill the time of al - Walid, as we have already seen (above I, pp, 98-9) ».

(٢) أحمد فكري ، « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحات ٥٤ إلى ٦٠ .

بين شكل المحراب وبين شكل مذابح الكنائس . وأوضحت أن الادعاء بأن المحاريب بدعة ، أو أنها من شأن الكنائس ، اختلاق لا يقوم على أساس أثرى أو تاريخى أو دينى ، (١) . وتخطيط المحراب المجوف قد يكون على هيئة نصف دائرة ، أو مستطيلا أو مثلثا ، كما أنه قد يقتصر على تعيين المحراب بلوحة مثبتة على جدار القبلة أو على دعامة فى بيت الصلاة . وكان المحراب أصلا ، كما ذكرت فى موضع آخر ، مكانا مخصصا للأمام ، ولم يقصد به تحديد اتجاه القبلة . ثم إن اللفظ أصبح فيما بعد يطلق اصطلاحا على القبلة ، كما أن لفظ القبلة كان يطلق شيوعا على المحراب (٢).

وقد روعى فى كثير من المساجد أن يتوسط المحراب جدار القبلة ، ولكنها لم تكن قاعدة ثابتة ، فالمحراب ينحرف عن منتصف جدار القبلة فى المسجد النبوى بالمدينة (٣) ، وفى المسجد العلوى فى مدينة اسكاف بنى جنيد ، شكل (٩٢) ، وكذلك فى مسجدى عمرو وحران (٤) . وقد يكتفى بمحراب واحد فى بيت الصلاة ، وقد تتعدد المحاريب فى البيت الواحد ، وأمثلة ذلك فى المسجد النبوى وفى مسجدى عمرو وابن طولون ، وفى المسجد الأموى بدمشق والمسجد الأقصى ، وغيرها . وجدير بالذكر أن المحراب

---

(١) أحمد فكرى ، « بدعة المحاريب ». وكذلك أوضح (بوتى) أوجه الخلاف بين المحراب وبين مذبح الكنيسة ، وذلك فى مقاله « تطور نظام البناء » ، صفحة ٩٨.

(٢) اختلف المستشرقون ، كعادتهم — كما رأينا — فى البحث عن أصل المحراب ، وقال البعض إن المحراب مأخوذ عن المعابد الهندية ، وقال البعض الآخر إنه مشتق من الكنائس السورية ، وقال فريق ثالث إنه منقول عن المذابح القبطية ، وقال أحدهم إنه مشتق من الهيكل اليهودى » وقد فندت هذه النظريات فى الفصل السابق.

(٣) أغلب الظن أن الوتد الذى كان يتكىء الرسول اليه فى مسجده كان ينتصف جدار القبلة ، أو يتوسطها ، كما جاء فى صفحة ٢٦٧ من الجزء الأول من « وفاء الوفى » للسمهودى . ولكن المحراب النبوى لم يكن ينتصف هذا الجدار ، كما يلاحظ فى شكل (٨٠) صفحة (١٨٩) فيما سبق . وقد روعى بعد ذلك ، فى الزيادات المتعاقبة للمسجد النبوى أن يحتفظ كل من المحراب والمنبر بموضعيهما على عهد الرسول ، ولهذا تسقط حجة المدعين بأن المحراب طرف من محور المسجد .

(٤) يلاحظ أن المحراب لا يتوسط جدار القبلة فى مسجد القرويين فى فاس ينظر شكل ١٢٨ ، صفحة ١٩٩ ، من كتاب (مارسيه) ، « العمارة الاسلامية الغربية » .

الأوسط فى المسجد الأموى لا يتوسط جدار القبلة كما أنه كان بهذا المسجد، على عهد الوليد ، محراب ثان إلى يسار القبلة ، ولا يتوسط هذا المحراب كذلك النصف الشرقى لجدار القبلة ، وفى النصف الغربى لهذا الجدار محرابان لم يراع فى موضعهما أى توازن (١) .

كانت المرحلة الأولى هى تحديد موقع المسجد الجامع من المدينة ، ومساحته ، وموضع المحراب منه ، وكانت المرحلة الثانية هى تخطيط جدار القبلة من هذا الموقع فى تلك المساحة . وكان تحديد جدار القبلة هو العنصر الأول من عناصر تخطيط المسجد الرئيسية . وبغير تحديد هذا الجدار واتجاهه ومقاسه كان يستحيل إجراء أى تخطيط للمسجد ، سواء فى جملته أو فى جزئياته . وقد أجمع الرواة على أن أول شيء كان يخط بالمساجد هو هذا الجدار ، ومن ذلك أنه لما حولت القبلة فى مسجد المدينة من اتجاه القدس إلى اتجاه الكعبة ، لم يكتف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بأن يطالب إلى المصلين تحويل وجههم فى الصلاة إلى الكعبة ، فى نفس الظلة التى كان قد أقامها لهم فى الجانب الشمالى من مسجده ، وقد كان هذا جائزا ، ولكنه نقل بيت الصلاة كله إلى الجانب المقابل له ، وأقام ظلة جديدة ملاصقة للجدار الجنوبى المتجه إلى الكعبة ، وأصبح هذا الجدار جدارا للقبلة . ذلك لأن القبلة ، وإن كانت خطا وهميا فى اتجاه المسجد الحرام ، ويمكن تحديدها فى أى مكان ، إلا أنها أصبحت ضرورة مادية فى المسجد يتعين تجسيدها فى الجدار الذى يفصل بين بيت الخشوع والعبادة والصلاة ، وبين العالم الدنيوى الخارجى (٢).

---

(١) ويلاحظ أن المحراب الشرقى لا يتوسط البلاطة ولكنه يواجه صف الأعمدة الذى يفصل بين البلاطتين السادسة والسابعة شرقى المحراب الأوسط .

(٢) اعترف (بوتى) فى صفحة ٩٨ من المقال المشار إليه فيما سبق بأهمية جدار القبلة فى تخطيط المساجد ، وهو المستشرق الوحيد الذى اعترف بهذه الأهمية ، ولكنه فسرها تفسيرا غير سليم بأن ادعى أن مرجع هذه الأهمية هو فى أن المسلمين يعتبرون جدار القبلة بابا إلى الجنة . . . وفيما عدا ذلك فقدساير (بوتى) المستشرقين وادعى مثلهم باشتقاق نظام المسجد من نظم الكنائس (صفحتا ٩٦و٩٧ من المقال).

جدار القبلة هو إذن العنصر الرئيسى الأول من عناصر تخطيط المسجد وهو الخط الذى تتركز فيه أهمية البناء ، هو المحور أو المركز الذى تتشعب منه جميع عناصر التخطيط الأخرى لمسجد وترتبط به (١) . وهو القاعدة التى يستند إليها التخطيط فى جميع مراحله ، أى أن جدار القبلة هو بداية مراحل تخطيط المسجد . ولهذا فانه خطأ فاحش أن يزعم المستشرقون أن محور تخطيط المسجد هو خط ممتد من المحراب إلى النقطة التى تتوسط الجدار المقابل له . ومما يزيد هذا الخطأ فحشا أن هذا المحور المزعوم ينحرف فى بعض المساجد عن الخط المستقيم ، ولا يمكن نظريا ومعماريا أن يكون محور البناء منحرفا بالنسبة للعناصر التى تتشعب منه وترتكز عليه (٢) . كان محور التخطيط فى أبنية الكنائس والمعابد وقاعات الاستقبال ، قبل الأسلام وبعده ، هو الخط الوهمى المستقيم الذى يتوسط هذا التخطيط ، ولم يحدث قط ، قبل بناء المساجد ، أن كان المحور جدارا . إذ أن الجدار كان يعتبر فى العمارة القديمة والعمارة المسيحية نهاية وإطارا ، أما جدار القبلة فى تخطيط المساجد فهو قاعدة وبداية .

---

(١) المحور هو خط مستقيم ، حقيقى أو وهمى ، يرتكز على نقطة أو قاعدة ثابتة تنتصف البناء أو جزءا من أجزائه ، بحيث يتساوى البعد بين الأطراف بالنسبة لهذا الخط ، أو بحيث يقسم البناء ، أو جزءا من أجزائه ، إلى نصفين ، أو قسمين مرتبطين ، متساويين أو متعادلين أو متوازين ، متماثلين أو متناسقين . وكان للمحور أهمية كبرى فى العمارة القديمة وفى العمارة المسيحية . وقد تأثر المستشرقون بهذه الأهمية ، وحسبوا أن للمسجد محورا كذلك ينتصف تخطيطه ، وتصوروه خطا مستقيما وهميا يبدأ من المحراب عموديا على جدار القبلة . ولكن تخطيط المسجد ، كما أوضحت ، يخلو من مثل هذا المحور . ولم يفطن المستشرقون إلى أنه يجوز فى نظريات العمارة أن يخلو البناء من المحور ، فيحل محله خط رئيسى ليس محورا ، أو تستبدل به نقطة ارتكاز ذات أهمية .

(٢) من أمثلة هذا الانحراف ما يلاحظ فى المحور المزعوم لمسجد القيروان ، ويعترف (كريسويل) بهذا الانحراف فى صفحة ٢٨٥ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية » . ومن الأدلة التى تؤكد فساد نظرية هذا المحور ما يشاهد فى شكل (١١١) ، صفحة ٣١١ فيما بعد ، إذ يظهر فيه بوضوح انحراف المحور المزعوم فى بيت صلاة مسجد الزيتونة بتونس .

— ٤ —

حدود المسجد وبيت الصلاة

وكانت المرحلة الثالثة من هذا التخطيط هي تعيين حدود المسجد وجدرانه بالنسبة للموقع الذى اختير له ، وللمساحة التى خصصت لبنائه ، وجدار القبلة الذى يحدد اتجاهه . وكانت هذه الحدود فى معظم المساجد الجامعة الأولى مربعة ،أو قريبة من المربع . هكذا كانت الحال فى مسجد المدينة ، وفى مساجد الكوفه والبصرة وعمرو العتيق وواسط وحران وبغداد وابن طولون . وأغلب الظن أن مسجد عقبة بن نافع بالقيروان كان مربعا فى عهد منشئه . فان لم تكن حدود المسجد مربعة كانت شبيهة بالمربع ، كما كانت الحال فى المسجد العلوى فى اسكاف بنى جنيد وفى مساجد الرقة وقرطبة (فى عهد عبد الرحمن الداخل) وسوسة والزيتونة فى تونس . ومع ذلك فلم تلتزم قاعدة الحدود المربعة فى مساجد جامعة كثيرة ، ومنها المسجد النبوى فى عهدى الوليد والمهدى ، ومسجد القيروان فى عهد هشام بن عبد الملك ، والمسجد الأقصى والمسجد الأموى بدمشق ، ومساجد سامراء وأبى دلف وقرطبة . وفى جميع الأحوال ، سواء أكانت حدود المسجد مربعة أو مستطيلة أو شبيهة بذلك ، كان جدار القبلة هو القاعدة التى ترتكز عليها تلك الحدود . وهذا ما تفصح عنه جميع الرسوم التخطيطية التى استعرضناها فيما سبق ، من غير استثناء واحد (١) .

---

(١) لم يحدث قط أن اتخذ جدار نقطة للارتكاز ، أو محورا ، فى بناء دينى سابق للاسلام . وقد كانت المبانى الدينية غير الأسلامية ، وما زالت ، تخط حول المحور فى إطار مربع أو مستطيل أو مضلع أو دائرى . أما فى المسجد فان أول ما يخط ، هى الأطراف الخارجية التى تكون حدود المربع أو المستطيل ، على غير ما كان متبعا فى المبانى الدينية السابقة التى كان المحور يخط فيها أولا ثم تحدد الأطراف الخارجية بالنسبة له .

والمرحلة الرابعة من مراحل تخطيط المسجد، بعد تحديد قاعدته وتعيين حدوده، هو إعداد قسم فيه للصلاة، وهذا القسم هو الذى سمى «الظلة» أو «المغطى» أو «المقدم». وقد رأينا أن تسمية بيت الصلاة بالظلة و« المغطى » كان تعبيرا عن القصد منه، وهو وقاية المصلين من الشمس والمطر (١). أما لفظ « المقدم » فقد أطلق على بيت الصلاة فى المسجد لأنه يقع فى صدره ومقدمته. وهذه دلالة أخرى على أن الخط الأول فى تخطيط المسجد هو جدار القبلة.

وقد ظن بعض المشتغلين بالآثار الاسلامية أنه توجد نسبة معينة، أو مفضلة، بين طول جدار القبلة وجوف بيت الصلاة. والواقع أن هذه النسبة لا وجود لها إطلاقا، وتؤكد ذلك مقاسات بيوت الصلاة نفسها. إذ تتراوح فيها نسبة طول الجوف إلى جدار القبلة بين ٢٠ فى المائة و ٧٠ فى المائة، بل أنها بلغت ١٤٠ فى المائة فى مسجد قرطبة الثالث، فى عهد الحكم المستنصر بالله (٢). وقد رأينا كذلك أن كثيرا من بيوت الصلاة، قد زيدت مساحاتها واتسعت من جهة واحدة، أو من أكثر من جهة، حسبما أملته الظروف، دون مراعاة الاحتفاظ بنسبة معينة بين طول جدار القبلة

---

(١) تنظر مثلا صفحتا ١٧٠ و١٧٢ فيما سبق. وهذه الحقيقة ما زالت واضحة حتى اليوم. وقد ذكر عن الخليفة الحكم المستنصر بالله أنه « أمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس »، وكان ذلك فى سنة ٣٥١ (٩٦١م). ينظر ابن خلدون، « كتاب العبر »، الجزء الرابع، ص ١٤٤.

(٢) أورد هنا بيانا موجزا لمقاسات بيوت الصلاة فى المساجد الجامعة الأولى بالأمتار التقريبية:

(١) مسجد الرسول قبيل وفاته، ٦٠ × ١٦، (٢) مسجد الرسول فى عهد المهدى، ١٠٠ × ٣٢، (٣) الكوفة، ١١٠ × ٢٥، (٤) القيروان، ٧٥ × ٣٤، (٥) المسجد الأقصى، ٦٥ × ٥٠، (٦) واسط، ٩٨ × ٢٦، (٧) دمشق، ١٣٦ × ٣٦، (٨) حران، ١١٠ × ٣٨، (٩) بغداد، ١٠٠ × ٣٢، (١٠) الرقة، ٩٣ × ٣٢، (١١) سامراء، ١٥٠ × ٦٢، (١٢) أبو دلف، ١٤٠ × ٤٠، (١٣) قرطبة (الأول)، ٦٥ × ٣٧، (١٤) قرطبة (الثانى)، ٧٠ × ٧٠، (١٥) قرطبة (الثالث)، ٧٥ × ١٠٥، (١٦) سوسة (الجامع)، ٤٩ × ١٠، (١٧) سوسة (الرباط)، ٣٩ × ٧، (١٨) الزيتونة، ٦٠ × ٢٥، (١٩) عمرو، ١٠٥ × ٣٧، (٢٠) ابن طولون، ١١٨ × ٣٣. وتكاد نسبة طول جدار القبلة إلى جوف بيت الصلاة فى كل مسجد من هذه المساجد تختلف عنها فى أى مسجد آخر منها.

فى بيت الصلاة وبين طول جوف هذا البيت . وكذلك لم تكن هنالك قاعدة ثابتة ، أو مفضلة ، فيما يختص بنسبة مساحة بيت الصلاة إلى مساحة المسجد كله ، أو إلى مساحة الصحن (١) .

والواقع أن تحديد طول جوف بيت الصلاة كان يتوقف على العوامل الثلاثة التالية :

أولا — عدد سكان المدينة التى يقام فيها المسجد الجامع ، وبالتالى عدد المصلين المعد هذا المسجد لصلاتهم .

ثانيا — عدد الأعمدة التى كانت فى متناول أيدى البناة ، أو مدى توفر المواد التى تقام منها الدعامات والأساطين .

ثالثا — ارتفاع السقف فى بيت الصلاة ، وطريقة رفعها ، إذ أنه كلما أمكن رفع السقف عالية ، وتوفير الضوء فى أسكوب المحراب ، كلما أمكن زيادة الطول فى جوف هذا البيت .

وفى حدود هذه العوامل الثلاثة تراوحت أبعاد أجواف بيوت الصلاة فى المساجد الجامعة الكبرى بين خمسة وعشرين مترا وأربعين مترا ، دون التقيد بنسبة ما إلى طول جدار القبلة . كما أن البناة الذين زادوا فى المساجد ، لم يتقيدوا بنسبة ما عند توسيع بيت الصلاة . وقد رأينا كيف اتسع هذا البيت أولا فى مسجد الرسول بالمدينة ، وكيف اتسع كذلك فى مسجد عمرو وفى مسجد قرطبة ، وفى مساجد القيروان وسوسة والزيتونة وبغداد وغيرها . فانه لم يراع فى هذه الأضافات غير أمرين اثنين : أولا ، أن يتسع بيت الصلاة فى الفضاء القائم الملاصق له ، سواء فى شرقيه أو غربيه أو فى جنوبيه وشماليه . ثانيا : أن يمتد جدار القبلة فى اتجاهه الأول دون انحراف ، أو أن يقام جدار القبلة الجديد موازيا موازاة تامة للجدار القديم .

---

(١) أتعب المستشرقون أنفسهم فى إيجاد هذه القاعدة ، وهى لا تقوم إطلاقا على أى أساس معمارى أو سند أثرى أو تاريخى ، وما زال (كريسويل) مصرا على أن العمارة فى العصر العباسى كانت تتبع نسبة ٣ إلى ٢ فى مبانيها فى بغداد والأخيضر ، وسامراء . تنظر صفحة ١٢٦ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الاسلامية » وصفحة ٢١٠ من كتابه « المختصر » . وهذه القاعدة المزعومة تخالف الواقع ، وإن صحت كانت مجرد صدفة واستثناء ، ولا مجال للاستدلال بها فى تحديد مساحة بيت الصلاة فى المسجد الأقصى أو فى أى مسجد آخر .

— ٥ —

تخطيط الرساكيب

كان بيت الصلاة يخط فى الفضاء المخصص له تبعا للنظام الذى أعد لرفع « الظلة » عليه . وكان تخطيطه يقتصر ، أولا وقبل كل شىء ، على أساكيب ممتدة صفوفا مستقيمة موازية لجدار القبلة ؛ وكانت أسس البناء تحفر على هذه الصفوف. ومما يؤكد هذه الحقيقة نتائج الأصلاحات والحفائر التى أجريت فى بيوت الصلاة فى بعض المساجد ، إذ ظهر بوضوح أن أسس البناء داخل هذه البيوت قد حفرت صفوفا مستقيمة موازية لجدار القبلة ، كما ظهر أنه لم يقتصر الأمر على وضع أسس لقواعد الأعمدة أو الدعامات ، وإنما كانت الأسس تمتد فى تلك الصفوف من طرف بيت الصلاة الشرقى إلى طرفه الغربى ، بحيث تحدد أساكيب بيت الصلاة (١) . وتزداد هذه الحقيقة وضوحا على الرسوم التخطيطية والمساقط الأفقية التى وضعت لجميع المساجد الجامعة ، إذ تظهر عليها الخطوط التى تصل بين العمد أو الدعامات ، من شرقى بيت الصلاة إلى غربية ، سواء كانت وهمية أم واقعية ، خطوطا موازية دائما لجدار القبلة . وقد لا تكون الموازاة تامة بالدقة التى يتطلبها رسم خطوط متوازية ، ولكن ذلك يرجع إلى أن آلات التخطيط الدقيقة لم تكن تستخدم ، ولا كانت معروفة ، فى ذلك العهد ، ومع ذلك فان نسبة الانحراف ، إن وجدت ، تبدو ضئيلة ، لا تتعدى ٥ أو ١٠ فى المائة بالنسبة للمساحة المنحصرة بين البداية والنهاية فى هذه الخطوط . ويكفى للتحقق من ذلك مراجعة الرسوم التخطيطية التى استعرضت فى الفصلين السابع والثامن من هذا المدخل ، إذ أن موازاة هذه الخطوط لجدار

---

(١) لم يشر أحد من علماء الآثار إلى هذه الحقيقة من قبل بالرغم من وضوحها فى المساقط الأفقية التى وضعها هؤلاء العلماء أنفسهم ، وبالرغم من ظهورها فى الحفائر التى أجريت فى بعض المساجد مثل مسجد عمرو ومسجد إسكاف بنى جنيد .

القبلة تبدو واضحة فيها سواء كانت العقود التى تعتلى العمد والدعامات فى بيوت الصلاة صفت موازية لهذا الجدار ، كما هو الحال فى مساجد عمرو وابن طولون ودمشق وغيرها ، أو أقيمت عمودية عليه ، كما هو الحال فى مساجد القيروان والزيتونة وغيرها ، أو أنها كانت مزدوجة وصفت فى الاتجاهين ، كما هو الحال فى مسجد سوسة (١).

وتعبر هذه الصفوف الممتدة فى موازاة جدار القبلة عن قوله ، صلى الله عليه وسلم ، حين شرع فى بناء مسجد المدينة ، « وصفوا النخل قبلة » ، أى اجعلوا صفوف النخل موازية للقبلة (٢) ، وهى صفوف بيت الصلاة

(١) يتضح من هذا أن تخطيط المسجد لا يتأثر من اختلاف اتجاه العقود ، وأن مبدأ الموازاة لجدار القبلة كان ملتزما به سواء كانت عقود بيت الصلاة متجهة فى نفس اتجاه جدار القبلة أو معترضة لهذا الاتجاه وعمودية على هذا الجدار . وكان بمسجد البصرة أيام معاوية بن أبى سفيان ، عقود من هذين النوعين . إذ يقال أن زيادا ، وهو الذى زاد فى مسجد البصرة ، كان يرغب فى أن تكون الدعامات أو الأعمدة « التى على كل منها أربعة عقود » أغلظ من غيرها التى لم يكن عليها غير عقدين . ينظر البلاذرى ، فتوح البلدان » ، صفحة ٣٤٧ . وإذا كانت الدعامة أو السارية الواحدة عليها أربعة عقود ، فمعنى ذلك أن كلا من هذه العقود يتفرع فى جهة من الجهات الأربعة ، أو أن اثنين منها يتجهان شمالا وجنوبا عموديين على جدار القبلة ، واثنين ، شرقا وغربا ، موازيين لهذا الجدار .

هذا ويجمع المؤرخون والرحالة ، فى أحاديثهم عن أى مسجد من المساجد ، على اعتبار بيت الصلاة فيه مكونا من أساكيب ، وهى التى أطلقوا عليها اسم « البلاطات » . وإذا روجع ما كتبه الكتاب العرب المتقدمون لاتضح أن المسجد كان يعتبر بالنسبة لهم مكونا قبل كل شيء من بيت الصلاة ، وأن هذا البيت كان يتكون من « بلاطات » تمتد « من الشرق إلى الغرب » . ومن ذلك ما ذكره ابن جبير فى صفحة ١٧٥ من « الرحلة » ، من أنه كان بالجهة القبلية من مسجد الرسول بالمدينة « خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق » وبالجهة الجوفية أيضا « خمسة بلاطات على الصفة المذكورة » ، وما ذكره فى صفحة ٢٠١ من أن بلاطات مسجد دمشق « المتصلة بالقبلة ثلاثة ، مستطيلة من الشرق إلى الغرب » .

(٢) العمرى ، « مسالك الأبصار » ، الجزء الأول ، صفحة ١٢٥ . هذا وقد بحثت موضوع امتداد الصفوف فى بيت الصلاة موازية لجدار القبلة ، من الناحيتين التاريخية والدينية فى صفحة ٥٠ من كتاب « المسجد الجامع بالقيروان » ، والبحث هنا قاصر على الناحية المعمارية الأثرية .

التي يسفر صفها عن تقسيمه إلى أساكيب . وإذا كانت قد وضعت قاعدة ثابتة لاتجاه هذه الأساكيب ، فانه لم توضع قاعدة مثلها لجملة عددها . ومن المساجد ما اقتصر بيت الصلاة فيه على أسكوب واحد ، مثل مسجد الأخيضر ، ومنها ما كان بيت الصلاة فيه يتكون من أسكوبين ، مثل مسجد الرباط في سوسة ومسجد البصرى ، (شكل ٩١) . ولبيوت الصلاة في كل من المسجد النبوى الأول ومساجد دمشق والرقة وسوسة وبوفتاته ثلاثة أساكيب (١) . وكان بمسجد حران أربعة ، وبالمسجد النبوى في عهدى الوليد والمهدى خمسة أساكيب ، وكذلك الحال بمساجد الكوفة وواسط واسكاف بني جنيد وبغداد . وهو الحال في مسجد ابن طولون . وبمسجد سوسة الجامع ستة أساكيب . ويتكون بيت الصلاة في كل من مساجد عمرو وأبي دلف والزيتونة من سبعة أساكيب ، وفي مسجد القيروان ، من ثمانية . وكان بيت الصلاة في مسجد سامراء يتكون من تسعة ، وبلغ عدد الأساكيب في المسجد الأقصى ستة عشر ، وفي قرطبة أربعة وثلاثين .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن أسكوب المحراب في كل من مسجدى عمرو وابن طولون كان أكثر سعة من بقية الأساكيب (٢) . ولاحظنا هذه الظاهرة كذلك في مسجد القيروان وفي مسجد الرباط بسوسة وفي مسجد الزيتونة بتونس ، وفي مسجد الرقة وفي مسجد أبي دلف . ولاتساع أسكوب المحراب حكمة دينية . ذلك أن الرواة أجمعوا على أن للصف الأول في الصلاة فضلا كبيرا ، وروى عن أبي زكريا النووى أنه قال : « إذا صلى في جماعة ،

(١) يدعى (كريسويل) في كتابيه ، صفحة ١٤٣ من الجزء الأول من « العمارة الاسلامية » وصفحة ١٨ من « المختصر » ، أن المساجد ذات الأساكيب الثلاثة قد اشتقت نظمها من الكنائس ، ولهذا فانه يسميها « المساجد ذات الأفنية الثلاثة» (Three aisles deep) . ولعل فيما أوضحته في المتن أعلاه ردا كافيا على هذا الادعاء . ويلاحظ أن عدد المساجد ذات الأساكيب الثلاثة ضئيل جدا بالنسبة لبقية المساجد ذات الأساكيب المتعددة .

(٢) لم يشر (كريسويل) في بحثه الطويل التفصيلي عن مسجد ابن طولون إلى ظاهرة اتساع أسكوب المحراب ، بالرغم من أن هذا الاتساع واضح على المسقط الأفقي الذى رسمه هو لهذا المسجد ونشره في كتابه ، تنظر الحاشية رقم (٢) ، صفحة ١٠٨ فيما سبق .

فالتقدم إلى الصف الأول ثم إلى ما يليه أفضل » (١) . وما زال المصلون يشاهدون فى المساجد حتى اليوم يبكرون فى الذهاب إلى المسجد فى صلاة الجمعة للفوز بمكان فى الصفوف الأولى .

ولا شك فى أن بناة المساجد قد راعوا أن يكون أسكوب المحراب أكثر اتساعا من بقية الأساكيب حتى يمكن أن يتضمن أكبر عدد من هذه الصفوف الأولى . ثم إن هذا الأسكوب الأول من بيت الصلاة هو موضع المحراب والمنبر والمقصورة ، وهى عوامل اقتضت زيادة اتساعه عن بقية الأساكيب التى لم تكن موضعا لأثاث من أثاثات المسجد . وهنالك عامل معمارى آخر سأشير إليه فيما بعد بالنسبة للمساجد التى أقيمت فيها قباب أمام المحراب أو فوق أسكوبه (٢) . ومع هذا كله فلم يتقيد بناة المساجد بقاعدة معلومة بالنسبة لاتساع أسكوب المحراب .

— ٦ —

البلاطات

وكانت الخطوة الثانية من المرحلة الرابعة من مراحل تخطيط المسجد هى تحديد بلاطات بيت الصلاة ، وذلك بتنظيم الأعمدة أو الدعامات على صفوف الأساكيب فى صفوف رأسية متجهة إلى القبلة . وكان عدد البلاطات يتفاوت فى بيوت الصلاة تبعا لعوامل ثلاثة ، هى : طول جدار القبلة ، وعدد الأعمدة أو الدعامات ، وارتفاع هذه الأعمدة والدعامات ، أى اتساع فتحات العقود المنتطية لها .

وقد رأينا أن من المساجد ما اقتصر عدد بلاطاته على ثلاث أو خمس

(١) العمرى ، « مسالك الأبصار » ، الجزء الأول ، صفحة ١٢٦ .

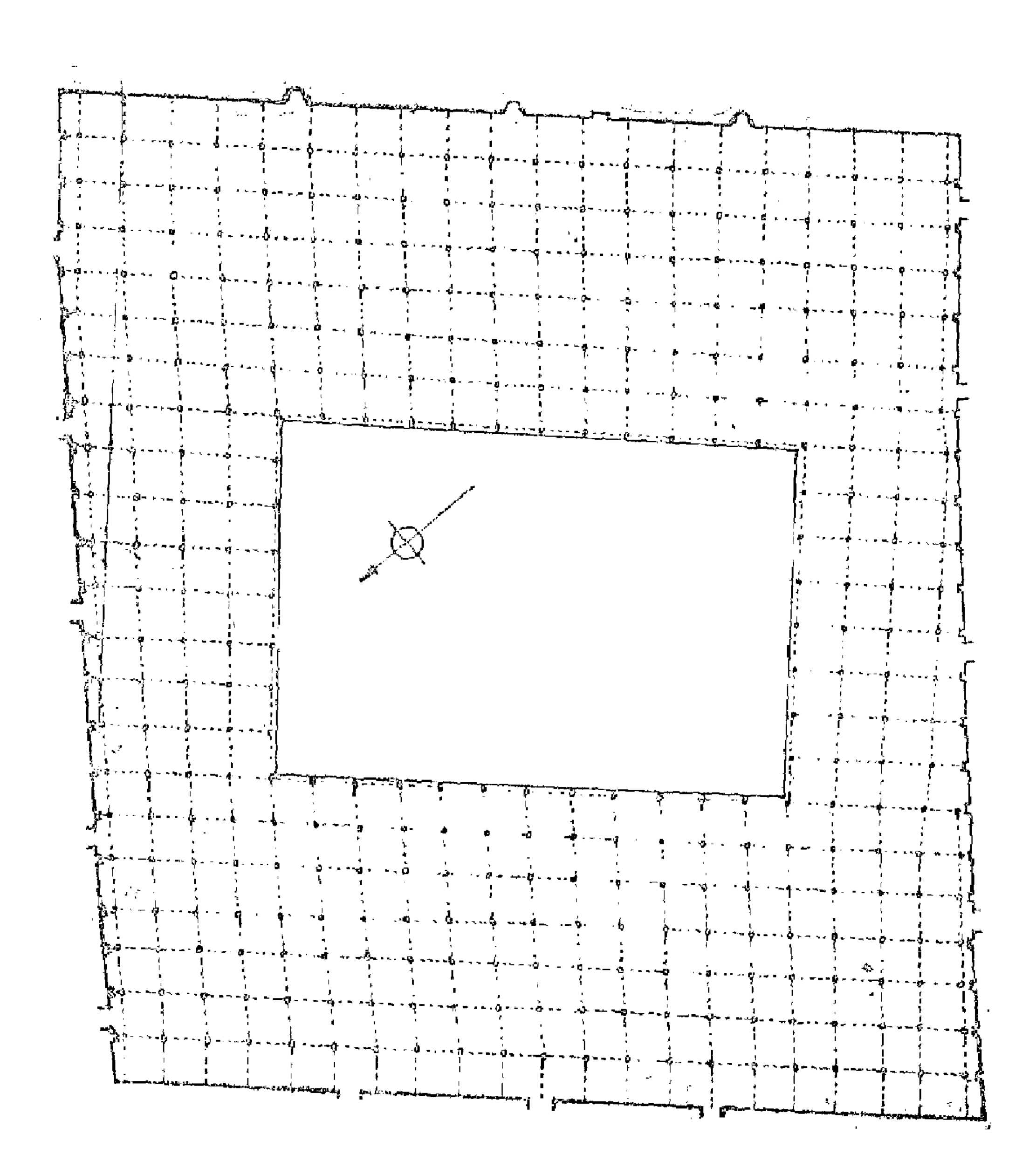
(٢) سأبحث هذا الموضوع فى الفصل السادس من الجزء الأول من كتاب « مساجد القاهرة ومدارسها » .

أو سبع ، ومنها ما بلغ عددها خمسا وعشرين (١) . وقد أدعى بعض علماء الآثار الإسلامية أن القاعدة أن يكون عدد البلاطات فرديا فى بيوت الصلاة (٢) . والمسجد النبوى بالمدينة هو أقوى حجة تناقض هذا الادعاء ، إذ أنه كان به على عهد الرسول عشرة بلاطات ، وعلى عهد عثمان أربع عشرة بلاطة ، وعلى عهدى الوليد والمهدى ثمانية عشر بلاطة ، وكلها أرقام زوجية . والواقع أنه ليست هناك قاعدة ثابتة لا بالنسبة لفردية العدد أو زوجيته ، ولا بالنسبة لجملة عدد البلاطات فى بيت الصلاة الواحد . ومع ذلك ، فقد كان مسجد القيروان فى عهد هشام بن عبد الملك يشمل ثمانى عشرة بلاطة ، وكان مسجد عمرو أيام عبد الله بن طاهر يشمل عشرين بلاطة ، وفقاً لمشروع محمود أحمد وللمشروع الأول الذى قدمه (كريسويل) (٣) . ومن المساجد التى شملت بيوت الصلاة فيها عددا زوجيا من البلاطات المسجد العلوى فى مدينة اسكاف بنى جنيد . شكل (٩٢) ، إذ أنه كان به اثنتا عشرة بلاطة ، وكان بالمسجد الأقصى ، كما كان بمسجد حران ، عشر بلاطات . وكان بمسجد البصرى ثمان .

(١) كانت بيوت الصلاة فى المساجد الآتية تشمل عدد البلاطات المبين أمام كل منها : أبو فتاته فى سوسة ، وخان زبيب ، ٣ : قصير الحلابات ، ٥ : قرطبة (الأول) ، ٩ : حران والمسجد الأقصى ، ١٠ : قرطبة (الثانى) ورباط سوسة ، ١١ : اسكاف بنى جنيد ، ١٢ : سوسة (الجامع) ، ١٣ : الرقة والزيتونة بتونس والأقصى (الثانى) ، ١٥ : الكوفة والقيروان وبغداد وأبو دلف ، ١٧ : القيروان (فى عهد هشام) ، ١٨ : ابن طولون وواسط وقرطبة (فى عهد المنصور) وعمرو (فى مشروعى ومشروع كريسويل الثانى) ١٩ : عمرو (مشروعا محمود احمد وكريسويل الأول) ، ٢٠ : دمشق ، ٢٣ : سامراء ، ٢٥ .

(٢) افترض (كريسويل) فى صفحة ٢٢١ من الجزء الثانى من كتاب « العمارة الإسلامية » أنه لما كانت عقود البلاطات عمودية على جدار القبلة ، فانه يتبع ذلك أن تقع البلاطة الوسطى فى محور المسجد الممتد من المحراب ، ولهذا السبب يكون عدد البلاطات دائما فرديا :
(for this reason there is always an uneven number of ais'es).
واخص ردى على ذلك فى أن عقود البلاطات ليست دائما عمودية على جدار القبلة وليس للمسجد محور يمتد من المحراب ، وإنما محور المسجد هو جدار القبلة ، ولعل فى البيانات الواردة أعلاه وفى الحاشية السابقة دليل كاف على أن عدد البلاطات ليس دائما فرديا .

(٣) ينظر ما قبله ، شكلا (٢٩ و ٣١) ، صفحتا ٨٤ و ٩١ . ويلاحظ أن بيت الصلاة الذى أضافه الأمير عبد الرحمن كتخدا إلى المسجد الجامع الأزهر يشمل أربع عشرة بلاطة ، وأن محرابه لا يتوسط جدار القبلة ، ينظر الرسم التخطيطى لمسجد الأزهر فى الفصل الثانى من الجزء الأول من هذا الكتاب .



شكل (١١٠) — انتظام اتجاه الأساكيب واختلاف اتجاه البلاطات والأروقة فى تخطيط مسجد عمرو ، موضحة على المشروع المقدم من (كريسويل).

ومن بيوت الصلاة ما اتسعت بلاطة المحراب فيها عن بقية البلاطات ، والسبب فى ذلك هو إقامة قبة أمام المحراب . وقد بحثت هذا الموضوع من قبل (١) ، وسأزيده إيضاحا فى الفصل السادس من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(١) ينظر : فكرى ، « المسجد الجامع بالقيروان » ، صفحة ٤٢ وما يليها و « مسجد الزيتونة الجامع » ، صفحة ٧٦ وما يليها .

وبينما خطت صفوف الأساكيب متوازية ، موازية لجدار القبلة ، يلاحظ أن صفوف البلاطات لا تتوازى دائما . وتنحرف بالنسبة لبعضها البعض فى غالبية المساجد ، وبالتالى فهى ليست معظمها عمودية على جدار القبلة (١) . ويبدو هذا الانحراف واضحا على الرسوم التخطيطية والمساقط الأفقية لهذه المساجد ، وخاصة فى الأشكال (٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٣) . ويشاهد هذا الانحراف على جميع الرسوم التخطيطية التى وضعت لمسجد عمرو ، أشكال (٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢) . ويرى فى شكل (١١٠) أن الخطوط التى امتدت عليها صفوف البلاطات ليست متوازية ، على عكس صفوف الأساكيب . وليس أدل على ظاهرة الانحراف هذه من الرسم التخطيطى للمسجد النبوى . أشكال (٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣) ولبيت الصلاة فى

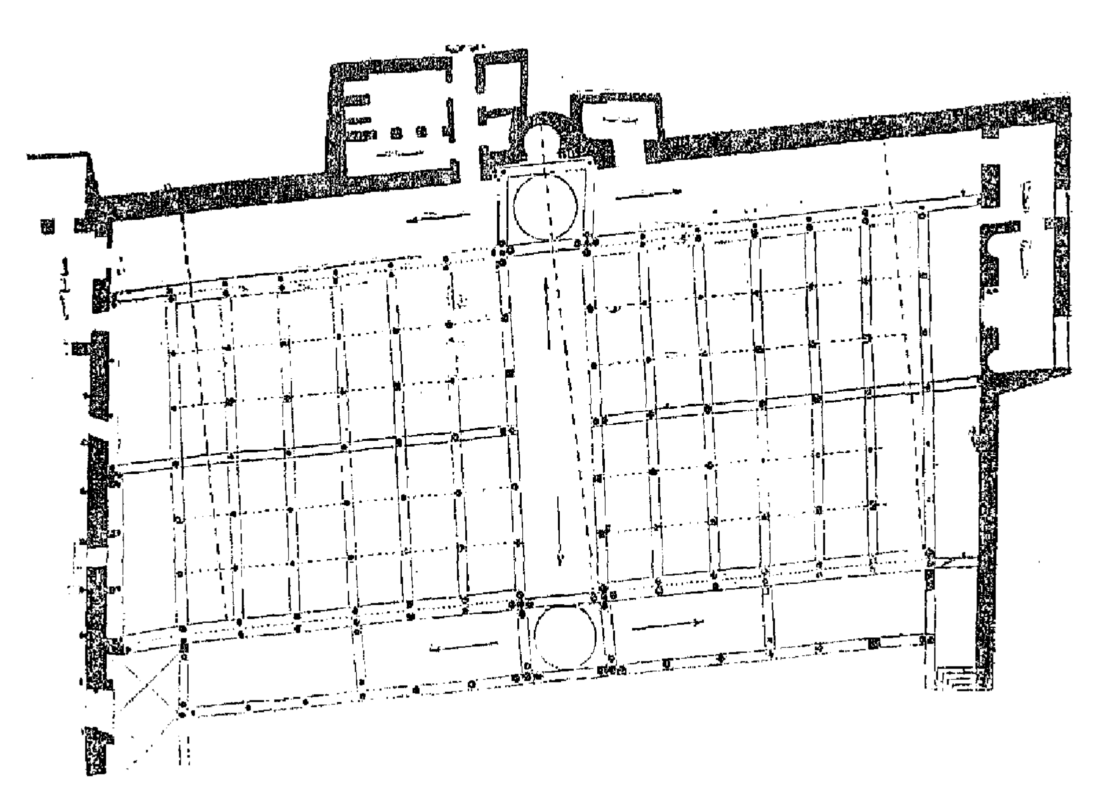
---

(١) كان الاستاذ (جورج مارسيه) قد ذكر فى صفحة ١٨ من الجزء الأول من « كتاب الفن الاسلامى » ، المنشور فى سنة ١٩٢٦ « أن بيت الصلاة هو قاعة ذات أعمدة تتكون من أفنية موازية فى الغالب لمحور المسجد » :
(salle hypostyle formée de nefs souvent parallèles au grand axe du monument).
وكان يقصد بالأفنية ، البلاطات ، وبالمحور الخط الممتد من المحراب إلى المؤخر ، عموديا على جدار القبلة . ويسرنى أن الاستاذ (مارسيه) قد عدل عن رأيه ، وصححه فى الطبعة الثانية المنقحة لكتابه هذا التى ظهرت فى جزء واحد فى سنة ١٩٥٤ تحت عنوان « العمارة الاسلامية الغربية » ، إذ أنه وضع فى صفحة ١٠ من هذه الطبعة ، بدلا من الفقرة السابقة ، الفقرة التالية :

«بيت الصلاة هو قاعة ذات أعمدة تتكون من أفنية تفصلها صفوف من الدعامات أو الأعمدة والعقود التى تربطها » ، وأضاف إلى ذلك « ويجوز أن تكون هذه الأفنية المتتابعة موازية لجدار القبلة ، وممتدة من جانب بيت الصلاة إلى الجانب الآخر ، ويبدو أن هذا التخطيط المتعارض (أى الذى يختلف ، فى نظر الاستاذ مارسيه ، عن النظام الكنائسى) هو أقدم النظم المتبعة فى المساجد ، وهو أكثرها منطقا ، لملاءمته لنظام الصلاة فى الاسلام » . ولكن الاستاذ (مارسيه) لم يشر إلى الأسباب التى دعته إلى تصحيح رأيه الأول ، كما أنه لم يثبت طويلا عند رأيه الجديد ، أو أنه لم يقو على تغيير جميع الفقرات التى تخالف هذا الرأى فى الطبعة الأولى من كتابه ، إذ أنه عاد بعد ذلك بأسطر فأورد فى الطبعة الجديدة ما كان قد ذكره فى الطبعة الأولى من أن مساجد سوريا والمغرب قد اشتقت نظمها من النظام البازيليكى . ينظر :
Georges Marçais: Manuel d'Art Musulman, l'Architecture, 2 vols, Paris, Picard, 1926 - 1927; —: L'Architecture Musulmane d'Occident, Paris, 1954.

مسجد الزيتونة فى تونس (شكل ١١١) ، إذ يتضح على هذا الرسم الأخير أنه بينما تتفق أبعاد الأساكيب ، وتستقيم ، وتحتفظ بنسبها عند بداية الأسكوب وعند نهايته ، فان أبعاد البلاطات تختلف « لا بالنسبة لبعضها البعض فحسب بل على الأخص عند بداية البلاطة أمام أسكوب المحراب ، وعند نهايتها نفسها أمام بهو المسجد » (١) . ومن هذا أصبح من الثابت أن الخطوط التى وضعت عليها الأسس لأقامة صفوف الأعمدة ليست خطوط البلاطات المنحرفة ، غير المنتظمة ، وإنما هى خطوط الأساكيب المستقيمة ، المتوازية. وذلك بالرغم من أن عقود بيت الصلاة لا تتجه فى اتجاه صفوف أسس الأعمدة ، ولكنها تتجه اتجاها متقاطعا معها ، شبه عمودى على جدار القبلة وخطوط الأساكيب .

وفى هذه الحقيقة برهان كاف على سقوط حجة بعض المستشرقين



شكل (١١١) — تخطيط بيت الصلاة فى مسجد الزيتونة بتونس .
(من رسم المؤلف) .

(١) ينظر : أحمد فكرى ، « مسجد الزيتونة الجامع » ، صفحة ٧٣ .

الذين أدعوا أن هنالك نوعين أو أكثر للمساجد الجامعة : النوع العراقى والنوع السورى والنوع المغربى الأندلسى ، إذ أنهم يستندون فى هذا الادعاء على اتجاه امتداد العقود فى بيوت الصلاة ، واختلاف هذا الاتجاه فى بعض المساجد عنه فى الأخرى. وقد رأينا أن اتجاه العقود ، سواء أكان موازيا لجدار القبلة أم عموديا عليها ، لا يؤثر إطلاقا فى تخطيط المسجد ، فى حين أن هذا التخطيط يخضع كما أوضحت ، لقاعدة موازاة الأساكيب ، أى صفوف الأعمدة والدعامات ، لجدار القبلة (١) .

— ٧ —

الصحن والمؤخر والمجنبات

والمرحلة الخامسة من مراحل تخطيط المسجد هى تحديد الصحن ، أو البهو . وللصحن أهمية كبرى فى هذا التخطيط . إذ أنه مصدر الضوء والهواء لبيت الصلاة . وكان من المتبع أن تكون جدران بيت الصلاة خالية من النوافذ ، إلا فيما ندر . وكان هذا البيت لا يستمد الضوء والهواء من غير فتحاته على الصحن . ولهذا روعى أن يكون الصحن فسيحا ومكشوفا . والصحن جزء لا يتجزأ من المساجد الجامعة الأولى ، بل إنه يستخدم نفسه مكانا للصلاة حين يضيق بيت الصلاة بالمصلين .

وكان من المتبع أن يكون الصحن مربعا ، أو شبيها بالمربع ، وأن تزيد مساحته عن مساحة بيت الصلاة ، وقد تبلغ ضعفها مرة ومرات . وكان تحديد شكل الصحن ومساحته يترك للظروف الخاصة بكل مسجد ، تبعا

(١) لا شك فى أن معظم العقود فى بيوت الصلاة فى مساجد المغرب والأندلس قد أقيمت عمودية على جدار القبلة . ولكن هذه الظاهرة لا تعتبر قاعدة عامة ، إذ أن العقود فى مسجد سوسة ، مثلا ، قد صفت فى الاتجاهين معا ، موازية وعمودية على جدار القبلة . هذا وقد أوضحت الحكمة العملية من بناء العقود عمودية على جدار القبلة فى صفحة ٧٧ من كتابى « المسجد الجامع بالقيروان » .

لبرنامج إنشائه . ولا يوجد مسجدان من المساجد التي استعرضناها تتفق فيهما نسبة مساحة بيت الصلاة إلى مساحة الصحن (١) .

وللصحن ، عادة ، مجنبات تحيط به من جهاته الثلاثة . وتسمى المجنبة الشمالية ، وهى المقابلة لبيت الصلاة ، مؤخر المسجد . ومن المساجد ما لم يكن لها أول الأمر مؤخر ولا مجنبات . مثل مساجد الكوفة والقيروان والزيتونة وقرطبة والمسجد الأقصى . وقد كان للصحن فى مسجد الرسول بالمدينة مؤخر ، أو ظلة ، تقابل ظلة بيت الصلاة وكانت تسمى السقايف الشامية . وقد يضاف إلى بيت الصلاة أسكوب من جهة الصحن ، فيكون منه بمثابة مجنبة . وهذا ما حدث فى مسجد القيروان ، إذ أن الأمير ابراهيم ابن أحمد الأغلب أحاط الصحن فى سنة ٢٦١ (٨٧٥م) بمجنبة من كل جهة ، أى بأربع مجنبات .

وقد تكون المجنبة من رواق واحد ، مثل ما يشاهد فى مساجد دمشق وواسط وحران وسوسة الجامع ، أو من رواقين مثل الكوفة والقيروان واسكاف بن جنيد وبغداد وأبى دلف وابن طولون ، وقد يزداد عدد الأروقة فى المجنبة الواحدة عن اثنين ، فكان عددها فى المسجد النبوى ثلاثة من ناحية الشرق وأربعة من ناحية الغرب ، وكان عددها أربعة فى سامراء ، وخمسة فى مسجد عمرو . والغالب أن يتحد عدد الأروقة فى مجنبات الصحن فى المسجد الواحد ، غير أن من المساجد ما زاد عدد أروقة مؤخره عن عددها فى مجنبتى الصحن ، كما كان الحال فى المسجد النبوى وفى مسجد عمرو ، ومنها ما قل عدد أروقة مؤخره عنه فى كل من مجنبتيه ، كما كان الحال فى سامراء .

وقد ظن بعض المستشرقين أن اتساع مؤخر المسجد ظاهرة غير طبيعية فى التخطيط ، تجعل المسجد ذا بيتين للصلاة . وهذا يدل على عدم إدراك

---

(١) كانت مساحة الصحن فى كل من مساجد المدينة والكوفة وواسط وسامراء ضعف مساحة بيت الصلاة فى كل منها ، وهى أكثر من الضعف فى مسجد ابن طولون ، وكانت تبلغ ضعف مساحة بيت الصلاة مرة ونصف مرة فى دمشق وبغداد والرقة والزيتونة ، وضعفها مرتين فى مسجد القيروان ، وثلاث مرات فى مسجد أبى دلف ، ولكنها كانت فى مسجد عمرو أقل من نصف مساحة بيت الصلاة .

هؤلاء المستشرقين لوظائف عناصر المسجد ، إذ أن مؤخر المسجد والصحن والمجنبات ، هي بيوت للصلاة ، مثلها وحكمها جميعا مثل مقدم المسجد وحكمه ، فيها تؤدى الصلاة ، وتقام صلاة الجمعة .

وكانت المساجد تحاط بجدران سميكة مرتفعة ، بحيث تحول دون تسرب الضوضاء الخارجية إلى داخل المسجد ، ولهذا كان يراعى فى المساجد الأولى ألاتفتح أبواب أو نوافذ فى جدران بيت الصلاة ، وإذا فتحت فيها ، كان ذلك للضرورة القصوى ، وفى أضيق الحدود . ثم روئى أن تفتح فى هذه الجدران نوافذ لزيادة إضاءة بيوت الصلاة ، ولكنه روعى أن تكون هذه النوافذ مرتفعة ، بعيدة عن مرمى النظر الخارجى .

وللمساجد الجامعة أبواب مفتوحة فى جدرانها تختلف عددها تبعا لمساحة المسجد من جهة ، ولموقعه من العمران من جهة أخرى . وليس صحيحا ما ادعاه بعض المستشرقين من أنه كان يراعى فى تخطيط المسجد أن يكون له ثلاثة أبواب ، واحد فى منتصف جدار مؤخره ، مقابلا للمحراب ، وواحد فى كل طرف من طرفى المحور الذى ينتصف الصحن ، من شرقيه إلى غربيه (١) . والواقع أنه لم يراع ، فى العصور الأولى ، غير مبدأ واحد ، هو ألا تفتح أبواب فى جدار القبلة (٢) . أما ماعدا ذلك فلم يكن له نظام ثابت أو قاعدة مرعية . وتكفى مراجعة الرسوم التخطيطية لتلك المساجد ، والفقرات الخاصة بوصف أبوابها فى الفصلين السابع والثامن من هذا المدخل ، للتأكد من ثبوت هذه الحقيقة . ومن المساجد

(١) يسمى (كريسويل) ذلك (Three axial entrances) « المداخل الثلاثة المحورية » ، صفحة ٣٠٢ من الجزء الأول من كتاب « العمارة الاسلامية » ، وصفحة ٨٠ و ٨١ من كتابه « المختصر » . وقد رأينا فيما سبق أن الادعاء بأن للمسجد محورا يمتد من المحراب إلى المؤخر عموديا على جدار القبلة ادعاء لا سند له من الواقع ، وكذلك ليس للمسجد أو للصحن محور يقسم كل منها إلى قسمين موازيين لجدار القبلة . وبديهى أنه إذا كان عدد الأبواب فى المساجد يختلف اختلافا كبيرا ، من ٣ إلى ٤٣ ، فان قاعدة « المداخل الثلاثة المحورية » تصبح قاعدة وهمية .

(٢) ومع ذلك فان هذا المبدأ لم يحترم فى جميع الأحوال ، وكان بمسجد ابن طولون باب مفتوح فى جدار القبلة بالقرب من المحراب يؤدى إلى دار الامارة .

ما كان له بابان اثنان فقط ، ومنها ما كانت له ثلاثة أو خمسة أو ستة أو سبعة أو تسعة أو أكثر . ولمسجد عمرو اثنا عشر بابا . وكان للمسجد النبوى فى القرن الرابع اثنان وعشرون بابا . وجملة عدد أبواب مسجد ابن طولون وزياداته اثنان وأربعون بابا .

وكان تخطيط المسجد يشمل أسس المئذنة . وقد أشرت فى الفصل السابق إلى مئذنة مسجد الرسول بالمدينة ، وإلى أن بلال الحبشى كان يدعو إلى الصلاة والآذان فى الناس من فوق السطح فى أول الأمر ، ثم من فوق مئذنة مربعة . واختلفت الآراء فى اشتقاق شكل المئذنة . واندثرت المآذن الأولى ولا تعرف أشكالها . وأقدم مئذنة قائمة معروفة هى مئذنة المسجد الجامع بالقيروان ، وهى التى أقيمت فى عهد هشام بن عبد الملك ، سنة ١٠٥ (٧٢٤م) (١) .

ولم توضع كذلك قاعدة ثابتة لموضع المئذنة من المسجد ، أو لعدد المآذن فيه . وأقيمت المئذنة فى بعض المساجد فى منتصف جدار المؤخر . وفى البعض الآخر ، فى الركن الشرقى أو الغربى من هذا الجدار . ولم تكن معظم المساجد الأولى تحوى كل منها غير مئذنة واحدة . وقد رأينا أنه كان لمسجد عمرو أربع مآذن ، بناها مسلمة بن خالد فى سنة ٥٣ (٦٧٢م) (٢) . وكذلك كان المسجد النبوى فى عهد المهدى أربع مآذن .

وأخيراً اشتملت بعض المساجد على زيادات . مثل مساجد سوسة وعمرو وسامراء وابن طولون . وهذه الزيادات خارجة عن جدران المسجد ، ولكنها تعتبر داخلة فى تخطيطه ، وعنصرا من عناصره . وهو عنصر ، إن كانت الحاجة قد دعت إليه رغبة فى إيواء أكبر عدد من المصلين عند أداء صلاة الجمعة ، بدلا من أن يؤدوها فى الطرقات خارج المسجد ، إلا أن تحقيق ذلك لم يكن أمرا ميسرا ، وكان من الصعب تزويد المساجد بزيادات

(١) تنظر صفحة ٢٠٧ فيما سبق ، وصفحات ١١٠ إلى ١١٢ من كتابى « المسجد الجامع القيروان » .

(٢) تنظر ما قبل ، صفحة ٦٨ ، والمقريزى ، « خطط » ، جزء ثان ، صفحة ٢٤٨ ، والسيد محمود عبد العزيز سالم ، « المآذن المصرية » ، القاهرة ١٩٥٩ .

بعد تشييدها واتصال العمران بها . ولهذا اقتصرت الزيادات على بعض المساجد الكبرى التي اتسع الفضاء حولها ، والتي روعي في تخطيطها الأول إضافة هذا العنصر إليها .

ويضيف بعض الكتاب عناصر أخرى إلى بناء المسجد وتخطيطه ، مثل المنبر والمقصورة وكراسي الشمع (١) . ولكن هذه العناصر ملحقات للبناء ، وأثاث فيه ، ومعظمها صنع من الخشب ، وبالرغم من أن المنابر والمقاصير كانت في أغلب الأحيان تثبت في مواضعها إلا أنها لا تدخل في باب التخطيط ، ولا يتأثر التخطيط بها . فيما عدا ما ذكرته من أن إقامة المنبر بجوار المحراب كان من العوامل التي أدت إلى اتساع أسكوب المحراب في بعض المساجد (٢) . وكذلك روعي في بعض المساجد المغربية أن يكون المنبر متنقلا ، يحفظ طوال أيام الأسبوع في قاعة مغلقة صغيرة بجوار المحراب ، ويخرج منها إلى موضعه في أسكوب المحراب ، أيام الجمع والأعياد.

* * *

نستخلص من البحوث التي استعرضنا نتائجها في هذا الفصل ، وفي الفصول الأربعة السابقة ، أن تخطيط المسجد الجامع نظام أصيل في تاريخ العمارة وأنه استحدث في السنة الأولى من الهجرة ، فلم يكن معروفا قبل الأسلام ، ولا في غير الدولة العربية .

(١) قيل إن أول من عمل المنبر هو « تميم الداري ، عمله للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان «قد رأى منابر الكنائس بالشام». ينظر، القلقشندي، «صبح الأعشى»، جزء أول ، صفحة ٤٢١ . يراجع ما ذكرته في الفصل التاسع من هذا المدخل عن المنبر والمقصورة . وكان بمسجد الرسول بالمدينة كرسي معروف بكرسي الشمعة ، وهو الذي كانت توضع عليه الشمع للاضاءة ليلا ، ينظر السمهودي « وفاء الوفى » الجزء الأول صفحة ٣١١ .

(٢) ينظر ما قبله صفحة ٣٠٧ . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في المسجد أول الأمر إلى جذع نخلة ، وروى الرواة روايات كثيرة عن « حنين » هذا الجذع ، لما هجرها الرسول إلى المنبر ، كما رووا روايات مختلفة عن صانع المنبر وصاحبه أو صاحبته .

ونستخلص كذلك أنه كان يراعى قبل تخطيط المسجد الجامع أن يكون موقعه وسط العمران وأن تكون مساحته شاسعة .

ونستخلص أخيرا أن هذا التخطيط كان يخضع لأربعة مبادىء ثابتة ، هى :

أولا — يتخذ جدار القبلة قاعدة للتخطيط . وهو منها بمثابة المحور .

ثانيا — تخط أسس بيت الصلاة صفوفا موازية لجدار القبلة . بحيث تقسم هذا البيت إلى أساكيب . وذلك سواء كانت العقود التى تمتطى الأعمدة أو الدعامات موازية لهذا الجدار أو عمودية عليه .

ثالثا — يزود المسجد الجامع بصحن فسيح يطل عليه بيت الصلاة .

رابعا — يحاط بيت الصلاة والصحن بجدران سميكة تحصر المسجد الجامع فى حدود مربعة أو شبيهة بالمربع ، أو قريبة منه .

وإذا كان نظام هذا التخطيط قد استقر على أن يكون للمسجد بيت للصلاة فيه أساكيب وبلاطات . وصحن تحيط به مؤخر ومجنبات ، وجدران تفتح فيها أبواب ، ومآذن وزيادات ، إلا أنه فيما عدا هذه المبادىء الأربعة ، لم توضع قواعد ثابتة لتفاصيل هذا التخطيط ، سواء من حيث مساحة بيت الصلاة ، أو عدد الأساكيب والبلاطات فيه ، أو موضع المحراب منه . وسواء من حيث مساحة الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ، أو من حيث إحاطة هذا الصحن بمجنبات ، أو من حيث عدد أروقة المؤخر والمجنبات . ولم توضع قواعد ثابتة لطريقة تسقيف بيت الصلاة ، ولاتجاه العقود فيه ، واتخاذ الدعامات أو الأعمدة لرفعها . ولم يتخذ نظام ثابت لعدد الأبواب فى المسجد أو المآذن ، أو لتحديد مواضعها . وقد كان بناة المساجد الجامعة يحددون هذه التفاصيل وفقاً للظروف المادية والاجتماعية التى كان كل منهم يواجهها عند إنشاء المسجد . ولا يلتزمون بغير تلك المبادىء الأربعة التى تحددت فى المسجد النبوى بالمدينة ، وفى عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

تصويب

يأسف المؤلف لوقوع بعض الأخطاء المطبعية التي لم يستطع استدراكها قبل الطبع، ويرجوا أن يفطن القارىء إليها ، خاصة وأن معظمها اقتصر على حرف من كلمة ، أغفل أو زيد أو استبدل به حرف آخر شبيه له ، مثل ما وقع فى صفحة ٨ ، سطر ١٦ ، إذ طبعت (يوصمها) بدلا من (يصممها) ؛أو فى صفحة ٢٦ ،سطر ١٢ ، (التى) بدلا من (الذى) ؛ وفى صفحة ٥٧ ،سطر ١ ، (لعمل) بدلا من (لعل) ؛ وفى صفحة ٢٣٢ ، سطر ٥ ،(مائتى) بدلا من (مائتا) ؛ وفى صفحة ٢٥٦ ، سطر ٢٢ ، (حدوده) بدلا من (حدودها) و (١١٠) بدلا من (١١١)؛ وفى صفحة ٢٧٠ ، سطر ٢ ،(مختلفة) بدلا من (مختلقة)؛ وفى صفحات ٢٠٠ ، سطر ١٥ و ٢٠٢ ، سطر ١ و ٢٠٣ سطر ١٦ و ٢٨١ سطر ١٤ ؛ (سعد بن وقاص) بدلا من (سعد بن أبى وقاص) .

ويعتذر المؤلف عن السهو الذى أوقعه فى الأخطاء التالية :

صفحة	٥٧	سطر	١٤	(الناسخين)	وصحتها	(النساخ)	.
«	٩٣	«	٢٢	(الصفحة التالية)	«	(صفحة ١٠٠)	؛
«	١١٠	«	١٦	(١١ مترا)	«	(١٩ مترا)	؛
«	١١٤	«	٨	(ثلاثين)	«	(ثمانين)	،
«	١٧٧	«	١٤	(الصفحة التالية)	«	(صفحة ١٨٠)	؛
«	٢٠٧	«	١٩	(جدران)	«	(جدار)	؛
«	٢١٨	«	١٨	(بكل دعامة)	«	(بكل بائكة)	؛
«	٢٤٢	«	١٣	(مسجد قائم)	«	(مسجد عتيق قائم)	؛
«	٢٥٦	«	٢٠	(قدم جدار القبلة)	«	(من جهة الصحن)	.

بيان مفصل بأسماء الكتب والبحوث المشار إليها في صفحات المدخل

(١) — القرآن الكريم .

(٢) — ابن الأثير (على أحمد أبن أبي الكرم ، المتوفى سنة ٦٣٠ — ١٢٣٨م) ، «الكامل في التاريخ » . ١٤ جزءا ، طبع ليدن ، ١٨٦٢ — ١٨٧٦ .

(٣) — ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي . المتوفى سنة ٧٧٩ — ١٣٧٧م) ، « رحلة » . نشر دار صادر . بيروت . سنة ١٩٦٠ .

(٤) — ابن جبير (المتوفى سنة ٥٩٩ — ١٢٠٢ م) . « رحلة » . نشر الدكتور حسين نصار ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ .

(٥) — ابن الخطيب (الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، المشهور بابن الخطيب ، والمتوفى سنة ٤٦٣ — ١٠٧١ م) ، « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ، ١٤ جزءا ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة ، سنة ١٩٣١ .

(٦) — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي . المتوفى سنة ٨٠٨ — ١٤٠٥م) . مقدمة كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » المشهور باسم «مقدمة ابن خلدون» ، تمهيد وتحقيق وشرح الدكتور عبد الواحد وافي . ٣ أجزاء . طبع لجنة البيان العربي ، القاهرة . ١٩٥٧ — ١٩٦٠ . (والجزء الرابع والأخير تحت الطبع) .

(٧)—————، « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » . ٧ أجزاء . طبع القاهرة . ١٢٨٤ هجرية (١٨٧٠ م) .

(٨) — ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان . المتوفى سنة ٦٨١ — ١٢٨٢ م) . « وفيات الأعيان وأنباء الزمان » . ٤ أجزاء . طبع المطبعة الأميرية ، القاهرة سنة ١٢٧٥ (١٨٥٩م) .

(٩) — ابن دقماق (إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى الشهير بابن دقماق ، والمتوفى حوالى سنة ٧٩٧ — ١٣٩٩ م) ، « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، الجزآن الرابع والخامس طبع المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٣٠٩ (١٨٩٢) .

(١٠) — ابن رسته (أحمد بن عمر أبو على المشهور بابن رسته ، المتوفى سنة ٢٩٠ — ٩٠٣ م) ، « كتاب الأعلاق النفيسة » ، (الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية المطبوعة بإشراف ده جوخه) ، ليدن ، ١٨٩١ .

(١١) — ابن سعد (محمد ، المتوفى سنة ٢٣٠ — ٨٤٤ م) ، « كتاب الطبقات الكبرى فى السيرة الشريفة النبوية » ، ٩ أجزاء ، طبع ليدن ، ١٩٠٤ — ١٩١٢ .

(١٢) — ابن الطقطقى (محمد على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، والمتوفى سنة ٧٠٩—١٣٠٩ م) ، « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » ، طبع القاهرة ، ١٩٢٣ .

(١٣) — ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد ، المتوفى فى نهاية القرن السابع — الثالث عشر الميلادى) ، « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ، جزآن ، نشر وتحقيق (كولان) و (بروفنسال) ، ليدن ، ١٩٤٨ .

(١٤) — ابن قتيبه (أبو محمد عبد الله بن مسلم ، المتوفى سنة ٢٧٦ — ٨٨٩ م) ، « كتاب المعارف » ، طبع القاهرة ، سنة ١٩٣٤ .

(١٥) — ابن النجار (المتوفى سنة ٦٤٣ — ١٢٤٤ م) ، « كتاب الدرة الثمينة فى أخبار المدينة » ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية فى باريس ، رقم ١٦٣٠ عربى .

(١٦) — ابن هشام (أبو محمد عبد الملك ، المتوفى سنة ٢١٨ — ٨٣٣م) ، « كتاب سيرة رسول الله صلى عليه وسلم » ، ٣ أجزاء ، طبع وستنفلد (جوتنجن) ، سنة ١٨٥٨ .

(١٧) أبو الفدا (اسماعيل بن على عماد الدين ، صاحب حماه ، المتوفى سنة ٧٣٢ — ١٣٣١ م) ، « المختصر فى تاريخ البشر » ، ٤ أجزاء ، طبع القاهرة ، ١٨٩٩ .

(١٨) — أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، المتوفى سنة ٨٧٤ — ١٤٦٩م) ، « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» ، صدر منه ١١ جزءا ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٦٠ .

(١٩) — أحمد (محمود أحمد) ، «جامع عمرو بن العاص» ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

(٢٠) — بدر (الدكتور مصطفى طه) : « مصر الإسلامية من الفتح الأسلامى حتى زوال الدولة الأخشيدية » ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٤ .

(٢١) — (برانجى) ، « الآثار العربية فى قرطبة وإشبيليه وغرناطه » :

PRANGEY (Girault De), *Monuments arabes et moresques de Cordoue, Séville et Grenade*, Paris, 1839.

(٢٢) ———— ، « الآثار العربية فى مصر والشام وآسيا الصغرى » :

————, *Monuments arabes d'Egypte, de Syrie et d'Asie Mineure*, Paris, 1846.

(٢٣) — (بريجز) ، « العمارة المحمدية » :

BRIGGS (M. S.), *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine*, Oxford, Clarendon Press, 1924.

(٢٤) ———— ، فصل « العمارة » فى « تراث الاسلام » :

————, « *Architecture* » in « *Legacy of Islam* », by Christie, Arnold and Briggs, Oxford, 1947.

(٢٥) — (بريس دافن) ، « الفن العربى عن آثار القاهرة » :

PRISSE D'AVENNES, *L'Art arabe d'après les monuments du Kaire*, Paris, 1879.

(٢٦) — البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز ، المتوفى سنة ٤٨٧ — ١٠٩٧ م) ، « كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، جزء من كتاب « المسالك والممالك » ، طبع (ده سلان) ، باريس ، ١٩١١ .

(٢٧) — (بل) ، « الأخيضر » :

BELL (Gertrude L.), *Palace and Mosque at Ukhaidir*, Oxford, 1914.

(٢٨) — البلاذرى (الامام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، والمتوفى سنة ٢٧٩ — ٨٩٢ م) ، « كتاب فتوح البلدان » ، طبع ليدن ، سنة ١٨٦٦ .

(٢٩) — البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني ، المتوفى حوالى سنة ٣٣٤ — ٩٤٥ م) ، « سيرة أحمد بن طولون » ، طبع دمشق ، سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩م) .

(٣٠) — (بوب) ، « عمارة العصر الاسلامى » :

POPE, « *The Architecture of the Islamic Period - A. Introduction* », in POPE, Survey of Persian Art, Vol.II, Oxford, 1939.

(٣١) — (بوتى) ، « تطور شكل التاء فى نظام المساجد » :

PAUTY (Edmond), *L'Evolution du Dispositif en T. dans les Mosquées à portiques*, Bulletin d'Etudes Orientales, Institut Français de Damas, Tome II, 1932, pp. 91 - 124.

(٣٢) — (بورجوان) ، « الفنون العربية » :

BOURGOIN (Jules), *Les Arts arabes*, Paris, 1873.

(٣٣) ———— ، « موجز الفن العربى » :

————, *Précis de l'Art arabe*, Paris, 1892.

(٣٤) — (بوكوك) ، « وصف بلاد المشرق » :

POCOCKE, *A Description of the East and Some Other Countries*, Vol. I, London, 1743.

(٣٥) — (تراس) ، « الفن الأسبانى المغربى » :

TERRASSE (Henri), *L'Art Hispano-Mauresque des Origines au XIIIe siècle*, Paris, 1933.

(٣٦) — (جاييه) ، « الفن العربى » :

GAYET (Albert), *L'Art Arabe*, Paris, 1893.

(٣٧) — الجبرتى (عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، المتوفى سنة ١٢٤٠ — ١٨٢٣ م) ، « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، ٤ أجزاء ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٢٩٧ (١٨٨١ م) .

(٣٨) — (جرابار) ، « قبة الصخرة » :

GRABAR (Oleg), *The Umayyad Dome of the Rock in Jerusalem*, Ars Orientalis, Vol. II, 1959. pp. 33 - 62.

(٣٩) — جمعه (دكتور ابراهيم جمعة) ، « قصة الكتابة العربية » ، رقم ٥٢ من مجموعة « اقرأ » دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٤٧ .

(٤٠) — (جوميث مورينو) ، « الفن العربى الأسبانى » :
GOMEZ - MORENO (Manuel), *El Arte Arabe Espanol hasta los Almohades - Arte Mozarabe* — Vol. III, Ars Hispaniae, Historia Universal del Art hispanico, Madrid, 1951.

(٤١) — (جومار) — « وصف مدينة القاهرة وقلعتها » :
JOMARD, *Description abrégée de la ville et de la citadelle du Kaire*, Description de l'Egypte, *Etat moderne*, II, Paris, 1822.

(٤٢) — حسن (المرحوم زكى محمد) : ترجمة الجزء الثانى من كتاب « تراث الاسلام » ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٣٦ .

(٤٣) — حسن (الدكتور على ابراهيم) ، « مصر فى العصور الوسطى » ، مكتبة النهضة ، ١٩٤٧ .

(٤٤) — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، المتوفى فى نهاية القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر الميلادى) . « الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، نشره (ليڤى بروفنسال) جزئيا تحت عنوان « صفة جزيرة الأندلس » ، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة . ١٩٣٧ .

(٤٥) — خسرو (ناصر) : « سفر نامة » ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

(٤٦) — (دوسوه) : « معبد جوبيتر الدمشقى » :
DUSSAUD (R), *Le Temple de Jupiter Damascénien*, Syria, Vol. III, 1922.

(٤٧) — (ديكى) و (سبيرز) : « المسجد الأموى بدمشق » :
DICKIE and SPIERS (Phene), *The Great Mosque of the Omeiyades*, Damascus, 1897.

(٤٨) — (ديماند) . « الفنون الأسلامية » :
DIMAND (M.S.), *A handbook of Muhammadan Art*, Metropolitan Museum of Art, New-York, 1947.

(٤٩) — (ديهل) : « الفن البيزنطى » :
DIEHL (Charles), *Manuel d'Art Byzantin*, Paris, 1910.

(٥٠) — (ديولافوا) : « مساجد فارسية » .
DIEULAFOY (Marcel), in *Mélanges Hartwig Derenberg*, Paris, 1909.

(٥١) — (ديولافوا) ، « مسجد حسن » :

DIEULAFOY, *La mosquée de Hassan*, Mémoire de l'Academie des Inscriptions et Belles Lettres, Vol. XLII, Paris, 1919.

(٥٢) — ———— ، « أسبانيا والبرتغال » :

————, *Espagne et Portugal*, Collection Ars Una, Paris, Hachette, 1921.

(٥٣) — (ديز) ، « تاريخ التقدم الأسلامى » :

DIEZ (Ernst), *Die Kunst der Islamischen Volker*, Berlin, 1915.

(٥٤) — ———— ، « المسجد » فى « دائرة المعارف الأسلامية » :

————, Art. *Masdjid*, Encyclopédie de l'Islam, T. III, pp. 430 - 442.

(٥٥) — ———— ، « العمارة الأسلامية » :

————, *Islamic Architecture, B, Principles and Types, in* POPE, Survey of Persian Art, Vol. II, pp.916 - 929,

(٥٦) — الرفاعى (أحمد فريد) ، « عصر المأمون » ، ٣ أجزاء ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٨ .

(٥٧) — رفعت (ابراهيم رفعت باشا) — مرآة الحرمين ، جزآن ، طبع القاهرة ، ١٩٢٥ .

(٥٨) — (ريشموند) ، « العمارة الأسلامية » :

RICHMOND, *Moslem Architecture*, London, 1926.

(٥٩) — (زاره) و (هرتزفلد) ، « نزهة أثرية » :

SARRE und HERZFELD, *Archaologishe Reise Im Euphrat und Tigris*, 4 vols., Berlin, 1911 - 1920.

(٦٠) — سالم (الدكتور السيد محمود عبد العزيز) ، « المآذن المصرية — نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى » المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

———— (سبيرز) ، ينظر (ديكى) .

(٦١) — سفر (فؤاد) ، « واسط » ، مطبوعات مديرية الآثار القديمة ، الحكومة العراقية ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

(٦٢) — سفر (فؤاد) ، « التحريات الأثرية فى مناطق مشاريع الرى الكبرى بالعراق » ، مقال فى الجزء الأول والثانى من المجلد السادس عشر من مجلة (سومر) ، مديرية الآثار العامة للجمهورية العراقية : بغداد ، سنة ١٩٦٠ ، صفحات ٣ إلى ١٢ .

(٦٣) — (سلادان) ، « مسجد سيدى عقبة » :

SALADIN (Henri), *La Mosquée de Sidi Okba à Kairouan*, Paris, 1899.

(٦٤) — السمهودى (نور الدين على بن أحمد ، المتوفى سنة ٩١١ — ١٥٠٦ م) ، « وفاء الوفى بأخبار دار المصطفى » ، جزآن : مطبعة الآداب والمؤيد ، القاهرة ، سنة ١٣٢٦ (١٩٠٩ م) .

(٦٥) — ——— ، « خلاصة الوفى بأخبار دار المصطفى » ، دار الطباعة بمصر ، ١٢٨٥ (١٨٦٩ م) .

(٦٦) — (سوفاجيه) ، « الكتابات العربية فى مسجد البصرى » :

SAUVAGET (Jean), *Les Inscriptions arabes de la Mosquée de Bosra*, Syria, Tome XXII, pp. 53-65, Paris, Geuthner, 1941.

(٦٧) — ——— ، « المسجد الأموى بالمدينة » :

———, *La Mosquée Omeyyade de Médine*, Paris, 1947.

——— ، وينظر (كومب) .

———, Voir COMBE.

(٦٨) — (شاخت) ، « أنموذج لمئذنة عتيقة » :

SCHACHT (Joseph), *Ein Archaisher Minaret Typ*, in Ars Islamica, Vol. V, Part 1, 1938, pp. 52 - 54.

(٦٩) — شافعى (دكتور فريد شافعى) ، « الأخشاب المزخرفة فى الطراز الأموى » ، مقال فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع عشر : الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥٢ .

(٧٠) — ——— ، « محراب فاطمى فى المسجد الطولونى » :

SHAFII (Farid), *An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun*. Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, Vol. XV Part I, 1953.

——— (شترزجوفسكى) ، ينظر (فان برشم)
STRZYGOWSKI (J.), Voir VAN - BERCHEM.

(٧١) — (شرودر) ، « العمارة الاسلامية » :
SCHROEDER (Eric), *Islamic Architecture — C — Standing Monuments of the First Period*, in POPE, Survey of Persian Art, Vol. II, Oxford, 1939, pp. 930 - 966.

(٧٢) — الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ، المتوفى سنة ٣١٠ — ٩٢٢ م) ، « تاريخ الرسل والملوك » ، ١١ جزءا ، طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة ، سنة ١٣٥٦ (١٩٠٨ م) .

(٧٣) — عكوش (محمود عكوش) ، « تاريخ ووصف الجامع الطولونى » ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٧ .

(٧٤) — ——— ، « مصادر العمارة الاسلامية » :
AKKOUCH (Mahmoud), *Contribution à une étude des Origines de l'Architecture Musulmane, La Grande Mosquée de Médine*, Mélanges Maspero, pp. 377 - 410, Tome LXVIII. Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, 1940.

(٧٥) — العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل ، المتوفى سنة ٧٤٢ — ١٣٤١ م) ، « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، الجزء الأول ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

(٧٦) — عيسى (أحمد محمد) ، ترجمة كتاب « الفنون الأسلامية » لمؤلفه م . ديماند ، طبع مؤسسة فرانكلين ودار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٤ .

(٧٧) — (فان برشم) ، « مذكرات فى العمارة العربية » :
VAN - BERCHEM (Max), *Notes d'Archéologie Arabe*, Journal Asiatique, 8' série, Tomes XVII, XIX, Paris, 1891.

(٧٨) — ——— ، « العمارة » فى « دائرة المعارف الاسلامية » :
———, *Art. Architecture*, Encyclopédie de l'Islam , Tome I, p. 429.

(٧٩) — (فان برشم) و (شترزجوفسكى) ، « أميده » :
VAN - BERCHEM & STRZYGOWSKI, *Amida*, Heidelberg, 1910.

(٨٠) — (فتزنجر) و (فلزنجر) ، « دمشق » :
WATZINGER und WULZINGER, *Damascus*, 1921 - 1924.

(٨١) — فخرى (دكتور أحمد فخرى) ، « أحدث الاكتشافات الأثرية فى اليمن » ، صفحة ٢٥٥ إلى ٢٨٢ من « المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية — فاس ١٩٥٩ » ، مطبوعات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦١ .

(٨٢) — فكرى (دكتور أحمد فكرى) ، « المسجد الجامع بالقيروان » مطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٣٦ .

(٨٣) — ـــــــ ، « ماشاء الله » ، مقال فى مجلة الكتاب المصرى ، مجلد ١ ، عدد ٤ ، يناير ١٩٤٦ ، صفحة ٥٦٩ إلى ٥٧٦ .

(٨٤) — ـــــــ ، « العمارة فى الأندلس » ، مقال فى مجلة الكاتب المصرى ، مجلد ٢ ، عدد ٥ ، فبراير ١٩٤٦ ، صفحة ١٠٩ إلى ١١٧ .

(٨٥) — ـــــــ ، « بدعة المحاريب » ، مقال فى مجلة الكاتب المصرى ، المجلد الرابع ، عدد ١٤ ، نوفمبر ١٩٤٦ ، صفحة ٣٠٦ إلى ٣٢٠ .

(٨٦) — ـــــــ ، « خطرات فى الفنون الجميلة » ، مقال فى مجلة الكاتب المصرى ، مجلد ٥ ، عدد ١٧ ، فبراير ١٩٤٧ ، صفحة ١٢٩ إلى ١٤٠ .

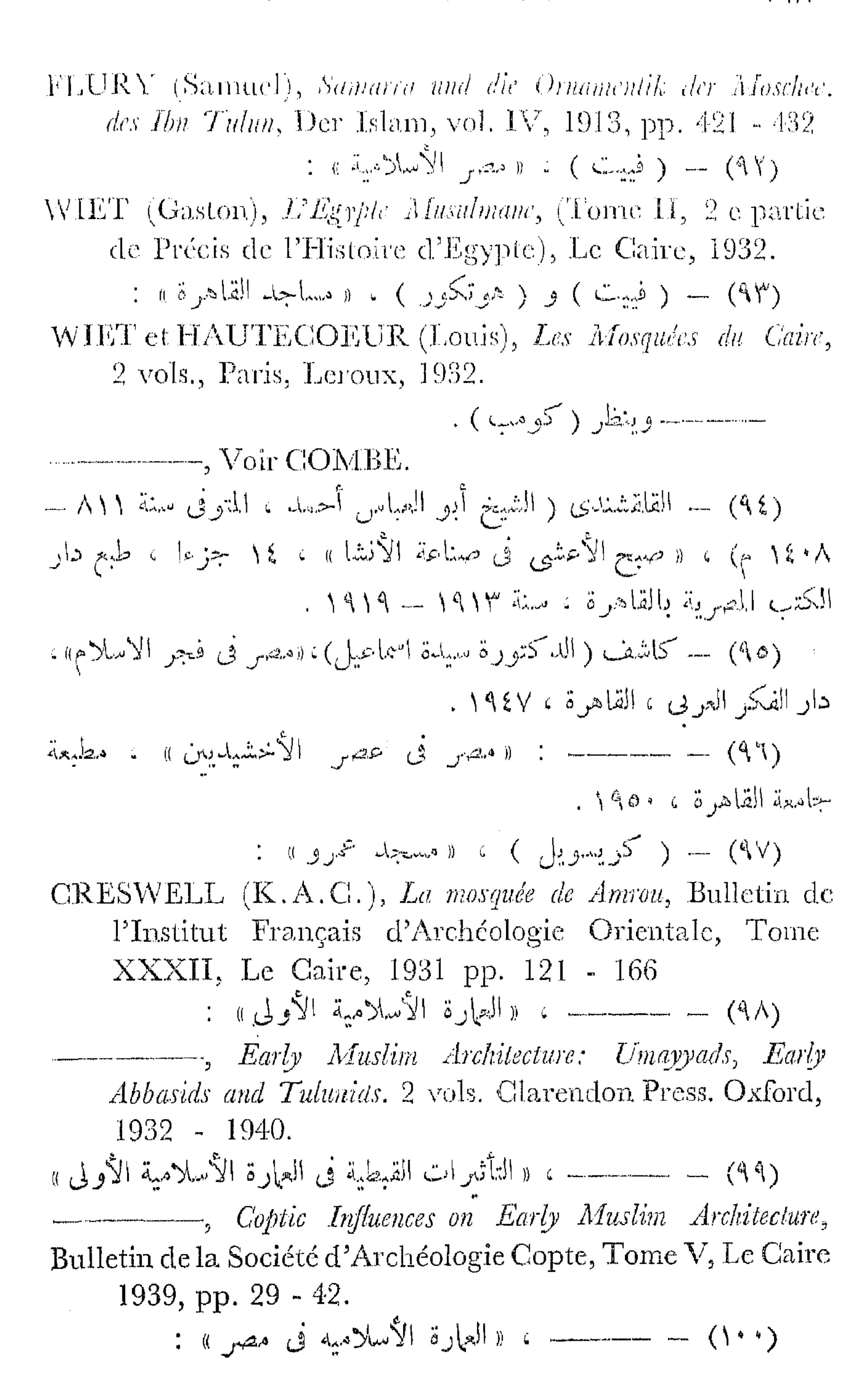
(٨٧) — ـــــــ « مسجد الزيتونة الجامع فى تونس » ، مقال فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، سنة ١٩٥٢ .

(٨٨) — ـــــــ ، « تصدير » للترجمة العربية لكتاب « الفنون الأسلامية » ، تأليف ديماند ، طبع مؤسسة فرانكلين ودار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٤ .

(٨٩) — ـــــــ ، « عوامل الوحدة فى الآثار الأسلامية بالبلاد العربية » ، صفحة ٢٦٧ إلى ٢٧٣ من « المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية — فاس ١٩٥٩ » ، مطبوعات جامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦١ .

(٩٠) — ـــــــ ، « التأثيرات الأسلامية » :
FIKRY (Ahmad), *L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques*, Paris, Leroux, 1934.

(٩١) — (فلورى) ، « سامراء وزخارف مسجد ابن طولون » :



FLURY (Samuel), *Samarra und die Ornamentik der Moschee. des Ibn Tulun*, Der Islam, vol. IV, 1913, pp. 421 - 432

(٩٢) — (فييت) : « مصر الأسلامية » :

WIET (Gaston), *L'Egypte Musulmane*, (Tome II, 2 e partie de Précis de l'Histoire d'Egypte), Le Caire, 1932.

(٩٣) — (فييت) و (هوتكور) ، « مساجد القاهرة » :

WIET et HAUTECOEUR (Louis), *Les Mosquées du Caire*, 2 vols., Paris, Leroux, 1932.

———— وينظر (كومب) .

————, Voir COMBE.

(٩٤) — القلقشندى (الشيخ أبو العباس أحمد ، المتوفى سنة ٨١١ — ١٤٠٨ م) ، « صبح الأعشى فى صناعة الأنشا » ، ١٤ جزءا ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة : سنة ١٩١٣ — ١٩١٩ .

(٩٥) — كاشف (الدكتورة سيدة اسماعيل) : «مصر فى فجر الاسلام» ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

(٩٦) — ———— : «مصر فى عصر الأخشيديين» ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٠ .

(٩٧) — (كريسويل) ، « مسجد عمرو » :

CRESWELL (K.A.C.), *La mosquée de Amrou*, Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Tome XXXII, Le Caire, 1931 pp. 121 - 166

(٩٨) — ———— ، « العمارة الأسلامية الأولى » :

————, *Early Muslim Architecture: Umayyads, Early Abbasids and Tulunids*. 2 vols. Clarendon Press. Oxford, 1932 - 1940.

(٩٩) — ———— ، « التأثيرات القبطية فى العمارة الأسلامية الأولى »

————, *Coptic Influences on Early Muslim Architecture*, Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Tome V, Le Caire 1939, pp. 29 - 42.

(١٠٠) — ———— ، « العمارة الأسلاميه فى مصر » :

CRESWELL (K.A.C.), *Muslim Architecture of Egypt*. 2 vols. Clarendon Press, Oxford. 1952 - 1959.

(١٠١) — ——— ، « مختصر العمارة الأسلامية الأولى » :

———, *A Short Account of Early Muslim Architecture*. Penguin & Pelican Books, 1958.

(١٠٢) — الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف ، المتوفى سنة ٣٤٠ — ٩٦١ م) ، « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، طبع ليدن ، سنة ١٩٠٨ .

(١٠٣) — (كوربت) ، « تاريخ مسجد عمرو » :

CORBETT (E .R.), *The History of the Mosque of Amr at Old Cairo*, J. R. A. S., New Seris, Tome XXII, London, 1890, pp. 759 - 800.

(١٠٤) — (كوست) ، « العمارة العربية أو آثار القاهرة » :

COSTE (Pascal), *Architecture arabe ou monuments du Kaire*, Paris, 1839.

(١٠٥) — (كومب) و (سوفاجيه) و (فييت) ، « مرجع الكتابات العربية » :

COMBE, SAUVAGET & WIET, *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe*, 12 vols., Le Caire, 1931 - 1950.

(١٠٦) — (كوندر) ، « مدينة القدس » :

CONDER (Col. C. R.), *The City of Jerusalem*, London, 1909.

(١٠٧) — (كيتانى) ، « حوليات الأسلام » :

CAETANI, *Annali del Islam*, Milan, 1905 - 1909.

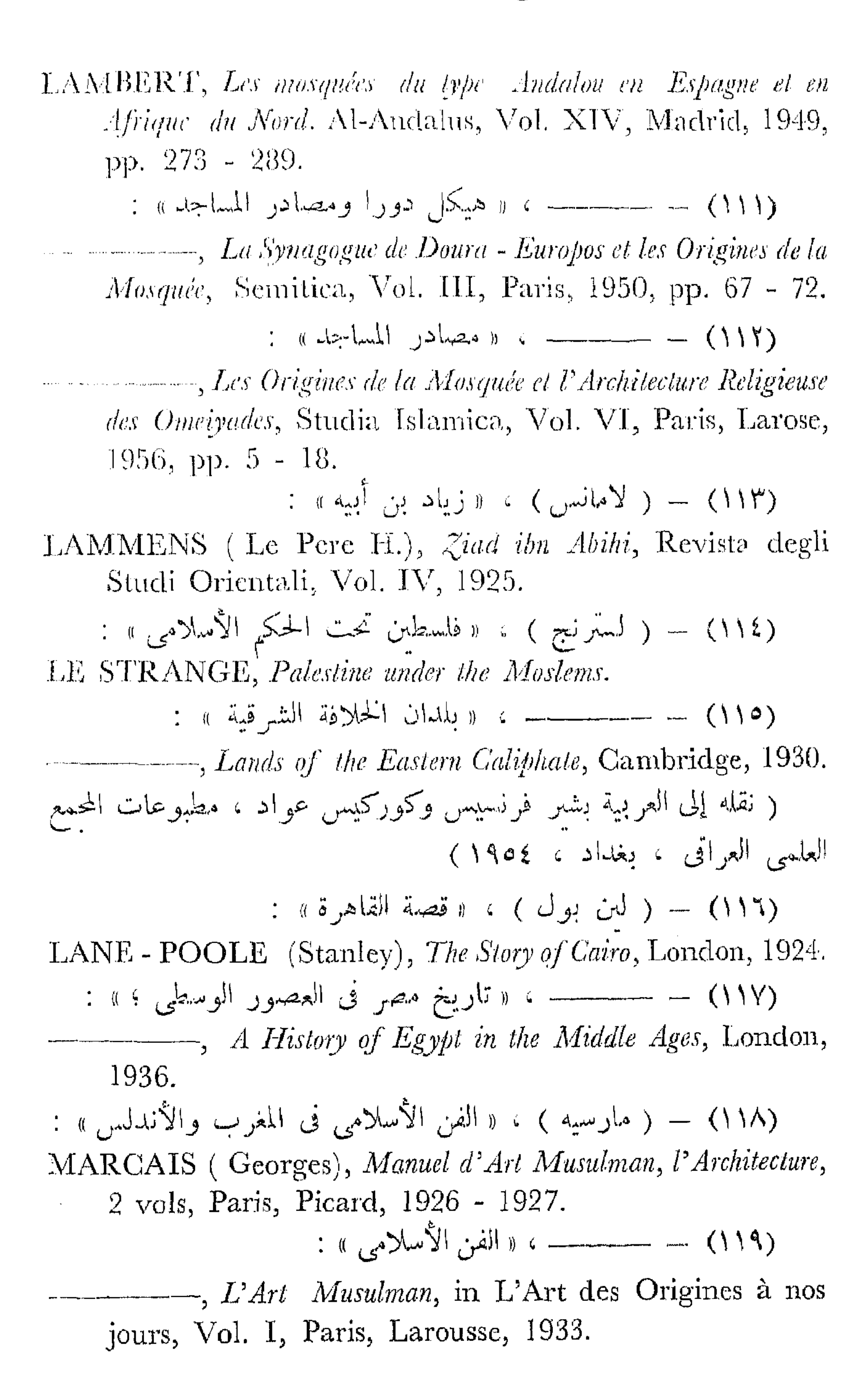
(١٠٨) — (لابورد) ، « دليل أسبانيا المصور » :

LABORDE (A. De), *Itinéraire Pittoresque de l'Espagne*, Paris, 1803.

(١٠٩) — (لامبير) ، « تاريخ مسجد قرطبة » :

LAMBERT (Elie), *Histoire de la Grande Mosquée de Cordoue*, Annales de L'Institut d'Etudes Orientales, T. II. Année 1936, pp. 165 - 179.

(١١٠) — ——— ، « المساجد الأسبانية فى المغرب » :



LAMBERT, *Les mosquées du type Andalou en Espagne et en Afrique du Nord.* Al-Andalus, Vol. XIV, Madrid, 1949, pp. 273 - 289.

(١١١) — ———— ، « هيكل دورا ومصادر المساجد » :

————, *La Synagogue de Doura - Europos et les Origines de la Mosquée,* Semitica, Vol. III, Paris, 1950, pp. 67 - 72.

(١١٢) — ———— ، « مصادر المساجد » :

————, *Les Origines de la Mosquée et l'Architecture Religieuse des Omeiyades,* Studia Islamica, Vol. VI, Paris, Larose, 1956, pp. 5 - 18.

(١١٣) — (لامانس) ، « زياد بن أبيه » :

LAMMENS (Le Pere H.), *Ziad ibn Abihi,* Revista degli Studi Orientali, Vol. IV, 1925.

(١١٤) — (لسترنج) ، « فلسطين تحت الحكم الأسلامى » :

LE STRANGE, *Palestine under the Moslems.*

(١١٥) — ———— ، « بلدان الخلافة الشرقية » :

————, *Lands of the Eastern Caliphate,* Cambridge, 1930.

(نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٩٥٤)

(١١٦) — (لين بول) ، « قصة القاهرة » :

LANE - POOLE (Stanley), *The Story of Cairo,* London, 1924.

(١١٧) — ———— ، « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » :

————, *A History of Egypt in the Middle Ages,* London, 1936.

(١١٨) — (مارسيه) ، « الفن الأسلامى فى المغرب والأندلس » :

MARCAIS (Georges), *Manuel d'Art Musulman, l'Architecture,* 2 vols, Paris, Picard, 1926 - 1927.

(١١٩) — ———— ، « الفن الأسلامى » :

————, *L'Art Musulman,* in L'Art des Origines à nos jours, Vol. I, Paris, Larousse, 1933.

(١٢٠) — (مارسيه) ، « العمارة الأسلامية فى الغرب » :
MARCAIS, *L'Architecture Musulmane d'Occident*, Paris, 1954.
(١٢١) — (ماسينيون) ، « الأخيضر » :
MASSIGNON (Louis), *Art. Ukhaidir*, Encyclopédie de l'Islam, T. IV, p. 147.
(١٢٢) — مبارك (على مبارك) ، « الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » ، ٢٠ جزءا ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٣٠٥ — ١٣٠٦ (١٨٨٨ — ١٨٨٩ م) .
(١٢٣) — مجهول «كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
(١٢٤) — مجير الدين (أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العمرى الحنبلى المقدسى العليمى ، المتوفى سنة ٩٢٨ — ١٥٢٢ م) ، « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ، جزآن ، طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٣ — ١٨٦٩ م . وهذا الكتاب منقول معظمه عن كتاب « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » لمؤلفه (شهاب الدين المقدسى المتوفى سنة ٧٦٥ — ١٣٦٤ م) .
(١٢٥) — المسعودى (أبو الحسن على ، المتوفى سنة ٣٦٦ — ٩٧٦م) ، « كتاب التنبيه والأشراف» ، طبع ليدن ، ١٨٩٣ .
(١٢٦) ، (١٢٧) — مطبوعات مصلحة الآثار القديمة فى العراق :
١ — الأخيضر » ، طبع بغداد ، سنة ١٩٣٧ .
٢ — « مسجد الكوفة » ، طبع بغداد ، سنة ١٩٤٠ .
(١٢٨) — المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى ، المعروف بالبشارى ، والمشهور بالمقدسى ، المتوفى سنة ٣٧٥ — ٩٨٥م) ، « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، جزآن ، طبع ليدن ، سنة ١٨٧٧ ، (الجزآن الثالث والرابع من المكتبة الجغرافية العربية).
(١٢٩) — المقرى (أحمد بن محمد ، المتوفى سنة ١٠٤١ — ١٦٣٣م) ، « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، ٤ أجزاء، طبع بولاق، ١٨٦٢.

(١٣٠) — المقريزى (الشيخ تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر) : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، فى مصر والقاهرة والنيل ، وما يتعلق بها من الأخبار » ، المشهور « بالخطط » ، جزآن ، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٢٧٠ (١٨٥٣م) .

(١٣١) — (مورفى) — « الآثار العربية فى أسبانيا » :

MURPHY (S.C.), *The Arabian Antiquities of Spain*, London, 1813.

(١٣٢) — النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، المتوفى سنة ٧٣٢ — ١٣٣١م) ، « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، صدرت جملة أجزاء ، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ، من سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٦٠.

(١٣٣) — (هافل) ، « العمارة الهندية » :

HAVELL (E.B.), *Indian Architecture, its psychology, structure and history from the first Muhammadan Invasion to the present day*. London, 1913.

(١٣٤) — (هاملتون) ، « تاريخ المسجد الأقصى » :

HAMILTON (R.W.), *The Structural History of the Aqsa Mosque*, London, E.C.4, 1949.

(١٣٥) — (هرتزفلد) ، « آثار سامراء » :

HERTZFELD (Ernst), *Erst vorlaufiger Bericht uber die Ausgrabunger von Samarra*, Berlin, 1912.

(١٣٦) — ——— ، « سامراء وزخارفها » :

———, *Der Wandschmuck der Bauten von Samarra und seine Ornamentik*, Berlin, 1923.

(١٣٧) — ——— ، « الحملة الثانية » :

———, *Mitteilung uber die Arbeiten du zweiten Kampagne von Samarra*, Der Islam. Vol. V, 1914, pp. 196-204.

— ——— وينظر (زاره) .

———, Voir (SARRE).

(١٣٨) — ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ، المتوفى سنة ٦٢٦ — ١٢٢٩م) ، « معجم البلدان » ، ٦ أجزاء ، طبع ليبزج سنة ١٨٦٦ . وطبع « المعجم » فى سنة ١٩٠٨ بالقاهرة فى عشرة أجزاء .

بيان الأشكال

صفحة

صفحة